النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0129059

النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء الرابع عشر [فهرس التسجيل]

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سلطنة الملك المظفر[1] [أحمد] ابن الملك المؤيَّد شيخ على مصر

السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد ابن السلطان الملك المؤيد أبي النَّصْر شيخ المحمودي الظاهري الجاركسي الجنس. تسلطن يوم مات أبوه الملك المؤيد شيخ، على مُضيّ خمس دَرَج من نصف نهار الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وعُمْرُه يوم بُويعَ بالمُلْك وجَلَس على سَرِير السلطنة سنةٌ واحدة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وهو السُّلْطَان التَّاسع والعشرون من ملوك التُّرْك وأولادهم، والخامس من الجراكسة، وأُمه خَوَنْد سَعادات بنت الأمير صَرْغَتْمُش [الناصري][2] أحد أمراء دِمَشْق، وهي إلى الآن في قَيْد الحياة.

ولَمَّا مات أبوه السلطان الملك المؤيَّد طُلب الملك المظفر هذا من الحريم بالدُّور السُّلطانيّة، فأُخْرِجَ إليهم، فبايعوه بالسَّلطنة بعهد من أبيه إليه بالمُلْك قَبْل تاريخه، وألبسوه خِلْعَة السلطنة، ورَكِبَ فَرَسَ النَّوبَة بأبّهة السلطنة وشِعارِ المُلْك من باب السِّتارة بقلعة الجبل، ومشت الأُمَرَاءُ بَيْنَ يديه وهو يَبْكي من صِغَرِ سِنّه، مما أذْهلَه من عِظَم الغَوْغاء، وقُوّة الحَرَكة. وصارَ مَنْ حَوْلَه من الأمَراء وغيرهم يشغله بالكلام، ويَتَلَطَّف به، ويُسَكِّن رَوْعه، ويناولُه مِنَ التُّحَف ما يشغله به عن البكاء، حتى وصل إلى القَصْر السُّلْطاني من القلعة، فأُنْزِل من على فرسه، وحُمِل حتى أُجْلِس على سَرِير الملك وهو يَبْكي. وقَبَّلَ الأمراءُ الأرض بين يديه بسرعة،

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٥٦٣/٤؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٤٩٤/٢؛ وإنباء الغمر: ٤٠٦/٧ وما بعدها؛ وبدائع الزهور: ٣٢٠؛ والضوء اللامع: ٣١٣/١؛ والأعلام: ١٣٧/١.

(٢) زيادة عن بدائع الزهور.

ولَقَّبُوه بالملِك المظفَّر بحضرة الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داود، والقضاة الأربعة، ونُودِيَ في الحال بالقاهرة ومصر باسمه وسلطنته(١).

ثم أخَذَ الأمراءُ في تجهيز السُّلطان الملك المؤيد، وتَغْسيله ودَفْنِه، حسبما تقدّم ذِكْرُه في ترجمته.

وقَبْلَ أن يُدْفَن الملكِ المؤيد أبرَمَ الأميرُ طَطر أميرُ مجلس أمْرَه مع الأمَراء، وقَبَض على الأمير قَجْقار القَرْدَميّ أمير سلاح، وأمسكه بمعاونة أكابر المماليك المؤيدية، وأيضاً بمعاونة خشداشيته من المماليك الظاهـريّة بَـرْقوق، فـارتجَّت القاهرةُ وماجَت الناسُ ساعةً، وتخوَّفوا من وقوع فِتنة، فلم يقع شيء؛ وذلك لعدم حاشية قَجْقَار القَرْدمي، فإنه أحد مماليك الأمراء ليس له شوكة ولا خُشْدَاشِين. وسَكَن الأمرُ، ونَبَل ططرُ في أعين الناس من يومئذ، وتَفَتَّحت العُيُون إليه.

ثم لما كان يوم الثلاثاء عاشـر المحرَّم ــ وهـو صبيحة يـوم وفاة الملك المؤيّد ــ عملت الخِدْمة بالقصر السُّلطاني من القلعة، وأُجْلِس الملك المظفر [أحمد] على مَرْتبةِ السَّلطنة. وكانت وظيفة طَطَر أميرَ مجلس، ومنزلة جلوسه في الميمنة تحت الأمير الكبير، وكان الأمير الكبير(٢) أُلْطُنْبُغَا القَرْمَشِي قد توجّه إلى البلاد

---

(١) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور أنه «لما توفي الملك المؤيد شيخ تعصّب مماليكه وقالوا: ما نسلطن إلا ابن أستاذنا. وكان المماليك المؤيدية نحو خمسة آلاف مملوك. فلما حضر الخليفة والقضاة الأربعة وقصدوا المبايعة لأحمد ابن الملك المؤيد عارض الخليفة في ذلك وقال: هذا صغير، وتضيع أحوال المسلمين بين الأمراء. . . . فقال المماليك: الأمير ططر يكون مدبّر المملكة إلى أن يحضر الأتابكيّ الطنبغا. . . فما وسع الخليفة إلا أن بايعه على كره منه، فسلطنوه ولقبوه بالملك المظفّر. . . ثم أجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة. وكانت العادة إذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك في القصر الكبير تدقّ الكوسات داخل القصر. فلمّا أجلسوا الملك المظفر أحمد على سرير المملكة وهو في حجر المرضعة دقّت الكوسات في القصر، فاضطرب الملك المظفر اضطراباً شديداً وأغمي عليه، فحصل له في الحال حَوَلٌ في عينيه من الرجفة، واستمر في كل وقت يضطرب إلى أن مات سنة ٨٣٣هـ » انتهى.

(٢) جرت العادة أن يكون الأمير الكبير أتابك العساكر هو الوصيّ على السلطان إذا كان السلطان صغيراً لم يبلغ الحلم. وغالباً ما كان الأمير الكبير هذا يتزوّج من والدة السلطان الصغير، ويكون «لالا» له أي مربياً. وهذا الدور سيقوم به الأمير ططر.

الشاميّة قبل ذلك بأشهر، فصار طَطَر يجلِس رأسَ الميمنة لغيبة الأمير الكبير، ومنزلة جلوس الأمير تَنِبَك العلائِي مِيق المعزول عن نيابة الشام رأس الميسرة فوق أمير سلاح ـ كل ذلك في حياة الملك المؤيد. فلما تسلطن الملك المظفر هذا، وعُمِلت الخِدمةُ بعد مَسْك قَجْقَار القَرْدَمي، وكان الملك المؤيد جعل التَّحدُّث في تدبير مملكة وَلَدِهِ الملك المظفر لهؤلاء الثلاثة، أعني تَنِبَك مِيق، وقَجْقَار القَرْدَمي أمير سلاح، وطَطَر أمير مجلس، فصار التحدّث الآن إلى تَنِبَك مِيق وإلى طَطَر فقط.

فلما دخل الأمراءُ الخِدْمَة على العادة، وقَبْلَ الجلوس، أومأ الأميرُ طَطَر إلى الأمير تَنِبَك مِيق أن يَتَوجّه إلى ميمنة السلطان ويَجْلِس بها على أنه يكون مكان الأمير الكبير، ويَجْلس هو رأسَ مَيْسَرة السُّلطان، فامتنع تنِبَك من ذلك؛ فألحّ عليه طَطَرُ في ذلك وآحتشم معه، وتأدّب إلى الغاية، فَحَلَفَ تنِبَك بالأيمان المُغَلّظَة أنه لا يفعل، وأنه لا يجلس إلا مكانه أوّلاً في الميسرة، وأن طَطَر يجلس في المَيْمَنَة، وإن لم يفعل ططر ذلك تَرَك تنِبَك الإمرة وتوجَّه إلى الجامع الأزهر بطالاً. فجلس عند ذلك طَطرُ على الميمنة. وعندما آستقر بهم الجلوس، وقُرِىء الجَيشُ(١) على السلطان، فلم يتكلم أحدٌ من الأمراء في أمر الذي قرأه ناظر الجيش، فسكت ناظرُ الجيش عن قِراءة القِصَص لعدم من يجيبه. فعند ذلك عَرَض الأميرُ ططرُ أيضاً التكلّم على الأمير تنِبَك مِيق، وقال لـه: «أنت أغاتنا، وأكبرُ منا سِنّاً وقَدْراً، والأليَق أن تكون أنت مُدَبِّر المملكة ونحن في طاعتك، نمتثِل أوامرك، وما ترْسُم به» فآمْتَنع الأميرُ تنِبَك أيضاً من التكلُّم وتدبير المملكة أشدَّ آمتنَاع، وأشار إلى الأمير طَطَر بأن يكون هو مُدَبِّر المملكة، والقائم بأمورها، وأنه يكون هو تحت طاعته؛ فآستَصْوب مَن حضر من الأمراء هذا القَوْل، فامتنع طَطَر مِن ذلك قليلاً حتى ألحّ عليه الأمراءُ، وكلَّمه أكابرُ الأمراء المؤيدية في القبول، فعند ذلك قَبِلَ وتكلَّم في المملكة، وقرىء الجيش، وحضرت العلامة،

(١) المراد: قرئت القصص على السلطان. وكانت العادة أن يقرأها بين يديه ناظر الجيش. وانظر ما سيأتي ص ٣١ من هذا الجزء، والحاشية (١) من نفس الصفحة.

ثم مُدَّ السِّمَاط على العـادة. فعندما نجز السِّمَاط أُحْضِرَت خِلْعَةٌ جليلة للأمير طَطَر، فلبسها بآستقراره «لالا»(١) السلطان الملك المظفر [أحمد] وكافل المملكة ومُدبرها. ثم أُحْضِرت خِلْعَةٌ أخرى للأمير تنِبَك مِيق فلبسها، وهي خِلْعَة الرِّضَى والاستمرار على حاله. وانفضَّت الخِدْمَة بعد أن أوْصَل الأمراءُ السلطانَ إلى الدُّور السُّلطانية، وأُعِيد الملكُ المظفر إلى أمه بالحريم السلطاني.

هذا وقد استقرّ سَكَنُ الأميرُ طَطر بطبقة الأشْرَفية من قَلْعة الجبل، فَجَلس طَطرُ بطبقة الأشْرَفية، بعد أن فُرشت له، وَوَقَفَ الأمراءُ ومباشرو الدَّوْلة والأعيان بين يَدَيْه، فأخَذَ وأعْطى، ونفَّذ الأمورَ على أحسن وَجْه، وأجمل صورة، فَهَابَتْهُ النَّاس، وعَلِموا أنه سيكون من أمْرِه ما يكون من أوَّل جلوسه في هذا اليوم. ثم رَسم بكتابة الخَبَر بِمَوْت الملك المؤيد، وسلطنة ولده الملك المظفر إلى الأقطار، وأوعد المماليك السلطانية بالنَّفَقَة فيهم على العادة، فكَثُرَ الدُّعاء لـه، والفَرَحُ بتكلُّمِه في السلطنة.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم رَسم الأميرُ طَـطر نظامُ المُلك بالقبض على الأمير جُلُبَّان رأس نوبـة سيـدي [إبراهيم بن المؤيَّد](٢)، وعلى الأمير شاهين الفارسي، وهما من مقدمي الألوف بالديار المصرية، فَمُسِكَا وقُيِّدَا وحُبِسَا. ثم طلب الأميرُ طَطر القضاة ودخل معهم إلى الخِزانة السُّلطانية، وختَم بحضُورهم على خِزَانة المالِ بعد أن أخرج منها أربعمائة ألف دينار بِرَسم نفقةِ المماليك السُّلطانية، ثم نزل القضاةُ.

فلما كانَ الليل آضْطَرب الناس، وَوَقَعْت هَجَّةٌ بالقاهرة، ولم يَدْرِ أحدٌ ما الخبر حتى طلـع الفَجْر؛ فأسفرت القضيّة على أن الأمير مُقْبِلاً الحسَامِيَّ الدَّوَادار الكبير رَكِبَ بمماليكه وعليهم السلاحُ في الليل، وخَرَج من القاهرة ومعه السَّيْفِي يَلْخَجَا مِن مَامِش السَّاقي الناصري، وسار إلى جهة الشام خَوْفاً من القبض عليه.

(١) أي مربي السلطان.
(٢) زيادة عن إنباء الغمر.

فلما كان الغد من يوم الخميس، اجتمع الأمراءُ عند الأمير ططر بالقلعة وعَرَّفوه أمر مُقْبِل المذكور، وسألوه أن يرسل أحداً منهم في أثره فلم يَلْتَفِت إلى ذلك. وأَخَذَ فيما هو فيه من أمر نفقة المماليك السُّلطانية، ونَفَقَ فيهم لِكُلٍّ واحد منهم مائة دينار مصرية، فَشَكَرَ المماليكُ له ذلك. ثم أمر فَنُودِيَ بالقاهرة بإبطال المَغارِمِ التي جُدِّدت على الجراريف(١) في عمل الجُسُور بأعمال مصر، فَوَقع ذلك من الناس المَوْقِعَ الحسن.

وأما أمرُ مُقبل الدَّوَادار، فإنه لما خَرَج من بيته بِمَنْ مَعَه اجتَاز بظاهر خانقاه سرقوياس، وقصد الطِّينة بمن معه، فَفَطِنَ بهم العُرْبان أربابُ الأَدْرَاك(٢)، فاجتمعوا وقصدوه وحاربُوه، هو ومَن معه؛ فلا زَالَ يقاتلهم وهو سَائِرٌ إلى أن وصل إلى الطينة، فَوَجَد بها غُرَاباً(٣) مهيئاً للسفر فَرَكِبَ فيه بمن معه. ونهبت الأعرابُ جميع خيولهم وأثقالهم وما كان معهم. وسافر مقبل في الغراب المذكور إلى الشام، ولحق بالأمير جَقْمَق الأرغون شاوي الدوادار نائب الشام، وانضمّ عليه وصار من حزبه، ودَامَ معه إلى أن انهزم جقمق من القَرمشي إلى الصُّبَيبة وقبض عليه، فأمسك مقبل هذا أيضاً، وحُبِسَ، كما سيأتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى ـ انتهى.

ثم أمرَ الأميرُ طَطَرُ فنُودِيَ بالقاهرة لأجناد الحلقة بالحضور إليه ليردَّ إليهم ما كان أخذه منهم الملكُ المؤيد في سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة من المال برسم السفر(٤) ـ وكان الذي تحصَّلَ منهم تحت يد السَّيفي أَقْطُوَه الموساوي الدوادار.

---

(١) الجراريف: جمع جرافة، وهي آلة تستخدم في تطهير التّرع وجرف الطمي المتراكم فيها. (معجم دروزي: Supp. Dict. Ar.).

(٢) أرباب الأدراك: هم الجند أو الخفراء الذين يكلفون بحراسة الدرك. والدرك هو مكان معينٌ تكون حراسته بالتناوب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٠).

(٣) الغراب: سفينة حربية قديمة مدبّبة الحيزوم ذات أشرعة ومجاديف (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١٥٤).

(٤) كان ذلك لما رسم السلطان بسفر أجناد الحلقة صحبة ولده الصارمي إبراهيم إلى البلاد الشامية لمحاربة محمد بن قرمان، وألزم من يتخلّف منهم بدفع المال.

فلما حَضروا أمر ططر أَقْطُوَه أن يدفع لكلٍّ واحدٍ منهم ما أُخِذ منه، فضج الناسُ له بالدعاء، وصاحت الألسن بالشكر له والثناء عليه. ثم أخذ الأميرُ طَطَر، وهو جالس في الموكب بإزاء السلطان، بيد السلطان الملك المظفر، وفيها قَلَمُ العلامة(١)، حتى عَلَّم على المناشير(٢) ونحوها، بحضور الأمراء وأرباب الدولة؛ واستمر ذلك في بعض المواكب، والغالب لا يُعَلِّم إلا الأمير طَطَر.

ثم في يوم الجمعة ثالث عشر المحرم حُمل الأمير قَجْقَار القَرْدمي، والأمير جُلُبَّان، والأمير شاهين الفارسي في القيود إلى سجن الإسكندرية.

ثم في يوم السَّبت رابع عشرة خلع الأميرُ طَطَر على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وأُعِيدَ إلى نظر الخاص، ومنع الطواشي مَرجان الخازندار من التكلّم فيها.

وفيه أيضاً خَلَعَ على القاضي صدر الدين أحمد بن العجمي وأعيد إلى حسبة القاهرة عوضاً عن صارم الدين إبراهيم بن الحسام، وأنعم عليه الأميرُ طَطَر بثمانين ديناراً، ورتَّب له على ديوان الجوالي(٣) بالقاهرة في كل يوم ديناراً.

وفي هذا اليوم استتمَّت نفقةُ المماليك السلطانية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر المحرم خلع السلطانُ على الأمير ططر باستقراره نظامَ الملك. وخلع على الأمير تَنِبَك مِيق باستقراره أمير مجلس عوضاً

---

(١) قلم العلامة: هو القلم الذي يعلّم فيه السلطان على المناشير والمراسيم، أي يضع علامته الخاصة به عليها وهي توقيعه. والقلم الذي كانت تكتب به العلامة هو قلم الطومار. والمراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق، وهو المعبَّر عنه في العصر المملوكي بالفرخة. وقلم الطومار قلم جليل قدَّر الكتّاب مساحة عرضه بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون، وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في أيام بني أمية فمن بعدهم. واستقرّت كتابة ملوك الديار المصرية بواسطته منذ أيام الناصر محمد بن قلاوون إلى أيام المؤلف. انظر صبح الأعشى: ٣/٥٤ ـ ٦٠، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) المنشور في اصطلاح الدولتين الأيوبية والمملوكية عبارة عن أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أرض أو مال أو غير ذلك. انظر صبح الأعشى: ١٣/١٥٨ وما بعدها، طبعة المؤسسة المصرية العامة.

(٣) الجوالي: هي ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة. راجع فهرس المصطلحات.

عن الأمير طَطَر. وخلع على الأمير جاني بَك الصوفي باستقراره أمير سلاح عوضاً عن قَجْقار القردمي، وأنعم عليه بخبز آق بلاط الدمرداش أحد الأمراء المُجردين صحبة الأمير الكبير أَلْطُنْبُغا القرمَشي. وخلع على الأمير تغري بردي المؤيّدي المعروف بأخي قَصْرُوَه أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة باستقراره أمير مائة ومقدّم ألف وأمير آخور كبيراً دفعة واحدة عوضاً عن الأمير طوغان الأمير آخور بحُكْم سَفره صُحبة الأتابك أَلْطُنْبُغا القرمشي. وخلع على الأمير إينال الجكمي أحد أمراء الطبلخانات وشَادّ الشراب خاناه واستقر [به] رأس نوبة النُّوَب عوضاً عن الأمير ألطنبغا مِن عبد الواحد المعروف بالصغير، بحكم سفَره أيضاً مع القرمشي. وخَلَعَ على الأمير علي باي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره داواداراً كبيراً عوضاً عن مُقْبل الحُسامي المتوجّه إلى البلاد الشاميَّة. وأنعم على الأمير آقْ خَجَا الأحمدي أحد أمراء الطبلخانات واستقرَّ أمير مائة ومقدَّم ألف. وخَلَعَ على الأمير قَشْتَم المؤيدي أحد أُمَراء العشرات باستقراره أمير مائة ومقدَّم ألف ونائب الإسكندرية عوضاً عن الأمير ناصر الدين محمد بن العطار. وخلع على الأمير يشبك أتالي المؤيدي الأستادار خلعة الاستمرار على وظيفته. وخلع على التاج بن سيفة الشوبكي خِلْعَة الاستمرار بولاية القاهرة، وأن يكون حاجباً، فاستغرب الناس ذلك، من أن الحجوبية تضاف إلى ولاية القاهرة[1].

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشرة تَوَجَّهت القُصَّادُ بتشاريف نُوَّاب البلاد الشّاميّة وتقاليدهم المُظَفَّرِيَّة باستمرارهم على عادتهم في كَفَالاَتِهم، وكَتَبَ الأمير طَطَر نظامُ المُلك العَلاَمَةَ على الأَمْثِلَة ونحوها كما يَكْتُب السلطان.

ثم في يوم الأَرْبعاء ثامن عشر المحرم ابتدأ الأميرُ أَقْطُوَه بِرَدِّ مال أجناد الحلقة إليهم، وَتَولّى ذلك في أوّل يوم الأميرُ طَطَر بنفسه.

(١) جميع هؤلاء الذين خلع عليهم الأمير ططر كانوا من مماليك المؤيد شيخ. وذكر ابن إياس أن ططر اضطر أن يخلع عليهم ليرضيهم بعد أن ثاروا عليه بسبب الإمريّات والوظائف. انظر بدائع الزهور: ٣٢٠.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره خَلَـع نظامُ[١] المُلْك على القُضَاة الأربعة وبقيّة أرباب الدَّوْلة من المُتَعَمِّمين على عادتهم، وخَلَـع على القاضي شَرَف الدين محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله مُوَقِّع الأمير طَطَر باستقراره في نظر أوقاف الأشراف، وكان يليه الأميرُ طَطَر من يوم مات القاضي ناصر الدين محمد بن البارزيّ كاتب السِّرّ.

وفيه آستعفى القاضي عَلَم الدين دَاود بن الكُوَيْز من وظيفة نَظَر الجيش، فأُعْفِي وخُلِـع عليه كامليّـة بسمُّـور، ونزل إلى داره؛ كل ذلك حيلة لتَوَصّلِه لوظيفة كتابة السِّرّ ــ وهي بيد صهره القاضي كمال الدين ابـن البَارِزِيّ ــ حتى وَلِيَها حسبما يأتي ذكره.

ثم في يوم الجمعة نُودِيَ بأن الأمير الكبيرَ طَطَر يَجْلِس للحكم بين الناس؛ فلما انقضَت الصلاةُ تـوجَّه الأميـرُ الكبيرُ طَـطَر فَجَلَس بالمقعـد من الإِسْطَبْـل السلطاني، كما كان الملك المؤيّد يجلس للحكم به، إلا أنه قعد على يسار الكُرْسِيّ ولم يَجْلِس فوقه. وحَضَرَ أمراءُ الدَّولة على العادة، وقَعَدَ كاتِبُ السِّرّ القاضي كمالُ الدين بـنُ البارزيّ على الدّكة وقرأ عليه القصص، ووقف نقيبُ الجيش وَوَالي القاهرة والحُجَّاب بين يديه، وحكم بين الرّعيّة، ورَدَّ المظالم، وساسَ النَّاس أحسن سياسة؛ فإنه كانت لديه فضيلة وعنده يقظة وفطنة ومشاركة

---

(١) نظام الملك: من الألقاب التي كان يخاطب بها الوزراء في الديار المصرية أيام المماليك (صبح الأعشى: ١٤٤/٦، طبعة دار الكتب العلمية). والملاحظ أن هذا اللقب يطلق لأول مرّة على الأمير الكبير أتابك العساكر. والظاهر أن هذه التسمية قد أصبحت تدلّ على وظيفة بمعنى نيابة السلطنة. وسوف يطلق الملك الأشرف برسباي هذا اللقب في سنة ٨٤١هـ على الأمير جقمق أتابك العساكر إذ ذاك بعد أن يفوّض إليه أمر ابنه الصغير يوسف، وهي حالة مطابقة لوضـع الأمير ططر في علاقته بالسلطان المظفّر. (انظر الألقاب الاسلامية: ٥٣٤) والظاهر أن لقب وظيفة «نظام الملك» قد استقرّ في أواخر العصر المملوكي للدلالة على المتصرّف في شؤون السلطنة نيابة عن السلطان الصغير. وقد حدّد خليل الظاهري وضعه على' النحو التالي: «وأما نظام الملك لا يكون إلا إذا كان السلطان غير رشيد، ويكون قد عيّنه بعهد من السلطان بالسلطنة (كذا). وللنظام المتصرّف في تعلّقات الملك خلا الأموال لكن بمراجعة السلطان. وله أبهة أميز من غيره من الأمراء ــ انتهى». (زبدة كشف الممالك: ١١٢).

جيدة في الفقه وغيره، وله مَحَبَّةٌ في طلب العلم لا سِيَّمَا مذهب السادة الحنفية، فإنهم كانوا عنده في مَحَلٍّ عظيم من الإكرام.

ثم انفضَّ الموكبُ، وطلع إلى طبقة الأشرفية، وجميع الأمراء بين يديه في خدمته إلى أن أكل السِّمَاط، ونَفَّذ الأمورَ، ونزل كلٌّ أحد إلى منزله.

وأصبح يوم السبت حادي عشرين المحرَّم غَضِبَ على الصاحب تاج الدين عبد الرزَّاق بن الهَيْصَم، وعَزَلَه عن نَظَر ديوان المُفْرَد.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرينه قَدِمَ أمير حاج المحمل بالمحمل.

وفيه طلبَ الأميرُ طَطَر تاجَ الدين عبد الرَّزَّاق بن شمس الدين عبد الوهاب، المعروف بابن كاتب المناخ، مُسْتَوْفِي[1] ديوان المُفْرَد، وخَلَعَ عليه باستقراره ناظر ديوان المُفْرد، عوضاً عن الصاحب تاج الدين عبد الرَّزَّاق بن الهيصم، وخرج من بين يدي الأمير الكبير وعليه الخلعة حتى جاوز دِهْلِيز القَصْر، فطلبه الأميرُ طَطَر ثانياً، ونَزَع الخِلْعَة مِن عليه، وخَلَع عليه تشريفَ الوزارة، فلبسها على كُرْهٍ منه، عِوَضاً عن الصاحب بدر الدين بن نصر الله برغبته عنها، وطَلَبَ الصاحبَ تاج الدين عبد الرَّزَّاق بن الهيصم، وخلع عليه بإعادته إلى نظر الدِّيوان المُفْرد، وخَلَع على الصاحب بدر الدين بن نصر الله باسْتِمْرَارِهِ في وظيفته نظر الخاصّ، وخَلَع على الأمير يَشْبُك أنَا لِي المؤيَّديّ الأستادار باستقراره كاشِفَ الكُشَّاف[2] بالوجه القبلي والبحري.

---

(١) المستوفي: من كتّاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك. وهو يقوم بضبط سير الأعمال اليومية بالديوان ومراقبة الموظفين. وهو في مرتبة أدنى من الناظر الذي يعتبر المرجع الأعلى لما يتعلق بالديوان. انظر صبح الأعشى: ٤٦٦/٥، طبعة المؤسسة المصرية؛ وقوانين الدواوين ٢٩٨، ٣٠١؛ ونهاية الأرب: ٢٩٩/٣. وقد سبق التعريف بديوان المفرد، فانظر فهرس المصطلحات.

(٢) كاشف الكشّاف: هو رئيس الكشّاف، وكانت رتبته أمير مائة مقدّم ألف. والكاشف هو الذي يشرف على أحوال الأراضي والجسور، ولذلك كان يسمى كاشف الجسور أو كاشف التراب. (صبح الأعشى: ٢٥/٤، ٦٥، ٢٠١، طبعة المؤسسة المصرية؛ وزبدة كشف الممالك: ١٢٩ ـ ١٣٠).

ثم في يوم الخميس سادس عشرينه خَلَع على القاضي كمال الدين محمد ابن البَارِزِيّ كاتب السِّرِّ باستقراره في وظيفة نظر الجيش عِوَضاً عن عَلَم الدين بن الكُوَيْز.

ثم حَكَم الأميرُ طَطَر في يوم الجمعة أيضاً بعد الصلاة بالإسطبل السلطاني كما حكم به أوّلاً.

ثم في يوم الاثنين سَلْخ المُحَرَّم خَلَع الأمير الكبير طَطَر على عَلَم الدين بن الكُوَيْز باستقراره في وظيفة كاتب السِّرِّ، عِوَضاً عن صِهْرِهِ القاضي كمال الدين ابن البارِزِيّ.

قال المقريزي: فتسلَّم القَوْسَ غيرُ بَارِيها، وَوُسِّدَت الأمورُ إلى غير أهليها.

قلت: ومعنى قول المقريزي لهذا الكلام لم يُرِد الْحَطَّ على ابن الكُوَيْز، غير أن وظيفة كتابة السِّرِّ وظيفة جليلة، يكون مُتَوَلِّيها له اليد الطُّولَى في الفقه والنحو، والنَّظْم والنَّثر والتَّرسُّل والمكاتبات، والباع الواسع في التاريخ وأيام الناس وأفعال السلف[1]، كما وَقَع للملك الظّاهر بَرْقُوق لَمّا وَرَدَ عليه كتابٌ من بعض ملوك العَجَم فلم يَقْدِر القاضي بدر الدين بن فضل الله على حَلِّهِ ـ وهو كاتب سرِّه ـ فاحتاج السُّلطانُ إلى أن طلب من أثناء طريق دمشق الشيخَ بدرَ الدين محمود الكُلُسْتَاني، وهو من جملة صُوفية خانقاه شَيْخُون، حتى حَلَّ له ألفاظه. وصادف ذلك قُرْبَ أجل ابن فضل الله فَسَعَى في وظيفة كتابة السر جماعةٌ كبيرة من الأعيان بمال له صورة، فلم يلتفت بَرْقُوق إليهم، وأرسل أَحْضَر الكُلُسْتَاني،

---

(١) والدليل على أهميّة وظيفة كتابة السرّ وخطرها في جهاز الإدارة المملوكي تلك الموسوعة الكبيرة التي ألفها شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ والتي سمّاها «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» في أربعة عشر جزءاً. وقد ضمّنها جميع المعارف التي على كاتب السرّ أن يستوعبها ليؤدي وظيفته على أكمل وجه. وقبل القلقشندي كان هنالك عدة مؤلفات تناولت نفس الموضوع مثل كتاب المثل السائر لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ، ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث القرشي المتوفى سنة ٦٢٥هـ، والتعريف بالمصطلح الشريف وتثقيف التعريف لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ. انظر مقدمتينا لكتابي صبح الأعشى ومعالم الكتابة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

ولم يكن عليه مَلُّوطة يتجمّل بها، وخلع عليه باستقراره في كتابة السر ــ وقد تقدَّم ذكرُ ذلك كله في ترجمة الملك الظاهر بَرْقُوق الثانية ــ فصار الكُلُسْتاني على طريق أذهل فيها الملك الظاهر بَرْقُوق ونَبَّهَهُ على أشياء لم يكن سَمِعَها من غيره. ثم لم يَلِ هذه الوظيفة بعد الكُلُسْتاني أمثل من القاضي ناصر الدين ابن البارِزِيّ، ثم ولده كمال الدين هذا، فإنهما كانا أهلاً لها وزيادة. فعندما عُزِلَ [ابن البارزيّ] واستقرَّ عوضه عَلَمُ الدين هذا شَقَّ ذلك على أهل العلم والذَّوْق. وصادَف ذلك بأنه لما جَلَس عَلَمُ الدين على الدكَّة، وقَرَأ القِصَصَ على الأمير الكبير ططر، صَحّف اسم ابن جَمَّاز بابن الحمار، وقال: ابن الحمَّار، فردّ عليه نقيبُ الجيش في الملأ: «ابن جَمّاز ابن جَمّاز»، وكرّر ذلك حتى ضَحِك الناس. وطلع الأميرُ ططر إلى الأشرفية، وَوَعَدَ في تلك اللَّيْلَة الشيخ بَدْرَ الدين بن الأَقْصَرَائي سِرّاً بوظيفة كتابة السرِّ إن تمّ أمْرُه، وأمَره أن يَكْتُم ذلك إلى وقته.

ثم قَدِمَ الخبرُ من الشام بأن الأمير جَقْمَق الأَرْغُون شَاوِي نائب الشام امتنع من الدخول في طاعة الأمير ططر، وأنه أخذ قلعة دمَشق واسْتَوْلى عليها، وعلى ما فيها من الأموال والسِّلاح وغير ذلك، وكان بها نحو المائة ألف دينار، فاضطرب أهلُ الدَّوْلة إلا الأمير ططر فإنه لم يَتَحرَّك لذلك. وطلع إليه حَمُوه الأمير سُودون الفقيه الظاهري، وكان له عنده مكانة عظيمة، فجاراه سُودون في أمر جَقْمَق، فقال له ططر: «يا أبي الأهم أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِي الظاهري، وأما جَقْمَق فإنه رَجلٌ غريبٌ مملوك، أمير ليس له من يقوم بنُصْرَتِه، ولا من يعينه على ما يرومه، غير أنه يلعب في ذهاب مهجته»، فقال له سُودون الفقيه: «وإن يكن فافعل الأَحْوَط» وأشار عليه بما يفعله.

فلما كان يوم الخميس عاشر صفر جمع الأَميرُ الكبيرُ [ططر] القضاة عنده بطبقة الأَشرفية من القلعة، وسائر أمراء الدَّوْلة ومباشريها وكثيراً مِنَ المَماليك السُّلطانية، وأعلمهم بأن نُوَّاب الشام والأمير الكبير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِي ومن معه من الأمراء المجردِين لم يرضوا بما عمله الأميرُ ططر بعد مَوْت السُّلطان الملك المؤيّد، ثم قال: «ولا بد للناس من حاكمٍ يَتولى أمر تدبير أمورهم، وأن يعيّنوا

رجلاً يَرْضونه ليقوم بأعباء المملكة، ويستبدّ بالأمور»، فقال جميعُ من حَضَر بلسان واحدٍ: «قد رضينا بك»، وكان الخليفة حاضِراً فيهم، فأشهد الأمير طَطَر عليه أنه فَوَّض جميعَ أمور الرَّعيّة إلى الأمير الكبير طَطر، وجعل إليه عَزْل مَنْ يُريدُ عَزْله، وَوِلاية من يريد ولايته من سائر الناس، وأن يُعْطي مَن يختار، ويَمْنَع من شاء من العَطَايا، ما عدا اللَّقَب السلطاني، والدُّعاء على المَنَابر وضَرْب الاسم على الدِّينار والدِّرْهم، فإن هذه الثلاثة باقية على ما هي باسم السلطان الملك المظفَّر أحمد. وأثبت قاضي القضاة زينُ الدين عبد الرحمن التَّفَهْني الحنفي هذا الإشهاد، وحكم بصحته، ونفَّذ حكمه قضاةُ القُضاة الثلاثة. ثم حلف الأمراءُ جميعهم للأمير الكبير طَطر يمينَهم المعهودَ [بالطاعة له] في كل قليل.

وكان سبب هذا أن بعض أعيان الفقهاء الحنفية ذكر للأمير ططر نقلاً[1] أخرجه إليه مِن فروع المذهب أن السلطان إذا كان صغيراً، وأجمع أهل الشوكة على إقامة رجل للتحدُّث عنه في أمور الرَّعية حتى يَبْلُغَ رُشْده، نَفَذت أحكامُه؛ فوقع هذا القول في محله، وقويت قلوب حواشي الأمير طَطَر بذلك، وقالوا: «نحن على الحق، ومن خالفنا على الباطل».

وبينما الأمير ططر في ذلك، وَرَد عليه الخبرُ بسيف[2] الأمير يَشْبُك اليُوسُفِيَّ نائب حَلَب، وقد قُتِلَ في وَقْعَةٍ كانت بينه وبين الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ في يوم الثلاثاء ثالث عشرين المحرم.

قال المقريزي: وكان يَشْبُك من شِرَار خَلْق الله تعالى، لِمَا هو عليه من الفجور، والجرأة على الفُسُوق، والتهوُّن[3] في سَفْك الدِّماء، وأخذِ الأموال. وكان الملك المؤيَّد قد استوحش منه لِمَا يَبْلُغه من أخذِه في أسباب الخُرُوج عليه، وأَسَرَّ

---

(١) أي نصّاً.

(٢) كذا هي عبارة الأصل. ولعلّ عبارة ابن حجر في إنباء الغمر هي الأوضح من بين الروايات، قال: «وفي حادي عشر صفر وصل سيف يشبك اليوسفي نائب حلب وقرينة رأسه: أرسل ذلك الأمراء الذين قتلوه». إنباء الغمر: ٧/٤١٠.

(٣) في السلوك: «التهوّر».

للأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ في إعمال الحيلة في القَبْض عليه، فأتاهُ الله من حيث لم يَحْتَسِب، وأخذَه أَخْذاً وَبِيلاً، ولله الحمد ـ انتهى كلام المقريزي.

قُلْتُ: وكَانَ مِن خبر يَشْبُك هذا مع الأمير الكبير أَلْطُنبغا القَرْمَشِيّ، أنه لمَّا خَرَج [القرمشي] من الديار المصرية إلى البِلَاد الشامية وصحبته الأمراءُ، وهم: الأمير طُوغان أمير آخور، وأَلْطُنْبغا من عبد الواحد الصغير رأس نوبة النُّوب، وأَزْدَمُر الناصري، وآقْ بَلَاط الدَّمُرداش، وسُودُون اللُّكَّاش، وجُلُبَّان أمير آخور الذي تَوَلَّى نيابة دِمَشْق في دولة الملك الظاهر جَقْمَقْ، وقَبْلَ خُرُوج القَرْمَشِيّ من القاهرة أَسَرَّ إليه الملك المؤيد بالقبض على الأمير الكبير يَشْبُك اليُوسِفيّ نائب حَلَب إن أمكنه ذلك، فسار القَرْمَشِيّ إلى البلاد الشامية مُقَدَّماً للعساكر، ثم تَوَجَّه إلى البلاد الحلبية، ثم ساروا من حَلَبَ هو ورفقته إلى حيث نَدَبَهُم إليه الملك المؤيد، وعَادُوا إلى حَلَب في أوّل سنة أربع وعشرين وأقامُوا بها، فاسْتَوْحش الأميرُ يَشْبُك نائب حَلَب منهم، ولم يجسر القَرْمَشِي على مَسْكه. وبينما هم في ذلك طَرَقَهُم الخبرُ بموت السلطان الملك المؤيد، فاضطرب الأمراءُ المجرَّدُون، وعَزَم الأمير الكبيرُ أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ على العَوْد إلى الدّيار المصرية، وَوَافَقَهُ على ذلك رُفْقَتَهُ من الأمراء. وبرز بمن معه إلى ظاهر حَلَب، وخرجُوا من باب المَقَام(١). وبلغ ذلك الأميرَ يشْبُك نائب حَلَب، وكان لم يخرج لتَوْدِيعِهم، فَعزَم على أن يركب ويقاتلهم. وبَلَغَ ذلك القَرْمَشِيّ في الحال، فأرسلَ إليه دَوَادَاره السَّيْفي خُشْكَلْدِي القَرْمَشِيّ.

حدَّثني خُشْكَلْدِي المذكور من لفظه قال: نَدَبَنِي أستاذي الأمير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ أن أَتَوَجّه إلى امير يَشْبُك، وأذكر له مقالةَ القَرْمَشي له؛ فتوجَّهْتُ إليه، فإذا به قد طَلَع إلى مَنَارة جامع حَلَب، فطلعتُ إليه بها، وسلَّمْتُ عليه، فَردَّ عليَّ السلام، وقال: هاتِ ما معك. فقلتُ: قدْ تَعبْتُ من طُلُوع السُّلَّم، أَمْهِلْ عَلَيَّ

---

(١) باب المقام: أحد أبواب مدينة حلب. سمي بذلك لأنه كان يخرج منه إلى جهة مقام الخليل عليه السلام. وعرف أيضاً باسم باب نفيس، نسبة إلى رجل كان متولي الحَجْر، أي كان له الحجر والإذن فيما يتعلق بالبلد أو القلعة. (الدرّ المنتخب: ٤٣).

ساعةً، فإني جِئتُ من مَلَكٍ إلى مَلِك، فأمْهَلَني ساعةً، فبَدَأتُه بأن قُلْتُ: الأميرُ الكبيرُ يُسلم عليك، ويقول لك بَلَغَهُ أنَّك تريدُ قِتاله بِمَنْ معه من الأمراء، وهو يَسْأَلُك ما القَصْدُ في قِتاله، وقد آسْتَوْلى طَطَرُ على الدِّيار المصرية، وجَقْمَق على البلاد الشاميّة؟ فاقْصدهما فإنهما هما الأهمُّ، فإن أجْلَيْتَهُما عَمَّا مَلَكَاه فَنَحْنُ في قَبْضَتِك، وإن كانت الأخرَى فما بالك بالتشْويش عَلَيْنا لِغَيْرِك، ونَحْنُ ناسٌ سُفَّارٌ غُرَباء البلاد، قال: فلما سمِعَ كَلَامي سَكَت ساعةً، وقال: يسافروا، مَنْ وَقَفَ في طريقهم؟ ومن هو الذي يقاتلهم؟ أو معنى هذا الكلام، قال: فَبُسْتُ يدهُ وعُدْتُ بالجَـوَاب إلى الأمير الكبير؛ وقبل أن أبلغه الرِّسالة إذا يَشْبُك المذكور نَزَل من المَنارَة، ولَبِسَ آلَة الحرْب هو ومماليكه في الحال، وقَصَد الأمراءَ وهم بالسّعدي(١).

فلما رآه الأمراءُ المصريون رَكِبُوا، ورَجَعوا إليه، وحملوا عليه حَمْلَةً واحدة انكسرَ فيها، وتَقَنْطَر عن فرسه، وقُطِعت رأسهُ في الوَقت. فعاد الأميرُ الكبيرُ أَلْطُنبغا القَرْمَشِيّ بمن معه من الأُمراء إلى حلَب، ونزل بدار السعادة(٢). ومن غريب ما اتَّفق أن الأمير يَشْبُك المذكور كان قد آستوى سماطُه، فأخَّرَه إلى أن يَقْبِض على الأمَراء، ويعود يأكله، فَقُتِل في الحال. ودخل القَرْمَشِيّ بِمَنْ معه، ومُدَّ السِّماط بين أيديهم فأكلوه، وكانوا في حاجةٍ إلى الأكل. واستمرَّ القَرْمَشي بحَلَب مُدَّة إلى أن وَلَّى نيابةَ حَلَب الأميرَ أَلْطُنْبغَا من عبد الواحد الصَّغير رأس نوبة، وعاد إلى دِمَشق. واتفق [القَرمشِي] مـع الأمير جَقْمَقْ نائب الشام على قِتَـال المصريين لمخالفتهم لما أَوْصىٰ به الملكُ المؤيد [شيخ] قبل موته. وكانت وَصِيّة الملك المؤيد أن يكون ابنه سُلطاناً، وأنْ يكون أَلْطُنْبُغا القَرْمَشي هو المتحدث في تَدْبِير مملكته، فخالف ذلك الأميرُ ططر، وصَارَ هو المُتَحَدِّث، وأخرَجَ إقطاعات الأمراء المجرَّدين صحبته.

وبَينما هُم في ذلك بَلَغَهُم أن الأمير ططر عَـزَم على الخُرُوج من الـدِّيار

(١) السَّعدي: أرض من جهة القبلة من مدينة حلب، وهي إحدى متنزهاتها. وهي فضاء فيّاح تجري فيه أنهر متشعبة من نهر واحد، وفيه من المروج الخضراء والزهور المختلفة ما لا يبلغه الوصف. (الدرّ المنتخب: ٢٥٥).

(٢) هذا الاسم أطلق على مقرّ الحاكم أو الوالي في دمشق وحلب وغيرها من الولايات الشامية.

المصرية ومعه السلطان الملك المظفر [أحمد] إلى البلاد الشامية، فتهيَّئوا لِقتاله. ثُمَّ بعد مُدَّة يسيرة وَقَـع بينهما وحشةٌ وتَقَاتلا، فانهزَم جَقْمق إلى الصُّبَيْبة، ومَلَك القَرْمَشِيُّ دِمشق حسبما يأتي ذكره.

هذا ما كان من أمر القَرْمشي مع يَشْبُك. وأما الأمير ططر فإنه لما بلغه قَتْلُ يَشْبُك سُرَّ بذلك سُرُوراً عظيماً، وقال في نفسه: «قد كُفِيتُ أَمْرَ بعض أعدائي»، بل كان يَشْبُك أشدَّ عليه من جميع مَنْ خالَفه. انتهى.

ثم فـي يوم الخميس سابع عشر صفر قَدِمَ الأميرُ قُجَق العِيساوِيّ حاجب الحجّاب ــ كان ــ في الدولة الناصرية، والأمير بَيْبُغا المُظَفَّـرِيّ أمير مجلس ــ كان ــ من سجن الإسكندرية بأمر الأمير طَطَر، وقَبَّلَا الأرض بين يدي السلطان، ثم يَدَ الأمير طَطَر.

ثم قَدِمَ الأميرُ يَشْبُك الساقي الظَّاهري الأعْرَج؛ وكان الملك المؤيد قد نفاهُ من دِمَشق إلى مكَّة، لَمَّا حضر إليه من قَلْعَة حَلَب في حصاره الأمير نَوْرُوز الحافظي بدِمَشْق، بحيلةٍ دَبَّرها الملكُ المؤيد على يَشْبُك المذكور حتى اسْتَنْزَله من قَلْعة حَلَب، فإنه كان نائبها من قِبَلِ الأمير نَوْرُوز. ولما ظَفِرَ به المؤيد [شيخ] أراد قتله فيمن قَتَله من أصحاب نَوْرُوز من الأمراء الظاهرية برقوق، فشفَع فيه الأمير ططر، فأخرجه الملك المؤيد [شيـخ] إلى مكة فأقام بها سنين، ثم نَقَله إلى القُدْس، فلم تَطُل مُدَّتُه به حتى مات الملك المؤيد، وتحكَّمَ ططر، فكتب بحضوره إلى القاهرة. وكان له مُنذ خَرَج من الدِّيار المصرية نحو العشرين سنة؛ فإنَّه جُرِح في نَوْبَة بِرْكة الحَبَش من سنة أربع وثمانمائة الجرح الذي كان سبباً لعرجه، وخرج من القاهرة، ودام بالبلاد الشاميَّة إلى يوم تاريخه.

قلت: ويَشْبُك هذا هو الذي صار أَتَابكاً بالديار المصرية في دولة الملك الأشْرَف بَرْسْباي، وهو الذي حَسَّنَ للملك الأشرف [بَـرْسْباي] الاستيـلاء على بَنْدر(١) جدَّة حتى وَقَـع ذلك. وكان يَشْبُك من رجال الدهر عَقْلاً وحَزْماً ورأياً

(١) بندر جدّة: هو ميناء جدّة على البحر الأحمر والبندر: لفظ فارسي معناه مربط السفن على الساحل.

وتَدْبيراً، لم تَرَ عَيْني مِثْلَه في أبناء جِنْسه، ويأتي ذكرُه في مَحَلّه إن شاء الله تعالى ـ انتهى.

ثم قَدِمَ أيضاً سُودون الأَعْرَج الظاهريّ من قُوص[١]؛ وكان الملكُ المؤيَّدُ أيضاً قد نفاهُ إليها من سنين عديدة. وكان سُودون أيضاً من أعيان المماليك الظاهرية بَرْقُوق، وفي ظَنّه أنه من مَقُولَة الأمير يَشْبُك الأَعْرَج، والأمر بخلاف ذلك، والفرق بينهما ظاهرٌ.

ثم أفرج الأميرُ طَطَر نِظامُ المُلْك عن الأمير ناصر الدين [محمد][٢] بَك بن علي بَك بن قَرَمان. وخلَع عليه، ورسم بتجهيزه ليعودَ إلى مملكته، فتجهَّزَ وسار في النِّيل يوم السبت سادس عشرين صفر إلى ناحية رشِيد[٣] ليركب منها إلى البحر المِلْح ويتوجّه إلى جهة بلاده[٤].

ثم في يوم الأربعاء أوّل شهر ربيع الأول قَدِمَ الخبرُ على الأمير طَطَر ـ على يد بعض الشاميّين ومعه كتاب الأمير الكبير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِي ـ من حَلَب، وهو يتضمَّن: أنه لما قَتَل الأميرَ يشْبُك نائب حَلَب وَلِّي عِوَضَه الأميرَ أَلْطُنْبُغا من عبد الواحد الصَّغير رأس نوبة النوب، فإنه عندما وَرَدَ عليه الخبرُ بموت السلطان الملك المؤيد [شيخ] بعدما عَهِدَ بالسَّلطنة من بعده لابنه الملك المظفّر أحمد، وأن يكون القائم بتدبير الدّولة أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ، وأنه قد أُقيم في السلطنة الملك المُظَفَّر كما عهد الملك المؤيد، أخذ هو ومن معه من الأمراء في الرّحِيل من حَلَب إلى جهة الديار المصرية كما رُسم له به. وكان من أمر يَشْبُك ما كان فاشتغل بذلك عن المَسِير. ثم ورد عليه الخبر باستقرار نُوَّاب الممالك الشاميَّة على عوائدهم، وتحليفهم للسلطان الملك المُظَفر أحمد، وللأمير الكبير ططر، فحمل الأمر في ذلك على أنه غلط من الكاتب، وسأل أن يفصح له عن ذلك،

---

(١) قوص: قرية من صعيد مصر، في البرّ الشرقي للنيل.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) رشيد: مدينة غربي فرع النيل الغربي عند مصبّه في البحر الأبيض المتوسط شرقي مدينة الإسكندرية.

(٤) كان يحكم على لارندا وسيواس وقونية وقرمان وأرمناك وغيرها من بلاد آسيا الصغرى. وقد عزله المصريون سنة ٨٢٢هـ وتوفي سنة ٨٢٧هـ . (معجم زامباور).

وأبرَق وأرْعَد. ولم يعلم بأن الأمرَ آنقضى وفاته ما أراد. وقد آنتهز الأميرُ ططر الفُرْصَة، وتمثل لسان حاله بقول القائل: [الوافر]

إذا هبَّتْ رِياحُكَ فاْغتَنِمْها فإنَّ لِكُلِّ خافِقَةٍ سكُونَا

ثم أمر الأميرُ ططر بكتابة جوابه، فأجيب بكلام مُتَحَصَّلُه: أنه لما عَهِدَ الملك المؤيد [شيخ] لابنه بالملك، وأقيم في السلطنة، طَلَب الأمراءُ والخاصّكيّة والمماليك السلطانيّة أن يكون المُتحدثَ في أُمُورِ الدّولة الأميرُ ططر، ورَغِبُوا إليه في ذلك، فَفَوَّض إليه الخليفةُ جميعَ أمور المملكة بأسْرِها، فليحضر الأميرُ بمن معه إلى الديار المصرية ليكونوا على إمْرِيَّاتهم وإقطاعاتهم على عادتهم، ثم أنكر عليه استقرار أَلْطُنْبُغا الصغير في نيابة حلب من غير استئذانه.

ثم قَدِمَ الخبرُ أيضاً على الأمير طَطر بأن علي بن بشارة قاتل الأميرَ قُطْلوبُغا التنَمِيّ نائب صَفَد وكَسَره، فانحصر بمدينة صَفَد إلى أن فرّ منها إلى دِمَشق، وانضم على نائبها الأمير جَقْمَق، وأن جَقْمق قد استعدّ بدِمَشق، واستخدمَ جماعةً كبيرةً من المماليك، وسكن قَلْعَة دِمَشق. فتحقّق الأميرُ ططر عند ذلك خروج جَقْمق عن طاعته، وكذلك الأمير الكبير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِي وأخذ في إبرام أَمْرِه.

فلما كان يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول المذكور خلع على الأمير تَنِبك مِيق العَلائي باستقراره أتابَك العساكر بالديار المصريّة عِوَضاً عن أَلْطُنْبُغا القَرْمَشيّ وأنعم عليه بإقطاعه، وأنعم بإقطاع تَنِبَك ميق على الأمير إينال السَّيْفي شيخ الصَّفَوِي المعروف بالأرْغَزِيّ، وأنعم بإقطاع إينال الأرغزي المذكور على الأمير قُجَقْ العِيساوِيّ القادم من سِجْن الإسكندرية قبل تاريخه، وأنعم بإقطاع الأمير طُوغان أمير آخُور أحد الأمراء المجرّدين على الأمير تَغْري بِرْدِي من آقْبُغا المؤيدي المعروف بأخي قَصْرُوه المقدم ذكره، وأنعم بإقطاع الأمير أَلْطُنْبُغا الصغير رأس نوبة النُّوَب المستقرّ في نيابة حَلَب على سُودون العلائي، وأنعم بإقطاع سُودون العلائي على الأمير قُطُج من تِمرَاز الظاهِرِيّ، وأنعم بإقْطاع الأمير أزْدَمُر الناصرِيّ أحد مقدّمي الألوف المُجَرَّدين على الأمير بَيْبُغا المظفري الظاهري الذي قَدِم قبل تاريخه من سجن الإسكندرية.

وأنعمَ بإقطاع الأمير جَربَـاش الكَرِيميّ المعـروف بقَاشَق أحـد المقدَّمِين المجرّدِين على الأمير تَمُربَاي من قَرْمَش المؤيّدي شادّ الشراب خـاناه، وأنعم بإقطاع الأمير تَمُرْبَاي المذكور وهو إمْرَة طَبْلَخَانَاه على الأمير أَرْكَمَاس اليُوسُفِيّ، وبإقطاع الأمير أرْكَمَاس المذكور على سُودُون النَّوْرُوزِيّ الحَمَوِيّ، وبإقطاع سُودُون الحَمَوِيّ على شاهين الحَسَنِيّ وتَغْرِي بَرْدِي المحمدي ـ قُسِم بينهما ـ وأنعم بإقطاع الأمير جُلُبَّان الأمير آخُور ـ كان ـ أحدِ المقدَّمين المُتَجرِّدِين على الأمير علي بَاي من علم شيخ المؤيّدي الدوادَار الكبير، وأنعم بإقطاع علي بَاي المذكور على الدِّيوان المُفْرَد(١).

وأنعمَ بإقطاع الأمير مُقْبل الحُسَامِيّ الدَّوَادَار الكبير الذي تَسَحَّبَ قبل تاريخه من القاهرة إلى الشّام على الأمير جَقْمَق العلائي الخَازِنْدَار، وهو الملك الظاهر جَقْمَق، وأنعم بإقطاع الأمير أَلْطُنْبُغَا المَرْقَبِيّ حاجب الحجّاب أحد المجرّدِين على الأمير قَصْرُوَه مِن تِمْرَاز الظّاهِرِيّ، وأنعم بإقطاع قَصْرُوَه على مُغُلْبَاي البُوبَكْرِي المؤيَّدي السَّاقي، ثم أنعم على الأمير قَانِبَاي الحَمْزَاوِيّ ثاني رأس نوبة بإمْرَةِ مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشرين شهر ربيـع الأوّل المذكور فَرَّق الأميرُ ططر على الأمراء والمماليك ـ في دفعة واحدة ـ أربعمائة فَرس بـرسْمِ السَّفر إلى الشّام، وقد عزم على المسير إلى البلاد الشّاميّة صُحْبَة السلطان الملك المظَفر أحمد، بعد أن رَسَم للأمراء والمماليك بالتجهيز إلى السفر.

ثم قَدِمَ قُصَّاد الأمراء المجرّدِين إلى مِصر بِطَلَب جمالهم وأموالهم، فَمُنِعُوا من ذلك، وكتب للأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ بأن الجِمَال فرّقها السلطانُ، وقد عزم على السَّفر، وأنتَ مُخَيَّرٌ بين أن تحضر على مَا كُنْتَ عليه، وبين أن تستقرّ في نيابة الشّام عِوَضاً عن جَقْمَق الأَرْغُون شَاوِيّ.

(١) لعلّ المراد أنه ضمّ إقطاع علي باي المذكور إلى الديوان المفرد فأصبح هذا الإقطاع مضافاً لما هو خاص السلطان. أو لعلّ المراد أنه أنعم بإقطاعه على متولّي الديوان المفرد.

ثم أخذ الأميرُ ططر في التهيؤ والاهتمام إلى السفر.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرينه خلع الأميرُ ططر على الأمير صلاح الدين محمد ابن الصّاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخَوَاصِّ[١] باستقراره أستادار العالية[٢] عوضاً عن الأمير يَشْبُك المؤيَّدِي المعروف بأتالي بعد عزله، وأنعم على صلاح الدين المذكور بإمْرَة مائة وتقدمة ألف.

وفي هذا اليوم والذي قبله نُودِيَ بالقاهرة وظَوَاهِرِها بأن لا يُسَافِرَ أحدٌ إلى البلاد الشّاميَّة، وهُدِّدَ مَن وُجِدَ مسافراً إليها بالقَتْل. وكان القَصْدُ بهذه القَضِيَّة تَعْمِيَةَ أخبار مِصْر وأحوالها عن الأمراء بالبلاد الشّامية والمخالفين عليه.

قلت: ولهذه الفعلة وأشباهها كان يعجبني أفعال الأمير طَطر؛ فإنه كان يسيرُ على طريق ملوك السَّلف في غالب حركاته، لكثرة اطِّلَاعِه لأخبارهم وأمورهم، ومن تعمِيَة الأخبار على العدو، والتَّوَرِّي في الأسفار من أن يقصد مكاناً فَيُورِيَ بآخر. ومن مخادعة أعدائه والتَرَقُّق لهم فإنه بلغه ــ لمَّا استفحل أمْرُه ــ عن الأمير علي باي المؤيّدي الدَّوَادار، أنه يقول لخُجْدَاشِيته المؤيَّدية: «لا تكترثوا بأمْره أنَا كفاية له. إن استقامَ فهو على حاله، وإن تَعَوَّج أخذتُه بيدي وألقيتُه من أعلى القَصْر إلى الأرض، وأيش هو ططر؟». فلمَّا سَمِعَ ذلك أمَرَ القائِلَ له بالكِتْمَان، وأخذ في الإلمام على علي بَاي المذكور وإظهاره على سِرِّه، وهو مع ذلك في قلبه منه أمورٌ وحَزَازَات، وأيضاً لمَّا وَصَل إلى الشّام حسبما نذكره.

وقدم عليه خُجْدَاشِيته[٣] من عند قَرَا يُوسُف على أقبح حال من الفَقر ــ أعني عن الأمراء الذين هربوا من الملك المؤيّد في وقعة قَانِي بَاي نائب الشّام، وهم سُودُون من عبد الرحْمَن نائب طرابُلُس، وتَنِبك البَجَاسِيّ نائب حَمَاة، وطربَاي

(١) هو المتحدّث على أملاك السلطان الخاصة.

(٢) راجع فهرس المصطلحات.

(٣) ويقال أيضاً: «الخشداشية». وهم رفاقه من المماليك، بمثابة إخوته كونهم يتبعون جميعاً سيداً واحداً. وفي تأصيل هذه الكلمة راجع فهرس المصطلحات.

نائب غَزّة، وجانِي بَك الحَمْزَاوِيّ، ويَشْبُك الجَكَميّ الدوادار الثاني الذي كان فر مِن الحِجَاز إلى العِرَاق، وغيرهم ــ فلمَّا وصَلُوا إلى دِمَشْق وتمثلوا بين يَدَيْ ططر ورآهم علي باي الدوادار المذكور، وتَغْرِي بَرْدي المؤيّدي أمير آخُور كبير قالا للأمير ططر ــ لَمَّا أتوا ــ: «هؤلاء يُرِيدُون العَوْدَ إلى ما كانوا عليه، وهم أعداءُ أستاذِنَا»، فقال لهما طَطَرُ: «أعوذ بالله، هؤلاء ما بقي فيهم بقيّة لطلب ما ذَكَرْتُموه مِمَّا قاسُوه من الغُرْبَة والتَّشَتُّت، وإنما قَصْدُ كُلٍّ واحد منهم ما يقوم بأَوَدِه، مثل إقطاع حلقة ويقيم بالقُدْس، أو مرتَّبٍ ويقيم بدِمْياط، أو شيء على الجوالي، وأنتم تعرفون أنهم خُشْدَاشِيُّتنا لا يمكننا إلَّا النَّظَر في أحوالهم بنحو ما ذكرناه»، فَلَمَّا سَمِعَ المؤيّديةُ ذلك قالوا: «هذا ما نقول فيه شيئاً، وأما غيرُ ذلك فلا»، فقال لهم طَطَر: «وما تَمَّ غير ما قلته»، فانخدعوا وسكتوا، على ما سنذكره من أمرهم عند قدومهم على الأمير طَطَر بدِمَشْق. انتهى.

ثم أخذ الأميرُ طَطَر ــ بعد المناداة ــ في تجهيز أَمْرِه وأَمْرِ السلطان إلى السَّفَر.

فلمَّا كان يومُ الاثنين رابع شهر ربيع الآخر ركب الأميرُ طَطَر نظامُ المُلك من قَلْعَةِ الجَبَل، ومعه الأمراء والخاصّكيّة والمماليك السلطانيّة، وسار إلى جهة قُبّة النصر، ثم عاد ودَخَل القاهرة من باب النَّصر، وخَرَج من باب زُوَيْلة إلى أن طَلَعَ إلى القَلْعَة في مَوْكِب سلطاني لم يفقد فيه إلا الجَاوِيشِيَّة والعِصَابة السلطانيّة[١]؛ وهذا أوّل مَوْكِب رَكِبَه الأميرُ طَطَر من يوم تحكُّمِه في الديار المصريّة، وهو من يوم موت الملك المؤيد شيخ.

ثم في سادسه نُودِيَ في المماليك السلطانيّة بالطلوع إلى القَلْعَة لأخذ نفقة السَّفر في يوم الخميس. فلما كان يوم الخميس المذكور جلسَ الأميرُ طَطَر نِظَامُ المُلْك بقلعة الجبل، وأنفقَ في المماليك السلطانية نفقة السَّفر، لكل واحد مائة دينار إفْرَنْتِيَّة[٢]. ثم في تاسعه أنفق على الأمراء والمماليك أيضاً، فحمل للأمير

(١) العصابة السلطانية: راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه. (صبح الأعشى: ٨/٤) وفي التعريف بالجاويشية انظر فهرس المصطلحات.

(٢) هي الدنانير الذهب الإفرنسية أو البندقية، ويقال لها الدنانير المشخّصة. راجع فهرس المصطلحات.

الكبير تَنِبَك مِيق خمسة آلاف دينار، ولمن عداه أربعة آلاف دينار وثلاثة آلاف دينار.

وفي عاشره أخرج الأميرُ طَطَر ولَدي الملك الناصر فَرَج من قلعة الجَبَل، ووجَّهَهُما إلى سجن الإسكندرية كما كانا أوّلاً به. وكان سببُ قُدُومهما من الإسكندرية إلى مصر أنَّ عمتهما خَوَنْد زَيْنَب بنت السلطان الملك الظاهر بَرْقُوق وزوجة الملك المؤيّد شيخ كانت سألت زَوْجَها الملكَ المؤيّد في قُدُومِهما بسبب ختانهما، فقدما إلى القلعة وخُتِنَا، وهما محمد وخليل، فأقاما عند عَمّتِهِمَا إلى أن مات الملكُ المؤيّد. فلما عزم طَطَرُ على التوجّه إلى البلاد الشاميّة أمر بعودتهما إلى الإسكندرية وسجنهما بها كما كانا أوّلاً.

ثم في رابع شهر ربيع الآخر خرجت مُدَوَّرَة[١] السلطان إلى الرَّيْدَانيّة خارج القاهرة، فَقَدِمَ الخبرُ على الأمير طَطَر بأن عساكر دِمَشْق بَرَزَت منها إلى اللَّجُّون، فَرَكِبَ الأميرُ طَطَر في يوم الثلاثاء تاسع عشرة من قلعة الجبل ومعه السلطان الملك المظفر أحمد والأمراء وسائر أرباب الدولة، ونزل من قلعة الجبل إلى الريْدَانيّة بمخيّمِهِ، وسافرت أمُّ السلطان الملك المظفّر أحمد خَوَنْد سَعَادَات في مَحَفَّة صحبة ولدها. وأَصْبَح من الغد في يوم الأربعاء رحل الأميرُ الكبيرُ تَنِبَك مِيق من الرَّيْدَانيّة ومعه عدّةُ أمراء جاليشاً[٢].

ثم استقلّ الأمير طَطَر بالسَّفر ومعه السُّلْطان والخليفة والقضاةُ الأربعة وبقيّة العساكر في يوم الجمعة ثاني عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، والمَوْكِبُ جميعُه لطَطَر، بعد أن جعل الأميرَ قَانِي بَاي الحمزاويّ نائب الغيبة[٣] بالديار المصريّة، وهو يومئذ غائب ببلاد الصَّعِيد، وأن يَنُوبَ عنه في نيابة الغَيْبة الأميرُ جَقْمَقْ العلائي

---

(١) هي خيمة السلطان الكبيرة التي ترافقه في أسفاره. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) الجاليش هنا بمعنى الطليعة التي تتقدم الجيش للاستطلاع والاستكشاف. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٣) نائب الغيبة: ينوب عن السلطان عند غيبته ويحكم في كل ما يحكم فيه السلطان. وأحياناً يوزع السلطان الصلاحيات والمهام على أكثر من نائب، كل واحد في شأن من الشؤون، وذلك زيادة في الحيطة.

أخو جاركس المُصَارِع إلى أن يحضر قَانِي بَاي، وجعل معهما أيضاً في القاهرة مِنَ الأمراء المقدَّمين الأميرَ آقْبُغَا التَّمْرَازِيّ، والأمير قَرَا مُرَاد خَجَا الشَّعباني.

وسار الأميرُ طَطَر من الرَّيدانية بالسلطان إلى أن وَصَلَ مدينة غَزَّة في يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى.

وفي مُدَّةِ إقامته بغَزَّةَ قَدِمَ عليه جماعةٌ من الأُمَرَاءِ مِمن خرج من عَسْكَر دِمَشْق، مِنْهُم الأميرُ جُلُبَّان أمير آخور، وكان أحد الأمراء المجرَّدِين إلى حَلَب في أيام المَلِكِ المُؤيَّد، والأمير إينال النَّوْرُوزِيّ نائب حَمَاة، وغيرهما، فسُرَّ الأميرُ طَطَر بهما. وفرَّ منهم ــ ممن كان خَرَج معهم من دِمَشْق ــ الأميرُ مُقْبِلُ الحسامي الدَّوَادَار ــ كان ــ في طائفة يُرِيدُ دِمَشْق إلى الأمير جَقْمَق.

ثم سار الأميرُ طَطَر من غَزَّةَ بالسلطان والعساكر يريدُ دِمَشْق حتى وصلَ إلى بَيْسَان في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى، فَوَرَدَ عليه الخبرُ من دِمَشْق بأن الأمير مقبلاً الدوادار لما وَصَل إلى دمشق، وأخبرَ الأمراء بدخول الأمير جُلُبَّان والأمير إينال النَّورزوي في طاعة الأمير طَطَر، شَقَّ ذلك على الأمير جقمق الأرغون شاوي نائب الشَّام، وعلى الأمير الكبير أَلْطُنبغا القرمشِيّ ومن معه من الأمراء المصريين، واضطربَ أمرُهم وتكلَّمُوا في المصلحة، فلم ينتظِر لهم أمرٌ واختلفا ــ أعني القرمشي وجقمق نائب الشام ــ فاقتضى رأي ألطنبغا القرمشي ومن معه الدُّخُول في طاعة الأمير طَطَر، والتسليم له فيما يفعل، وامتنع جقمق نائبُ الشَّام مِن ذلك وأَبى إلا قتال طَطَر. وافترقا من يومئذ، وصارا في تَبَايُن، إلى أن كان يوم الثلاثاء ثالث جُمادى الأولى المذكورة بلغ الأمير أَلطنبغا القرمشي عن جقمق أنه يُرِيدُ القبض عليه، وعَلَى مَن مَعه من الأمراء، فطلب أصحابَه وشاوَرَهم فيما يفعل، فاقتضى رأيُهم محاربته. فبادر القرمشي إلى محاربة جَقْمَق، وركب بمماليكه وأصحابه بآلة الحَرْب وعليهم السِّلَاح، ووقف بهم تجاه قَلْعة دمشق، وقد رفع

---

(١) الصنجق والسنجق السلطاني: هي الأعلام الصغيرة الصفراء الخاصة بالسلطان. (صبح الأعشى: ٩/٤).

الصَّنْجَـق السلطاني، وأعلن بطاعة السلطان، فأتاهُ جماعةٌ كبيرةٌ من أُمراء دِمَشْق وغيرها راغبين في الطّاعة.

وبلـغ جقمـق ذلك، فتهيّأ لقتاله، ولبس السلاح، ونزل بمماليكه وأصحابه، وصدم بهم الأميرَ ألطنبغا القرمشي ومن معه، وقاتلهم، فكان بينه وبينهم وقعةٌ هائلةٌ طول النهار، إلى أن انكسر الأمير جَقْمَق، وتوجّه هو والأميرُ طوغان أمير آخور، والأمير مُقْبِل الحسامي الدَّوادَار في نحو الخمسين فارساً إلى جهة صَرْخَد، وأن الأمير ألطنبغا القرمشي استولى على مدينة دِمَشْق، وتقدّم إلى القضاة والأعيان أن يتوجَّهُوا إلى ملاقاة السلطان والأمير ططر. فَسُرّ الأميرُ ططر بذلك غاية السرور، وعلم أن الأمرَ قَدْ هَان، وتحقق كل أحد ثبات أمره، وأنه سيصيرُ أمرُه إلى ما سنذكره.

وكان الذي قدم عليه بهذا الخبر الأميرُ أَزْدَمُر الناصري، أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية، ممن كان صحبة القرمشي بالبلاد الحلبية. ثم قدم على الأمير ططر أيضاً الأمير قطلوبغا التَّنَمي نائب صَفَد، وخلع عليه الأميرُ ططر باستقراره على نيابة صَفَد.

ثم ركب الأميرُ ططر ومعه السلطان والعساكر إلى نحو دمشق حتى دخلها من غير ممانـع بكرة الأحد خامس عشر جمادى الأولى المذكورة، بعد أن تلقاه الأمير الكبيرُ ألطنبغا القرمشي ومعه الأمير ألطنبغا المـرقبي حاجب الحجَّـاب بالـديار المصرية، والأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق أحد مقدَّمي الألوف بديار مصر، والأمير سُودُون اللَّكَاشي أحـد مقدّمي الألـوف أيضاً، والأميـر آقْ بَلَاط الدمرداش أحد مقدّمي الألوف أيضاً.

ولما دخل القرمشي على السلطان الملك المظفر [أحمد] نَزَلَ وقَبَّل الأرضَ له بمن معه، وسلّم على الأمير طَطَر، ثم ركب وسَارَ في خدمة السُّلْطان، فتأدَّب معه الأميرُ ططر نظامُ الملك بأن يسير في ميمنة السلطان الملك المظفر، فامتنـع من ذلك، وألـحَّ عليه فأبى إلا سيره في ميسرة السلطان، كل ذلك بعد أن خلـع

السلطان علي القرمشي، وسار السلطان إلى أن طلع إلى قلعة دِمَشْق ومعه الأميرُ ططر.

فأوّل ما بدأ به الأميرُ ططر أن قَبَض على الأمير الكبير ألطنبغا القرمشي، وعلى الأمير جَرِباش الكريمي، وعلى الأمير ألطنبغا المرقبي، وعلى الأمير أُرْدبُغا من أمراء الألوف بدمشق، وعلى الأمير بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسي أستادار المؤيَّد [شيخ] وعلى جماعة أخر.

وأصبح يوم الاثنين سادس عشرة جلس للخدمة بقلعة دمشق، وخلع على الأمير تنبك مِيق العلائي باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن جقمق الأرغون شاوي الدوادار، وخلع على الأمير إينال الجكمي رأس نوبة النوب واستقر به في نيابة حلب، عوضاً عن الأمير ألطنبغا مِن عبد الواحد المعروف بالصغير، وعلى الأمير يونس الرُّكْني الأَعْوَر أتَابك دِمَشق باستقراره في نيابة غَزّة عوضاً عن أَرْكَمَاس الجُلُبَّانِي.

ثم خلع على الأمير جانِي بك الصُّوفي أمير سلاح باستقراره أتابَك العساكر بالدِّيار المصرية عوضاً عن تَنِبك ميق.

ثم أخذ الأمير ططر في العمل على مَسْك جَقْمق الدَّوَادار، فبعثَ إليه الأمير بَيْبغا المظَفّري أمير مَجْلس، والأمير إينال الشَّيخي الأَرغزي، والأمير يشْبُك أنالي المَعْزول عن الأستادارية، والأمير سُودون اللَّكَاشِيّ، ومعهم مائتا مملوك من المماليك السلطانية، فساروا إلى صَرْخَد.

وأرسل الأمير ططر المُبَشِّر إلى الديار المصرية بقُدُوم السلطان إلى دِمشق وبالقَبْض على الأمير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِي، فدقت البشائر بقلعة الجبل لذلك ثلاثة أيام، وزينت القاهرة عشرة أيام.

ثم تزوَّج الأميرُ الكبيرُ طَطَر بأم السلطان الملك المُظَفَّر أَحْمَد، صاحب

التَّرْجَمة، وهي خَوَنْد سَعَادَات بنت الأمير صَرْغَتْمُش، وَبَنى بها، فصار عمّ السلطان زوجَ أمّه ونظام مُلكه، مع ما تمهد له من الأمر من مسك الأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ ورفقته، ومن وُرُود الخبر عليه بمجيء خُجْدَاشِيَّتِه الأمراء الذين كانوا فَرُّوا من الملك المؤيّد في وقعة الأمير قَانِي بَايْ المحمدي نائب الشام المقدّم ذكرهم.

فلمّا كان يوم الثلاثاء ثامن جُمَادَى الآخرة، قَدِمَ الأمراءُ المقدّم ذكرهم من عند قَرَا يُوسُف بعد موته، وكانوا عند قَرَا يُوسُف من يوم فَروا من وقعة الأمير قَانِي بَاي، وهم الأمير سُودُون من عبد الرّحمن نائب طَرابُلُس كان، والأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب حَمَاة كان، والأمير طَرَبَاي الظَّاهِرِيّ نائب غَزّة كان، والأمير يَشْبُك الجَكَمِيّ الدَّوادار الثاني كان، وهو الذي فَرَّ من المدينة الشَّرِيفة لما كان أمير الحاجّ وتوجَّه إلى العراق في سنة (إحْدى وعشرين وثمانمائة) والأمير جَانِي بَك الحمزاويّ، والأمير مُوسى الكَرْكَرِي بمن كان معهم، فخلع عليهم الأميرُ طَطَر وأنعمَ عليهم بالمال والخيل والسلاح، غير أنه لم يعط أحداً منهم إقطاعاً ولا إمْرَة خَوْفاً من المماليك المؤيديّة، وكذلك الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي نائب طَرابُلُس كان، أعني الملكَ الأشرف لَمَّا أطلقه من سجن قلعة دِمَشْق، لم يُنعم عليه بإقطاع، وكان من خَبَرِهِ أنّ الملك المؤيّد جعله بعد إطلاقه من سجن المَرْقَب أمير مائة ومقدّم ألف بدِمَشْق، فَقَبَضَ عليه الأميرُ جَقْمق وحبَسه إلى أن أطلقه طَطَر. انتهى.

ثم أمر الأميرُ طَطَر بابن محب الدين الأستادار ــ كان ــ فصُودِرَ وعُوقِب أشدّ عقوبة، وأجْرَى عليه العذاب، وأخذَ منه جُملاً مُستكثَرَة، ولا زَالَ في العُقُوبة إلى أن مات في سابع عشرين جُمادى الآخرة، كل ذلك بعد قَتْل الأمِير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ.

وخبرُه أن الأمير طَطَر لَمّا طلعَ إلى قلعة دِمَشْق وقَبَضَ عليه في الحال ارتجَّ العَسْكَرُ لمسْكِهِ، وعَظُمَ ذلك على جماعةٍ كبيرة من المماليك السلطانية الظاهريّة، وطلبوا من الأمير طَطَر إبقاءه، فَرَأى طَطَرُ أنه لا يتِمُّ له أمرٌ مع بقائه، وأرسل

القَرْمَشِيّ أيضاً يَتَرَقَّقُ له، فلم يلتفت طَطَرُ إلى هذا كله، وتمثل لسانُ حاله بقول المتنبي: [الكامل]

لاَ يَخْدَعَنَّكَ من عَـدُوِّكَ دمعُه   وارحَمْ شبَابَك من عـدُوٍّ تـرحـمُ
لاَ يَسْلَمُ الشَّـرَفُ الـرَّفيـعُ منَ الأذَى   حتَّى يُـراقَ عَلى جَـوَانِبـهِ الـدَّمُ

وجَسَرَ عليه وقَتَله بعد أيَّام، فلم ينتطح في ذلك عنزان.

وكان الأميرُ أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ حسنةً من حسنات الدهر عَقْلاً وحِشْمَةً ورياسة وسُؤْدُداً وكَرَماً، مـع اللِّين والأدب والتواضـع، كما سيأتي ذكره في حوادث سنة أربـع وعشرين وثمانمائة إن شاء الله تعالى.

ولما أن مَهَّد الأميرُ طَطَر أمورَ دِمَشْق، وقَوِيَ جانبُه بخُشْدَاشِيّته وأصحابه، عَزَم على التوجُّه إلى حَلَب.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرين جمادى الآخرة المذكور ركب الأميرُ طَطَر من قلعة دِمَشْق ومعه السلطانُ الملكُ المظفّر وجميعُ عساكره، وتوجّه إلى جهة البلاد الحَلَبِيّة، وسار حتى وصلها في العشر الأَوَّل من شهر رجب، بعد أن فرَّ منها الأميرُ أَلْطُنْبُغَا الصَّغير قبل قدومه بمُدَّةٍ، وملكها الأميرُ إينَالُ الجَكَمِيُّ، وسَكَنَ بدار السَّعادة على عادة النُّوَّاب. وأقام الأميرُ طَطَرُ بحَلَب، وأخذ في إصلاح أمرها، وخَلَـعَ على أمراء التُّرْكُمَان والعُرْبَان، وبعث رُسُلَه إلى البلاد. وبَيْنَما هو في ذلك قَدِمَ عليه الأميرُ مُقْبِل الحُسَامِيّ الدَّوادَار ــ كان ــ أحد أصحاب جَقْمَق طَائِعاً، وقَدْ فَارَقَ الأميرَ جَقْمَق من صَرْخَد بعد أن حُوصِرَ جَقْمَقُ من الأمير بَيْبُغَا المُظَفَّرِيّ المقدم ذكره ورفقته أيَّاماً، فخلـع الأميرُ طَطَرُ على الأمير مُقبِل المذكور وعفا عنه، وفي النفس من ذلك شيء. ثم خلـع الأميرُ طَطَر على الأمير تَغْرِي بَرْدي من آقْبُغَا المؤيَّدِيّ، الأمير آخور الكَبِير المعروف بأخي قَصْرُوه، باستقراره في نيابة حَلَب عوضاً عن الأمير إينَال الجَكَمِيّ، وخلـع على الأمير إينَال الجَكَمِيّ باستقراره أميرَ سلاح عوضاً عن جانِي بك الصُّوفي بحكم انتقاله إلى أتابَكِيَّـة العساكر بديار مصر، وخَلَع على الأمير تَمُرْبَاي اليُوسُفِيّ المؤيَّدِي المُشِد باستقراره

أميرَ حاج المحمل، فخرج من حَلَب وسار إلى الديار المصرية ليتجهّز إلى سَفرِ الحجاز.

ثم أبطأ على الأمير طَطَر أمرُ جَقْمَق بصَرْخَد، فنَدَبَ له الأميرَ بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِي نائب طَرَابُلُس ــ كان ــ ومعه القاضي بدر الدين محمد بن مُزْهِر ناظر الإسطبل ونائب كاتب السِّرِّ، وأرْسَل معه أماناً لجَقْمَق المذكور ولِمَن معه، وحَلَفَ له أنه لا يمسّه بِسُوء إن سَلَّمَ إليه صَرْخَد وقَدِمَ إلى طاعته. فَرَكِبَ بَرْسْبَاي وتوجّه إلى صَرْخَد. وما زال [برسباي] بالأمير جَقْمَق ومن عنده حتّى أذْعَنُوا لِطَاعَةِ الأميرِ طَطَر، ونزلوا مِن قلعة صَرْخَد، وتَوَجَّهُوا صُحْبَةَ الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِيّ إلى دِمَشْق، وهم: الأميرُ جَقْمَق نائب الشّام، والأمير طُوغَان أمير آخُور الملك المؤيَّد وغيرهم. فلمَّا قَدِمُوا إلى دِمَشْق قَبَض عليهم الأميرُ تَنِبَك مِيق نائب الشّام، ولم يلتفت إلى كلام الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِي، وحبس الأميرَ جَقْمَق والأميرَ طُوغَان أمير آخور بقلعة دِمَشْق، وقال: «إذا جاء الأميرُ الكبيرُ طَطَر إنْ شاءَ يُطْلِقْهُما وإن شاء يَقْتُلْهُمَا»، فاحتدّ الأميرُ بَرْسْبَاي لذلك قليلاً ثم سَكَنَ ما به لَمَّا عَلِمَ المَصلحة في قَبْضِهِما. وقيل إن الأمير بَرْسْبَاي لما قَدِمَ بِهِمَا إلى دِمَشق قال للأمير تَنِبَك مِيق: «أنا قد حلفتُ لهما فاقْبِض عليهما أنت»، ففعل تَنِبَك ذلك؛ والصَّواب عندي هو القَوْلُ الثاني.

وأما الأميرُ طَطَر فإنه أقَام بحَلَب هو والسلطان والعساكر إلى يوم الاثنين حادي عشر شعبان، فَبَرَزَ فيه من مدينة حَلَب يريد مدينة دِمَشْق، بعد أن مَهَّد أمورَ البلاد الحلبيّة، وخَلَعَ على مَمْلُوكِهِ ــ ورأس نوبة ــ الأميرِ بَاك، باستقرارِهِ في نيابة قلعة حَلَب؛ وكان الأمير بَاك من أخصّاء الأمير طَطَر وأعيان مماليكه.

وسَارَ الأميرُ طَطَر إلى أن دخل دِمَشق هو والسلطانُ الملك المظفرُ أحمد في يوم السبت ثالث عشرين شعبان، فارتجت دمشق لدخوله، وعبر دمشق وجميع الأمراء بين يديه، والسلطانُ معه كالآلة على عادته، وطلع إلى قلعة دِمَشق، وشكر الأميرَ تَنِبَك مِيق على قبضه على جَقْمَق، ثم أمر بجَقْمَق فَعُوقِبَ على المال، ثم قُتِل بقلعة دِمَشق.

ثم أخرج الأميرَ طُوغَان الأمير آخُور من حَبْس قلعة دِمَشق، وأرسله إلى القُدْس بَطَّالاً، فخفَّ الأمرُ كثيراً على الأمير طَطَر بقتل الأمير الكبير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ، ثم بقتل الأمير جَقْمَق نائب الشّام. ولم يَبْقَ عليه إلا الأمراء المؤيديّة ــ وكانت لهم شَوْكَة وسَطْوَة بخشداشيّتهم المماليك المؤيدية ــ فأخذ الأميرُ طَطَرُ عند ذلك يُدَبِّر على قَبْضِهم وَجَبُن عن ذلك. وتكلم مع خشداشيّته المماليك الظاهِريّة [برقوق] في ذلك، فاختلفت آراؤهم في القَبْض عليهم؛ فمنهم من رأى أن القبض عليهم بالبلاد الشَّامِيّة أصلح، ومنهم من قَالَ المصلحة أن الأمير الكبير طَطَر يَعُودُ إلى مِصْرَ، ثم يفعل ما بدا له بعد أن يصير بقلعة الجَبَل، فمالَ طَطَرُ إلى القول الثاني من أنه يعود إلى مصر، ثم يقبض عليهم، ثم يتسلطن. فلم يرض الأميرُ قَصْرُوَه مِن تِمْرَاز بذلك، وقام في القَبْضِ عليهم، وبالغ في ذلك، وهوَّن أمر المؤيديّة [شيخ] على الأمير طَطَر إلى الغاية، حتى قال له: «لا تتكلّم أنت في أمرهم، وأنا والأمير بَيْبُغَا المظفريّ نكفيك أمرَ هؤلاء الأجلاب»، كل ذلك لِمَا كان في نفس قَصْرُوَه من أستاذهم الملك المؤيد؛ فإنه حدثني بعض أعيان المماليك الظاهريّة قال: «لَمَّا أخرجَ الملكُ المؤيّد قَصْرُوَه من السِّجن وأنعمَ عليه بإمْرَةِ عشرة، صَادَفْتُهُ في بعض الأيام عند باب زُوَيْلة، فسلمتُ عليه ورَجَعْتُ معه، فقال لي: يا أخي فلان، فقلتُ له: نعم، قال: تنظر ما يفعل بنا هذا الرجل وبخُشْدَاشِيَّتنا؟ قلتُ: نعم نظرتُ، قال: الله لا يميتني حتى أفعلَ بمماليكه، ما فعل بخُشْدَاشِيَّتَنا من الحَبْس والقتل والتشتت. فقلتُ له: هل قلت هذا الكلام لأحد غيري؟ قال: لا. فقلتُ له عند ذلك: أَمْسِك ما مَعَكَ، لأن غَرِيمَك صَعْبٌ، ومتى ما سَمِعَ بعضَ هذا الكلام عَنْكَ لا يُبْقِيك ساعةً واحدةً. فقال: أعرف هذا، فاكْتُم أنتَ أيضاً ما سمعته مني. وتفارقنَا، فلم يكن إلا بعد مُدَّة يسيرة ومات الملك المؤيّد، ووقع ما وقَع من أمْرِ الأمير طَطَر، إلى أن قام قَصْرُوَه في مَسْك المؤيّديّة، ومُسِكوا عن آخرهم، فلمَّا كان بعد أيّام رآني وقال: أخي فلان، فقلتُ: نعم، قال: هل وفَّيتُ بما قُلْتُ أم لا؟ فقلتُ: نعم وَفَّيْتَ وزيادة». انتهى.

وقَدْ خرجنا عن المقصود، ولنعد لما كنَّا فيه.

ولما سَمِع الأميرُ ططر كلامَ قَصْرُوَه، هانَ عليه أمرُ المؤيديّة، وَوافق قَصْرُوَه

الأميرُ تَغْري بَرْدِي المحمودي الناصريّ، والأمير بَيْبُغا المُظَفَّري أمير مجلس، والأمير يَشْبُك الجَكَمِيّ، القادم من عند قَرَا يُوسُف، والأمير أَزْدَمُر شَايا، والأمير أَيْتَمُش الخضريّ؛ ولا زالوا بالأمير طَطَر حتى وافقهم على القَبْض عليهم، بعد أن قال لهم: «اصبروا حتى نَكْتُب بقَتْل الأمير قَجْقَار القَرْدَميّ أمير سلاح». وكتب إلى مصر، ثم إلى نائب إسكندرية الأمير قَشْتَم المؤيديّ بقتله، فقتل في شعبان المذكور.

وصار طَطَر يتردَّد في القَبْض على المؤيّديّة، إلى أن كان يوم الخميس ثامن عشرين شعبان من سنة أربع وعشرين المذكورة، وحضر الأمراءُ الخِدْمَة على العادة، وقرِىء الجيش، وفرغت العلامة[1]، وقبل أن يخضر السِمَاط مَدّت الأمراء الظاهرية أيديهم فقبضوا على الأمراء المؤيدية في الحال، الذين حضروا الخِدْمة والذين تأخَّروا عن الخِدْمَة، فكان ممن قُبِض عليه منهم سبعة[2] من مقدَّمي الألوف من مشتروات الملك المؤيد، وممن أنشأه، وهم:

الأمير إينال الجَكَمي أمير سلاح. أصله من مماليك جَكَم من عَوَض نائب حَلَب، إلَّا أن المؤيد هو الذي أنشأه ورقَّاه.

والأمير إينال الشَّيْخي الأرغزيّ حاجب الحُجَّاب، وكان أصلُه من مماليك الأمير شيخ الصَّفَوِيّ، أمير مجلس في دولة الملك الظاهر برقوق، غير أنه خدم الملك المؤيد قديماً، واختصَّ به أيام تلك الفتن، فلما تسلطن رقّاه وقرَّبه إلى الغاية.

---

(١) قرىء الجيش وفرغت العلامة: المراد بذلك قراءة نوع من «التقرير» الكليّ أو الجزئي يتضمَّن إقطاعات أمراء الجيش وأجناده وأسماء القادة فيه وعرض قصصهم (شكاواهم أو التماساتهم) أمام السلطان وأخذ موافقته على ذلك بأن يضع توقيعه بواسطة قلم خاص يسمى قلم العلامة. ولما كان الأمر يتعلّق بالجيش، ويتولى ذلك عادة ناظر الجيش، فقد عبروا عن ذلك بكلمة «الجيش» كنوع من التكنية. وعن قلم العلامة راجع ص ٨ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) المعلوم أن مقدمي الألوف هم كبار الأمراء في الجيش المملوكي وفيهم تكون الوظائف الكبرى في الدولة. وإذا علمنا أن عدد مقدمي الألوف (يقال: أمير مائة/مقدّم ألف ــ وهي تسمية غير منفصلة الجزئين) في الجيش المملوكي كان أربعة وعشرين ــ يزيد أو ينقص قليلاً في بعض الأحيان ــ تبينّ لنا خطورة الإجراء الذي أقدم عليه الأمير ططر، وهو القبض على نحو ثلث قادة الجيش المملوكي دفعة واحدة، وهو بلا شك إجراء يعادل انقلاباً عسكرياً بكل معنى الكلمة.

والأمير سُودُون اللَّكَّاش الظاهري أحد الأمراء المجرَّدين إلى حلب صُحْبَة الأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِي. وكان أصله من مماليك الأمير آقْبُغَا اللَّكَّاش الظاهري، وخَدَم الملكَ المؤيد قديماً، فلما ملك مصر أنعم عليه ورقاه حتى جعله أمير مائة ومقدَّم ألف بديار مصر.

والأمير جُلُبَّان أمير آخور كان. وهو أيضاً من جُمْلَة مَن كانَ مجرَّداً صُحبة القَرْمَشِيّ. وفي مُعْتِقِه أقوالٌ كثيرة. وأصلُه من مماليك الأمير تَنِبَك أميـر آخور اليحياويّ الظاهري، ثم أخذه بعده إينالُ حَطَب، ثم جاركسُ المصارِع، ثم اتصلَ بخدمة الملك المؤيّد شيخ، وصار أمير آخور قبل سلطنتـه، فلما تسلْطَن رقاه حتى صار مِن جُمْلَة الألوف بالقاهرة.

ثم على الأمير أَزْدَمُر الناصري. وكان من جملة الأمراء المجرّدين مع أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ. وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، ونسبتهُ بالناصري إلى تاجره خَواجَا نَاصر الدين. وهو مِمَّن أنشأه الملكُ المؤيّد من خُشْدَاشِيَّته ورقاه، وكان رأساً في لَعِب الرُّمـح.

وعلى الأمير يَشْبُك أنالي المؤَيّدي رأس نَوبَة النُّـواب، الذي كـان وَلِيَ الأستادارية في دَوْلة أستاذه المـؤيد كان من أكابر المماليك المؤيدية، ونسبته[1] «أنَالي» أي له أم.

وعلى الأمير علي باي من علم شيـخ المؤيدي الدَّوَادار، وهو أعظم مماليك المؤيد يوم ذاك. وهؤلاء من أمراء الألوف.

وأما الذين قُبِضَ عليهم من أمراء الطبلخانات والعشـرات فكثير، منهم: الأمير مُغُلْباي الأبو بكري السّاقي، وعلى الأمير مُبَارك شاه الرَّماح، وعلى الأمير مَامِش المؤيدي رأس نوبة، وعلى جماعة أخر. ثم قبض على الطَّوَاشي مَرْجان المسلمي الهِنْدِي الخازِنْدَار، ثم أطلقه.

---

(١) كذا. ولعل الصواب: «وتسميته» ووقع عليها تحريف.

وبعد مسك هؤلاء الأمراء خلا الجوُّ للأمير ططر، وعلم أنه لم يَبْقَ له منازعٌ فيما يَرُومُه؛ فإنه كان في قلق كبير من علي باي الدَّوادار وخشداشيته، وفي تخَوُّفٍ عظيمٍ، بحيث إنه كان في غالب سَفره منذُ خَرَج من الديار المصرية لا يفارق لِبس الزَّرَدِية(١) من تحتِ ثيابه حتى أوْرَث له ذلك مرضاً في باطنه من شِدّة برد الزَّرَدية، وتسلسل فيه ذلك من شيء إلى شيء حتى مات حسبما نذكره.

فلما قَبَض [الأمير ططَر] على هؤلاء عزَم على خلع السلطان الملك المُظَفّر أحمد من السَّلْطنة، ووافقه على ذلك جميعُ الأمراء والخاصّكِيّة. هذا وقد صار ططر يأخذ بخاطر(٢) من بَقِيَ من صِغار المماليك المؤيدية ويُقرِّبُهم ويُدْنيهم، ويُسَكِّن رَوْعَهم. على أن كل واحد منهم انتمى لشخص من حواشي ططر، كما هي عادة العساكر المفلولة مِمّن زالت دولتهم، وذَهَبَتْ شَوْكَتُهم. وتخلّف منهم جماعة بالبلاد الشاميّة، وانحطَّ قدْرُهم، وخدموا الأمراء سنين إلى أن أعيدوا في دولة الملك الظاهر جَقْمَق إلى بيت السلطان.

ولَمّا كان يوم تاسع عشرين شعبان من سنة أربع وعشرين وثمانمائة خُلِع السلطان الملك المُظفر أحمد بن المؤيد بالسلطان الملك الظاهر ططر، وأُدْخِل المظفرُ إلى أُمّه خَوَنْد سعادات، وكان ططر قد تَزَوَّجها حسبما ذكرناه؛ فمن يوم خلع ابنها المظفر لم يَدْخُل إليها ططرُ، ثم طلَّقَها بعد ذلك.

وكان مُدَّة سلطنة الملك المظفر من يوم جلوسه على تخت الملك ـ وهو يوم موت أبيه الملك المؤيد شيخ ـ إلى أن خُلِعَ في هذا اليوم، سبعة أشهر وعشرين يوماً. وعاد [المظفَّر] صحبة الملك الظاهر ططر إلى الدِّيار المصرية، وأقام بقَلْعة الجَبَل مُدَّة، ثم أُخْرِج هو وأخوه إبراهيم ابن الملك المؤيّد إلى سِجْن

(١) الزرديّة: هي الدرع المصنوع من صفائح الحديد يتداخل بعضها في بعض (محيط المحيط)، وأصل الكلمة من الفارسية «زره» بكسر الزاي والراء وظهور الهاء الساكنة. وقيل إنها من الفهلوية Zerâd وأنها دخلت الآرامية في صيغة Zrêh وأن هذه الكلمة الأخيرة هي أصل الكلمة العربية «زَرَد» بفتح الزاي والرّاء. والزرد: الدرع من حلق الحديد يلبس في الحرب. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١٢١).

(٢) تعبير عاميّ ما زال مستعملاً إلى اليوم بمعنى المواساة والتخفيف من ألم المصاب.

الإسكندرية، فسُجِنَا بها إلى أن مات الملكُ المظفرُ أحمد هذا في الثَّغر المذكور بالطاعُون في ليلة الخميس آخر جُمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، في سلطنة الملك الأشْرف بَرْسْبَاي، ومات أخوه إبراهيم بَعْدَه بمُدة يسيرة بالطاعون أيضاً، ودُفِنا بالإسكندرية، ثم نُقِلا إلى القاهرة ودُفِنا بالقبة من الجامع المؤيدي داخِل باب زُوَيْلة. ولم يكن للملك المظفر أمرٌ في السلطنة لتُشْكَر أفعالُه أو تُذمَّ لعدم تَحَكُّمِه في الدّولة، وأيضاً لصغَرِ سنه، فإنه مات بعد خلعه بسنين وهو لم يبلغ الحُلم. وأما أخُوهُ إبراهيم فإنه كان أصغر منه، وكانت أُمه أم ولد جَرْكَسِيّة تُسَمّى قطْلُبَاي، تزوّجها الأمير إينال الجَكَمِي بعد مَوْت الملك المؤيد وماتت عنده. انتهى والله أعلم.

ذكر سلطنة الملك الظاهر ططر[١]
على مصـر

السلطانُ الملكُ الظّاهِر سيف الدين أبو الفتح طَطَر. تسلطن بعـد خَلْع السلطان الملك المظفّر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ في يوم الجمعة تاسـع عشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، بقلعة دِمَشْق، وكان الموافق لهذا اليوم يوم نَوْرُوز[٢] القِبْط بمصر. ولَبس خِلْعَة السَّلْطَنَة من قَصْـر قلعَة دِمَشْق، وَرَكِبَ بشعار السَّلْطَنَةِ وأبَّهة المُلك، ولُقِّبَ بالملك الظاهر طَطَر، وذلك بعد أن ثَبَت خلعُ الملك المُظَفَّر. وحَضَر الخليفةُ المعتضـد بالله دَاوُد والقضـاة بقلعة دمَشق، وبايعوه بالسلطنة بحضرة الملأ من الأمراء والخاصّكية، بعد أن سألهم الخليفة في قيامه في السلطنة، فقالوا الجميع: «نحن راضون بالأمير الكبير ططر». وتمّ أمرُه في السَّلْطَنة، وقبَّلَت الأمراءُ الأرضَ بين يديه، وحُمِلَت القُبّةُ والطّيْرُ[٣] على رأسه، وخُطِبَ له على مَنابِر دمَشق من يَوْمه. والملك الظاهـر هذا هـو السلطان الثلاثون من ملوك الترك بالديار المصـرية، والسـادس من الجراكسـة وأولادهم.

---

(١) ترجمته وأخباره فـي السلـوك. ٥٨٢/٤؛ ونزهـة النفوس والأبـدان: ٥٠٨/٢؛ وإنباء الغمـر: ٤٣٨/٧؛ وبـدائـع الزهـور: ٣٢٢؛ والضوء اللامـع: ٧/٤؛ والأعلام: ٢٢٦/٣. وله ترجمة في مورد اللطافة لابـن تغـري بردي: جزء منه ، طبع في كمبردج سنة ١٧٩٢ م. وللمؤرخ بدر الدين العيني كتاب «الـروض الزاهـر في سيرة الملك الظاهر ططر»: نسخة بخط المؤلف اقتنى تصويرها صاحب الأعلام.

(٢) في التعريـف بهذا العيد راجـع فهرس المصطلحات.

(٣) هي المظلّة تحمل فوق رأس السلطان. راجـع في التعريـف بها وصفتها فهرس المصطلحات.

قال المقريزي رحمه الله: كان جاركسي الجِنْس ـ يعني عن الملك الظاهر طَطَر ـ ربَّاه بعضُ التُّجَّار، وعلَّمه شيئاً من القرآن وفِقْهِ الحنفيّة، وقَدِمَ به إلى القاهرة في سنة إحدى وثمانمائة وهو صَبِيّ، فدلَّ عليه الأميرُ قاني باي ـ لقرابته به ـ وسأل السلطانَ الملكَ الظاهر [برقوق] فيه، حتى أخذه من تاجره. ومات السلطانُ قَبْل أن يَصْرِفَ ثمنه، فوزن الأمير الكبير أَيْتَمُس ثمنَه اثني عشر ألف درهم، ونَزَّلَه في جملة مماليك الملك الظاهر في الطِّباق[1] ونشأ بينهم. وكان الملك الناصر أعتقه، فلم يزل في جملة مماليك الطِّباق حتى عاد السلطان الملك الناصر فرج إلى المُلْك بعد أخيه المنصور عبد العزيز، فأخرج له الخيلَ وأعطاه إقطاعاً في الحلقة؛ فانضمّ على الأمير نَوْروز الحافظي، وتقلب معه في تلك الفتن ـ انتهى كلام المقريزي باختصار.

قلتُ: هذا هو الخُبَاط[2] بعينه، ولم أقف على هذا النقل إلا من خَطِّه بعد موته، ولم أسمعه من لفظه، فإن هذا القَوْل يُستحيا من ذِكْره؛ فأما قَوْلُه «اشتراه الملكُ الظاهر برقوق من تاجره» فمُسَلَّم، غير أنه قبل سنة إحدى وثمانمائة، وأنه «لم يُعْطِ ثمَنَه» فيُمْكِن. وأما قوْلُه «وأعتقه الملكُ الناصر فَرَج» فهذا القولُ لم يَقُلْه أحدٌ غيرُه، وبإجماع المماليك الظاهرية أن الملك الظاهر بَرْقوق أعتقه، وأَخْرَج له الخيل والقُمَاش في عِدَّة كبيرة من المماليك، منهم جماعة كبيرة في قَيْد الحياة إلى يَوْمنا هذا. ثم أخرج الملك الظاهرُ خَرْجاً[3] آخر من المماليك بعد ذلك قَبْل مَوْته، من جملتهم الملك الأشرف بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي، والملك الظاهر جَقْمَق العلائي وغيره. وكانت عادة بَرْقوق أنه لا يُخْرِج لمماليكه الجُلبان خيلاً، إلا بعد إقامتهم في الأَطْباق مُدّة سنين، وأنّه لا يُخْرِج في سنة واحدة خَرْجَيْن، وإنّما كان

---

(١) الطباق أو الأطباق: هي الأماكن التي يُربىَّ فيها المماليك الأجلاب ويتلقون مبادىء العلوم الدينية والعسكرية ليكونوا من فئة المماليك السلطانية. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) الخُباط: داء كالجنون (لسان العرب) وهو الصرع (المعجم الوسيط). والمراد هنا الخلط والاضطراب.

(٣) هي الدفعة من المماليك التي تخرج من الطباق إلى حياة الجندية في خدمة السلطان، بعد أن تتلقى التربية الدينية والعسكرية اللازمة.

يُخْرِج في كل مُدّة طويلة خَرْجاً من مماليكه، ثم يُتْبِعُه بعد ذلك بمدّةٍ طويلة بخَرْجٍ آخر، وهذه كانت عادة ملوك السّلف؛ فعلى هذا يكون مُشتَرى طَطَر هذا قبل سنة إحْدَى وثمانمائة بسنين.

ولما أرادَ الملكُ الظاهر عِتْقَ ططر المذكور، عَرضَه في جُمْلة من عرض من مماليك الطِّبَاق الكتابيّة(١)، وكان ططر قَصِيرَ القامة، فاعتقد الظاهرُ أنه صغير، فردّه إلى الطّبقة فيمن ردّ من صِغَار المماليك. وكان الأميرُ جَرباش الشَّيْخي الظاهريّ رأس نوبة واقفاً، فمَسَك ططر من كتفه وقال: «يا مولانا السلطان، هذا فقيهُ طالبُ عِلم، قُرْناصٌ(٢) يَسْتأْهِل الخير»، فأمر له الملك الظّاهِر بالخَيْل وكتب عَتَاقَته أمام السلطان الملكِ الظاهر سُوَيْدَانُ المُقري؛ فكان ططر في أيّام إمْرَته، وبعد سلطنته، كُلَّما رأى الناصرَ محمدَ ابن جَرباش الشيخي يترحَّم على والده ويقول: «لم يعتقني الملكُ الظاهرُ برْقُوق إلا بسفارة الأمير جَربـاش الشيخي، رحمه الله وأحسن إلى ولده المذكور».

وأما قَوْله «وأقام ططرُ في الطَّبَقة حتى عاد الملكُ الناصر إلى مُلكه بعد أخيه المنصور عبد العزيز» فهذا يكون في سنة ثمان وثمانمائة، وهذه(٣) مُجَازَفَةٌ لا يدرى معناها؛ فإنّ ططر كان يَوْمَ ذاك من رؤوس الفِتَن، مُرَشَّحاً للإمرة وولاية

---

(١) المماليك الكتابية: هم مماليك الطباق. وسموا بالكتابية لأنهم يتعلمون فيه القراءة والكتابة.

(٢) القرناص: واحد القرانيص أو القرانصة. وهم طائفة من الأجناد في رتبة أمراء الخمسات. وهم القديمو الهجرة والمرشحون للإمرة. وكانوا يسمّون أيضاً «الوغالر». (انظر زبدة كشف الممالك: ١١٥). والوغالر: لفظ تتري بمعنى الكبار في السن، بالمقارنة مع زملائهم الصغار في الطباق. (المرجع نفسه، حاشية نفس الصفحة). وعلى ما يظهر فإن هذا المعنى الأخير (الوغالر) هو المراد في المتن أعلاه. على أن لفظ «القرانيص» استعمل أيضاً في العصر المملوكي بمعنى مماليك السلاطين السابقين الذين ينضمون إلى السلطان القائم ويكونون قوّة له. وقد اشتهر القرانيص بمهارتهم القتالية، فالشخص الواحد منهم كان يضاهي عشرة أجلاب. وكانوا في صراع دائم مع المماليك الأجلاب المشتروات الذين تتكوّن منهم المماليك السلطانية وخاصكية السطان. (انظر السلوك: ٤/١٠٤٩، ١٠٧٤؛ ومصر في عهد دولة المماليك الجراكسة لإبراهيم علي الطرخان: ص٢٢٦؛ والدولة المملوكية لانطوان ضومط: ص ٣٢ ــ ٣٣).

(٣) في الأصل: «فهذه».

الأعْمال، بل كان قَبْل ذلك في واقعة تَيْمُورلَنْك في سنة ثلاث وثمانمائة من أعيان القَوْم الذين أرادُوا سلطنة الشيخ لاجين الجارِكسيّ بالقاهرة، وعادُوا إلى مصر، وهو يوم ذاك يُخْشى شَرُّه. وأيضاً إنه في سنة ثمان المذكورة كان بَرْسْبَاي الدُّقْماقِي ــ أعني الملك الأشرف ــ صار من جُملة الخاصكيّة السُّقاة الخاص[(١)] الأعيان، وكان من جُمْلة أصْحاب ططر الصِّغار مِمّن يَنْتَمي إليه، وبسفارته اتَّصَلَ إلى ما ذكرناه من الوَظِيفة وغيرها، ولا زال على ذلك إلى أن شفع فيه ططر ــ بعد أن حَبَسه الملكُ المؤيد بالمَرْقَب ــ وأخرجه إلى دِمَشق، كل ذلك وططر مُقَدَّم عليه وعلى غيره من أعيان الظاهرية، ويسمُّونه أغاة[(٢)] مِنْ تلك الأيام؛ فلو كان كما قاله المقريزي [من] أن الملك الناصر فرج أعتقه في سنة ثمانٍ لكان ططر من أصاغر المماليك الناصرية؛ فإن الذين أعتقهم الملكُ الناصر مِمَّن وَرِثهم من أبيه ــ وهم أول خَرْجٍ أخْرَجه ــ جماعةٌ كبيرة مثل الملك الأشرف إينال العلائي سلطان زَماننا، والأمير طُوخ من تِمْراز أمير مَجْلس زمانِنا، والأمير يُونُس العلائي أحد مُقدَّمي الألوف في زماننا، فيكون هؤلاء بالنسبة إلى ططر قَرانِيص وأكابر، وقدماء هِجْرَة، فهذا القَوْل لا يَقُولُه إلاَّ من ليس له خِبْرَةٌ بقواعد السّلاطين، ولا يعرف ما الملوكُ عليه بالكلِّيَة. ولولا أن المقريزي ذكر هذه المقالة في عِدَّة كتب من مصنَّفاته ما كنت أتعرَّض إلى جواب ذلك، فإن هذا شيء لا يَشُكُّ فيه أحدٌ، ولم يختلف فيه اثنان. غير أني أعذره فيما نَقَلَ، فإنه كان بمَعْزِلٍ عن الدولة، ويَنْقُل أخبارَ الأتْرَاك عن الآحاد، فكان يَقَعُ له من هذا وأشباهِهِ أوْهامٌ كثيرةٌ نَبَّهْتُه على كثير منها فأصْلَحَها مُعْتَمِداً على قولي، وها هي مصلوحة بخطه في مَظَنّات الأتْرَاك وأسمائهم ووقائعهم. انتهى.

واسْتَمَرَّ الملكُ الظاهرُ طَطَر بقلعة دِمَشْق، وعمل الخِدْمَة السُّلْطانِيَّة بها في يوم الاثنين ثالث شهر رمضان، وخلع على الخليفة والقضاة باستمرارهم، وعلى أعيان الأمراء على عادتهم. ثم خلع على الأمير طَربَاي الظَّاهِرِيّ، نائب غَزَّة ــ كان ــ في دولة الملك المؤيِّد، بعد قدومه من عند قَرَا يُوسُف باستقراره حاجب

(١) هذا اللفظ زائد لا لزوم له.

(٢) أغاة وأغا: كلمة تركية تطلق على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة.

الحجاب بالديار المصريّة عوضاً عن إينَال الأرغزيّ المقدّم ذكره، وعلى الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي نائب طَرَابُلُس كان ــ وكان بَطَّالاً بدِمَشْق ــ باستقراره دَوَادَاراً كبيراً، عوضاً عن الأمير علي باي المؤيّدي بحُكْم القَبْض عليه. و[أنعم] على الأمير يَشْبك الجَكَمِيّ الدَّوَادار الثاني كان ــ وهو أيضاً مِمَّن قَدِمَ مِن بلاد الشَّرْق ــ بَاسْتِقْرارِه أمير آخور كبيراً، عوضا عن تَغْرِي بَرْدِي المؤيَّدي المُنْتَقل إلى نيابة حَلَب. ثم خَلَعَ بعد ذلك على الأمير بَيْبُغَا المظفِري الظاهِريّ أمير مَجْلس باستقراره أمير سلاح، عوضاً عن الأمير إينَال الجَكَمِيّ بحُكْم القَبْض عليه. [وأنعم] على الأمير قُجَق العيسَاوِي الظاهريّ ــ حاجب الحجاب كان في الدوْلة المؤيديّة ــ باستقراره أميرَ مجلس، عوضاً عن بَيْبُغَا المظفري. وخلع على الأمير قَصْرُوَه من تِمراز الظاهِري باستقراره رأسَ نوبة النُّوب، عوضاً عن يشْبك أنالي المؤيَّدي بحُكْم القَبْض عليه أيضاً. ثم أنعم على جماعةٍ كبيرة بتَقَادم ألوف بالديار المصرية، مثل الأمير أُزْبُك المحمدي الظاهري إنّي[1] بَرْسْبُغَا الدَوادار، ومثل الأمير تغري بَرْدِي المحمودي الناصري، ومثل الأمير قَرْمَش الأعور الظاهري، وغيرهم. وأنعم على جماعة من مماليكه وحواشيه بإمْرة طَبَلخَانَات وعشرات، منهم: [صهره البدْرِي حسن بن سُودُون الفقيه ــ أنعم عليه بأمرة طبلخاناه عوضاً عن مُغُلْبَاي السَّاقي المؤيّدي بحُكْم القَبْض عليه ــ و[أنعم] على الأمير قَرْقَماس الشَّعْبَاني الناصري بإمْرة طبلخاناه، واستقرّ به دَواداراً ثانياً، وعلى الأمير قَانْصُوه النَّوْرُوزِي أيضاً بإمْرة طبلخاناه، وجعله من جملة رؤوس النُّوب، وعلى رأس نوبته الثاني قَانِي بَاي الأبو بكري الناصريّ البَهْلَوان بإمْرة طبلخاناه، وجعله أيضاً من جملة رؤوس النُّوب، وعلى فارس دوَاداره الثاني بإمْرة طبلخاناه. وأنْعم على مُشدّه يَشْبك السُّودُوني باستقراره شاد الشراب خاناه، وعلى أمير آخورة بُرْدْبك السيفي يشْبك بن أَزْدَمُر باستقراره أمير آخور ثانياً، وعلى جماعة أخر من حواشيه ومماليكه. وجعل جميع مماليكه الذين كانوا بخدمته قبل سلطنته خاصِّكيّة، وأنعم على بعضهم بعدة وظائف.

(١) الإنّي: هو المملوك الصغير يكون في عهدة مملوك كبير، فيكون الصغير إنياً للكبير. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

ثم أمر السلطانُ الملكُ الظاهر فكُتب بسلطنته إلى مِصْر وأعمالها، وإلى البلاد الحلَبيّة والسواحل والثغور، وإلى نُواب الأقطار، وحملت إليهم التشَاريف والتَقاليد بولايتهم على عادتهم، وهم: الأمير تَغري بَرْدي المؤيّدي المعروف بأخي قَصْرُوَه نائب حلَب، والأمير تَنِبَك البَجاسيّ نائب طرابُلُس، والأمير جارقُطْلُو الظاهري نائب حمَاة، والأمير قُطْلُوبُغا التَّنمِيّ نائب صفَد، والأمير يُونُس الرُّكْنِي نائب غَزة.

ثم خلع على الأمير تَنِبك ميق نائب الشام باستمراره على كَفَالته، وعلى الأمير بَرْسْبَاي الحمزاوِيّ الناصري باستقراره حاجب حُجاب دِمَشْق، وعلى الأمير أَرْكَمَاس الظاهري باستقراره نائب قلعة دمشْق، وعلى الأمير كَمَشْبُغَا طُولُو باستقراره حاجباً ثانياً.

ثم أخذ الملكُ الظاهر في تمهيد أمور دمشق والبلاد الشَّاميَّة إلى أن تَمّ له ذلك، فبرز من دمشْق بأمرائه وعساكره في يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان من سنة أربع وعشرين وثمانمائة يريد الديار المصرية.

هذا ما كان من أمر الملك الظاهر ططَر بالبلاد الشَّاميّة.

وأما أخبار الديار المصرية في غيبته، فإنه لمَّا سافر الأمير طَطَر بالسُّلطان الملك المظفر وعساكره من الرَّيْدَانِيَّة استقل بالحكم بين الناس الأمير جَقْمَق العَلاَئي إلى أن حضر الأميرُ قَانِي باي الحمزاوي من بلاد الصَّعيد في يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى، وحكم في نيابة الغَيْبَة، وأرسل إلى الأمير جَقْمَق بالكَفّ عن الحُكم بين الناس وخَاشَنَه في الكلام، فانكفَّتْ يدُ الأمير جَقْمَق أخي جاركس المُصَارع عن الحُكم، وكانت سيرتُه جيّدة في أحكامه.

ثم قَدِمَ الخبرُ على الأمير قَاني باي الحمزاوِيّ بـدُخول السلطان الملك المظفر إلى دِمَشق وقَبْضِه على القَرْمَشِيّ وغيره، فدقت البشائر لذلك بالقاهرة ثلاثة أيام وزُيِنَت عشرة أيام.

ثم في يوم الأربعاء خامس شهر رمضان خلع الأمير قاني باي الحمزاويّ

على القاضي جمال الدين يوسف البساطي باستقراره في حِسْبَة القاهرة عوضاً عن القاضي صدر الدين بن العجمي. وكان سبب ولايته أنه طالت عطلته سنين، فتذكّر الأمير طَطَر صُحْبَته، فكتب لقاني باي الحمزاويّ بولايته.

ثم في ثامن شهر رمضان قَدِمَ الخبرُ إلى الديار المصرية بخلع الملك المظفّر وسلطنة الملك الظاهر طَطَر.

وأما السلطان الملك الظاهر طَطَر فإنه سار بعساكره إلى جهة الدِّيار المصرية إلى أن نزَل بمنزلَة الصَّالحيَّة في يوم الاثنين أوَّل شوال، فخرج الناسُ إلى لقائه، وقد تزايد سرور الناس بقدومه. ثم رَكِب من الصالحيَّة وسار إلى أن طَلَع إلى قلعة الجَبَل في يوم الخميس رابع شوال، وحُمِلَت القُبَّةُ والطَّيْرُ على رأسه. حملها الأمير [جَاني بَك] الصُّوفي أتابك العساكر. ولما طلع إلى القَلْعة أنْزَل الملكُ الظاهرُ [طَطَرُ] الملكَ المظفر [أحمد] وأمَّه بالقاعة المعلقة من دور القَلْعة.

ثم في يوم خامس شوال خلع السُّلطانُ الملك الظاهر [طَطَر] على الطواشي مَرْجَان الهِنْدِي الخازندار باستقراره زِمَاماً[١]، عوضاً عن الطواشي كافُور الرُّومي الشِّبلي الصَّرْغَتْمُشي بحُكْم عَزْله.

ثم في يوم الاثنين ثامن شوَّال ابتدأ السلطان بعرض مماليك الطِبَاق، وأنزل منهم جماعةً كثيرة إلى إصطبلاتهم من القاهرة.

ثم في يوم الاثنين [خامس عشره][٢] استدعى السلطانُ الشيخَ وَليَّ الدين أحمد ابن الحافظ زين الدين عبد الرحيم العِرَاقيّ الشافعي وخلع عليه باستقراره قاضي قضاة الشافعيَّة بالديار المصرية، بعد موت قاضي القضاة جَلَال الدين

(١) المراد: الزمام دار، وهو المتحدث على باب ستارة السلطان، والموكل بحفظ الحريم. ويكون من الطواشية الخصيان. وأصل التسمية «زَنَان دار» أي المتولي لأمر النساء، وحرفته العامة إلى زمام دار. (صبح الأعشى: ٤٣٢/٥، طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) زيادة عن السلوك.

عبد الرحمن البُلْقِيني، فنزل العِرَاقيُّ إلى داره في مَوْكب جليل، بعد أن اشترط على السلطان أنه لا يَقْبَل شفاعةَ أميرٍ في حُكم، فسُرّ الناسُ بولايته.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرين شوال ابتدأ بالسلطان الملك الظاهر ططر مرضُ مَوْته، وأصبح مُلازِماً للفراش. واستمرّ في مرضه، والخِدْمَة تعمل بالدُّور السلطانية، ويجلس السلطانُ ويُنَفِّذ الأمورَ ويعلِّم على المناشِير وغيرها.

وأنعم في هذه الأيام على الأمير كُزُل العَجمي الأَجْرُود، الذي كان وَلي حُجُوبية الحجّاب في الدَّوْلة الناصرية، وعلى الأمير سُودُون الأشقر الذي كان وَلي في دولة المؤيّد رأس نَوبة النُّوَب ثم أمير مجلس ــ كانا مَنْفِيَّيْن بقَرْية المَيْمُون من الوجه القبلي ــ بحكم أنه يكون كل واحد منهم أمير عشرين فارساً؛ فَدَخَلا إلى الخِدْمَة السلطانية بعد ذلك في كل يوم، وصارا يقفان من جملة أمراء الطَبْلَخانات والعشرات، ومقدمو الألوف جلوسٌ بين يدي السلطان.

واستمر السلطان على فراشه إلى يوم الثلاثاء أوّل ذي القعدة، فنصَلَ السلطان من مرضه ودخل الحمّام، وخلع على الأطباء وأنعم عليهم، ودقّت البشائر لذلك، وتخلّقت الناس بالزَّعْفَران.

ثم في ثالث ذي القعدة خلع السلطانُ على دَوَادَاره الأمير فارس باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن الأمير قَشْتَم المؤيدي بحُكم عزله ــ وقد حضر قَشْتَم المذكور إلى القاهرة، وطلع إلى الخِدْمَة ــ ثم أمر السلطانُ فقُبِض على الأمير قشتم المذكور، وعلى الأمير قاني باي الحمزاوي نائب الغَيْبَة، وقُيِّدَا في الحال، وحُمِلا إلى ثَغر الإسكندرية فسجنا بها.

ثم في يوم الاثنين سابع ذي القعدة خلع السلطانُ على عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدِّمشقي ناظر الخزانة باستقراره ناظرَ الجيوش المنصورة بعد عزْل القاضي كمال الدين بن البارزي ولزومه داره. وخلع السلطان أيضاً على مُوَقِّعه القاضي شرف الدين محمد ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله

باستقراره في نَظَر أوقاف الأشراف ونظر الكسوة(١) ونَظر الخِزانة(٢) عِوَضاً عن عبد الباسط المذكور. وكان الملك الظاهر أراد تولية شرف الدين المذكور وظيفة نظر الجيش فسعى عبد الباسط فيها سَعْياً زائداً حتى وليها.

ودخل السلطانُ في هذه الأيام إلى القصر السلطاني وعمل الخِدْمَة به. ثم انتكس السلطانُ في يوم الخميس عاشر ذي القعدة ولَزِمَ الفراش ثانياً، وانقطع بالدُّور السلطانية، وعُمِلَت الخِدْمَة غير مرّة.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه عَزلَ القاضي وَليُّ الدين العراقيُّ نفسَه عن القضاء لمعارضة بعض الأمراء له في ولاية القضاء بالأعمال.

ثم في سادس عشرين ذي القعدة رسم السلطان بالإفراج عن أمير المؤمنين المُسْتَعِين بالله العباس من سجنه بثغر الإسكندرية، وأن يسكن بقاعة في الثغر المذكور، ويخرج لصلاة الجمعة بالجامع الذي بالثَّغر، ويركب حيث يشاء، وأرسل إليه فرساً بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش وبُقْجَة(٣) قُمَاش، ورتَّب له على الثَّغر في كل يوم ثمانمائة درهم لمصارف نفقته، فوقع ذلك من الناس الموقع الحسن.

واستهلّ ذو الحجة يوم الخميس والسلطان في زيادة ألم من مرضه ونُمُوّه، والأقوال مختلفةٌ في أمره، والإرجاف بمرضه يَقْوَى.

فلمّا كان يوم الجمعة ثاني ذي الحجة استدعى السلطانُ الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدَّولة إلى القلعة ــ وقد اجتمع بها غالبُ المماليك السلطانيّة ــ

---

(١) المراد نظر كسوة الكعبة. وناظر الكسوة هو المشرف على صناعة الكسوة التي ترسل في كل سنة إلى الكعبة. وكانت هذه الكسوة تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين، وتكون من الحرير الأسود المطرّز بكتابة بيضاء. (صبح الأعشى: ٤/٥٤، ٥٨). وكان نظر الكسوة يضاف غالباً إلى وكالة بيت المال فيصيرا كالوظيفة الواحدة. (صبح الأعشى: ١١/٢١٣).

(٢) أي خزانة الخاص، وهي الخزانة الخاصة بأموال السلطان. راجع فهرس المصطلحات.

(٣) البقجة: قطعة قماش لها أربع زوايا توضع فيها الأمتعة، ثم تربط أطرافها الأربعة. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ٤٢) وعن الكنبوش والزركش راجع فهرس المصطلحات.

فلما اجتمعوا عند السلطان كلم الخليفة والأمراء في إقامة ابنه في السلطنة بعدَه، فأجابُوه إلى ذلك، فعَهِد إلى ابنه محمد بالملك، وأن يكون الأمير جانِي بَك الصّوفيّ هو القائم بأمره ومُدَبِّر مملكته، وأن يكون الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِيّ لالاَ السلطان والمتكفّل بتربيته، وحلفَ الأمراء على ذلك كما حلفوا لابن الملك المؤيّد شيخ.

ثم أذِنَ السلطان لقاضي القضاة وَلِيّ الدين العراقي أن يحكم، وأعيد إلى القضاء. وانفض المَوْكِب ونَزَلَ الناسُ إلى دورهم، وقد كثر الكلام بسبب ضعف السلطان، وأخذ الناس وأعيان الدّولة في توزيع أمتعتهم وقماشهم من دُورِهم، خوْفاً من وُقُوع فِتْنة.

وثَقُلَ السلطانُ في الضّعف، وأخذ من أواخر يوم السّبت ثالثه في بَوَادِر النَّزْع، إلى أن تُوُفِّيَ ضَحْوَة نهار الأحد رابع ذي الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة؛ فاضطربَ الناسُ ساعةً، ثم سكنوا عندما تسلطَن ولدُه الملكُ الصالح محمد ــ حسبما يأتي ذكرُه. ثم أخذَ الأمراءُ في تجهيز الملك الظّاهر طَطَر، فغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه، وأُخرج من باب السِّلسلة، وليس معه إلا نحو عشرين رجلاً لشُغْل الناس بسلطنة وَلَدِه. وساروا به حتى دُفِنَ بالقرافة من يومه بجوار الإمام اللَّيث بن سعد رضي الله عنه. ومات وهو في مبادىء الكهولية. وكانت مُدّة تحكُّمِه منذ مات الملكُ المؤيّد شيخ إلى أن مات أحدَ عشر شهراً تنقص خمسة أيام، منها مُدَّة سلطنته أربعة وتسعون يوماً، وباقي ذلك أيام أتابَكِيَّته.

قال المقريزي في تاريخه(١) عن الملك الظاهر طَطَر: وكان يميلُ إلى تَدَيُّن، وفيه لين وإغضاء وكرم، مع طَيْش وخِفَّة. وكان شديدَ التعصّب لمذهب الحنفية، يريد أن لا يدع من الفقهاء غيرَ الحنفية. وأتلف في مدته ــ مع قِلَّتِها ــ أموالاً عظيمة، وحمَّل الدولة كُلَفاً كثيرة، أتعب بها من بعدَه. ولم تطُل أيّامُه لِتُشْكر أفْعَالُه أو تُذَمّ. انتهى كلام المقريزي.

---

(١) السلوك: ٤/٥٨٩.

قلتُ ولعل الصَّوَاب في حقّ الملك الظّاهر طَطَر بخلاف ما قاله المقريزي مما سنذكره مع عدم التعصّب له؛ فإنه كان يَغُضُّ من الوالد كونه قبض على بعض أقاربه وخشداشيّته بأمر الملك الناصر فَرَج في ولايته على دِمَشْق الثالثة، غير أن الحقّ يقال على أي وجه كان.

كان طَطَرُ مَلِكاً عظيماً جليلاً كريماً، عالِيَ الهمة، جيِّد الحَدْس، حسن التَّدْبير، سَيُوساً. تَوَثَّب على الأمور مع من كان أكبر منه قدراً وسناً، ومع عِظَمِ شوكة المماليك المؤيّدية [شيخ]، وقوة بأسهم، مع فَقْرٍ كان به وإملاق(١). فلا زال يحسن سياسته، ويُدَبِّر أموره، ويخادِعُ أعداءه إلى أن استفحَلَ أمره، وثبت قدمه، وأَقْلَبَ دولةً بدولة غيرها في أيسر مُدَّة وأهون طريقة. كان تارَة يُملِقُ هذا، وتارة يغدق على هذا، وتارة يقرّب هذا ويُظهره على أسراره الخفيّة، كل ذلك وهو في إصلاح شأنه في الباطن مع من لا يُقرِّبُه في الظاهر؛ فكان حاله مع من يخافه كالطبيب الحاذق الذي يلاطف عدّة مرضى قد اختلف داؤهم، فينظر كلَّ واحد ممن يخشى شرّه، فإن كان شهماً رقّاه إلى المَرَاتِب العلية وأوعده بأضعاف ذلك، وإن كان طماعاً أبذل إليه الأَمْوَال وأشبعه، حتى إنه دفع لبعض المماليك المؤيديَّة الأجناد في دفعات متفرّقة في مُدَّة يسيرة نحو عشرة آلاف دينار، وإن كان شهماً رَغْبَتُه الأمرُ والنهي ولاّه أعظم الوظائف، كما فعل بالأمير علي باي المؤيّدي والأمير تَغْرِي بَرْدِي المؤيّدي المعروف بأخي قَصْرُوَه؛ وَلّى كلًّا منهما أجلّ وظيفة بديار مصر، فأقر علي باي في الدَّوادَارِيَّة الكُبْرى دفعة واحدة من إمرة عشرة، وأقرَّ تَغْرِي بَرْدِي في الأمير آخوريّة الكبرى دفعة واحدة، ومع هذا لم يتجنّ عليهما أبداً بل

(١) وفي هذا المعنى قال ابن حجر في إنباء الغمر: ٤٣٩/٧: «ذكر لي الأمير ططر قبل أن يتسلطن في ليلة المولد النبوي في ربيع الأول من سنة ٨٢٤هـ أنه كان في آخر الدولة المؤيدية شيخ في الليلة التي مات في صبيحتها المؤيد قد ضاقت يده لكثرة ما كان يصرف وقلة متحصله، حتى إن شخصاً قدم له مأكولاً فأراد أن يكافيه عليه فلم يجد في حاصله خمسة دنانير إلى أن أرسل يقترضها من بعض خواصه، فكلهم يحلف أنه لا يقدر عليها، إلى أن وجدها عند أحدهم. فلم يكن بين ذلك وبين أن استولى على المملكة بأسرها وعلى جميع ما في الخزائن السلطانية التي جمعها المؤيد سوى سبعة أيام. وأمرني أن أكتب هذه الواقعة في التاريخ، فإنها أعجوبة».

صار معهما فيما أراداه، يعطي من أحَبَّا ويمنع من أبْغَضا، حتى إن تَغْري بَرْدِي المذكور وسَّط(١) الأمير راشد بن أحمد ابن بقر خارج باب النصر ظُلْماً لِمَا كان في نفسه منه، فلم يسأله طَطَر عن ذنبه. كل ذلك لكثرة دهائه وعظيم احتماله، ولم يكن فعله هذا مع علي باي وتَغْري بَرْدِي فقط، بل مع غالب أشرار المؤيّديّة.

هذا وهو يقرب خشداشيته الظاهرية [برقوق] واحداً بعد واحد، يقصد بذلك تقوية أَمْرِه في الباطن، فأطلق مثل جَانِبَك الصُّوفي، ومثل بَيْبُغا المظفَّري، ومثل قُجق العِيساوِي. كل ذلك وهو مستمرٌّ في بَذْل الأموال والإقطاعات لمن تقدّم ذكرهم، حتى إنه كلَّمه بعضُ أصحابه سِرّاً بعد عوده من دِمَشْق فيما أتلفه من الأمْوَال، فقال: «يا فلان أتظن أن الذي فرقته راح من حاصلي؟ جميعُه في قَبْضَتي أسترجِعُه في أيْسَر مُدَّة، إلّا ما أعطيتُه للفقهاء والصُّلَحاء» فمن يكن فيه طيشٌ وخِفَّة لا يطيق هذا الصَّبر ولو تلفت روحه.

وكان مِقْداماً جريئاً على الأمور بعدما يحسب عواقبها، شهماً يحب التجمُّل؛ كانت مماليكه أيام إمرته مع فاقته أجَلّ من جميع مماليك رفقته من الأمراء، فيهم الناصرية والجَمَكِيَّة والنُّوروزية وغيرهم.

ولما حصل له ما أراد وصَفَا له الوقتُ وَوَثَب على مُلْك مِصر، أقام له شوكةً وحاشية من خشداشيته ومماليكه في هذه الأيام القليلة، لم ينهض بمثلها من جاء قَبْله ولا بعده أن يُنْشِيء مثلها في طول مملكته؛ وهو أنه أعطى لصِهْره البَدْري حسن بن سُودون الفقيه إمْرة طبلخاناه، ثم نقله إلي تقدمة ألف بالديار المصرية، ولم يكن قبلها من جملة مماليك السلطان ولا من أولاد الملوك، فإن والده سُودون الفقيه مات بعد سنة ثلاثين جُنْدِيّاً، وكذا فعل مع فارس دَاوَاداره؛ أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف ونيابة الإسكندرية، ومع جماعة أخر قد تقدم ذكرُهم؛ فهذا مما يَدُلّ على قُوَّة جنانه وإقدامه وشجاعته، فإنه أنشأ هذا كلَّه في مُدَّة سلطنته، وهي ثلاثة أشهر وأربعة أيام.

(١) أي قتله توسيطاً. والتوسيط هو القتل بالسيف، بقطع الجسم إلى نصفين من الوسط.

وأنا أقول: إن مُدَّة سلطنته كانت ثمانية عشر يوماً، وهي مُدَّة إقامته بمصر، وباقي ذلك مضى في سفره ومرض موته. وكان يُحِبُّ مُجَالَسَة العلماء والفقهاء وأرباب الفضائل من كل فن، وله اطلاع جيِّدٌ ونظر في فروع مذهبه، ويسأل في مجالسهِ الأسئلة المُفْحِمَة المُشْكِلَة، مع الإنصاف والتواضع ولين الجانب مع جلسائه وأعوانه وخدمه. وكان يحب إنشاد الشعر بين يَدَيْه لا سيما الشعر الذي باللغة التركية؛ فإنه كان حافظاً له ولنظامه، ويميل إلى الصوت الحسن، ولسماع الوَتَر، مع عفته عن سائر المنكرات ـ قديماً وحديثاً ـ من المشارب. وأما الفروج فإنه كان يُرْمى بمحبة الشَّباب على ما قيل. والله أعلم بحاله.

ومع قصر مُدَّته انتفع بسلطنته سائرُ أصحابه وحواشيه ومماليكه؛ فإن أول ما طالت يده رقّاهم وأنعم عليهم بالأموال والإقطاعات والوظائف والرَّواتب. قيل إنه أعطى الشيخ شمس الدين محمداً الحنفيّ في دفعة واحدة عشرة آلاف دينار، وأوقف على زاويته[1] إقطاعاً هائلاً. وتنوّعت عَطَايَاهُ لأصحابه على أنواع كثيرة، وأحبه غالبُ الناس لبشاشته وكرمه. وأظنُّه لو طالت مُدَّتُه أظهر في أيامه محاسن، ودام مُلْكه سنين كثيرة لكثرة عطائه. فإنه يقال في الأمثال، وهو من الجناس الملفق: [المتقارب]

إذَا مَلِكٌ لم يكُنْ ذَاهِبَة فَدَعْهُ فَدَوْلَتُه ذَاهِبَة

قلت: وهو ثاني سلطان ملك الديار المصرية ممن له ذَوْق في العُلُوم والفنون والآداب ومعاشرة الفضلاء والأدباء والظرفاء من المماليك الذين مَسَّهم الرِّق: الأول الملك المؤيد شيخ، والثاني ططر هذا. غير أن الملك المؤيد طالت مُدّته فعَلِمَ حالَهُ الناسُ أجمعون، والملك الظاهر هذا قصرت مدته فَخَفِيَ أمرُه

(١) زاوية شمس الدين الحنفي: وتعرف بجامع الحنفي، أو جامع الأستاذ الحنفي. أنشأه الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن علي الحنفي بجوار داره سنة ٨١٧هـ. ويوجد اليوم بشارع خليل طينة المعروف أيضاً بشارع الحنفي. (خطط المقريزي: ٣٢٧/٢، وخطط علي مبارك: ٣٣٨/٣).

على آخرين. انتهت ترجمة الظاهر رحمه الله(١).

---

(١) ما نلاحظه هنا هو أن أبا المحاسن لم يستطع أن ينقض التقييم الذي أورده المقريزي لحكم الظاهر ططر، بل لعلّه أكّد أكثر جوانبه من حيث لا يدري. فهو لم يستطع أن يدفع عنه تهمة تبذير الأموال، ولا استطاع أن يعرض له سيرة في إدارة الحكم يمكن أن يحمد عليها، بدليل أن المؤرخ يقرّر في نفس العرض أن مدة سلطنة ططر الفعلية كانت ثمانية عشر يوماً. والحقيقة أن أبا المحاسن يعبّر بصدق وعفوية عن تلك المفاهيم التي كانت سائدة في العصر المملوكي ــ خاصة حكم الجراكسة ــ فيما يختص بأمور السلطة والتوسّل إليها: فبذل الأموال واصطناع الحواشي والأنصار والمحازبين، وانتهاز الفرص المناسبة للوثوب على السلطة، والقوة والدهاء والمكر والمخادعة، ومظاهر الأبهة والعظمة، كل ذلك كان من الوسائل المشروعة والفضائل الممتدحة في عرف دولة المماليك. ومنذ وقت مبكر تكرّست في المجتمع المملوكي مقولة أن من يقتل السلطان يكون صاحب الحق الأول في السلطنة من بعده، وأن الحقَّ عند الأتراك هو لمن سبق، كما يقرر ابن تغري بردي نفسه. (النجوم: ١٥/٤٥٨). لذلك فإن أبا المحاسن في حكمه على الظاهر ططر إنما ينطلق من قناعته بمشروعية تلك المقاييس التي أوردها وبإيجابية تلك الصفات التي ذكرها. وفي رأينا أن أبا المحاسن ــ بالرغم من علمه وتفقهه والفضائل الكثيرة التي تمتع بها ــ لم يستطع أن يخرج على تلك المفاهيم السائدة في عصره، خاصة لدى طبقة المماليك التي ينتمي إليها أصلاً ونشأةً. أما شيخ المؤرخين المقريزي فإنه ــ كما يخيّل إلينا ــ ينطلق من موقع مختلف ومن مقاييس مختلفة. إنه ينطلق من موقع المؤرخ الفقيه المسلم العربي في آن معاً. فهو ينظر إلى تلك السلطة المملوكية في أواخر أيامها ويحاكم سلوكها على أسس ومعايير الفقيه المسلم، كما أنه عانى ولا شك من استئثار أولئك المماليك بجميع السلطات من دون العرب. ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنه ينظر إليها كسلطة لطالما ابتعدت عن شرائع الإسلام في الإدارة والحكم والسلوك الفردي واقتربت من تعاليم «الياسة» المغولية وجاهرت بها، كما أشار إلى ذلك في غير موضع من كتابيه: الخطط والسلوك. لذلك كان من الطبيعي جداً أن نرى المقريزي لا يثمّن عالياً تلك الخصائص التي عدّها أبو المحاسن فضائل لدى الظاهر ططر. (انظر كتابنا: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، مؤرخ مصر في العصر المملوكي. طبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت).

ذكر سلطنة الملك الصالح محمد[١]
ابن ططر على مصر

السلطانُ الملكُ الصالحُ ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي الفتح ططر بن عبد الله الظاهريّ. تسلطن بعد مَوْت أبيه ــ بعَهْدٍ مِنْه إليه ــ في يوم الأحد رابع ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة. وهو أنه لما مات أبوه حضر الخليفةُ المعتضدُ بالله أبو الفتح داود والقضاة والأمراء وجلسوا بباب السِّتَارة من القَلْعة، وطلبوا محمداً هذا من الدُّور السلطانية، فحضر إليهم؛ فلما رآه الخليفةُ قامَ له وأجلسه بجانبه، وبايعه بالسلطنة. ثم ألبسوه خلْعَة السلطنة الجُبَّة السَّوْدَاء الخليفيّة من مجلسه بباب السِّتارة، وركب فَرَس النَّوْبة بشعار الملك وأبهة السلطنة، وسار إلى القصر السلطاني، والأمراءُ وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، حتى دخل إلى القصر السلطاني بقلعة الجبل، وجلس على تَخْت الملك، وقَبَّلَ الأمراء الأرضَ بين يديه على العادة، وخلع على الخليفة وعلى الأمير الكبير جَاني بك الصوفي، كونه حمل القبَّة والطيْر على رأسه، ولُقِّبَ بالملك الصالح. وفي الحال دُقَّت البشائر، ونُودي بالقاهرة ومصر بسلطنته، وسِنُّه يوم تسلطن نحو العشر سنين تخميناً. وأُمّه خَوَنْد بنت سُودون الفقيه الظاهري، وهي إلى الآن في قَيْد الحياة، وهي من الصالحات الخيِّرات، لم تَتَزَوّج بعد الملك الظاهر ططر.

والملك الصالح [محمد] هذا هو السلطان الحادي والثلاثون من ملوك الترك، والسابع من الجراكسة وأولادهم.

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٤/٥٩٠؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٢/٥١٦؛ وإنباء الغمر: ٧/٤٣٢ وما بعدها؛ وبدائع الزهور: ٣٢٣؛ والضوء اللامع: ٧/٢٧٤.

وتَمّ أمرُ الملك الصالح(١) في السلطنة. واستقرّ الأتابَكُ جاني بك الصوفي مدبر مملكته، وسكن بالحرّاقة من الإسطبل السلطاني بباب السلسلة، وانضمّ عليه معظمُ الأمراء والمماليك السلطانية. وأقام الأميرُ بَرْسْباي الدُّقماقي الدَّوَادَار واللالاَ أيضاً بطبقة الأشرفية [بالقلعة](٢) في عدّة أيضاً من الأمراء المقدّمين، أعظمهم الأمير طَربَاي حاجب الحجّاب، والأمير قَصْرُوه من تِمْرَاز رأس نوبة النوب، والأمير جَقْمق العلائي نائب قلعة الجبل وأحد مقدّمي الألوف المعروفة بأخي جَرْكَس المُصَارع، والأمير تَغْري بَرْدِي المحمودي. وأما الأمير بَيْبُغا المظفّري أمير سلاح، والأمير قُجَق أمير مَجْلس، والأمير سودون من عبد الرحمن وغيرهم من الأمراء [فقد](٣) صارُوا حِزْباً وتشاوروا إلى من يذهبون، إلى أن تكلم الأمير سودون من عبد الرحمن مع الأتابك جاني بك الصُّوفي، فردّ عليه الجواب بما لا يرضى، فعند ذلك تحوّل سودون من عبد الرحمن ورفقتُه وصاروا من حزب بَرْسْباي وطرباي على ما سنذكر مقالتهما فيما بعد. وباتوا الجميع بالقلعة وباب السِّلْسلة مستعدّين للقتال، فلم يتحرك ساكن. وأصبحوا يوم الاثنين خامس ذي الحجة وقد تجمّع المماليك بسوق الخيْل يطلُبُون النَّفَقة عليهم ــ على العادة ــ والأضحية، وأغْلظوا في القَوْل، وأفحشوا في الكلام حتى كادت الفتنة أن تقوم؛ فلا زال الأمراء بهم يترضّونهم ــ وقد اجتمع الجميع عند السلطان الملك الصالح ــ حتى رضوا، وتفرّق جمعهم.

ولما كانت الخِدْمَةُ بَتَّ الأتابَكُ الصُّوفِي بعضَ الأمور، وقُرِىء الجيش، وخلع على جماعة، وهو كالخائف الوجل من رُفْقَتِه الأميرِ بَرْسْبَاي والأمير طَرَبَاي وغيرهما.

وظهر في اليوم المذكور أن الأمر لا يَسْكُن إلا بوقوع فِتْنَة، وبذهاب بعض الطائفتين؛ لاختلاف الآراء واضطراب الدَّولة، وعدم اجتماع الناس على واحد

---

(١) في الأصل: «أمره». والتعديل للتوضيح.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

بعينه، يكون الأمر متوقِّفاً على ما يَرْسُم به، وعلى ما يفعله. على أن الأمير بَرْسْبَاي جلس في اليوم المذكور بين يَدَي جاني بَك الصُّوفي وامتثَلَ أوامِرَه في وقت قراءة الجَيْش. ثم بعد انتهاء قراءة الجَيْش والعلامة قام بَيْنَ يَدَيْه على قَدَمَيْه، وشاوَرَه في قضاء أشغال النَّاس على عادة ما يفعله الدَّوَادَار مع السُّلطان، غير أن القلوب متنافرة، والبواطن مشغولة لما سيكون. ثم انفضَّ المَوْكِبُ وباتَ كلُّ أحد على أُهْبَة القتال.

وأصبحُوا يوم الثلاثاء سادسه في تفرقة الأَضَاحي، فأخذ كلُّ مملوك رأسين من الضأن. ثم تجمعوا أيضاً تحت القَلعة لِطَلَبِ النَّفَقة، وأفحشوا في الكلام على عادتهم، وتردَّدَت الرسل بينهم وبين الأتَابَك جانِي بَك الصُّوفي، وطال النِّزَاع بينهم، حتى تراضوا على أن يُنْفِق فيهم بعد عشرة أيَّام من غير أن يُعَيِّن لهم مقدار ما ينفقه فيهم، فانفضُّوا على ذلك، وسكَن الأمرُ من جهة المماليك السُّلطانية. وانفضّ المَوْكِبُ من عند الأتَابَك جَانِي بَك الصُّوفي، وطَلَع الأميرُ بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِي الدُّوَدَار واللالا إلى طبقة الأَشْرَفِيَّة هو والأميرُ طَرَباي والأمير قَصْرُوَه. وبعد طلوعهم تكلَّم بعض أصحاب جانِي بَك الصُّوفي معه ــ لَمَّا رأوا أمرَه قد عَظُم ــ في نزول الأمراء من القلعة إلى دُورهم حتى يَتِمَّ أمرُه، وتنفذ كلمتُه، وحسَّنُوا له ذلك، وقالوا له: «إن لم يقع ذلك وإلا فأمرُك غير منتظم»؛ فمال الأتابَك جَانِي بك الصُّوفي إلى كلامهم ــ وكان فيه طَيْشٌ وخفَّة ــ فبعث في الحال إلى الأمير بَرْسْبَاي الدقماقي أن يَنْزِل من القلعة هو والأمير طَرَباي حاجب الحجّاب والأمير قَصْرُوَه رأس نوبة النّوب، وأن يسكنوا بدورهم من القاهرة، ويقيم الأميرُ جَقْمَق العلائي عند السلطان لا غير. فلما بلغ الأمراءَ ذلك أرادَ الأميرُ بَرْسْبَاي الإفحاش في الجواب، فَنَهَرَه الأميرُ طَرَباي وأسكته. وأجاب [برسباي] بالسَّمْع والطاعة، وأنهم ينزلون بعد ثلاثة أيام.

وعاد الرسولُ إلى الأَتَابَك جانِي بَك الصُّوفي بذلك، فَسَكَتَ، ولم تسكت حواشيه عن ذلك، وهم الأميرُ يَشْبُكُ الجَكَميّ الأمير آخُور الكبير، والأمير قَرْمَش الأعْوَر الظاهريّ وغيرهما، وعرَّفُوه أنهم يريدون بذلك إبْرَام أمرِهم، وألحوا عليه

في أن يرسل إليهم بنزولهم في اليَوم المذكور قبل أن يستفحل أمرُهم، فلم يسمع لكونِ أن الأمير طَرَبَاي نزلَ في الحال من القلعة مُظْهِراً أنه في طاعة الأمير الكبير جَانِي بَك الصُّوفي، وأن بَرْسْبَاي وقَصْرُوه وغيرهما في تجهيز أمرهم بعده إلى النزول، فمشَى عليه ذلك.

وكان أمر الأمير طَرَبَاي في الباطن بخلاف ما ظنه جانِي بك الصّوفي؛ فإنه أخذَ في تدبير أمرِه، وإحكام الأمر للأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي ولنفسه. واستمال [طرباي] في ذلك اليوم كثيراً من الأمراء والمماليك السلطانية، وساعده في ذلك قِلّة سعد جاني بك الصُّوفي من نُفُور الأمراء عنه، وهو ما وعدنا بذكره من أمر سُودون من عبد الرحمن مع جاني بك الصُّوفي.

وقد تقدّم أن سودون من عبد الرحمن وغيره ممن تقدّم ذكرُهم صاروا حِزْباً يحضر كُلُّ واحد منهم الخِدْمَة، ثم ينزل إلى داره ليرى ما يكون بعد ذلك. ثم بدا لهم أن يكونوا من حزب جاني بك الصّوفي، كونه أتابَك العساكر ومرشحاً إلى السلطنة، بعد أن يكلّموه في أمر، فإن قبله كانوا من حزبه، وإن لم يفعل مالوا إلى بَرْسْبَاي وطَرباي؛ والذي يكلِّمُوه بسببه هو الأمير يَشْبُك الجَكَميّ الأمير آخور؛ فإنهم لَمَّا كانوا عند قَرَا يوسُف بالشرق ثم جاءهم أمير يَشْبك المذكور أيضاً فاراً من الحجاز خَوفاً من الملك المؤيّد، أكرمه قَرَا يُوسُف زيادة على هؤلاء، وتعطفاً من الله ــ والذين كانوا قبله عند قَرَا يُوسُف، هم سُودُون من عبد الرحمن وطَرَبَاي وتَنِبَك البَجَاسِيّ وجاني بك الحمْزاوي، ومُوسى الكركري وغيرهم، وكلٌّ منهم ينظر يَشْبُك المذكور في مقام مملوكه، كونه مملوك خشداشهم جَكَم ــ فشَقَّ عليهم خصوصيته عند قَرَا يُوسُف وانفراده عنهم، ووقعت المباينة بينهم، ولم يسعهم يوم ذاك إلا السكات لوقته.

فلمَّا مات قَرَا يُوسُف ــ وبعده بقليل تُوفي الملك المؤيَّد ــ قدموا الجميع على طَطَروهم في أسوأ حال، فقرَّبهم طَطَرُ وأكرمهم، واختص أيضاً بيَشْبُك المذكور اختصاصاً عظيماً بحيث إنه ولاّه الأمير آخورية الكبرى، وعقد عقده على ابنته خَوَنْد فاطمة التي تزوَّجها الملكُ الأشرف بَرْسْبَاي، فلم يسعهم أيضاً إلا

السكات، لعظم ميل ططر إليه. فلما مات ططر انضم يشبُك المذكورُ على جاني بَك الصُّوفي وصار له كالعضد، فعند ذلك وجد الأمراءُ المقالَ فقالوا.

وركب الأميرُ سُودُون من عبد الرحمن والأمير قَرْمَش الأعور ــ وهو من أصحاب جاني بَك الصُّوفي ــ وشخصٌ آخر، وأظنّه بَيْبُغَا المظفري، ودخلوا على جَاني بَك الصُّوفي بالحرَّاقة من باب السِّلْسِلَة، ومَرُّوا في دخولهم على يَشْبُك الأمير آخور وهو في أمْرِه ونهيه بباب السِّلْسِلَة، فقامَ إليهم فلم يُسَلِّم عليه سُودُون مِنْ عبد الرحمن، وسلَّم عليه قَرْمَش والآخرُ. وعندما دخلوا على الأتابَك جاني بَك الصُّوفي وسلَّمُوا عليه وجلسوا كان متكلم القوم سودُون من عبد الرحمن، فبدأ بأن قال: «أنا، والأمراء نسلم عليك، ونقول لك أنت كبيرنا ورأسنا وأغاتنا، ونحن راضون بك فيما تفعل وتريد، غير أن هذا الصبي يشبُك مملوك خشداشنا جَكَم ليس هو منا، وقد وقع عنه قلةُ أدب في حقنا ببلاد الشَّرْق عند قرا يُوسُف، ثم هو الآن أمير آخُور كبير منزلتُه أكبر من منازلنا، ونحن لا نرْضَى بذلك. ثم إننا لا نريدُ من الأمير الكبير مَسْكه ولا حَبْسَه لكونه أنتمى إليه، غير أننا نريد إبعَادَه عنّا فيوليه الأمير الكبيرُ بعضَ الأعمال بالبلاد الشاميّة، ثم نكون بعد ذلك جميعاً تحت طاعة الأمير الكبير، ونقول قد عاش الملك الظاهر ططر ونحن في خدمته، لأنَّنا قد مللنا من الشتات والغُربة والحروب، فيطمئن كل أحد على نفسه وماله ووطنه».

فلما سمع جاني بك الصوفي كلامَ سُودُون من عبد الرحمن وفهمه، حنق منه واشتدَّ غضبه، وأغلظ في الجواب بكلام متحصله: «رجلٌ مَلِكٌ رَكَنَ إليَّ وانضم عليَّ كيف يمكنني إبعادُه لأجل خواطركم؟». ثم أخذ في الحط على خشداشيته الظاهرية [برقوق] ومجيئهم لإثارة الفتن والشرور، فسكت عند ذلك سُودُون. وأخذ قَرْمَش يراجعه في ذلك ويحذِّره المخالفة غير مرَّة، مُدِلاًّ عليه كونه من حواشيه، وهو لا يلتفت إلى كلامه. فلما أعياهُ أمرُه سكت، فأراد الآخر [أن] يتكلم فأشار عليه سُودُون من عبد الرحمن بالسكات، فأمسك عن الكلام. فتكلم سُودُون عند ذلك بباطن بأن قال: «يا خَوَنْد نحنُ ما قلنا هذا الكلام إلا نظن أن الأمير الكبير ليس له ميلٌ إليه، فلما تحققنا أنه من ألزام الأمير الكبير وأخصّائه

فنَسْكُت عن ذلك ونأخذ في إصلاح الأمر بينه وبين الأمراء لتكون الكلمة واحدة، بحيث إننا نصير في خدمته كما نكون في خدمة الأمير الكبير» فانخدع جاني بك لكلامه وظنَّه على جَلِيّته، وقال: «نعم، أما هذا فيكون».

وقاموا عنه، ورجع قرمَش إلى حال سبيله، وعاد سُودُون من عبد الرحمن إلى رفقته الأمراء، وذكر لهم الحكاية برمتها، وعظَّم عليهم الأمر إلى أن قال لهم: «تيقنوا جميعكم بأنكم تكونون في خدمة يَشْبك الجكميّ إن أطعتم جاني بَك الصُّوفي، فإنّ يشبُك عنده مقام روحه، وربما إن تمّ له الأمرُ يعهد بالملك إليه من بعده». فلما سمع الأمراء ذلك قامت قيامتهم، ومالوا بأجمعهم إلى الأمير برسباي الدقماقي الدوادار الكبير والأمير طَرَباي حاجب الحجّاب، وقالوا: «هذا تركنا ونحن خشداشيته لأجل يشبُك، فما عساه يفعل معنا إن صار الأمرُ إليه؟ لا والله لا نطيعُه ولو ذهبَت أرواحُنا». وأخذ الجميع في التدبير عليه في الباطن.

ولقد سمعتُ هذا القولَ من الأمير سودُون من عبد الرحمن وهو يقول لي في ضمنه: «كان جاني بَك الصُّوفي مجنوناً! أقول له: نحن بأجمعنا في طاعتك ــ وقد مات الملك المؤيد بحسرة أن نكون في طاعته ــ فيتركنا ويميل إلى يَشْبُك الجكميّ، وهو رجل غريب ليس له شوكة ولا حاشية». انتهى.

ولما خَرج سُودون من عبد الرحمن من عند جاني بك الصُّوفي طلب جاني بك الصُّوفي يَشْبُك الأمير آخور المذكور، وعرّفه قولَ سودُون من عبد الرحمن، واستشاره فيما يفعل معهم ــ وقد بلغه أن الأمراء تغيّروا عليه ــ فاتَّفق رأيُهُما على أنه يتمارض، فإذا نـزل الأمراء لعيادته قَبَض عليهم؛ وافترقوا على ذلك. وباتوا تلك الليلة وقد عظم جمع طَرَباي وبرسْبَاي من الأمراء والمماليك السلطانية، ولم ينضم على جانبي بك الصُّوفي غير جماعة من المماليك المؤيدية الصغار أعظمهم دُولات باي المحمودي السَّاقي.

ولما أصبح يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة أشيع أن الأمير الكبير جاني بك الصُّوفي متوعك، فتكلم الناسُ في الحال بأنها مكيدة حتى ينزل إليه الأمير برْسْبَاي

فيقبض عليه، فلم ينزل إليه برسباي، وتمادى الحال إلى يوم الجمعة عاشره وهو يوم عيد النحر.

فلما أصبح نهار الجمعة انتظر الأمير برسباي طلوع الأمير الكبير لصلاة العيد، فلم يحضر ولم يطلع؛ فتقدم الأمير برسباي وأخرج السلطان من الحريم وتوجّه به إلى الجامع، ومعه سائر الأمراء والمماليك، فصلّى بهم قاضي القضاة الشافعي صلاة العيد، وخطب على العادة. ثم مضى الأميران برسباي وطَرَباي بالسلطان إلى باب السِّتارة، فنحر السلطان هناك ضحاياه من الغنم، وذبح الأمير برسباي ما هناك من البقر نيابة عن السلطان. ثم انفض المَوْكِبُ، ونزل الأميرُ طَرباي إلى بيته هو وجميع الأمراء وذبحوا ضحاياهم، وتوجه الأمير برسباي إلى طبقة الأشرفية. وبينما هو ينحر ضحاياه بلغه أن الأمير الكبير جاني بك الصُّوفي لبس السلاح وألبس مماليكه، ولبس معه جماعة كبيرة من المؤيدية، وغيرهم، فاضطرب الناس، وأغلق باب القلعة، ودقت الكؤوسات(١) حربياً.

وكان من خبر جاني بك الصّوفي أنه لَمَّا تمارض لم يأت إليه أحدٌ ممن كان أراد مسكه، فأجمع رأيه حينئذ على الركوب، وجمع له الأمير يَشْبُك جماعة من إنياته من المماليك المؤيدية ومن أصحابهم.

حدثني السّيفي جاني بك من سيدي بك البَجْمَقْدَار المؤيدي، وهو أعظم إنيات يَشْبُك الجكمي المذكور، قال: «لبسنَا ودَخَلْنَا على الأتَابَك جاني بك الصُّوفِيّ وعنده الأمير يَشْبُك أمير آخور وكلّمْنَاه في أنّه يقوم يُصَلِّي العيد، ثم يلبس السلاح بعد الصلاة، فقال: صلاة العيد ما هي فرض علينا. نتركها ونركب الآن قبل أن يبدأونا بالقتال». قال: قلت في نفسي: بعيدٌ أن ينجح أمرُ هذا. ـ قلتُ:(٢) وقد وافق رأيُ جاني بك البَجْمَقْدَار في هذا القول قولَ من قال: «صلٍّ

(١) الكؤوسات ـ والأفضل أن يقال الكوسات ـ هي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق أحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص، ويتولى ذلك الكوسيّ. (صبح الأعشى: ٤/٩، ١٣).

(٢) الضمير عائد على المؤلف.

واركب ما تُنْكَب» على أنه كان غُتْمِيّاً(١) لا يعرف ما قُلْتُه، فوقع لجَانِي بَـك الصّوفي أنه لم يصلِّ ورَكِبَ فنُكِب.

ولما بَلغَ الأميرَ بَرْسْبَاي ركوبُ جَانِي بَـك الصّوفي لبس الأميـرُ بَرْسْبَـاي وحاشيتُهُ آلة الحرب، وتوجّه إلى القصْر السُّلطاني. وتَرَامَت الطائفتان بالنُّشّاب ساعةً، فلم يكن غير قليل حتى خرج الأميرُ طَرَبَاي من داره في عسكر كبير من الأمراء، وعليهم السلاح، ووقفوا تجاه باب السِّلسلة، فلم يجدُوا بباب السِّلسلة ما يَهُولُهم من كثرة(٢) العساكر. فأوقف الأميرُ طَرَبَاي بقيّة الأمراء، وسار هو والأميرُ قُجَق أميـر مَجْلس، وطلعوا إلى بـاب السِّلسلة إلى الأمير الكبيـر جـانِي بـك الصُّوفي ــ على أنّ طَرَبَاي في طاعته(٣) ــ ودَخَلا عليه وهو لابسٌ، وعنده الأمير يَشْبُك الأمير آخور. فأخذ طَرَبَاي يلُومُه على تأخُّرِهِ عن صلاة العيد مع السّلطان، وما فَعَله مِن لبس السّلاح، وأنه يقاتل مَن؟! فإنّ الجميـع في طاعة السلطان وطاعة الأمير الكبير. فَشَكَا الأميرُ الكبير جانِي بَك من الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِيّ من عدم تأدُّبِه معه في أمور المملكة، وأنه «لا يمكن اجتماعنا أبداً في بلد واحد». فقال له طَرَباي: «السمع والطاعة. كَلِّم الأمراء في ذلك فإنّهم في طاعتك». فقال: «وأين الأمراءُ؟». فقال: «ها هم وقوفٌ تجاه باب السِّلسلة» انزل أنت والأمير يَشْبُك إلى بَيْتِ الأمير بَيْبُغَا المظفّري أمير السلاح، واجْلِس به، واطلُب الأمراء إلى عندك وكلمهم فيما تختار». فأخذ يَشْبُك يقول له: «كيف تنزل من باب السِّلسلة إلى بيت من ليس هو معنا؟» فنهرَهُ الأمير طَرَبَاي فانقمَعَ. ولا زال يُخَادع الأمير جَانِي بَك الصُّوفي حتى انخدع له وقام معه هو والأمير يَشْبُك المذكور، وركبا ونزلا من باب السِّلسلة، وسارا إلى بيت الأمير بَيْبُغا المظَفّري ــ وهو تجاه

(١) الغتميّ: الذي لا يفصح في منطقه. واستعمالها غير واضح في السياق، فضلاً عن أن القارىء يحار في تقدير اسم «كان» أهو جاني البجمقدار أم جاني الصوفي؟

(٢) هذا اللفظ زائد. والاستغناء عنه يكون في صالح وضوح العبارة. والمراد أنهم لم يجدوا من العساكر ما يمكن أن يهولهم، أي كان عددهم قليلاً.

(٣) أي متظاهراً بالطاعة له.

مصلاة المؤمنيّ ــ المعرف ببيت الأمير نَوْرُوز، وبه الآن جَكَم خال الملك العزيز، فمشى وقد تحاوطه القَوْمُ. قلت: ما يفعل الأعداءُ في جاهلٍ ما يفعل الجاهلُ في نفسه.

فلمّا وصل الأميرُ جاني بك الصّوفيّ إلى باب الدّار المذكورة ودخله بفرسه، صاح الأميرُ أزْبُك المحمَّدي الظاهريّ: «هذا غريم السُّلطان قد دخل إلى عندكم احترصوا عليه». وقَبْلَ أن يتكامل دخولهم أَغْلَق البابَ على جاني بك الصّوفي ومن معه. فعند ذلك زاغ بصرُ جاني بك الصوفي، وشرع يترقَّق لهم، ويقول: «المروءة! افعلوا معنا ما أنتم أهلُه». ودخلوا إلى الدّار المذكورة، وإذا بالأمير بَيْبُغا المظفَّري عليه قميصٌ أبيض ورأسه مكشوف، وقد أخرج يده اليمنى من طَوْق قميصه، وهو جالس على دِكَّة صغيرة عند بوائك[1] الخيل، وبين يديه مَنْقَلُ نار عليه أسْيَاخ من اللَّحم تُشْوَى، وبُكَلٌ[2] فيها بوزا[3]، وعلى ركبته قوسٌ تَتَرِي وعِدَّة سهام. فعندما رأى الأمراء قام إليهم على هيئته؛ وقَبْلَ أن يصلوا إلى عنده ركس الأمير أَزْدَمُر شَايَا ثاني رأس نوبة، وأخذ خوذة الأمير يَشْبُك الأمير آخُور من على رأسه، فَدَمَعَت عينا يَشْبُك. فشَقَّ ذلك على الأمير بَيْبُغا وأخذ قَوْسَه بيده، واستوفى عليه بفردة نُشَّاب ليقتله، فهرَبَ أزْدَمُر ودخل إلى بَوَائِك الخيل، بعد أن أوسعه بَيْبُغَا المذكور من السَّب والتوبيخ، [وهو] يقول: «الملك إذا نُكِبَ تَرُوح حرمته! ولو مات حُرْمَتُه باقية»، حتى سكن غضبُه. وأُنزل جانِي بك الصُّوفِيّ ويَشْبُك الأمير آخور، فتقدّم الأمراءُ وقيَّدُوهما في الحال وأُخِذَا أسيرين إلى القلعة.

وملك الأميرُ بَرْسْبَاي بابَ السلسلة من غير قتال ولا مانـع، فإن الأمير الكبير جانِي بك الصُّوفيّ تركه ونزل من غير أمر أوجب نزوله؛ على أنه لما رَكِبَ وأراد النزول مع طَرَباي قال له بعض مماليكه أو حواشيه: «يا خَوَند، هذا باب السِّلسلة

---

(١) البوائك: واحدتها بائكة وبايكة. وهي بيوت كبيرة معدّة للخيل أو البقر والإبل. وفي دمشق يطلق اسم البوائك على مخازن الغلال للتجار، وأصحابها يقال لهم البوايكية. (معجم متن اللغة).

(٢) البكل: جمع بكلة، وهي الوعاء أو الإناء. وأهالي الفيوم بمصر يقولون للقلّة بكلة حتى الآن.

(٣) البوزا: خليط من دقيق الشعير والماء والسكر يخمر ثم يشرب.

الذي تروح عليه الأرواح، أين تنزل وتخليه؟» فقال له: «لمصلحة نراها»، فقال له: «فاتتك المصلحةُ بنزولك، والله لا تعود إليه أبداً» فلم يلتفت إليه جاني بك وتمادى في غِيِّه لقلةِ سعادته، ولأمر سبق، ولمقاساةٍ نالته بعد هروبه من سجن الإسكندرية ونالت أيضاً خلائق بسبب هروبه من سجن الإسكندرية على ما يأتي ذكر ذلك في ترجمة الملك الأشرف بَرْسْبَاي. ــ إن شاء الله تعالى.

ولَمَّا ملك الأميرُ بِرْسْبَاي والأمير طَرَبَاي بابَ السُّلسلة في الحال، نُودِيَ بالقاهرة بنفقة المماليك السلطانية. فلما سمع المماليكُ هذه المناداة سكنوا بإذن الله، وذهبَ كلٌّ واحد إلى داره. وفتِحَت الأسـواقُ، وشرع النـاسُ في بيعهم وشرائهم، بعدما كان في ظَنِّ الناس أن الفتنة تطولُ بين هؤلاء أيّاماً كثيرة؛ لأن كل واحد منهم مالكُ جهة من جهات القلعة، ومع كل طائفة خلائق لا تُحْصى، فجاء الأمر بخلاف ما كان في ظنهم، ويأبى الله إلاّ ما أراد.

واستبدّ من يومئذ الأمير بَرْسْبَاي بالأمر، وبتدبير المملكة مع مشاركة الأمير طَرَباي له في ذلك.

فلما كان يوم السبت حادي عشر ذي الحجة استدعى [برسبـاي] الأميرَ أَرْغُون شاه النَّوْرُوزِيَّ الأعور وخلعَ عليه باستقراره استاداراً بعد عَزْل الأمير صلاح الدين محمد بن نصر الله. وكان أرغُون شاه المذكور قد قَدِم إلى القاهرة صُحْبَة الملك الظاهر طَطَر من دِمَشْق.

وفيه رسم بحمل الأميرين جانِي بك الصّوفيّ ويَشْبُك الجَكَميّ الأمير آخور إلى ثغر الإسكندرية، وسجنا بها.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة خلع على الأمير آقْ خَجا الحاجب الثاني باستقرارِه في كَشْفِ الوَجْه القِبلي. ثم عُمِلَت الخدمةُ السلطانيةُ في يوم الخميس سادس عشرة بالقصر السلطاني، وحضر الخليفةُ والقضاةُ المَوكِبَ، فخُلع على الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقِيّ الدُّوادار الكبير واللالا باستقراره نظامَ المُلْك ومدبِّر المملكة، كما كان المالك الظاهر طَطَر في دولة الملك المظفر أحمد بن المؤيد

شيخ، عوضاً عن جاني بك الصُّوفي، وخُلِع على الأمير سُودُون من عبد الرحمن باستقراره دَوادَاراً كبيراً عوضاً عن بِرْسْبَاي الدُّقْمَاقيّ، وخُلع على الأمير قَصْرُوَه من تِمرَاز رأس نوبة النُّوَب باستقراره أميرَ آخُور كبيراً عوضاً عن يَشْبُك الجَكَمِي، وخُلع على الأمير جَقْمَق العلائي نائب القلعة باستقراره حاجب الحجاب عوضاً عن طربَاي، وعلى الأمير أزْبُك المحمديّ باستقراره رأس نوبة النُّوب عوضاً عن قَصْروه.

ثم فَوض الخليفةُ المعتضد بالله للأميرِ بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقيّ نظام الملك أمور الدولة بأسرها، ليقوم بتدبير ذلك عن السلطان الصالح محمد إلى أن يبلغ رشْدَه، وحَكَم بصحة ذلك قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التَّفَهني الحنفي؛ ومع هذا كله تقرر الحالُ على أن يكون تدبير الدولة وسائر أمور المملكة بين الأمير برْسْبَاي وبين الأمير طَرَبَاي، وأن يسكن الأمير برسْبَاي بطبقة الأشرفية على عادته، ويسكن الأمير طربَاي الأتَابَك بداره تجاه باب السِّلسلة، وهو بيت قَوصُون[1]، وأنّ طربَاي يحضر الخدمةَ عند الأمير برسْبَاي بالأشرفية. وانفضَّ المَوكِب، وخرج جميع الأمراء وسائر أرباب الدُّولة من الخدمة السلطانية بالقصر مشاة في خدمة الأمير بِرْسْباي نظام الملك حتى دخل الأشْرفيَّة التي صارت سكنه من يوم مات الملك الظاهر ططر، وعُملت بها الخدمةُ ثانياً بين يديه. وصرَّفَ [برسباي] أمور الدولة على حسب اختياره ومُقْتَضَى رأيه، واستمر على هذا، فعند ذلك كَثر تردد الناس إلى بابه لقضاء حوائجهم، وعظم وضخم.

ولما كان يوم ثامن عشر ذي الحجة المذكورة ورد الخبرُ بأن الأمير تغْرِي بَردِي المؤيَّديّ نائب حَلَب خَرَجَ عن طاعة السلطان، وقَبض على الأمراء الحلبيِّين، وآستدعى التُّرْكُمَان والعُرْبَان، وأكثر من استخدام المماليك.

وسبب خروجه عن الطاعة أنّه بَلَغه أن الملك الظَّاهر طَطَر عزله، وأقرَّ عوضه

(١) وهو اسطبل قوصون. وكان عبارة عن قصر كبير. وكانت العادة أن يسكنه الأمير الكبير أتابك العساكر. راجع فهرس الأماكن.

في نيابة حَلَب الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب طَرَابُلُس، فلما تحقَّق ذلك خرجَ عن الطَّاعة وفعل ما فعل. فشاورَ الأميرُ بَرْسْبَاي الأمراءَ في أمره، فوقَعَ الاتفاقُ على أن يكتب الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ بالتوجّه إليه وصحبته لعساكر وقتاله، وأخْذِ مدينة حَلَب عنه، وباستقراره في نيابتها كما كان الملك الظّاهر طَطَر أقرّه، وكتب له بذلك.

ثم في يوم ثالث عشرين ذي الحجّة، خَلَعَ الأميرُ بَرسْبَاي على القاضي صدر الدين أحمد بن العجمي باستقراره في حِسْبة القاهرة على عادته، بعد عَزْل قاضي القضاة جمال الدين يوسف البُسَاطي.

ثم في يوم سابع عشرينه ابتدأ الأميرُ بَرْسْبَاي نِظَامُ الملك في نفقة المماليك السلطانية، وهو والأمراء على تَخَوُّفٍ من المماليك السُّلطانيّة أن يمتنعوا من أخذها؛ وذلك أنّهم وَعَدوا المماليك في نوبة الأمير الكبير جَانِي بَك الصُّوفي لكل واحد بمائة دينار، فلم يُصَرَّ لكلّ واحد سوى خمسين ديناراً من أجل قِلّة المال؛ فإن الملكَ الظاهر طَطَر فرّق الأموال التي خلّفها الملك المؤيد [شيخ] جميعها، حتى إنه لم يبقَ منها بالخزانة السّلطانية غير ستين ألف دينار[1]، ومع ما فرّقه من الأموال زادَ في جوامِك المماليك بالدِّيوان المُفْرَد في كل شهر ما ينيف على عشرة آلاف دينار، ولذلك آستعفى صلاحُ الدين بن نصر الله من وظيفة الأستادَارِيَّة، بعد أن قام هو وأبوه الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخَوَاصّ الشريفة بعشرة آلاف دينار في ثمن الأضحية، وبعشرين ألف دينار مساعدة في نفقة المماليك السلطانية. ثم تقرَّرَ على كُلّ من مباشري[2] الدَّولة شيءٌ من الذَّهب حتى تُجْمَع من ذلك كله نفقةُ المماليك.

---

(١) يعود أبو المحاسن هنا ليؤكد قول المقريزي من أن الظاهر ططر «أتلف في مدته ــ مع قلتها ــ أموالاً عظيمة، وحمّل الدولة كلفاً كثيرة أتعب بها من بعده». وقد سبق لأبي المحاسن أن اعترض على أقوال المقريزي. راجع ص ٤٥، وتعليقنا في الحاشية (١) ص ٤٨. والمؤلف في المتن أعلاه ينقل عن المقريزي في السلوك: ٥٩٥/٤.

(٢) المباشرون: هم الموظفون في الدواوين والأعمال.

ولما جَلَسَ السلطانُ والأمراء لنفقة المماليك أخذ الأميرُ بَرْسْبَاي نِظَامُ الملك الصُّرَّة من النفقة بيده، وكلَّم المماليك السلطانية بما معناه أن الملك الظاهر طَطَر لم يَدَعْ في بيت المال من الذَّهَب سوى ما هو كيت وكيت، وأنَّهم عَجَزُوا في تحصيل المال لتكملة النفقة، ولم يقدروا إلا على هذا الذي تَحَصَّل معهم، ثم وعدهم بكُلِّ خير. وأمرَ كاتبَ المماليك فاستدعى اسم أوَّل من هو بطبقة الرَّفْرَف[(١)] ــ وكانت المماليك قبل أن يدخلوا الحُوشَ السّلطاني اتفقوا على أنه إذا آستدعى كاتبُ المماليك اسمَ أحدٍ فلا يخرج إليه، ولا يأخذ النفقة إلا إن كانت مائة دينار، وتوعّدوا من أَخَذَ ذلك بالقَتْلِ والإخراق ــ فلَمَّا استدعى كاتبُ المماليك اسمَ ذلك الرجل خرج بعد أن سمع كلامَ الأميرِ [برسْبَاي] نِظَامِ الملك من العُذر الذي أبداه، وقال: «إن أعطانا السلطانُ كفَّ تُرابٍ أخذناه». فشكره نِظَامُ الملك على ذلك، ورمى له الصُّرَّة فأخذها، وقبَّل الأرضَ وخَرَجَ، ولم يَجْسر أحدٌ على أن يكلِّمه الكلمة الواحدة بعد ذلك التهديد والوعيد. ثم صاح كاتبُ المماليك باسم غيره فخرَجَ وأخذَ، وتداول[(٢)] ذلك منه؛ وكلُّ من اسْتُدْعِي اسمُه خرجَ وأخذ إلى آخرهم، فأخذ الجميعُ النَّفقة، انفضُّوا بغير شَرّ.

قلت: وهذه عادة المماليك، يطلعون من ألف وينزلون إلى درهم[(٣)]. وكان الذي أَخَذَ النفقة في هذه النَّوْبة ثلاثة آلاف ومائتي مملوك، والمبلغ مائة وستّين ألف دينار.

---

(١) الرفرف في الأصل هو شرفة بناها الأشرف خليل بن قلاوون. وكانت بمثابة مكان لجلوس السلطان والأمراء، عالية تشرف على الجيزة. وقد هدم السلطان محمد بن قلاوون الرفرف سنة ٧١٢هـ وعمل بجواره برجاً نقل إليه المماليك. (خطط المقريزي: ٢/٢١٢). والمراد بطبقة الرفرف هذا البرج الذي أصبح ثكنة أو مدرسة عسكرية لتأهيل المماليك الصغار. راجع فهرس المصطلحات: الطباق.

(٢) كذا. ولعل الصواب: «وتناول ذلك منه».

(٣) إشارة إلى أن رواتب الأجناد المماليك لم تكن ثابتة، وذلك بسبب تقلّب أحوال الدولة الاقتصادية. وسوف يستمر تدهور أوضاع الدولة الاقتصادية، بسبب قلة الموارد وسوء تدبير السلاطين، مما يدفع المماليك إلى حركات تمرّد وعصيان مطالبين برواتبهم. وهؤلاء المماليك الأجلاب سوف يتحولون إلى مصدر فساد وإفساد في المجتمع: يعتدون على حرمات الناس، ويسلبونهم أموالهم، ويتدخلون في جميع شؤون الدولة دون وازع، مما يؤدي إلى انحلال أمر حكام الديار المصرية على حد تعبير أبي المحاسن. انظر على سبيل المثال: حوادث سنة ٨٦٠ ــ ٨٦١هـ.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة قَدِمَ مُبَشِّر الحاج، وأخبر بسلامة الحاج، وأن الوقفة كانت يوم الجمعة.

ثم في يوم الأحد ثالث المحرّم من سنة خمس وعشرين وثمانمائة وَرَد الخبرُ إلى الدّيار المصريّة بفرار الأمير تَغْرِي بَرْدِي المؤيّدي المعروف بأخي قَصْرُوه نائب حَلَب منها، بعد وقعةٍ كانت بينه وبين تَنِبَك البَجَاسِيّ المنتقل عوضه إلى نيابة حَلَب، فدقّت البَشَائر لذلك.

وكان من خبر تَنِبَك البَجَاسِيّ المذكور أنه لمّا قَدِم على الملك الظاهر طَطَر من بلاد الشَّرق مع من قَدِم من الأمراء ــ وقد تقدّم ذكرُهُم في عِدّة مواضع ــ ولّاه نيابة حَمَاة كما كان أوّلاً في دولة المؤيد [شيخ]، ثم خرج الملك الظاهر طَطَر من دِمَشْق يريد الديار المصرية، بعدما رَسَمَ بانتقاله من نيابة حماة إلى نيابة طَرَابُلس. فلما بلغ تَنِبَك البَجَاسِيّ ذلك وهو بحَمَاة رَكِبَ الهجن من وقته، وساق خلف الملك الظاهر طَطَر إلى أن أَدْركه بالغُور، فنَزَلَ وقَبَّل الأرضَ بين يديه، ولبس التّشريف بنيابة طَرَابُلس عوضاً عن الأمير أَرْكَماس الجُلُبَّانيّ، ثم خرج وسار إلى جهة ولايته. وقبل أن يسافر الأمير تنبك المذكور أسرَّ له الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقيّ الدَّوَادَار الكبير بأن الملك الظاهر [ططر] يريد توليته نيابة حَلَب عوضاً عن تَغْرِي بَرْدِي المؤيّدي ــ وكان بينهما صداقة؛ أعني بين بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي وبين تَنِبَك البَجَاسِيّ ــ ثم أمره بَرْسْبَايَ أن يكتُمَ ذلك لوقته، وكان ذلك في شهر رمضان. فاستمرّ تَنِبَك في نيابة طَرَابُلس إلى يوم عرفة مِنَ السنّة فورد عليه مَرْسُومٌ شريفٌ من الملك الظّاهِر طَطَر بنِيابَة حَلَب عوضاً عن تَغْرِي بَرْدِي المؤيّدي المعروف بأخي قَصْرُوه بحكم عصيانه، وبالتوجُّه لقتال تَغْرِي بَرْدِي المذكور. فخرج تَنِبَك من طَرَابُلس بالعساكر في رابع عشر ذي الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة إلى ظاهر طَرَابُلس، وأقام يتجهّز بالمكان المذكور إلى سادس عشر ذي الحجة. وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبرُ بموت الملك الظاهر طَطَر، فأَمْسَكَ عند ذلك الأمير تَنِبَك البجاسيّ عن المَسير إلى حَلَب حتى وَرَد عليه مَرْسُوم الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر باستمراره على نيابة حَلَب، وصحبة

المرسوم الخلعةُ والتشريف بنيابة حَلَب، وبالمسير إلى حَلب، فسار إليها لإخراج تَغري بَرْدِي منها. وعند مسيرهِ إلى جهة حلب وافاهُ الأمير إينَال النَّوْرُوزيّ نائب صَفَد بعسكرها، وتوجّه الجميعُ إلى حلب. فلما سمعَ تَغْـري بَرْدِي بقدومهم فرّ من حلب قبل أن يقاتلهم، وتوجّه نحو بلاد الرُّوم، وقيل قاتلهم وانكسر. وسار الأميرُ تَنِبَك البَجَاسِيُّ خلفه من ظاهر حَلب إلى الباب[1] فلم يدركه، ورجع إلى حلب وأقام بها إلى ما يأتي ذكره.

وفي رابـع عشرين المحرّم قَدِمَ أميرُ حاج المحمل بالمحمل، وهو الأمير تَمُرْبَاي اليُوسُفِيّ المؤيدي المُشِدّ كان، وهو يومئذ من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، وقد كَثُرَ ثناءُ الناس عليه بحسن سيرته فيهم، فخلع عليه ونزل إلى داره. فلما كان يوم الخميس ثامن عشرين المحرم طَلع المذكورُ إلى الخدمة السلطانية، فقُبِضَ عليه وعلى الأمير قَرْمَش الأعور الظاهريّ بَرْقوق أحد مقدمي الألوف، وكان قَرْمَش أحد أعيان أصحاب جاني بك الصوفيّ، وأُخْرِجَ هو وتَمُرْباي إلى ثَغْر دمْيَاط، وأنعم على الأمير يَشْبُك الساقي الظاهري الأعرج بإمرته دفعة واحدة من الجندية.

وكان من خَبرِ قَرْمَش هذا مع الأمير بَرْسْباي الدُّقْمَاقي أن الأمير الكبير جَاني بك الصوفي، لما صار أمرُ المملكة إليه بعد موت الملك الظاهر ططر، أمرَهُ بالجلوس بباب السِّتارة[2] ليكون عَيْناً على الأمير بَرْسْبَاي الدُّقْماقي؛ فأخـذ الأمير بَرْسْباي الدُّقماقي يستميله بكل ما وَصَلت القدرةُ إليه، فلم يقدر يحوّله عن جاني بك الصوفي، واعتذر بأنه ربّاه في بلاد الجرْكَس، وأنه كان يحمل جاني بَك الصوفي على كتفه، فكيف يمكنه مفارقته، فلمّا وقع من أمر جاني بك الصوفي ما

(١) الباب: بلدة على مرحلة من حلب في الجهة الشمالية الشرقية. وذكر القلقشندي أنها بليدة صغيرة. (صبح الأعشى: ١٢٨/٤). وذكر ابن الشحنة أنها قرية عظيمة بل مدينة صغيرة. وهي تذكر عادة مع بلدة بزاعة المجاورة لها وبينهما وادي بطنان. وكانت الباب قديماً بمثابة الربض لبزاعة، وكانت بزاعة حصناً منيعاً. ثم كثرت عماير الباب وصارت مصراً من الأمصار. (الدرّ المنتخب: ١٧٢ ــ ١٧٤).

(٢) باب الستارة: أحد أبواب القلعة. انظر صبح الأعشى: ٣٧١/٣.

وقع، وتمّ أمرُ الأمير بَرْسْبَاي الدقماقي، التفت إلى قَرْمَش، وأخرج إقطاعه، ونفاه إلى دِمْيَاط لِمَا كان في نفسه منه.

ثم في يوم الاثنين ثاني صفر أمسك الأمير الكبير بَرْسْباي الأميرَ أَيْتَمُش الخضري الظاهري أحد أمراء العشرات، ونفاه إلى القُدْس بطّالاً.

ثم في يوم الأربعاء ثامن عشر صفر جمع الأميرُ الكبيرُ بَرْسْبَاي الدقماقي الصَّيَارِف بالإصطبل السلطاني للنظر في الدَّرَاهم المؤيدية، فإنه كثر هَرْشُ الدراهم منها ــ ومعنى الهرش أن يُبَرَدَ من الدِّرْهم الذي زنتهُ نصف[1] حتى يَخِفَّ ويصير وزنُه ربع درهم ــ فأضَرَّ ذلك بحال الناس، فأمرَ الأميرُ الكبيرُ بإبطال المُعَامَلَة بالعدد، واستقرت المُعَامَلة بها وزناً لا عدداً، ورسمَ بأن يكون وَزْن الدرهم منها بعشرين درهماً فلوساً، وأن يكون الدينار الإفرنتيّ بمائتين وعشرين درهماً فلوساً، ويأحد عشر درهماً من الفضة الموازنـة، فشَقّ ذلك على النـاس كونهم كـانوا يتعاملون بالفضة معاددة فصارت الآن بالميزان، واحتاج كل بائـع أن يأخذَ عنده ميزاناً. وتشكُّوا من ذلك، فلم يلتفت الأميرُ بَرْسْبَاي إلى كلامهم وهدَّدهم، فمشى الحال.

وفي هذا الشهر ابتدأت الوَحْشة بين الأمير بَرْسْبَاي الدقماقي نظام المُلْك وبين الأمير الكبير طَرَبَاي أتابَك العساكر، وتنكر الحال بينهما في الباطن. وسببه أن الأمير طَرباي شقَّ عليه استبدادُ الأمير بَرْسْبَاي الدقماقي بأمور المملكة وَحْدَه، وتردُّدُ الناس إلى بابه، وخاف إن دام ذلك ربما يصير من أمر بَرْسْبَاي ما أشاعه الناس. وكان طرباي يقولُ في نفسه: إنه هو الذي مَهّد الديار المصرية، ودَبَّر على قبض جاني بك الصوفي حتى كان من أمره ما كان، ولولاه لم يقدر برسباي على جانِي بَك الصوفي ولا غيره. وكان الاتفاق بينهما أن يكون أمرُ المملكة بينهما نصْفَين بالسَّوِيَّة، لا يختص أحدُهما عن الآخر بأمرٍ من الأمور. وكان الأميرُ طرباي في الأصل من يوم مات الملك الظاهر طَطَر متميِّزاً على بَرْسْباي، ويرى أنه هو

(١) عبارة السلوك: «ومعنى الهرش أن يبرد من الدرهم حتى يخفَّ وزنه ويصير نحو ربع درهم».

الأكبر والأعظم في النُّفُوس، وأنه هو الذي أقام بَرْسْبَاي في هذه المنزلة من كونه استمال المماليك السلطانِيَّة إليه، ونَفَرهُم عن الأمير الكبير جاني بك الصوفي حتى تَمَّ له ذلك، وأنه هو الذي خدع جاني بك الصوفي حتى أنزله من باب السلسلة، وقام مع الأمير برسْباي إلى أن رَضِيَهُ الناس بأن يكون مُدبِّر المملكة، كل ذلك ليكون برسباي تحت أوامره، ولا يفعل شيئاً إلا بمشاورته. فلما رأى طرباي أن الأمر بخلاف ما أمَّلَه، نَدِمَ على ما كان من أَمْرِه في حَقِّ جاني بَك الصوفي حيث لا ينفعه النَّدم، وتكلَّم مع حواشيه فيما يفعله مع الأمير برسْباي، وكان له شوكة كبيرة من خشداشيته المماليك الظاهرية [برقوق] وغيرهم، فأشاروا عليه أن ينقطع عن طلوع الخدمة أياماً لينظروا فيما يفعلونه. وكان طرباي مُطاعاً في خشداشيته ولهم فيه محبة زائدة، وتعصُّبٌ عظيم له على برْسباي، فاغترّ طرباي بكلامهم، وعدى بمماليكه إلى برّ الجيزة حيث هو مَرْبَط خيوله على الرَّبيع كالمتنزِّه، وأقام به بقيَّة صفر.

وأما الأمير برْسْبَاي لما علم أن الأمير طرباي تَوَغَّر خاطرُه منه، وعلم أنه لا يتم له أمر مع وجوده، أخذ يدبر عليه فيما يفعله معه حتى يمكنه القبض عليه، ثم يفعل ما بدا له. هذا وقد انضم عليه جماعة كبيرة من أمراء الألوف، أعظمهم الأمير سُودون من عبد الرحمن الدَّوَادَار الكبير، والأمير قَصْرُوه من تِمْرَاز رأس نَوْبة النُّوَب، والأمير يَشْبُك الساقي الأعرج ـ وكان أعظمهم دَهاءً ومعرفة، وله دُرْبَةٌ بالأمور ـ والأمير تَغْري بَرْدي المحمودي الناصري وغيرهم. وباقي الأمراء هم أيضاً في خدمة الأمير برسباي في الظاهر، غير أنهم في الباطن جميعهم مع طرباي، ولكنهم حيثما ما أمكنهم الكلام مع برسباي أو طرباي قالوا له: «أنت خشداشنا وأغاتنا»، لأن كليهما من مماليك برقوق. بهذا المقتضى صار الأمير برسباي لا يعرف من هو معه من خشداشيته الظاهرية، ولا من هو عليه غير من ذكرنا من الأمراء، فإنهم باينوا طرباي، وانضموا على برسباي ظاهراً وباطناً.

فلما علم بَرْسْباي أن هؤلاء الأمراء معه حقيقةً قوي قلبُه بهم، وألقى مقاليد أمر طربَاي في رقبة الأمير يَشْبُك السَّاقي الأعرج أن ينزل إليه، ويعمل جهده في

طلوعه إلى الخدمة السلطانية. ثم سَلَّط أيضاً جماعةً أُخَر على الأمير طربَـاي يُحسِّنُون له الحضور من الربيع. هذا[١] مع ما يقوّي جأشه الأمير تَغْرِي بَرْدِي يجبُنُ عن ذلك حتى استهل شهر ربيع الأوّل.

فلما كان يوم الثلاثاء ثانيه قدم الأمير الكبير طرباي من الربيع، ونزَل بداره تجاه باب السلسلة. وتردَّد إليه الأمير يَشْبُك الساقي الأعرج، وحسّن له الطلوع بأن قال له: إن كل خشداشيته من الظاهرية [برقوق] معه، وأنهم لا يؤثرون عليه أحداً، وأنه بطلوعه يستفحلُ أمرُه، وبعدم طلوعه ربما يُجَبَّنُ ويضمحلّ أمرُه، فإن الناس مع القائم، «وإذا حضرت أنت تلاشى أمرُ بَرْسْبَاي»، وهـوّن عليه أمـرَ بَرْسْبَاي. ولا زال به حتى انخدع له وأَذْعَنَ بالطلوع.

فلما أصبـح يوم الأربعاء ثالثه أَمْسَك الأميرُ بَرْسْبَاي الأميرَ سُودُون الحمويَّ أحد أمراء الطلبخانات، والأمير قَانْصُوَه النَّوروزِيَّ أحد أمراء الطبلخانات أيضاً، وكانا من جملة أصحاب طَرَبَاي، فعظُمَ ذلك على طَرَبَاي، وقامت قيامة أصحابه وحذَّرُوه عن الطلوع في غَدِه ــ فإنه كان قَرَّرَ مع الأمير يَشْبُك الأعرج الطلوع إلى الخِدْمَة في يوم الخميس رابعه. فلما وَقَـعَ مَسْكُ هؤلاء نَهَاهُ أصحابُه عن الطلوع، فأبى إلّا الطلوع ليتكلَّم مع الأمير بَرْسْبَاي بسبب مَسْكه لهؤلاء ويطلقهما منه. فألَحوا عليه في عدم الطلوع، وأكثروا من ذلك، وهو لا يُصْغِي إلى قولهم، وفي ظنه أن الأمير بَرْسْبَاي لا ينهض بأمر يفعله في حقه، وأيضاً لا يقابله بسوء لماله عليه من الأيادي قديماً وحديثاً.

فلما أصبـحَ نهارُ الخميس رابـع شهر ربيع الأوّل ركب الأمير الكبير طَرَباي من داره ومعه جماعة كبيرة من حواشيه، وطَلَع إلى القلعة، وكان لقلة سعده غالب من هو معه من خشداشيته رؤوس نُوَب، ليس في أوساطهم سيوف. فما هو إلا أن دخـل إلى الخِدْمَـة، واستقرّ بـه الجُلُوس في منزلتـه، وقُرِىء الجيشُ[٢] على

(١) كذا هي العبارة في الأصل، وهي مضطربة، غير أن المراد واضح.

(٢) راجع ص ٣١، حاشية (١).

السُّلطان، وانتهت العلامة، وأُحضر السِّماط، وقام الجميعُ على أقدامهم، ابتدأ الأميرُ الكبير بَرْسْبَاي الدُّقْمَاقي نظامُ الملك بأن قال: «الحال ضائع، والكلمةُ متفرّقة، وأحوال الناس متوقّفة لعدم اجتماع الناس على كبير يُرْجَع إليه فيما يَرْسُمُ به، ولا بُدّ للناس من كبير يُرْجَع إليه في أمور الرَّعية» فأجابه في الحال ـ قبل أن يتكلَّم طَرَبَاي ـ الأميرُ قَصْرُوَه رأسُ نَوْبة النُّوَب، وقال: «أنت كبيرنا ومع وجودك من يكون خلافك؟ افعل ما شئت». فقال الأمير بَرْسْباي عند ذلك: «اقبضوا على هذا» وعَنَى الأميرَ الكبيرَ طَرَباي. فلما سمع طَرَبَاي ذلك جَذَب سيفه ليدفع عن نفسه، وأرادَ القيام، فسبقه الأميرُ بَرْسْبَاي نظامُ الملك، وضَرَبَه بالسيف ضربةً جاءت في يده كادت تُبِينُها ـ وهي على ظاهر كفه حيث كان قابضاً بها على سيفه ـ ثم بادَرَهُ الأميرُ قَصْرُوَه وأعاقه عن تمام القيام، وتقدّم إليه الأميرُ تَغْرِي بَرْدِي المحموديّ وقبض عليه من خلفه كالمعانق له، وحُمِلَ من وقته إلى أعلى القَصْر، وقُيِّد في الحال، وقد تضمَّخ بدَمِه. ووقعت الهجّة بالقصر، وتسللت السيوف من حواشي طَرَبَاي بعد أن فات الأمرُ، وقد خطف الأمير بَرْسْبَاي التُّرس الفولاذ من يد السلطان الملك الصالح محمد وتَترّس به، وأعطى ظَهْرَه إلى الشبّاك، وسيفه مسلولٌ بيده، فلم يجسر أحدٌ على التقدّم إليه لكثرة حاشيته، ولقوة شوكته. ثم سكتت الهجَّةُ في الحال، وردّ كلُّ واحد من أصحاب طَرَبَاي سيفَه إلى غِمْدِهِ عندما رأوا أن الأمر فاتهم، وقالوا: «نحن من أصحاب بَرْسْبَاي»، فعرف بَرْسْبَاي الجميعَ ولم يؤاخذ أحداً منهم بعد ذلك. وتكسَّر بعض صينيّ مما كان فيه الطعام للسِّمَاط السلطاني لضيق المكان، فإن الحَرَكَة المذكورة كانت بالقصر الصغير الوسطاني حيث فيه الشرابخاناه. وطلب الأمير بَرْسْبَاي في الحال المزيِّنَ[1] وأرسله إلى طَرَبَاي فخَاطَ جِرَاحه بعدما قيّده، ثم أصبح من الغد حَمَلَه إلى الإسكندرية فسجن بها، إلى أن أطلقه في أيّام سلطنته، حسما نذكره في محلّه في ترجمة الملك الأشرف بَرْسْبَاي إن شاء الله تعالى.

(١) المزيِّن: الذي يعالج الجروح ويداويها. واستعملت أيضاً بمعنى الخاتن الذي يختن الصبية. انظر السلوك: ٤/٦٦١.

وخلا الجوّ للأمير بَرْسْبَاي بمَسْكِ الأمير طَرَبَاي هذا.

قلت: وكان في أمر الأمير طَرَبَاي هذا عبرةٌ لمن اعتبر؛ وهو أن طَرَبَاي لا زال بجَانِبِي بَك الصُّوفيّ حتى خدعه وغَدَرَ به عندما أنزله من الحرّاقة بباب السِّلسلة، وتحيَّل عليه حتى قبضه وحمله مقيّداً إلى سجن الإسكندرية وسجن بها، وقد ظنَّ أن الأمر صَفَا له وأنه لا يُعْدَل عنه إلى غيره لاستخفافه بالأمير بَرْسْبَاي، فأتاه الله من حيث لم يحتسب، وعمل عليه الأميرُ بَرْسْبَاي حتى خدَعه وأطلعه إلى القلعة، وصار في يده بعدما امتنع ببرِّ الجيزة أياماً، والناس تترقَّب حركته ليكونوا في خدمته، وفي قتال عَدُوِّه، إلى أن عدّى من برّ الجيزة وَمَشى لحتفه بِقَدَمَيْه، فكان حالُه في ذلك كقول الإمام أبي الفتح البُسْتِيّ حيث قال رحمه الله تعالى: «أرى قَدَمي أراق دمي».

وإن كان طَرَباي لم يهلك ــ في هذه ــ الموتة المكتوبة، فقد مات مَعنًى، وحُمِلَ إلى الإسكندرية، فأدخل به عند أخصامه الأمير الكبير جَانِبِي بَك الصُّوفيّ وغيره.

قلت: لتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

ولما تمّ أمر الأمير بَرْسْبَاي فيما أراد من القبض على الأمير طَرَبَاي والاستبداد بالأمر، أخرجَ الأميرَ سُودُون الحمويّ منفياً إلى ثغر دِمْيَاط. ثم أخذ في إبْرام أمره ليترقَّى إلى أعلى المراتب، فلم يَلْقَ في طريقه من يمنعه من ذلك؛ وساعده في ذلك موتُ الأمير حسن بن سُودُون الفقيه خال الملك الصالح محمد هذا في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، فإنه كان أحد مقدمي الألوف وخال السلطان الملك الصالح وسُكْناه بقلعة الجبل، وكان جميع حواشي الملك الظاهر طَطَر يميلون إليه، فكُفِيَ الأميرُ بَرْسْبَاي همّه أيضاً بموته. فلما رأى بَرْسْبَاي أنه ما ثَمّ عنده مانع يمنعه من بلوغ غرضه بالديار المصرية، خشي عاقبة الأمير تَنِبَك مِيق نائب الشّام، وقال: «لا بُدَّ من حضوره ومَشُورَته فيما نريد نفعله»، فندب لإحضاره الأميرَ ناصر الدين محمداً ابن الأمير إبراهيم ابن الأمير مَنْجَك اليُوسُفيّ، فحضر، وخرج المذكور مُسْرِعاً من الديار المصرية إلى دِمَشْق لإحضار الأمير تَنِبَك

المذكور. وأخذَ الأميرُ بَرْسْبَاي فيما هو فيه من عمل مصالح الناس وتنفيذ الأمور، فرَسَم بإحضار الأمير أَيْتَمُش الخضري من القُدْس.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشرين شهر ربيع الأوّل أمسك الأمير الطواشيّ مَرْجَان الهندي الزِّمام المعروف بالخازندار، وسلمه للأمير أَرْغُون شاه النَّوروزِيّ الأعور الأستادار ليصادره، ويستخلص منه الأموال. وطلب الأميرَ الطواشيَّ كافورَ الروميّ الصَّرْغَتْمُشِيَّ وخلع عليه باستقراره زماماً على عادته أوّلاً. ثم قدم أَيْتَمُش الخضري إلى القاهرة، فرَسَمَ له الأميرُ بَرْسْبَاي بلزوم داره بَطَّالاً. واستمر مَرْجَان عند الأمير أَرْغُون شاه المذكور إلى أن قَرَّرَ عليه حملَ عشرين ألف دينار فحملها، وضَمِنَهُ جماعةٌ أخر في حَمْلِ عشرة آلاف دينار أخرى، وأُطْلق في يوم الأربعاء ثامن عشر شهر ربيع الآخر.

ثم في سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور قَدِمَ الأميرُ تَنِبَك مِيق نائب الشام إلى الديار المصرية، بعد أن تلقَّاه جميعُ أعيان الدولة، وطلع إلى القلعة، فخرج الأميرُ الكبيرُ بَرْسْبَاي لتلقِّيه خارج باب القصر السلطاني، ونثر على رأسه خفايف الذّهب والفضة، وعاد معه إلى داخل القَصْر بعد أن اعتذر له عن عَدَمِ نزوله إلى تلقِّيه مخافة من المماليك الأجلاب، فقَبِلَ الأميرُ تَنِبَك عذرَه. ثم قُدِّمت خلعةٌ جليلة فلبسها الأمير تَنِبَك نائب الشام المذكور، وهي خلعة الاستمرار له على نيابة دِمَشْق على عادته. ثم خلا به الأميرُ بَرْسْبَاي وتكلَّم معه واستشاره فيمن يكون سلطاناً، لأن الديار المصرية لا بد لها من سلطان تجتمع الناسُ على طاعته، ثم قال له: «وإن كان ولا بد فيكون أنت، فإنك أغاتُنا وكبيرُنا وأقدمُنا هجرة»[1]،

---

(١) قديم هجرة: يستعمل هذا التعبير عادة للدلالة على القدامى من المماليك الأجلاب (المشتروات) الذين يشتريهم أحد السلاطين ويربيهم ويلحقهم بخدمته فيكونون من المماليك السلطانية أو الخاصكية. ولما كان التجار يأتون بهؤلاء المماليك صغاراً من بلادهم البعيدة ويبيعونهم لسلطان مصر المملوكي فقد سموا مهاجرين. والواقع أن هذه التسمية إنما هم الذين أطلقوها على أنفسهم، كنوع من التكريم الذاتي؛ بينما هم في الحقيقة أجلاب ومشتروات.

فاستعاذ الأميرُ تَنبَك من ذلك وقام في الحال، وقبَّلَ الأرض بين يديه وقال: «ليس لها غيرُك»، فشكر له الأميرُ بَرْسْبَاي على ذلك. ثم اتَّفق جميعُ الأمراء على سلطنته، وخَلْع الملكِ الصالح محمد من السّلطنة، فوقع ذلك في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين وثمانمائة، حسبما يأتي ذكره في أوّل ترجمة الملك الأشرف برسباي.

قلت: وكما تَدِين تُدَان جوزِيَ الملك الظاهرُ طَطَر في وَلَدِهِ كما فعل هو بابن الملك المؤيد [شيخ] الملك المظفر أحمد؛ غير أن الأمير طَطَر كانت له مندوحة بصِغَرِ ابن الملك المؤيد [شيخ] من أنه كان [بَقِيَ] لبلوغه الحلم سنين طويلة، وأما الملك الصالح هذا فكان مُرَاهِقاً، غير أنهم احتجوا أيضاً بأنه كان في عقله شيء شبه الخلل.

قلت: وإن توقَّف الأمر على أنّ كلَّ واحد من هؤلاء يُخْلع بأمر من الأمور، ويكون ذلك حجّة لمن خلعه، فيلزم الخالعَ من ذلك أمورٌ كثيرة لا يطيق التخلّص منها أبداً، ليس لإبدائها هنا محلٌّ. وقد دار هذا الدّورُ على أناس أخر بعدهما، والكأس ممزوج لمن يشربه من يد ساقيه، كما جرت به العادةُ، والعادة لها حكمٌ، وهي تثبت عند الشافعية بمرَّةٍ واحدة. انتهى.

ولَمَّا خُلِعَ الملكُ الصالح من السلطنة أُدخِل إلى أُمِّه خَوَنْد بنت سُودُون الفقيه ببعض الدُّور السلطانية، ودام بها سنين عديدة من غير تَرْسِيم[١] ولا حَرَج، حتى إنه بعد سنين صارَ يَرْكَبُ وينزل صحبة الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف بَرْسْبَاي إلى القاهرة من غير أن يحتفظ به أحدٌ، وحضر معه مرَّة مأتم والدته خَوَنْد زوجة الملك الأشرف بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريِّين، وجلسا في الملأ بصدر المدرسة، فتعجَّبَ الناس من ذلك غاية العجب، كَوْن الملك الصالح المذكور كان سلطاناً ثمّ خُلِعَ من المُلك وبعد مُدّة يسيرة صار يركب وينزل إلى القاهرة. ودام الملك الصالح [محمد] بقلعة الجبل سنين حتى بلغ الحُلُم، وزوَّجه

(١) أي من غير حجر عليه ولا حوطة.

الملك الأشرف [بَرْسْبَاي] بابنة الأتَابَك يَشْبُك السّاقي الأعرج، ودامت معه حتى مات عنها في الطاعون بقلعة الجبل في ليلة الخميس ثان عشرين جمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، وهو في حدود العشرين سنة من العمرُ تخميناً. وكان أهوج وعنده بعض بَلَهٍ وسَذَاجَة، مع خفَّةٍ وسُرعة حركة، وسلامة باطن، وعدم تجمُّلٍ في ملبسه. ولم يكن عنده شيء من الكِبْر والتَّرَفُّع، ولم يتأسَّف على المُلْك أبداً. وكان غالب حواشي الملك الأشرف [بَرْسْبَاي] يسمُّونه في وجهه «سيدي محمد»، ويصيحون له بذلك. ومما يُنْسب إليه من السَّذَاجة أنّه ركب مرة فرساً ثم طلبه ثانياً فقال: «هاتوا فرسي الأبيض»، فنهرَهُ بعض حواشيه وقال له: «لِمَ لا تقول فرسي البُوز»، ثم أتِيَ بعد ذلك بمشروب منَ السُّكّر فقال: «ما أشرب إلّا في سلطانيتي البُوز»، فنهره ذلك الرَّجلُ بعينه وقال له: «لم لا تقول سلطانيَّتي البَيْضَاء»، فقال: «والله تحيَّرتُ بينكم! تارةً تقولون لا تُقل أبيض وقُل بُوز، وتارة تقولون بالعَكْس، كيف يكون عملي معكم»؟ وله أشياء من ذلك كثيرة، على أنه كان يحفظ القرآن، ويعرف بلسان الجاركسي، ولِبُلُوهِيَّتِهِ حلاوةٌ وطلاوةٌ مـع خِفَّة روح ــ انتهى والله تعالى أعلم.

السنة التي حكم فيها أربعة سلاطين

وهي سنة أربع وعشرين وثمانمائة.

حكم في أوّلها إلى يوم الاثنين ثامن المحرّم الملك المؤيَّد شيخ، ثم ابنُه الملكُ المظفَّر أحمد إلى تاسع عشرين شعبان، ثمّ الملكُ الظاهر طَطَر إلى رابع ذي الحجة، ثمّ ابنُه الملك الصالح محمد إلى آخرها وإلى [شهر ربيـع الآخر] من سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

وفيها ــ أعني سنة أربع وعشرين وثمانمائة ــ تُوُفِّي الأميرُ زين الدين فرج ابن الأمير سِكِزباي[1] الظاهريّ، أحد أمراء العشرات وخواصّ الملك المؤيّد شيـخ،

(١) في الأصل: «شكر باي». وفيه تصحيف. وما أثبتناه عن نزهة النفوس والضوء اللامع. وقد ضبطه السخاوي بالعبارة: بسين مهملة ثم كاف مكسورتين بعدها زاي ساكنة.

في رابع صفر بعد مَرَض طويل. وكان شابّاً مليح الشكل، بَهِيَّ المنظر، متجمِّلاً في ملبسه ومركبه، ولم يبلغ من العُمْر خمساً وعشرين سنة، فيما أظنّ. وكان الملك المؤيّد [شيخ] ربّاه واختصّ به، فلما تسلطن رقّاه وأمّره.

وتُوُفِّيَ القاضي بهاء الدين محمد بن بدر الدين حسن بن عبد الله المعروف بالبُرْجِيّ في يوم الخميس عاشر صفر عن ثلاث وسبعين سنة، بعد أن وَلِيَ حِسْبَة القاهرة غير مَرّة، ووكالة بَيْت المال ونظر الكُسْوة، وباشر عِمَارَة الجامع المؤيَّديّ. وكان من أصحاب الملك الظاهر طَطَر.

وتُوُفِّيَ علمُ الدين سليمان بن جنيبة رئيس الأطبَّاء في سادس عشرين صفر، وقد أناف على ثمانين سنة. وكان أبُوه يهودياً ثم أسلم، ونشأ سليمانُ هذا مُسْلِماً.

وفيها قُتِلَ الأميرُ يَشْبُك بن عبد الله اليُوسُفِيّ المؤيَّديّ نائب حَلَب في واقعة كانت بينه وبين الأمير أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ الأتابَك بظاهر حَلَب في يوم الثلاثاء ثالث عشرين المحرّم.

قال المقريزي: وكان غير مشكور السِّيرة ظالماً عَسُوفاً مع كِبْر وجَبْرُوت، فأراح الله منه.

وفيها قتِلَ الأميرُ الكبير سيفُ الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله القَرْمَشِيّ الظاهريّ أتابَك العساكر بالديار المصريّة في خامس عشرين جمادى الأولى بقلعة دمشق بسيف الأمير طَطَر حسبما تقدّم ذكرُ القبض عليه. وكانَ القَرْمَشِيّ من محاسن الدنيا لِمَا اشتمل عليه من السؤدد. وكان أصلُه من مماليك الظاهر بَرْقُوق، وتَرَقَّى في الدَّوْلة الناصرية [فرج] إلى أن صار من جُمْلة أمراء البلاد الشاميّة، ثمّ انضم على الأمير شيخ ولم يَبْرَح عنه في السَّرَّاء والضراء إلى أن مَلَك الديار المصريّة، فولاه نيابة صَفَد، ثم الأمير آخوريّة الكُبْرَى، ثم نقله إلى الأتابَكِيَّة بديار مصر بعد انتقال أَلْطُنْبُغَا العُثْمَاني إلى نيابة دمشق بعد خروج قانِي بَاي المحمدي عن الطاعة، فدام على ذلك إلى أن جَرَّدَه الملكُ المؤيّد [شيخ] إلى البلاد الشاميّة وصحبته جماعة من مقدّمي الألوف تقدّم ذِكْرهُم في عِدَّة مواضع من ترجمة الملك المظفَّر [أحمد]

والملك الظاهر طَطَر. وَلَمَّا أَشْرَف الملكُ المؤيّد [شيخ] على المَوْتِ عَهِدَ لولده أحمد بالمُلْك، وجعلَ القَرْمَشِيّ هذا أتابَكه، لثقته به من أنّه يفعل مع ولده كما كان(١) فعل الأتابَك يَلْبُغَا العمريّ مـع أولاد السلاطين ولم يتسلطن أبداً ــ فإنه كان من جنس يَلْبُغَا، أعني أنه كان تركيّ الجنس ــ فوثب الأميرُ طَطَر على الأمْرِ حسبما حكيناه، وخرجَ بالملكِ المظفَّرِ أحمد إلى دِمَشْق، فأطاعه القَرْمَشِيّ المذكور، وقد قَنَعَ بأنْ يكون في نيابة دِمَشْق، فلم يُكَذِّب طَطَرُ الخبرَ وقَبَضَ عليه من وقته وحبسه بقلعة دِمَشْق ثم قتله.

قلت: أمَّا القبض عليه فيمكن طَطَر الاعتذار عنه، وأما قتله فلا أقبل له فيه عُذْراً؛ فإنه كان يمكنه حبسه إلى الأبد كما فعل ذلك بعدّةٍ من الملوك، فإنه كان عاقلاً ساكناً عديم الشّر لَيِّنَ الجانب متواضعاً كريماً حشيماً، ولم يكن فيه ما يعاب، غير أنه كان من غير جنس(٢) القَوْم لا غير.

وتُوُفِّيَ الأميرُ الـوزير المشيـرُ بدر الـدين حسن بن محبّ الدين عبـد الله الطرابُلسِيّ تحت العقوبة ــ في سابع عشر جماد الآخر بدِمَشْق ــ بأمر الأمير الكبير طَطَر. وكان أبو بدر الدين هذا من مسالمة نصارى طَرَابُلُس، وبها وُلِدَ بدرُ الدين هذا ونشأ، وتعاني قلم الدِّيْوَنَة(٣)، وتولى شدّ الدواوين بها، ثم غير زِيِّه، وَوَلِيَ كَتَابَة سِرّ طَرَابُلُس، ثمّ تعلّق بخدمة الملك المؤيّد شيخ المحمودي لَمّا وَلِيَ نيابَةَ طَرَابُلُس وعمل أستاداره، وغيّر زيَّه ولبس زيّ الأمراء، ودام في خدمته إلى أن تسلطن وولاه الأستادارية ثم الوزر، ثم نيابة الإسكندرية، ثم الكشف بالـوجه القبلي، ثم أعيد إلى الأستادارية، ثم أمسكه وصادره وعاقبه.

قال المقريزي: وكان يكتب الخطّ المَنْسُوب، ويتظاهر بالمعاصي، وينوِّعُ الظلم في أخذ الأمْوَال، فعاقبه الله بيد ناصره الملك المؤيد شيخ أشدّ عقوبة، ثم

(١) عبارة الأصل: «من أنه كان يفعل مـع ولده كما فعل.. الخ».
(٢) أي لم يكن جركسياً.
(٣) الديونة: العمل في ديوان الإنشاء. والمراد بالعبارة أنه عمل كاتباً في ديوان الإنشاء.

قبض عليه طَطَر وصادره وعاقبه حتى هلك تحت الضَّرْب، وعاقبه ميّتاً، فأراح الله منه عباده.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البُلْقِنيّ الشافعي قاضي الديار المصريّة وعالمها، في ليلة الخميس حادي عشر شوّال عن ثلاث وستين سنة، بعد مرض طويل تمادى به، في دِمَشْق لَمَّا كان مسافراً صحبة السُّلطان إلى مصر، وصُلِّيَ عليه بالجامع الحاكمي، وأعيد إلى حارة بهاء الدين، ودُفِنَ على أبيه بمدرسته التي أنْشَأَها تجاه داره ــ وهو صهري زوج كريمتي(٣) والذي تَوَلَّى تربيتي ــ رحمه الله تعالى. ومات ولم يخلف بعده مثله في كثرة علومه وعفته عما يُرْمَى به قضاةُ السّوء. وكان مولده بالقاهرة في جُمَادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وهكذا سمعتُه من لفظه غير مَرّة؛ وأمّه بنت قاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل الشافعي النحوي. ونشأ بالقاهرة، وحفظ القرآن العزيز وعِدّة مُتُون، وتفقّه بوالده وبغيره إلى أن برع في الفقه والأصول والعربية والتفسير وعِلْمَي المعاني والبيان، وأفتى ودرَّس في حياة والده، وَوَلِيَ قضاءَ العَسْكر بالديار المصرية، ثم وَلِيَ قضاء القضاة بها في إحدى الجمادتَيْن من سنة أربع وثمانمائة في حياة والده عوضاً عن قاضي القضاة ناصر الدين محمد الصّالحيّ، وذلك أوّل ولايته، وعزل ثم وُلِّيَ غير مرة ــ حَرَّرْنَا ذلك في تاريخنا المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. وكانت جنازته مشهورة إلى الغاية، وحُمِلَ نعشُه على رؤوس الأصابع. وكان ذكيّاً مستحضراً، عارفاً بالفقه ودقائقه، مستقيم الذِّهن، جيِّد التصور، حافظاً فصيحاً بليغاً، جَهْوَرِيّ الصَّوْت، مليح الشكل، للطول أقرب، أبيض مُشْرَباً بحمرة، صغير اللحية مدوّرها، منوَّر الشَّيْبَة، جميلاً وسيماً، ديِّناً عفيفاً مهاباً جليلاً، معظّماً عند الملوك والسلاطين، حُلْوَ المُحَاضرة، رقيق القلب سريع الدَّمْعَة. على أنّه كان فيه بادرةٌ وحِدَّة مزاج، غير أنها كانت تَزُول

(٣) هي خوند بيرم بنت تغري بردي والد المؤلف. وقد تولى القاضي البلقيني تربية أبي المحاسن بعد موت زوجها الأول ناصر الدين ابن العديم المتوفى سنة ٨١٩هـ.

عنه بسرعة، ويأتي بعد ذلك من محاسنه ما يُنْسى معه كل شيء. وكان مُحَبباً للرَّعية، متجملاً في ملبسه ومركبه. ومدحه خلائق من العلماء والشعراء. أنشدني قاضي القضاة جلال الدين أبو السعادات محمد بن ظهيرة، قاضي مكة وعالمها، من لفظه لنفسه، بمكة المشرفة، مديحاً في قاضي القضاة جلال الدين المذكور في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، قال رحمه الله: [الطويل]

هَنِيئاً لكم يا أَهْلَ مِصْرَ جَلالُكُم عَزِيزٌ فكَمْ مِن شُبْهَةٍ قد جَلاَ لَكُم
وَلَوْلاَ اتِّقَاءُ الله جلَّ جلاَلُه لَقُلْتُ لِفَرْطِ الحُبِّ جلَّ جَلاَلُكم

وتُوُفِّيَ السلطانُ غياثُ الدين محمد المعروف بكِرِشْجِي بن يزيد بن مراد بن أرخان بن عثمان مُتَملِّك بلاد الرُّوم في شهر رَجَب، وملك بعدَهُ ابنُه مُرَاد بَك صاحب الفُتُوحات والغَزَوات المشهورة الآتي ذكره في محله. وتفسير «كِرِشْجِي» أي صاحب الوتر؛ لأن «كِرْش» باللغة التركية هو الوَتَر الذي يُوتَّر به القَوسُ، وكان قَبْل سلطنتِه خُنِقَ بوَتَرٍ ثم أُطْلِقَ فَسُمي بذلك. وهو بكسر الكَاف والراء المهملة وسكون الشين المعجمة وكسر الجيم.

وفيها قُتِلَ الأميرُ علاء الدين أَلْطُنْبُغَا من عبد الواحد الظَّاهري المعروف بالصَّغِير رأس نوبة النُّوَب، ثم نائب حَلَب بعد انهزامه من حَلَب في واقعة كانت بينه وبين التُّركُمَان في تاسع شعبان. وكان أصلُه من مماليك الظَّاهِر بَرْقُوق، وصار خاصَّكياً في دولة الناصر فرج، ثم تَرَقى في الدَّوْلة المؤيَّدية [شيخ] إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف، ثم رأس نوبة النُّوَب، ثم أخرجَهُ الملك المؤيد [شيخ] إلى البلاد الشاميّة مجرّداً لصحبة الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا القَرمشيّ، فلما قتل يَشْبُك نائب حَلَب المقدّم ذكرُه ولاّهُ القَرْمَشِيْ نيابة حَلَب، فدَامَ بها إلى أن قبض الأمير طَطَر على القَرْمَشِيّ فخرج هو عن الطاعة، ووقع له ما حكيناه إلى أن قُتِل. وكان أميراً جليلاً، مَلِيحَ الشَّكْل لَيِّن الجانب، كَرِيماً شُجَاعاً محبَّباً للناس. رحمه الله تعالى.

وفيها قُتِلَ الأميرُ سيف الدين قَجْقَار بن عبد الله القَرْدَمِيّ أمير سلاح بثغر الإسكندرية في سادس عشرين شعبان بأمر الأمير طَطَر. وكان أصلُه من مماليك

الأمير قَرْدَم الحسني رأس نوبة النُّوَب في دولة الملك الظاهر بَرْقُوق، ثم انضمَّ على الملك المؤيّد [شيخ] وهو من جُملة أمراء العشرات، ولا زال معه إلى أن تسلطن، فعند ذلك رقَّاه الملك المؤيّد إلى أن وَلّاه إمْرَة سلاح، ثم نيابة حَلَب مُدَّة يسيرة، ثم عزله وأعاده إلى وظيفته إلى أن مات المؤيّد وجعله من جُمْلة أوصيائه على وَلَدِه، فقبضَ عليه الأميرُ طَطَر وحبسه بثغر الإسكندرية إلى أن قتله بها. وكان تركيَّ الجنس، قصيراً بطيناً، له شعرات بحنكه، كبير الوَجْه، مشهوراً بالشَّجَاعة والإقدام مع الكرم والتجمُّل في مركبه ومماليكه وسماطه. وكان منهمكاً في اللَّذَّات مُسْرِفاً على نفسه، فكان في غالب اللَّيالي يَسْكَرُ إلى الصَّبَاح ويغلب عليه النَّوْم فَيَنَام عن الخِدْمَة السلطانية، فلما يقوم من نومه يتأسَّف على عدم طلوعه إلى الخِدْمَة، فيجعل نفسه مُتَوَعِّكاً، فينزل إليه وجوه الدَّوْلة لعيادته، فيجدونه مخموراً لا يكاد يتكلَّم. فلما تكرّر منه ذلك علم السلطان والناس حاله، فصار أمرُه مثلاً؛ يقول بعضهم للآخر: كيف حال فلان؟ فيقول: مريض، فيقول: لا يكون مثل مرض قَجْقَار القَرْدَمي. وتداول ذلك بين الناس.

وفيها قُتِلَ الأميرُ سيف الدين جَقْمَق بن عبد الله الأَرْغُون شاويّ الدَّوَادَار ثم نائب الشام بعد عُقُوبة شديدة لأجل المال في ليلة الأربعاء سادس عشرين شعبان بعد عَوْد الأمير طَطَر مِن حَلَب. وكان أصلُ جَقْمَق هذا جاركسيّاً، أُخِذَ مِن بلاده مع والدته وهو ابن ثلاث سنين، وجُلِبَا إلى مِصر فاشتراهُما بعضُ أمراء مصر، فأقاما عنده مُدَّةً يسيرةً وقُبِضَ على الأمير المذكور، فاشتراهما أميرٌ آخر، ثمّ انتقلا من مِلْكِهِ إلى مِلْكِ الأمير أَلْطُنْبُغَا الرَّجبيّ، ثم ابْتَاعَهُمَا من أَلْطُنْبُغَا الرَّجبيّ المذكور الأمير قَرْدَم الحسنيّ رأس نوبة النُّوَب، وأنعم بوالدته على زَوْجَتِه وأنعم بولدها جَقْمَق هذا على ابنه صاحبنا العلائي علي بن قَرْدَم، فاستمرَّا عندهما إلى أن تُوُفِّيَ الأميرُ قَرْدَم، وبعده بمدَّة انتقل جَقْمَق هذا إلى مِلْكِ الأمير أَرْغُون شاه الظَّاهريّ أمير مجلس، فأعتقه أرغون شاه وجعَلَه بخدمته إلى أن قُتِلَ في سنة اثنتين وثمانمائة، فاتصل بعدَه بخدمة الملك المؤيد شيخ، وهو من جملة الأمراء، وصار عنده رأس نوبة الجَمَدارِيّة، ثم جعله دَوَادَاراً ثانياً، إلى أن تسلطن الملك المؤيّد

شيخ فأنعم عليه بإمرة عشرة، وأرسله إلى الأمير نَوْرُوز الحافظيّ في الرَّسْلِيَّة، فقبض عليه نَوْرُوز وحبسه، إلى أن ظَفِرَ المؤيَّد بنَوْرُوز، وأطلق جَقْمَق هذا من قلعة دِمَشْق وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، وجعله دَوَادَاراً ثانياً، ثم نقله إلى الدَّوَادَارِيَّة الكُبرى بعد سنين بحكم انتقال آقْبَاي المؤيّديّ إلى نيابة حَلَب، فباشر الدَّوَادَارِيَّة بحُرْمَة وافرة، ونالته السعادة، إلى أن وَلِيَ نيابة دِمَشْق بعد عَزْل الأمير تَنِبَك مِيق في سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، فدام بـدِمَشْق إلى أن مات الملك المؤيـد [شيـخ] فخرج عن طاعة الأمير طَطَر واتفق مع الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا القَرَمْشِيِّ، ثم وقع بينهما خِلَافٌ وتحارَبَا فهُزِم جَقْمَق وتوجّه إلى صَرْخَد، ولا زال بـه حتى استقدمه طَطَر مِنْها بالأمان، وقبض عليه وقتله، ودُفِنَ بمدرسته التي بَنَها بدِمَشْق. وكان أميراً عارفاً بأمور دُنْيَاه، عارياً عن العلوم والفضيلة وفنون الفروسية. وكان فصيحاً باللغة العربية، وعنده مَكْرٌ وشيطنة وخديعة، وانهماك في اللَّذات، وإسراف على نفسه، مع بادرة وحِدّة وَسَفه ووقاحة. ورأيته غير مَرَّة: كان لِلقِصَر أقرب، وعنده سمن، مدوّر اللحية أسودها، وعنده فصاحة في حديثه على طريق عوام مصر لا على طريق الفقهاء. انتهى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلـغ الزيادة تسع عشر ذراعاً وإصبـع واحد ــ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر سلطنة الملك الأشرف بَرْسْبَايْ(١) على مصر

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر بَرْسْبَاي الدُّقماقي الظاهريّ سلطان الديار المصرية. جلس على تخت الملك يوم خَلْعِ الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، بعد أن حضَرَ الخليفةُ والقضاةُ وجميع الأمراء والأميرُ تَنِبَك مِيق نائبُ الشام. وبُويعَ بالسلطنة، ولَبِس الخلعةَ الخليفتيّة السَّوْدَاء، وركب من طَبَقَة الأشرفية بقلعة الجَبَل والأمراء مشاة بين يديه إلى أن نزل على باب القصر، ودخل وجَلَس على تخت الملك، وقبَّلَت الأمراءُ الأرضَ بين يديه، وخلع على الخليفة المعتضد بالله داود، وعلى مَن له عادة بالخِلَعِ في مثل هذا اليوم. وتَمَّ أمرُه، ونُودِيَ باسمه وسلطنته بالقاهرة ومصر، من غير أن يأمر للمماليك السلطانية بنفقة كما هي عادة الملوك؛ وهذا كان من أوائل سعدٍ ناله فإننا لم نَعلم أحَداً من الملوك التركية تسلطنَ ولم يُنْفِق إلا بَرْسْبَاي هذا. انتهى.

قلتُ: والأشرفُ هذا هو السلطان الثاني والثلاثون من ملوك التُّرْك وأولادهم بالدِّيَار المصريّة، والثامن من الجراكسة وأولادهم. وأصل الملك الأشرف هذا جاركسي الجِنْس، وجُلِبَ من البلاد فاشتراه الأميرُ دُقْمَاق المحمدي الظاهريّ نائب مَلَطية، وأقام عنده مُدَّة، ثم قَدَّمه إلى الملك الظاهر بَرْقُوق في عِدة مماليك أخر؛

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٦٠٧/٤؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٥/٣؛ بدائع الزهور: ٣٢٤، وإنباء الغمر: ٤٥٣/٧ وما بعدها، وحوادث السنوات من ٨٢٦هـ إلى ٨٤١هـ في الجزء الثامن؛ والضوء اللامع: ٨/٣؛ وشذرات الذهب: ٢٣٨/٧؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٥٢/٧؛ وخطط علي مبارك: ١٢٠/١.

ولتقدمته سبب، وهو أن الأمير تَنِبَك اليَحْيَاوِيّ الأمير آخور الكبير بلغه أن الأمير دُقْمَاق آشترى أخاهُ من بعض التُّجَّار، وكان أخوه يُسمَّى طَيْبَرْس، فوَقَف الأمير تَنِبَك إلى الملك الظَّاهر بَرْقُوق وطلب منه أن يُرْسِل يطلب أخاه من دُقْمَاق، فرَسَم السلطانُ بذلك، وكتب لدُقْمَاق مَرْسُوماً شريفاً بإحضار طَيْبَرْس المذكور. وقبل أن يخرج القاصِدُ إلى دُقْمَاق وَقَف الأميرُ علي باي الظاهريّ الخازندار، صاحب الوَقْعَة أيضاً، إلى السلطان وذكر له أن أخته أيضاً عند الأمير دُقْمَاق، فكَتَبَ السلطانُ بإحضارها أيضاً. وسار البريديّ من مِصر إلى دُقْمَاق بذلك، فامتثل دُقْمَاق المرسومَ الشَّريف، وأراد إرسال طَيْبَرْس المذكور، فقال له دَوَادَاره: «ما تريد تفعل»؟ فقال: «أرسل المملوك الذي طلبه أستاذي إليه»، فقال دَوَدَارُه: «لا يمكن إرساله وَحْدَه! جَهِّز معه عِدَّة مماليك وتقدمة هائلة، وآبعث بالمطلوب في ضمنها»، فأعجب دُقْمَاق ذلك، وجهَّز نحوَ ثمانية عشر مَمْلُوكاً صحبة طَيْبَرْس المذكور من جملتهم بَرْسْبَاي هذا وتِمْرَاز القَرْمَشِيّ أمير سلاح، وأشياء أُخَر من أنواع الفَرْو والقُمَاش والخَيْل والجمال، ثمَّ اعتذر دُقْمَاق عن إرسال الجَارِيَة أنها حامل مِنْهُ؛ والجاريةُ هي السِّت أردبَاي أمّ وَلَد دُقْمَاق، وزوجة الأمير تِمْرَاز القَرْمَشيّ أمير سلاح في دولة الملك الظَّاهر جَقْمَق المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة، وتُوفِّيت هي أيضاً بعده بأيَّام، وكلاهما بالطَّاعون. فسار البريديّ بالمماليك والتقدمة من مَلَطْية إلى الديار المصرية، فوصلها بعد مَوْت الأمير تَنِبَك اليَحْيَاويّ المذكور، وقد استقرّ عوضه في الأمير آخوريّة الأمير نَوْرُوز الحافظيّ، فقبل الملك الظاهر [بَرْقُوق] التقدمة، وفرّق المماليك على الأطْبَاق، فوقع بَرْسْبَاي هذا بطبقة الزماميَّة إنْياً[1] للأمير جاركس القاسميّ المصارع، وتِمْرَازُ القَرْمَشِيْ إنْياً لِيَلْبُغا النَّاصريّ، فدَام بَرْسْبَاي بالطبقة مدَّةً يسيرة وأعتقه السلطانُ، وأخرج له خَيْلاً في عدَّة كبيرة من المماليك السلطانية.

وسبب سياقنا لهذه الحكاية أن قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر رحمه الله نسبه أنه عَتيقُ دُقْمَاق، وليس الأمرُ على ما نقله؛ وهو معذورٌ فيما نقله لبُعْدِهِ

(١) راجع فهرس المصطلحات.

عن معرفة اللغة التركية ومداخلة الأتراك، وقد اشتهر أيضاً بالدُّقْمَاقيّ فظَنّ أنه عَتِيقُ دُقْمَاق، ولم يعلم أن نسبته بالدُّقْمَاقيّ، كما أن نسبة الوالد رحمه الله بالبَشْبُغَاويّ، والملك المؤيد شيخ بالمحموديّ، ونَوْرُوز بالحافظيّ، وجَكَم نائب حَلب بالعَوَضيّ، ودَمُرْدَاش بالمحمديّ وغيرهم [إنما هي من باب نسبتهم إلى مالكيهم وليس إلى معتقيهم][(١)]. وقد وقفت على هذه المقالة في حياته على خَطّه، ولم أعلم أن الخط خطه، فإنه كان رحمه الله يكتب ألواناً، وكتبتُ على حاشية الكتاب وبَيَّنتُ خطأه، وأنا أظن أن الخط خطّ ابن قاضي شهبَة. وعادَ الكتابُ إلى أن وَقع في يد قاضي القضاة ابن حَجَر، فنظَرَ إلى خطي وعَرَفَه، واعترف بأنه وَهم في ذلك. وكان صاحبُنا الحافظُ قطب الدين محمد الخيضري حاضراً، فذكر لي ما وقع، فركبتُ في الحال، وهو معي، وتوجَّهْنا إلى السَّيفيّ طُوغَان الدُّقْمَاقي، وهو من أكابر مماليك دُقماق، وسألتُه عن الملك الأشرف سؤال آستفهام، فقال: «هو عتيق الملك الظاهر بَرْقُوق وقدّمه أستاذنا إليه»، ثم حكى له ما حَكَيْتُه من سبب إرساله. ثم عُدْنا، وأرسلتُ أيضاً خلف جماعة من مماليك دُقْمَاق، لأن أغلبهم كان خدم عند الوالد بعد مَوْت دُقماق، فالجميع قالوا مثل قول طُوغان الدُّقماقي. فتوجه قطبُ الدين المذكور، وعرفه هذا كله، فأنصف غاية الإنصاف، وأصلح ما عنده. ثم ذاكرتُ أنا قاضي القضاة المذكور فيما بعد، وعرفته أن دقْمَاق قدَّمه في أوائل أمره، وأن بَرْسْبَاي صار ساقياً في دَوْلة الملك المنصور عبدالعزيز، معدوداً من أعيان الدولة، يتقاضى حوائج دقماق بالديار المصرية، ثم خرج بَرْسْبَاي عن طاعة الملك الناصر [فرج] مع الأمير إينَال بَاي بن قَجْماس إلى البلاد الشامية وبقِي من أعيان القَوْم، كل ذلك ودُقْمَاق في قيد الحياة بعد سنة ثمانٍ وثمانمائة. وكان لَمَّا قَدِم دُقْمَاقُ إلى مصر نَزَل عند بَرْسْبَاي هذا، وبَرْسْبَاي المذكور يخاطبه تارة يا خَوَنْد وتارة يا أغاة. ثم عَرَّفْتُه بأن ولد دُقْمَاق الناصري محمداً من جُملة أصحابي، وأن والدته الست أَرْدَبَاي زوجة الأمير تِمْرَاز القَرْمَشِيّ أمير سلاح.

قلتُ: وعلى كل حال إن هذا الوهم هو أقرب للعقل من مقالَة المَقْريزيّ في

---

(١) زيادة للتوضيح يقتضيها السياق.

الملك الظَّاهِر طَطَر «إن الملك الناصر فرجاً أعتقه بعد سنة ثمَانٍ في سلطنته الثَّانية» وأيضاً أحسن مِمَّا قاله المقريزيّ في حقّ الملك الأشرف [بَرْسْبَاي] هذا بعد وفاته في تاريخه «السلوك» في وفيات سنة إحدى وأربعين وثمانمائة؛ وقد رأيتُ أنّ السّكات عن ذكر ما قاله في حقِّهِ أَلْيَقُ، والإضرابُ عنه أجملُ لِمَا وصَفَه به من الألفاظ الشَّنِيعة القبيحة التي يُستحى من ذكرها في حقّ كائِنٍ مَن كان(١). انتهى.

وقد خَرَجْنَا عن المقصود، ولنعد إلى ما نحن بصدده من ذكر الملك الأشرف [بَرْسْبَاي] فنقول: وآستمرّ الملك الأشرفُ من جُملة المماليك السلطانيّة إلى أن صار خاصّكِيّاً، ثم صار سَاقِياً في سلطنة الملك المنصور عبد العزيز ابن الملك الظاهر بَرْقُوق.

ثم خرج مع الأمير إينَال بَاي بن قَجْمَاس من الدّيار المصريّة ـ مُبَايناً للملك الناصر فَرَج ـ إلى البلاد الشاميّة، ثم انضمّ مع الأميرين شَيْخ ونَوْرُوز وتقلَّبَ معهما في أيّام تلك الفِتَن، ولا زالَ معهما إلى أن قُتِلَ الملكُ الناصرُ فرج، وقدِمَ إلى القاهرة صُحْبَة الأمير الكبير شَيْخ المحموديّ، فأنعمَ عليه الأميرُ شيخُ المذكور بإمْرَة عشرة، ثم نقله إلى إمْرَة طَبلخاناه بعد سلطنته، فدام على ذلك سنين إلى أن نقله إلى إمْرَة مائة وتقدمة ألف بالدّيَار المصريّة، ثم ولّاه كشفَ التُّرَاب بالغَرْبِيّة من أعمال القاهرة، إلى أن طلبه الملكُ المؤيّدُ شيخُ وولّاه نيابة طَرَابُلُس بعد عزل الأمير بُرْدُبَك قَصْقَا الخليليّ عنها، وذلك في يوم الاثنين ثالث

(١) ما ذكره المقريزي في السلوك: ١٠٦٥/٤ هو أن برسباي هذا «كان أبوه من أوضع أهل بلاده قدراً، وأشدّهم فقراً، فأسلم ابنه هذا لحدّاد، فكان ينفخ عنده بالكير. ثم مات فتزوجت امرأته برجل، فباع برسباي هذا ـ وهو صغير ـ من رجل يهودي اسمه صادق، فخدمه مدة، وتلقن أخلاقه، وتطبع بطباعه حتى جلبه إلى ديار مصر» إلى أن قال عنه بعد ذكر وفاته: «وكانت أيامه هدوءاً وسكوناً، إلا أنه كان له في الشحّ والبخل والطمع، مع الجبن والجور وسوء الظن ومقت الرعيّة وكثرة التلوّن وسرعة التقلّب في الأمور وقلة الثبات، أخبار لم نسمع بمثلها. وشمل بلاد مصر والشام في أيامه الخراب وقلة الأموال بها. وافتقر الناس وساءت سير الحكام والولاة، مع بلوغه آماله ونيله أغراضه، وقهره أعدائه وقتلهم بيد غيره، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير». انتهى.

عشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة. ولمّا وَلِيَ نيابة طَرَابُلُس كان في خدمته جماعةٌ من مماليك الوالد رحمه الله من جُمْلَتِهم شخص يُسَمَّى سُودُون، فطلبه أنْ يتوجّه معه إلى طَرَابُلُس، فقال سُودُون: «أنا ما أُخَلِّي جامع طُولُون وأتوجّه إلى طَرَابُلُس»، فتوجّه معه خُشْدَاشَاهُ أَزْدَمُرُ وجَرَبَاش. فلما تسلطن الأشرفُ ــ بعد أمور نذكرها ــ جعل أَزْدَمُر المذكور ساقياً، ونَدِم سُودُون على مفارقته. انتهى.

وتوجّه بَرْسْباي المذكور إلى نيابة طَرَابُلُس، ومعه سُودُون الأَسَنْدَمُري، وقد استقر أَتَابَك طَرَابُلُس. وأقامَ بطَرَابُلُس مُدَّة إلى أن واقع التُّرْكُمان الإينالية والبياضية والأوشرية على صَافِيتَا من عمل طَرَابُلُس، وكانوا حضروا إلى النّاحية المذكورة جَافِلِين من قَرَا يُوسف، وأفسدُوا بالبلاد، فنهاهم الأميرُ بَرْسْبَاي المذكور فلم ينتهوا، فركِبَ عليهم وقَاتَلَهُم في يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان من سنة إحدى وعشرين المذكورة، فَقُتِلَ بينهم خَلْقٌ كبير، منهم: الأمير سُودُون الأَسَنْدَمُري أَتَابَك طَرَابُلُس، وانهزَمَ باقيهم عُرَاةً، فغضبَ الملكُ المؤيد، ورسم بعزله عن نيابة طَرَابُلُس واعتقاله بقلعة المَرْقَب، ووَلّى سُودُون القاضي نيابَةَ طَرَابُلُس عوضه. فدام [برسباي] في سجن المَرْقَب مُدَّةً إلى أن كتبَ الملكُ المؤيد بالإفراج عنه في العشرين من المحرم سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وأنعم عليه بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بدمشق، كل ذلك بسعي الأمير طَطَر في أَمْرِهِ، فاستمرّ بدمشق إلى أن مات الملك المؤيّد. وخرج جَقْمَق عن طاعة طَطَر، وقبض على بَرْسْبَاي المذكور، وسجنه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأتَابَك أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ. وخرج إلى ملاقاة الأمير طَطَر لما قَدِمَ دِمَشْق، وانضم عليه إلى أن خَلَع عليه طَطَرُ باستقرارِهِ دَوَادَاراً كبيراً بعد الأمير علي باي المؤيّدي، فلم تَطُل أيّامه في الدَّوَادَارِيّة. ومات طَطَرُ بعد أن جعَلَه لالا لِوَلَدِهِ الملك الصالح محمد، وجعل جَانِي بَك الصُّوفيّ الأَتَابَك مُدبرَ مملكة ولده الصالح المذكور، ووقع ما حكيناه في ترجمة الملك الصالح من واقعته مع جَانِي بَك الصّوفي، ثم مع طَرَبَاي، ثم من خَلْعِهِ الملك الصالح وسلطنته.

ولما تمّ أمر الملك الأشرف بَرْسْبَاي هذا في السّلطنة، وأصبح يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر خلعَ على الأمير بَيْبُغَا المُظَفرِيّ أمير سلاح باستقراره أتَابَك العساكر بالدّيار المصريّة عوضاً عن الأمير طَرَبَاي، وكانت شاغرة من يوم أمسك طَرَبَاي، وخَلَع على الأمير قُجَق العِيسَاوِيّ أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن بَيْبُغَا المُظفَّرِيّ، وخلع على الأمير آقْبُغَا التَّمْرَازِيّ باستقراره أمير مَجْلس عوضاً عن الأمير قُجَق.

وأوّل ما بدأ به الأشرف في سلطنته أنّه منع الناس كافّة من تقبيل الأرْضِ بين يَدَيْه، فامتنعوا مِن ذلك. وكانت هذه العادة ــ أعني عن تقبيل الأرض ــ جَرَت بالديار المصريّة من أيّام المُعِزّ معدّ أوّل خلفاء بني عبيد بمصر المقدّم ذكره في هذا الكتاب، وبقيت إلى يوم تاريخه، وكان لا يعفي أحداً عن تقبيل الأرض، والكلّ يقبل الأرضَ: الوزيرُ والأمير والمملوكُ وصاحبُ القلم ورُسُلُ ملوك الأقطار، إلاّ قضاة الشَّرْع وأهل العِلْم وأشراف الحجاز، حتى لو وَرَدَ مرسومُ السلطان على ملك من نوّاب السّلطان قامَ على قَدَمَيْه وخرّ إلى الأرْضِ وقبّلها قبل أن يقرأ المَرْسُوم، فأبطل الملك الأشرف ذلك وجعل بدله تقبيل اليد. فمشى ذلك أيّاماً ثم بَطَلَ، وعاد تقبيلُ الأرض لكن بطريق أحسن من الأولى؛ فإن الأولى كان الشخص يخر إلى الأرض حتى يقبلها كالسّاجِد، والآن صار الرجل يَنْحَني كالّراكع ويضع أطرافَ أصابع يده على الأرْضِ كالمُقبِّل، ثمّ يقوم ولا يُقَبِّل الأرضَ بفمه أبداً بل ولا يَصِلُ بوجهه إلى قريب الأرض، فهذا على كلّ حالٍ أحسن مما كان أوّلاً بلا مُدَافعة، فَعُدَّ ذلك من حسنات الملك الأشرف بَرْسْبَاي.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور خلعَ السلطانُ الملك الأشرف على الأمير تَنِبَك العلائي مِيق نائب الشام خلعة السَّفر، وتوجّه إلى محلّ كفالته.

ومن خرق العادات أيضاً في سلطنة الملك الأشرف أنه لما تسلطن لم يُنْفِق على المماليك السّلطانية، وأعجب من ذلك أنه ما طُولِبَ بها، وهذا أغرب وأعجب.

ثم رسم السلطان الملك الأشرف ـ في يوم الخميس ثامن جمادى الأولى، ونُودِي بذلك في القاهرة ـ بأن لا يُسْتَخْدَم أحدٌ من اليهود ولا من النصارى في ديوان من دواوين السُّلطان والأمراءِ، وصمَّمَ الأشرف على ذلك، فلم يسلم من بعض عُظَمَاء الأَقْبَاط من مباشري الدَّولة، ولم(١) يتمّ ذلك.

ثم قدم الخبر على السلطان بكثرة الوَبَاء ببلاد حَلَب وحماة وحمص في رابع عشر جمادى الآخرة(٢).

ورسَمَ السلطان فنُودِيَ بسفر الناس إلى مَكَّة في شهر رَجَب، فكثرت المَسَرَّات بذلك لبعد العهد بسفر الرجبيّة(٣).

ثم جلس السلطانُ للحُكْمِ بين الناس كما كان الملك المؤيّد ومَن قبله، وصار يحكم في يومَي السبت والثلاثاء بالمقعد من الإسطبل السلطاني. ثم كتبَ السلطان إلى الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب حَلَب أن يتوجّه إلى بَهَسْنَا(٤) لحصار تَغْرِي بَرْدِي المُؤيَّدِي المعزول عن نيابة حَلَب.

ثم [في شهر رجب](٥) ورد الخبرُ على السلطان بخروج الأمير إينَال نائب صَفَد عن الطاعة. وكان سبب خروجه عن الطّاعة أنه كان من جُمْلة مماليك الملك الظّاهر طَطَر، ربّاه صغيراً ثم ولاه نيابة قلعة صَفَد بعد سلطنته، فلما قام الملكُ الأشرف بعد الملك الظاهر طَطَر بالأمر وَلّى إينَالَ المذكور نيابة صَفَد، وبلغه خلعُ ابنِ أستاذه الملك الصالح محمد من السلطنة، فشَقَّ عليه ذلك، وأخذ في تَدْبِير أَمْرِهِ، واتَّفَقَ مع جماعة على العِصْيَان، وخرج عن الطّاعة، وأفرج

(١) في الأصل: «فلم».

(٢) في السلوك: «جمادى الأولى».

(٣) ورد هذا الخبر في السلوك على النحو التالي: «وفي رابع عشر جمادى الآخرة نودي بسفر الناس في رجب إلى مكة، فكثرت المسرّات بذلك لبعد العهد بسفر الرجبيّة. ثم انتقض ذلك، ونودي في سابع عشرينه: لا يسافر أحد الرجبية».

(٤) بهسنا: قلعة شمالي حلب.

(٥) زيادة عن السلوك.

عمَّن كان مَحْبُوساً بقلعة صَفَد، وهم: الأمير يَشْبُك أَنالِي المؤيّديّ الأستادار ثم رأس نوبة النُّوَب، والأمير إِينَال الجَكَمِي أمير سلاح ثم نائب حَلَب، والأمير جُلُبَّان أمير آخُور أحد مقدّمي الألوف، وقَبَض على من خَالَفَهُ من أمراء صَفَد وأعيانها. ففي الحال كَتَبَ السلطانُ الملك الأشرف للأمير مُقْبِل الحسامي الدَّوَادَار حاجب حجّاب دِمَشْق باستقراره في نيابة صَفد، وأن يستمرّ إقطاع الحجوبيّة بيده حتى يتسلّم صَفَد، ثم كتب إلى الأمير تَنِبَك مِيق نائب الشَّام أن يخرج بعسكر دِمَشْق لقتال إينَال المذكور. وبينما السلطانُ في ذلك ورَدَ عليه الخبر بوقعةٍ كانت بين الأمير يُونُس الرُّكْنِيّ نائب غَزَّة وبين عَرَبَ جرم، وأن يُونُس المذكور انهزَمَ وقُتِل عِدَّةٌ من عسكره. ثم ورَدَت الأخبار بكثرة الفتن في بلاد الصَّعيد. ثم ورَدَ على السلطانِ كتابُ الأمير تَنِبَك مِيق نائب الشَّام بمجيء الأمير إينَال الجكمي، ويَشْبُك أَنَالِي، وجُلُبَّان أمير آخُور إليه من صَفَد طائعين للسلطان، فدقَّت البشائر لذلك.

وفي سابع عشرين شهر رجب قَدِمَ الأميرُ فَارِس نائب الإسكندرية إلى القاهرة بطَلَب، وخلع عليه باستمراره على إمرته وإقطاعه بمصر، وهي تقدمه ألف بالدِّيار المصرية. وخلع على الأمير أَسَنْدَمُر النوريّ الظاهريّ بَرْقُوق أحد أمراء الألوف باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن فَارِس المذكور.

ولما كان يوم الخميس رابع شعبان ـ الموافق لتاسع عشرين أبيب ـ أَوْفَى النيلُ ستّة عشر ذراعاً، وهذا من النَّوادِر من الوفاء قبلَ مِسْرَى بيومين[1]، فتباشَرَ الناسُ بكَعْبِ المَلِك الأشرف [بَرْسْبَاي].

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان المذكور أُخْرِجَ الملك المظفَّر أحمد

(١) أوضح المقريزي هذا الأمر بقوله: «وذلك أن العادة التي عهدت أن زيادة النيل في شهر أبيب تكون قليلة، حتى إنه ليقال قديماً: «في أبيب يدبّ الماء دبيب». وأما مِسْرَى ففيه أيام الزيادة الكثيرة، ويقال لها عرس النيل، وهي مظنّة الوفاء، حتى يقال: «إذا لم يوفِ النيل في مِسْرَى فانتظره في السنة الأخرى». هذه عادة الله التي أجراها بين خلقه في أمر نيل مصر. وربما وقع الأمر في النيل بخلاف ذلك فيعد نادراً. واتفق في هذه السنة أنه منذ ابتدأت الزيادة لم تزل زيادته كبيرة بحيث نودي عليه في يوم واحد بزيادة خمسين إصبعاً، فكثر تعجب الناس لذلك، ثم ازدادوا تعجباً لوفائه قبل مِسْرَى». (السلوك: ٦١٧/٤).

ابن الملك المؤيّد شيخ وأخوه من قلعة الجَبَل نهاراً وحُمِلاَ في النّيل إلى الإسكندرية.

وفي هذا الشهر كَثُرَ عبَثُ الإفرنج بسواحل المُسلمين، وأخذوا مركباً للتجّار من ميناء الإسكندرية فيها بضائع بنحو مائة ألف دينار، فشَقّ ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية مع شُغْلِه بنائب صَفَد.

ثم في حادي عشرين شهر رمضان خلَع السلطانُ على الأمير أَيْتَمُش الخضري الظّاهريّ باستقراره أستاداراً عوضاً عن أَرْغُون شاه النَّوْرُزِيّ الأعور. وقدم عليه الخبرُ بتوجّه عسكر الشام مع الأمير مُقْبِل إلى جهة صَفَد، وأنه مستمرٌّ على حصار صَفَد، فسُرّ السلطانُ بذلك. وكتب إلى نائب الشام بالقَبْض على الأمير إينَال الجكمي وَيَشْبُك أَنَالِي وجُلُبّان وحَبْسِهِم بقلعة دِمَشْق.

ثم في سابع عشرين شوّال قَدِمَ الخبرُ على السلطان بأخذ صفد. وقدم من صفد ثلاثون رجلاً في الحديد مِمَّن أُسِرَ من أصحاب إينال نائب صفد، فرسَمَ السلطانُ بقطع أيديهم فقطعوا الجميع إلا واحداً منهم فإنه وُسِّط. وأخرج الذين قطعت أيديهم من القاهرة من يومهم إلى البلاد الشامية، فمات عِدَّةٌ منهم بالرمل، ولم يُشكر الملكُ الأشرفُ على ما فعله من قطع أيدي هؤلاء.

وكان من خبر هؤلاء وإينَال نائب صَفَد أنه لما قَدِمَ عليه الأميرُ مُقْبِل الدَّوَادَار بعساكر دِمَشْق انهزمَ إلى قلعة صَفَد إلى يوم الاثنين رابع شوال، فنزل إليه إينال بمن معه، بعد أن تردَّدت الرسل بينهم أيَّاماً كثيرة، فتسلم أعوانُ السلطان قلعة صَفَد في الحال. وعندما نزل إينال أمر الأميرُ مقبل أن تُفَاض عليه خلعةُ السلطان ليتوجّه أميراً بطرابلس ــ وكان قد وُعِدَ ذلك لما تردّدت الرسلُ بينهم وبينه مراراً، حتى استقرّ الأمر على أن يكون إينالُ المذكور من جملة أمراء طرابلس، وكتَب له السلطان أماناً ونسخة يمين فانخدع الخَمول[١] ونَزَلَ من القلعة ــ فما هو إلا أن قام بلبس الخلعة وإذا هُمْ أحاطوا به وقيَّدُوه وعاقبوه أشدّ عُقُوبة على إظهار المال،

(١) في السلوك: «البائس»، وهي أوضح.

ثم قتلوه وقتلوا معه مائة رجل ممن كان معه بالقلعة، وعلّقوهم بأعلاها، ثم أرسلوا بهذه الثلاثين الذين قطعت أيديهم.

ثم بعد ذلك بأيام وردَ الخبر بأن الأمير تغري بَرْدِي المؤيدي سلم قلعة بهسنا ونَزَل بالأمان فأخذه تنبك البجاسي، وقيده وحمله إلى قلعة حَلَب فسجنه بها. وزال ما كان بالملك الأشرف من جهة صفد وبهسنا، وهدأ سره واطمأن خاطره.

ثم في يوم الاثنين ثاني ذي القعدة ركب السلطانُ من قلعة الجبل إلى مطعم الطُّيُور بالريدانية خارج القاهرة ولبس به قماش الصوف برسم الشتاء على عادة الملوك. ثم عاد إلى القاهرة من باب النّصر، ورأى عمارته(١) بالركن المخلّق، وخرج من باب زويلة إلى القلعة، ونثر عليه الدنانير والدراهم؛ وهذه أوّل ركبة ركبها من يوم تسلطن.

ثم في يوم الخميس خامس ذي القعدة عزل السلطان أيتمُش الخضري عن الأستادارية وأُعِيد إليها أَرْغُون شاه النوروزي؛ ولم تُشكر سيرة أيتمش لشدة ظلمه، مع عجزه عن القيام بالكلف السلطانية.

ثم في يوم الخميس رابع ذي الحجّة اختفى الوزيرُ تاج الدين عبد الرزّاق ابن كاتب المناخ فخلـع السلطانُ على أرغون شَاه الأستادار وأضيف إليه الوزر في يوم الاثنين ثامن ذي الحجّة.

ثم خَلـع السلطانُ على القاضي عَلَم الدين صالح ابن الشيـخ سراج الدين عمر البلقيني باستقراره قاضيَ قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضاً عن وليّ الدين أبو زرعة العراقي بحكم عزله.

ثم في المحرم أنعمَ السطانُ على مملوكه جانبك الخازندار بإمْرَة طبلخاناه من جملة إقطاع الأمير فَارِس المعزول عن نيابة الإسكندريّة بعد موته.

(١) في السلوك: «ودخل عمارتها بخط الركن المخلّق».

ثم رَسَمَ السلطانُ بطلب الأمير إينَال النوروزي نائب طرابس، فحضَرَ إلى القاهرة في يوم الاثنين سادس عشرين صَفَر من سنة ست وعشرين وثمانمائة، وطلع إلى القلعة فأكرمه السلطانُ.

وخلع على الأمير قَصْرُوَه من تمراز الأمير آخور الكبير باستقراره في نيابة طرابلس عوضاً عن إينال النوروزي المقدَّم ذكره، وأنعم على الأمير إينال المذكور بإقْطَاع الأمير قَصْرُوَه؛ وإينال المذكور هو صهري زوج كريمتي(١). وأخذ الأميرُ قصروه في إصلاح شأنه إلى أن خلـع السلطانُ عليه خِلعة السَّفر في يوم ثاني عشر صفر، وخرج من يومه، ولم يستقر أحدٌ في الأمير آخورية الكبرى.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرين شهر ربيـع الأول سنة ست وعشرين ثارت ريحٌ مريسية(٢) طول النهار؛ فلما كان قبل الغروب بنحو ساعة ظهر في السماء صفرة من عند غروب الشمس كست الجو والجدران والأرض بالصفرة، ثم أظلم الجو حتى صار النهار مثل وقت العتمة، فما بقي أحدٌ إلا واشتد فزَعه، ولهجت العامة بأن القيامة تَقُوم.

فلَمَّا كان بعد ساعة وهو وقتُ الغُرُوب أخذ الظلامُ يَنْجَلي قليلاً قليلاً ويعقُبه ريحٌ عاصف حتى كادت المباني تَتَساقَطُ منه. وتمادى ذلك طول ليلة الأربعاء، فرأى الناسُ أمراً مهولاً مُزْعِجاً من شدّة هُبُوب الرِّيَاح والظُّلْمَة التي كانت في النهار. وعمّت هذه الظلمةُ أرضَ مصر حتى وصلت دِمْيَاط والإسكندرية وجميـع الوَجْه البحري وبعض بلاد الصَّعيد، ورأى بعضُ من يُظَنُّ به الخيرُ والصلاحُ في منامه كأن قائلاً يَقُول له: لولا شفاعة رسول الله ﷺ لأهل مِصـر لأهلكَتْ هذه الريـحُ الناسَ، ولكنه شفع فيهم فحصل اللطف. قلتُ: لم أر قَبْلَها مِثْلَها ولا

---

(١) هي أخت المؤلف خوند فاطمة بنت الأمير تغري بردي، توفيت سنة ٨٤٦هـ. وكانت فاطمة قد تزوجت من السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٨هـ ومات عنها. (النجوم الزاهرة، طبعة كاليفورنيا، مقدمة الجزء السابع بقلم وليم بوبر).

(٢) الريح المريسيّة: هي ريح الجنوب تأتي من قِبل بلدة مريس التي بأدنى بلاد النوبة مما يلي أسوان (لسان العرب).

بَعْدَها مثلها. وكان هذا اليوم من الأيام المَهُولة التي لم يُدْرِكها أحَدٌ من الطاعنين في السِّن. انتهى.

ثمّ في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الآخر رَكِبَ السلطانُ من قَلْعة الجبل وعدّى النيل إلى بَرِّ الجيزة، وأقام بناحية وَسِيم ــ حيث مَرْبَط الخيول على الرَّبيع ــ بأمرائه ومماليكه يتنزه، وأقام به سبعة أيّام والخِدْمَة تُعْمل هناك إلى أن عاد في تاسعه، وأقام بالقلعة إلى يوم الخميس سادس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور فوصل فيه الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب حَلَب إلى القاهرة وطَلَعَ إلى السلطان، وقبّل الأرضَ بين يَدَيْه على ما قرّره[1] الملك الأشرف في أوّل سلطنته، ثم خلَعَ السلطان عليه خلعة الاسْتِمْرَار وأنزله بمكانٍ ورتَّب له ما يَلِيقُ به. وأقام تَنِبَك إلى يوم الخميس ثالث جُمادى الأولى، وخلَعَ السلطانُ عليه خلعة السّفر، وخرج من يومه إلى محلّ كَفَالته بحَلَب.

ثم في يوم الاثنين رابع عشر جُمَادى الأُولى المذكورة خَلَعَ السلطانُ على الأمير جَقْمَق العلائي حاجب الحجّاب باستقراره أميرَ آخور كبيراً عوضاً عن قَصْرُوَه المنتقل إلى نيابة طَرَابُلُس، وكانت شاغرة من يوم وَلِيَ قَصْرُوَه نيابة طَرَابُلُس إلى يومنا هذا.

ثم ورد الخبرُ في جمادى الآخرة بعظم الوبَاء بدِمَشْق، وأنه وصل إلى غَزَّة. واستمرّ السلطانُ ولم يكن عنده ما يُشَوِّش عليه في جميع أشيائه إلى أن كانَ يوم الجمعة سابع شعبان ورد الخبرُ على السلطانِ بأنّ الأمير الكبير جَانِي بَك الصُّوفيّ فَرَّ من الإسكندرية من البُرْج الذي كان مَسْجُوناً به، وخرج من الثَّغر المذكور ولم يَفْطن به أحدٌ. فلمَّا سَمِعَ السلطانُ هذا الخبر كادت نفسه أن تَزْهَق، وقامت قيامته، ومِن يومئذ حلَّ بالناس من البلاء والعقوبات والهَجْم على البُيوت ما سنذكره في طولِ سلطنته. وتنغَّص عَيْشُ الأشرف من يوم بلغه الخبرُ، واستوحش من جماعة كبيرة من أمرائه، وأمسكهم ونفى منهم آخرين ــ حسبما نذكر ذلك كلّه في وقته.

(١) راجع ص ٨٣ من هذا الجزء.

ثم في يوم الخميس العشرين من شعبان خَلَع السلطانُ عَلَى الأمير جَرِبَاش الكَريميّ المعروف بقاشق باستقراره حاجب الحجّاب بالدّيار المصرية عوضاً عن جَقْمَق العلائي بحُكم آنتقال جَقْمَق أمير آخور كبيراً، وكانت الحجوبيّة شاغرة عن جَقْمَق من يوم وَلِيَ الأمير آخورية.

وفيه رسم السلطانُ بانتقال الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب حَلَب إلى نيابة دِمَشْق عوضاً عن الأمير تَنِبَك مِيق بحُكْم وفاته، واستقر الأمير جَارْقُطْلُو الظاهريّ نائب حَمَاة في نيابة حَلَب عوضاً عن تَنِبَك البَجَاسِيّ. وكان جَارْقُطْلو أيضاً وَلِيَ نيابة حَمَاة عن تنِبَك البَجَاسيّ كما تقدَّم ذكْرُه؛ وكذا وقـع أيضاً في الدّوْلة المؤيّدية أنه بعد عِصْيَان تنِبَك البَجَاسيّ مـع قَانِي بَاي نائب الشّام وتوجّهه إلى بلاد الشّرْق وَلِيَ جارْقُطْلو نيابة حَمَاة بعده أيضاً. والعجبُ أن جارْقُطْلو كان أغاة تنِبَك البَجَاسيّ، فكانا إذا آجتمعا في مُهِمٍّ سلطاني لا يَجْلِسُ تنِبَك البجاسيّ من ناحية جارْقُطْلو لئلا يَجْلِس فَوْقَه حياءً منه. انتهى.

وتولى الأميرُ جُلُبَّان أمير آخور المؤيّد ــ وهو يوم ذاك أحد مقدّمي الألوف بدمَشْق ــ نيابةَ حماة عوضاً عن جارْقُطلو. وتوجّه الأمير جاني بَـك الخازنـدار الأشرفيّ في ثامن عشرين شعبان المذكور بتقاليد المذكورين وتشاريفهم الجميـع. وكان هذا الأمر يتوجه فيه ثلاثةٌ من أعيان الأمراء، فأضاف الأشرف جميـع ذلك لجانِي بك، كونه كان خصّيصاً عنده ربّاه من أيام إمْرَته، فعاد إلى مصر ومعه من الأموال جملة مستكثرة.

ثم في يوم الاثنين ثاني شهر رمضان ــ الموافق لسادس عشر مِسْرَي ــ أوفَى النيلُ ستة عشرة ذراعاً، فنزل المقامُ الناصري محمد ابن السلطان [برسْباي] في وجوه الأمراء وأعيان الدولة حتى خلَّق المقياس، وفتح خليـج السّدّ على العادة، وهو أوّل نزوله إلى ذلك. وكان في العام الماضي تولّى ذلك الأميرُ الكبيرُ بَيْبُغَا المُظَفَري.

وفيه أخرج السلطانُ الأميرَ سُودُون الأشقر الظاهِريّ رأس نوبة النّوَب ــ كان في دولة الملك الناصر، ثم أمير مَجْلِس في دولة الملك المؤيّد، وهو يومئذ

أمير عشرين بمصر ــ منفياً إلى القُدْس، ثم شُفِعَ فيه فأُنعم عليه بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بدمَشْق، وأُنعم بإمْرَته على شَريكه الأمير كُزُل العَجَمِيّ الأجْرُود الذي كان حاجب الحجّاب في الدَّولة الناصريّة فَرَج، فصار من جملة الطبلخانات؛ والإقطاع المذكور هو ناحية مَيْمون بالوجه القِبْلي.

وفيه ندبَ السلطانُ عِدَّة أمراء إلى السَّوَاحِل لِوُرودِ الخبر بحركة الفرنج، فتكامَلَ خروجُهم في ثامن عشرين شهر رمضان المذكور. وكان الذي توجَّه منهم من مقدّمي الألوف إلى ثغر الإسكندرية الأمير آقْبُغا التَّمْرَازِيّ أمير مجلس.

ثم في يوم الخميس عاشر شوَّال خلَعَ السلطانُ علي جَمَال الدين يُوسُف بن الصَّفيّ الكَرَكِيّ، واستقرّ كاتب السِّرّ الشّرِيف بالديار المصرية بعد موت عَلَم الدين داود بن الكُوَيْز.

قال الشيخ تقيّ الدين المقريزي رحمه الله تعالى: «فأذكرتني ولايته بعد ابن الكُوَيز قولَ أبي القاسم خَلَف الألبيري المعروف بالسميسر، وقد هلك وزير[1] يهودِيٌّ لباديس بن حبوس الحِمْيَري أمير غرْناطة من بلاد الأندلس فاستوزر بعدَ اليهودي وزيراً نصرانياً، فقال: [الخفيف]

كُلَّ يَوْمٍ إلى وَرَا ... بَدَّل البَوْلَ بالخرا
فَزَمَاناً تَهَوَّدَا ... وزماناً تَنَصَّرَا
وسَيَصْبُو إلَى المَجُو ... سِ إذَا الشَّيْخُ عُمِّرَا

قال: وقد كان أبو الجَمال هذا من نَصَارى الكَرَك، وتظاهر بالإسلام في

(١) هو الوزير يوسف بن إسماعيل المعروف بابن نغزالة. وقد أكثر هذا الوزير من استخراج الأموال واستعمال إخوانه اليهود على الأعمال، وعارضه ابن باديس بن حبّوس أمير غرناطة فدسّ له يوسف السمّ فقتله. وغرّته مكانته عند باديس فطلب أن يقيم لليهود دولة، فعلمت صنهاجة بسوء ما يسعى إليه، فدخلوا داره وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، وقتلوا من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف، وذلك في سنة ٤٥٩هـ. (تاريخ ابن خلدون: ٦/١٨٠، والبيان المغرب: ٣/١٦٧).

واقعة كانت للنّصارَى، هو وأبو عَلَم الدين داود بن الكُوَيْز، وخدَم كاتباً عند قاضي الكَرَك عماد الدين أحمد المقيِّري، فلما قَدِم عماد الدين إلى القاهرة وصلَ أبو جَمَال الدين هذا في خِدمَته، وأقامَ ببابه حتى مات وهو بائس فقير، لم يزل دَنِس الثياب مغتمَّ الشكل، وابنه جمال الدين هذا معه في مثل حاله. ثم خَدَم جمالُ الدين هذا بعد موت القاضي عماد الدين عند التّاجر بُرهَان الدين إبراهيم المحلّي كاتباً لدَخْلِهِ وَخَرْجِهِ، فحسنت حاله ورَكِبَ الحِمَارَ. ثم سار بعد المحلّي إلى بلاد الشّام وخدم بالكتابة هناك، حتى كانت أيّام الملك المؤيّد شيخ، فولّاه علمُ الدين بن الكُوَيز نظرَ الجيش بطَرَابُلُس، فكَثُرَ مالُه بها. ثم قَدِمَ في آخر أيّام ابن الكُوَيز إلى القاهرة، فلما مات ابن الكُوَيز وعَدَ بمالٍ كبير حتى وَلِيَ كتابة السِّرّ بالديار المصرية، فكانت ولايتُه[1] من أقْبَح حادثة رأيْناها، انتهى كلام المقريزي برمته.

قلتُ: وعُدّ ولاية هذا الجاهل لمثل هذه الوظيفة العظيمة من غلطات الملك الأشرف وقبح جهله، فإنه لو كان عند الملك الأشرف معرفةٌ وفضيلةٌ [لانتظر] حتى يرد عليه كتاب من بعض ملوك الأقطار يشتمل على نثر ونظم وفصاحة وبلاغة، وأراد الأشرف من كاتب سِرِّه أن يجيب عن ذلك بأحسن منه أو بمثله ــ كما كان يفعله الملك الناصر محمد بن قلاوون وغيره من عظماء الملوك ــ لعَلِمَ تقصيرَ من ولّاه لهذه الوظيفة، ولاحتاج لعزله في الحال ولوِلايةِ غيره ممن يصلح، لئلا يظهر في مُلكه بعضُ تقصير ووهن، لأنه يقال في الأمثال «تُعْرَفُ شهامة الملك وعظمتُه من ثلاث: كتّابه، ورسله، وهديته» فهذا شأن من يكون له شهامة وعلوّ همّة من الملوك. وأما الذي بخلاف ذلك فَسُدّ بمن شئت ووَلِّ من كان بالبذل، ولو كان حارس مقات. ولهذا المقتضى ذَهَبت الفنون، واَضمحلّت الفضائلُ، وسعى الناس في جَمْع المال حيث عَلِمُوا أن الرُّتَب صارت مَعْذوقة[2] بالباذل لا بالفاضل، وهذا على مذهب من قال: [الكامل]

(١) هذا اللفظ زائد، وهو غير موجود في السلوك للمقريزي.

(٢) أي منوطة به ومنسوبة إليه.

المَـالُ يَسْتُـر كـلّ عَيـبٍ في الـفَتـى والـمَـال يَـرْفَـعُ كـلَّ وَغْـد سَـاقِطِ
فعَلَيْـكَ بـالأمْـوالِ فـاقْصـد جَمْعَهـا واضْرِبْ بِكُتبِ الفَضْـلِ بَطْنَ الحائطِ

انتهى.

ثم كتب السلطان باستقرار الأمير آقْبُغا التِّمْـرازي أمير مجلس في نيابة الإسكندرية عوضاً عن الأمير أَسَنْدَمُر النُّورِيّ الظاهري بَـرْقُوق، وقَـدِمَ أَسَنْدَمُر المذكور من الإسكندرية إلى القاهرة في رابع عشر شوال وقبّل الأرض، ونَزَلَ إلى داره، وكان بيده إمْرَة مائة وتقدمة ألف زيادة على نيابة الإسكندرية. وبعد نزوله أرسل السلطانُ خلفَ السَّيفي يَلْخَجا من مَامِش السَّاقي الناصريّ وأمَرَه أن يأخذ الأمير أَسَنْدَمُر هذا ويتوجّه به إلى ثَغْر دِمْيَاط بطّالاً؛ وكان ذنبُ أَسَنْدمُر المذكور تَفْرِيطَه في أمر جاني بَك الصُّوفي حتى فرّ من سجنه، ولولا أن أَسَنْدمر المذكور كان من أغْوَات الملك الأشرف المذكـور ومن أكابـر إنيات(١) الأميـر جارَكَس القَاسميّ المُصَارع لكَانَ له معه شأن آخر.

ثم في تاسع عشر شوّال خَرَج مَحْمَلُ الحاج صحبة أمير الحاج الطَّوَاشي إفْتِخَار الدين ياقوت الأرْغُون شَاوِيّ الحبشي مقدم المماليك السلطانيّة، وهذه ثاني سَفْرة سافرها بالمحمل، وكان أميرُ حاج الأوّل(٢) الأميرَ إينال الشُّشْمَانِيّ الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وحَجَجْتُ أنا أيضاً في هذه السنة.

ثم في سابع عشرين شوّال أمسكَ السلطانُ الأمير أرْغُون شَاه النَّوْرُوزِي الأستادار والوزير لعجزه عن القيام بجَوَامِك المماليك السلطانية مع ظُلمِه وعَسْفِه.

ثم أصبح السلطانُ في يوم الاثنين ثامن عشرينه خلع على ناصر الدين محمد بن شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن المرداوي والمعروف بابن بُوَلِي، والعامة تسميه ابن أبي وَالي، باستقراره أستاداراً عوضاً عن أرْغُون شاه المذكور، وعوقب أرْغُون شاه بين يدَيِ السلطان.

---

(١) إنيات: جمع إنِيّ، وهو المملوك الصغير في الطباق يكون تحت رعاية مملوك كبير. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) أي أمير المحمل الأول.

وخبر ابن بُوَلي هذا وأصله أنه كان أبوه من حجة ومردة(١) من أعمال الشّام، وسكن القُدْس، وصارَ من جُمْلة التُّجّار، ووُلِدَ له ابنه هذا فتزيًا بزيّ الجند وخدم من جملة الأجناد البلاصيّة(٢) عند الأمير أرْغُون شاه المذكورُ أيام أستاداريته لنَوْرُوز، ثم تنقّل إلى أن صارَ أستادار الأمير جَقْمَق الدّوَادار، وصادره جقْمَق وصرفه بعد أن كثر ماله. ثم خَدم بعد ذلك في عِدَّة جهات إلى أن طُلِبَ إلى مصر، وأُلْزِم بحمل عشرين ألف دينار، فوَعَدَ أنه يَحْمل منها ثلاثة آلاف دينار ويُمْهَل فيما بقي عِدَّة أيام. فلمّا قَبَض السلطانُ على أرْغُون شاه المذكور سَوّلَت له نفسُه وزَيّنَ له شيطانُه أن يكون أستاداراً ويسدّ المبلغَ الذي أُلْزِم بحمله من وظيفة الأستادارية، فكان خلاف ما أمّل(٣)، ونزل بالخلعة إلى بيت أرغُون شاه المذكور وعليه قُمَاشُه، ثم تسلّم أرْغُون شاه وأدْخَله إلى داره المذكورة وهو في الحديد، فرأى أرْغُون شاه مَنْ كانَ من جُمْلة غِلْمَانه قد جَلس على مقعده وفي بيتـه، وتحكّم فيه وأخذ يعاقبه بحضرة مَنْ كان يخدمه بها؛ فلما رأى ما حلّ به دَمَعَت عَيْناه وبَكى، فكان في هذا الأمر عِبْرَة لمن اعتبر.

وفي هذا اليوم المذكور خَلَـعَ السلطانُ على الأمير إينَال النَّوْرُوزِيّ المعزول عن نيابة طَرَابُلُس قبل تاريخه باستقراره أمير مجلس عوضاً عن آقْبُغَا التِّمْرَازِي، وكلاهما صِهْرِي وزوج إحدى أخواتي(٤).

وفيه أيضاً خَلَـع السلطانُ على كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن كاتب المناخ باستقراره وزيراً وذلك في حياة والده. حكى الصاحبُ كريم الدين قال: «دخلت بخلعة الوزارة على والدي فقال لي: يا عبد الكريم أنا وُلّيتُ هذه الوظيفة ومعي خمسون ألف دينار ذَهَبَت فيها ولم أسدّ، تسد أنت من أين ؟ قال فقلتُ: من أضلاع المسلمين، فضحك وحَوّل وجهه عني».

---

(١) كذا! وعبارة المقريزي في السلوك: «كان أبوه من تجار القدس».

(٢) راجع فهرس المصطلحات.

(٣) عبارة «فكان خلاف ما أمّل» يأباها السياق. والسياق هنا، وما ذكره المقريزي، يفيدان أنه استقرّ في وظيفة الأستادارية ونال ما أمّله.

(٤) كان إينال النوروزي زوج أخته فاطمة، وآقبغا التمرازي زوج أخته شقراء.

ثم في يوم الخميس أوّل ذي القعدة قَدِمَ إلى القاهرة جماعةٌ من إخـوة السلطان وأقاربه من بلاد[١] الجاركس بعد أن خرج الأمراءُ إلى لقائهم، وكبير القوم يَشْبُك أخو السلطان الملك الأشرف.

وفيه خرجَ من القاهرة الأميرُ قُجَق العِيسَاوِيّ أمير سلاح، والأمير أَرْكَمَاس الظاهري أحد مقدّمي الألوف، وزين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش إلى مكة على الرَّواحِل حَاجِّين.

ثم في سادس عشر ذي القعدة المذكورة قَدِمَ الأميرُ جانِي بَك الأشْرَفِيّ الخَازِنْدَار من الشَّام، بعد تقليد نائبها الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ، فخلـع السلطانُ عليه باستقراره دَوَادَاراً ثانياً عوضاً عن الأمير قَرْقَماس الشَّعْبَاني النَّاصري فرج بحُكْم آستقراره أمير مائة ومقدّم ألف وتوجّهه أميرَ مَكَّة. ومن يومئذ عَظُم أمر جَاني بَك المذكور في الدَّوْلة حتى صار هو صـاحب عَقْدِهـا وحَلِّهَا، ونـال من السعادة والوجاهة والحُرْمَةِ في الدَّوْلة ما لَمْ ينله دَوَادَارٌ في عصره ولا مِن بعده إلى يومنا هذا.

وفي هذه الأيام اشتدَّ طَلَبُ السلطانِ على جَانِي بَك الصُّوفِيّ، وقبض على بعض المماليك بسببه، وعوقب بعضهم حتى هَلَك. ثم أمسكَ السلطانُ أَصْهَار جاني بَك الصُّوفي أولاد قُطْلُوبَك الأستادار، وعاقب بعض حواشيهم، هذا بعد الهَجْم على بيوت جماعة كبيرة ممن يَغْمِزُ عليهم بعض أعدائهم، فيحل على صاحب البيت المذكور من البلاء والرجيف ما لا مَزِيد عليه، وتداوَل ذلك سنين، وهذا أوله حسبما يأتي ذكره.

ثم في ثامن عشرين ذي الحجة قَدِمَ مبشِّرُ الحاج وأخبرَ بالأمن والرَّخاء وكثرة الأمطار، غير أن الشريف حسن بن عَجْلَان لم يقابل أمير الحاج، ونزح عن مَكَّة

---

(١) بلاد الجاركس (الجركس): كانت تشمل القسم الشمالي الغربي من القوقاس ـ بلاد قوبان ـ وقسماً من الشاطىء الشرقي للبحر الأسود من شبه جزيرة تان إلى حدود بلاد الأبخاز جنوباً. (دائرة المعارف الإسلامية: ٢٠٨/١١).

لما أشيع أن السلطان يُرِيدُ القبضَ عليه، فغَضِبَ السلطانُ لذلك ورسَمَ فَنُودِيَ على المماليك البطَّالين ليجهزوا إلى التجريدة لقتال أشْرَاف مَكَّة.

ثم آشْتَغَلَ السلطانُ عن ذلك بأمر جاني بَك الصُّوفي، وأخذ فيما هو فيه من كَبْس البيوت وإرداع الناس، وأيضاً لما وَرَد عليه أن متملك الحبشة، وهو أبرم، ويقال إسحاق بن داود بن سيف أرعد، قد غضب بسبب غلق كنيسة قمامة[1] بالقُدْس، وقتل عامّة من كان في بلاده في بلاده من رجال المسلمين، واسترَقَّ نساءهم وأولادهم، وعذَّبهم عذاباً شديداً، وهدم ما في مملكته من المساجد، وركب إلى بلاد جَبَرْت[2]، فقاتلهم حتى هزمهم، وقتل عامّة من كان بها، وسبى نساءهم، وهدم مساجدهم، فكانت في المسلمين ملحمة عظيمة في هذه السّنة لا يحصى فيها مَنْ قُتِل من المسلمين، فآشتاط السلطانُ غَضَباً، وأراد قتل بَطْرَك النَّصَارى وجميع ما في مملكته من النَّصَارى ثم رجع عن ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثاني المحرم من سنة سبع وعشرين وثمانمائة قَدِمَ الأمير مُقْبِل الحسامي الدَّوَادَار نائب صَفَد إلى القاهرة، وقبّل الأرض بين يَدَي السلطان، فخلع عليه باستقرار على عادته.

وفي ثامن المحرم قَدِمَ الأمير قُجَق، وأزْكَمَاس الظاهري وعبدُ الباسط من الحج، وتأخّر الأمير قَرْقَماش الشَّعْبَانِي بالينْبُع، وأرسل يطلب عسكراً ليُقَاتل به الشَّرِيف حسن بن عَجْلَان صاحب مَكّة ويستقرّ عِوَضه في إمْرَة مَكّة، فنُودِي على المماليك البطّالة، وعُيِّن منهم جماعة مع حُسَين الكُرْدِي الكاشف ليتوجّه بهم إلى مكة.

---

(١) هي كنيسة القيامة.

(٢) جبرت: مدينة من أكبر مدن الحبشة، تقع غربي زيلع، وأهلها مسلمون. وأطلق هذا الاسم فيما بعد على جميع الامارات الإسلامية في جنوبي بلاد الحبشة، ثم أطلق آخر الأمر على جميع المسلمين الذين يعيشون في بلاد الحبشة. ويستخدم السكان المسيحيون في الحبشة أحياناً مصطلح «جبرت» أيضاً للدلالة على المسلمين في شبه الجزيرة العربية، وهكذا يصبح مرادفاً للفظ مسلم بصفة عامة. (دائرة المعارف الإسلامية: ١١/٦٣).

هذا وقد اشتغل سر السلطان بما أشيع من عصيان الأمير تَنِبَك البَجَاسيّ نائب دمشق، وصارَ خبرُ الإشاعة عنده هو الأهمّ، وأخذ يُدَبِّرُ في القَبْض عليه قبل أن يستفحل أمْرُه، وكتبَ عِدَّة مُلَطَّفات(١) لأمراء دِمَشْق بالقبض عليه. هذا وقد قوِيَ عند الملك الأشرف خروجُه عن الطاعة، وبادَرَ وخلع على الأمير سُودُون من عبد الرحمن الدّوادار في يوم الاثنين ثالث عشرين المحرّم باستقراره في نيابة دِمَشق عوضاً عن تَنِبَك البَجَاسيّ، فلبس سُودُون من عبد الرحمن الخِلْعَة ونَزَل من القلعة سائراً إلى دِمَشْق على جَرَائد الخيل، ولم يدخل إلى داره. وسارَ سُودُون مِن عبد الرحمن إلى جهة دِمَشْق، وقد تقدَّمته الملطَّفات بمَسْك تَنِبك المذكور. فلما وقف أمراء دِمَشْق على الملطّفات، اتفق الجميع وركبوا بمَن معهم وأتَوْا دار السّعَادة في ليلة الجمعة رابع صفر، واستَدْعُوا الأميرَ تَنِبَك البَجَاسيّ المذكور ليقرأ كتاب السلطان، فعلم بما هو القَصْد، وخَرَج من باب السِّرّ، وعليه السلاح، في جميع مماليكه وحواشيه. فأقبل عليه الأمراء وقَاتَلوه حتى مَضَى صَدْر من نهار الجمعة المذكور، ثم انهزَمُوا منه أقبح هزيمة وتشتت شملهم، فتحصّن منهم طائفةٌ بقلعة دِمَشْق، ومضَى منهم إلى الأمير سُودُون مِن عبد الرحمن، فوافُوه وهو نازِلٌ على صَفَد. واستولى تَنِبَك المذكور على دِمَشْق وقوي بأسُه. وكان انضمّ عليه من أُمراء دِمَشْق الأمير قَرْمَش الأعْوَر المقدّم ذكره من أصحاب جاني بَك الصُّوفيّ، والأمير تِمْرَاز المؤيَّدي الخَازِنْدَار وغيرهما من أُمراء دِمَشْق. ثم تجهّز تَنِبَك البَجَاسيّ هو وأصحابه لمَّا بلغهم قُدُومُ سُودُون من عبد الرحمن، وخرَجَ من دِمَشْق بجموعه في أسرع وقت، وسارَ حتى وافى الأميرَ سُودُون من عبد الرحمن وهو نازل على جِسْر يَعْقُوب(٢) في يوم الجمعة حادي عشر صَفَر، وقد قطع سُودُون من عبد الرحمن الجِسْرَ لئلا يصل إليه تَنِبَك المذكور. وكان سُودُون لمّا

---

(١) الملطفات: رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمديح أو التأمين. (صبح الأعشى: ١٣١/٣).

(٢) هو جسر بنات يعقوب، على نهر الأردن على بعد نحو كيلومترين جنوب بحيرة الحولة، ويبعد عن مدينة صفد حوالي عشرين كيلومتراً. (الموسوعة الفلسطينية: ٤٢١/١).

خرج من مصر بمماليكه وسَارَ إلى جهة دِمَشْق حتى نزل على صَفَد وافاهُ الأمير مُقْبِل الحسامي نائب صَفَد وسارَا معاً حتى نزلاَ جِسْر يعقوب. فلمّا بلغ سُودُون مجيءُ تَنِبَك إليه جَبُن عن قتاله وقطَع الجِسْرَ، فقَدِم تَنِبَك فَلَمْ يجد سبيلاً لِقِتَال سُودُون، فبات كل منهما من جهة، وكلاهما لا يصل إلى الآخر بسوء، فباتوا يتحارسون إلى الصباح.

فلما أصبحَ يومُ السبت ثاني عشر صَفَر شَرَعُوا يترامون بالنُّشّاب نهارَهم كله حتى حجز الليلُ بينهم، فباتوا ليلة الأحد على تعبئتهم، وقد قَوِيَ أمر تَنِبَك. وأصبح الأميرُ تَنِبَك في يوم الأحد ثالث عشرة رَاحِلاً إلى جهة الصُّبَيْبَة في انتظار ابن بِشَارة أَنْ يأتِيَه بجموعه، وقد أرْصَدَ جماعةً لسُودُون من عبد الرحمن بوِطَاقِه، فكتب سُودُون من عبد الرحمن بذلك إلى السلطان. ثم ركب [سودون] بمن معه على جَرَائد الخيل وقَصد مَدِينة دِمَشْق، وتَرَكَ الأثقال في مواضعها مع نائب القُدْس، يُوهِمُ عسكر تَنِبَك البَجَاسيّ أنه مقيمٌ بمكانه، وساق حتى دَخَل دِمَشْق في يوم الأربعاء سادس عشر صَفَر المذكور، ومَلَك المدينة، وتمكّن من قَلعة دِمَشْق. وبلغَ الأميرَ تَنِبَك البَجَاسِيّ ذلك فَرَكِب من وَقْتِه وساق حتى وافى سُودُون من عبد الرحمن بدِمَشق من يومه. وبلغ سُودُونَ قدومهُ فخرج إليه وتلقّاه بِمَنْ معه من عساكر دمشق بباب الجَابِيَة، وقاتلوه، فثبت لهم تَنِبَك البَجَاسِيّ مع قلّة عسكره وكثرة عساكرهم، وقاتلهم أشد قتال، والرَّمْيُ ينزل عليه من قلعة دِمَشق، وهو مع ذلك يظهر التجلّد، إلى أن حَرَّك فَرَسه في غرضٍ له فأصابته ضربةٌ على كتفه حَلَّته، فتقنطر عند ذلك عن فرسه، فتكاثروا عليه وأخذوه أسِيراً إلى قلعة دِمَشْق ومعه نحو عشرين من أصحابه، وفرّ من كان معه من الأمراء إلى حال سبيلهم، وكَتَبَ الأمير سودُون من عبد الرحمن في الحال بجميع ذلك إلى السلطان.

وأما الملك الأشرف فإنه بعد خروج سُودُون من عبد الرحمن أخذ ينتظر ما يَرِدُ عليه من الأخبار في أمْرِ تَنِبَك، فقدمَ عليه كتابُ سُودُون من عبد الرحمن من جِسْر يَعْقُوب أوَّلاً في يوم الأحد عشرين صفَر، فعَظُمَ عليه هذا الخبر، وعَزَم على سفر الشام. واضطرب الناسُ، وَوَقَع الشُّرُوع في حركة السَّفر، وأُحضرت خيول

كثيرة من مرابطها من الرّبيع. وبينما الناس في ذلك قدم كتاب سُودُون من عبد الرحمن الثاني من دِمَشْق يتضمن النّصر على تَنِبَك البَجَاسِيّ والقبض عليه وحَبْسَه بقلعة دِمَشْق، فسُرَّ السلطانُ بذلك غاية السرور، ودقت البشائر، وكَتَبَ بقَتْلِ تَنِبَك البَجَاسيّ وحَمْلِ رأسه إلى مصر، وبالحَوْطَة على مَوْجُوده، وتتبُّع حواشيه ومن كان معه من أمراء دِمَشْق. وهدأ سرُّ السلطان من جهة دِمَشْق، وبَطُلت حركةُ السَّفر، والتفت إلى ما كان عليه أوَّلاً من الفَحْص على جانِي بَك الصُّوفيّ.

فلما كان سابع عشرين صفر المذكور نُودِي بالقاهرة ومصر على جَاني بَك الصُّوفيّ، ووُعِد مَنْ أحضره إلى السلطان بألف دينار، وإن كان جندياً بإمْرَة عشرة، وهُدِّدَ من أخفاه وظهر عنده بعد ذلك بإحراق الحارة التي هو ساكن بها، وحلفَ المنادي على كل واحدة مما ذكرنا يميناً عن السلطان. هذا بعد أن قَوِيَ عند السلطان الملك الأشرف أن جَاني بَك الصوفيّ مختفٍ بالقاهرة، ولو كان بالبلاد الشامية لظهر وانضمّ مع تَنِبَك البجاسيّ، وهو قِيَاسٌ صحيحٌ.

ثم آلتفتَ السلطانُ أيضاً إلى أمرِ مكة. فلما كان يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول نُودِي بالقاهرة بالخروج إلى «حَرْب مكة المشرفة»، فاستشنع الناسُ هذه العِبَارَة. ثم عَيَّن [السلطان] جماعة من المماليك السلطانية، وأنفق على كل واحد منهم أربعين ديناراً.

ثم في حادي عشرين شهر ربيع الأوّل قَدِمَ رأسُ الأمير تَنِبَك البَجَاسِيّ إلى القاهرة فَطيفَ بها على رُمْح، ثم عُلِّقَت على باب النَّصْر أيَّاماً.

وفي سابع عشرين شهر ربيع الأول خَلَعَ السلطانُ على الأمير أُزْبك المحمدي الظاهري رأس نَوْبة النُّوب باستقراره دَوَادَاراً كبيراً عوضاً عن سُودون من عبد الرحمن المنتقل إلى نيابة الشام.

وخَلَعَ على الأمير تَغْرِي بَرْدِي المَحْمودي الناصري باستقراره رأس نوبة النُّوَب عوضاً عن أُزْبك المذكور.

ثم في يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر خَلَع السلطانُ على القاضي شمس الدين محمد الهَرَوِيّ باستقراره كاتب السِّرِّ الشريف بالديار المصرية عوضاً عن جمال الدين يوسف بن الصَّفيّ الكَرَكِيّ، ونزَلَ في مَوْكِب جليل؛ وكان الهَرَوِيُّ علاّمَةً في فنون كثيرة من العُلُوم.

ثم في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى أقيمت الخُطْبَة بالمدرسة الأشْرَفِيَّة[١] بخط العَنْبرِيين من القاهرة، ولم يَكْمل منها سوى الإيوان القبلي.

وفي يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة خَلَع السلطانُ على الأمير صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله باستقراره أستاداراً بعد عَزْل ناصر الدين محمد بن بُوَلي والقبض عليه، وهذه ولاية صلاح الدين الثانية للأستادارية.

ثم في ثاني عشرة خَلَع السلطانُ على الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ واستقرّ ناظر ديوان المُفْرَد مضافاً على الوزر عوضاً عن القاضي كريم الدين بن كاتب جَكَم.

وفي يوم الأحد خامس عشر جمادى المذكور تُوفِّيت زوجةُ السلطان الملك الأشرف ودُفنت بالقُبَّة بالمدرسة الأشرفيّة.

قال المقريزي: واتَّفق في موتها نادرة، وهي أنها لما ماتت عُمِل لها خِتَمٌ[٢] عند قبرها في الجامع الأشرفي[٣] ونزل ابنُها الأمير ناصر الدين محمد من القلعة لحضور الخِتَم، وقد ركب في خدمته الملكُ الصالح محمد بن طَطَر، فشَقَّ القاهرة من باب زُوَيْلَة وهو في خدمة ابن السلطان، بعدما كان بالأمس سلطاناً، وصار جالساً بجانبه في ذلك الجمع، وقائماً بخدمته إذا قام، فكان في ذلك موعظة لمن اتَّعظ. انتهى.

---

(١) هي مدرسة وجامع الأشرف برسباي. ولا تزال باقية باسم جامع الأشرف في شارع المعز لدين الله الفاطمي في المسافة بين شارع الأزهر والموسكي. وانظر خطط المقريزي: ٢/٣٣٠.

(٢) الختم: جمع ختمة، والمراد بها تلاوة القرآن كله مرّة.

(٣) في الأصل: «بالمدرسة الأشرفية» وما أثبتناه عن المقريزي.

قلتُ: حضرت أنا هذه الخِتَم المذكورة وشاهدت ما نقله المقريزي بعيني، فهو كما قال؛ غير أنه لم يكُن في خِدْمَتِه وإنما جَلَسا في الصَّدْر معاً، بل كان الصالح متميِّزاً عليه في الجلوس، وكذلك في مسيره من القلعة إلى الجامع المذكور. وقد ذكرنا طرفاً من هذه المقَالَة في أواخر ترجمة الملك الصَّالح المذكور، غير أنه كما قاله المقريزي: إنه من النوادر.

ثم في يوم السبت حادي عشرين جمادى الآخرة خَلَع السلطانُ على قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجِّي باستقراره كاتب السِّرّ الشريف بالديار المصرية بعد عَزْل قاضي القضاة شمْس الدين الهَرَوِي، ونزل ابن حجِّي على فَرَس بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش في موكب جليل إلى الغاية.

قال المقريزي: وقد ظهر نقصُ الهَرَوِي وعجزُه، فقد باشر بتعاظم زائد، مع طَمَع شديد وجهل بما وُسِّدَ إليه، بحيث كان لا يُحْسِنُ قراءة القصص ولا الكُتب الواردة، فتوَلَّى قراءة ذلك بدرُ الدين محمد بن مُزْهر نائب كاتب السرّ، وصار يحضُرُ الخِدْمَة ويقفُ على قَدَميه وابن مُزْهر هو الذي يتولَّى القراءة على السلطان. انتهى كلامُ المقريزي برمّته.

قلتُ: لا يُسْمَع قولُ المقريزي في الهَرَوِي. فأما قوله «باشر بتعاظم زائد» فكان أهلاً لذلك لغزير علمه ولما تقدّم له من الولايات الجليلة بممالك العَجَم، ثم بالديار المصرية. وقَوْلُه «وعجزه بما وُسِّدَ إليه» يعني عن وظيفة كتابة السرّ، نعم كان لا يَدْري الاصطلاح(١) المصري، ولم يكن فيه طَلَاقَةُ لسان بالكلام العربيّ

(١) أي مصطلح الكتابة في دواوين الإنشاء المصرية. ويمكننا القول المصرية والشامية، لأن مصطلح الكتابة وتنظيم الدواوين فيهما كان واحداً. والمراد بمصطلح الكتابة تلك القواعد التي كانت تراعى فيما يصدر عن ديوان الإنشاء من مكاتبات مختلفة مثل التقاليد والمراسيم والمناشير والتفاويض والمثالات وغيرها. وكذلك صيغ وأساليب الخطاب المتبعة في المراسلات الداخلية ـ بين السلاطين من جهة والولاة والأمراء والأعيان من جهة ثانية، وبالعكس ـ أو بين ملوك الديار المصرية والحكام الأجانب. هذا إلى جانب تلك اللوائح المطوّلة من الألقاب والنعوت وأسماء الوظائف والعاملين عليها. وقد عبّر عن ذلك مباشرة ابن فضل الله العمري في كتابه الذي سمّاه «التعريف بالمصطلح الشريف». ولقد تميز جهاز الإدارة =

. . . .

= المملوكي بتضخم وتفريع هائلين، ورافق ذلك اتجاه إلى تجميع السلطة الإدارية في ديوان الإنشاء مما رتّب على هذا الديوان أعباء كبيرة. كذلك أصبح متولي ديوان الإنشاء في عصر المماليك من المكانة المرموقة في الدولة بحيث يصاحب السلطان في حِلّه وترحاله ويرافقه في حروبه وغزواته ويعرف من أسرار الدولة ما قد يخفى على الخاصة من أعوان السلطان. وبذلك نستطيع أن نتصوّر مستوى القدرات الأدبية والإدارية والدبلوماسية التي كان يجب توفّرها فيمن يكون على رأس هذا الديوان، والذي كان يسمى كاتب السرّ أو رئيس ديوان الإنشاء أو رئيس دواوين الإنشاء بمصر والشام. ومنذ وقت مبكر، وفي أثناء مسيرة ديوان الإنشاء الإسلامي في اتجاه تمكين أسسه وتثبيت قواعد عمله واستقرار مصطلحه وبيان العدّة المعرفية اللازمة لمتولّيه، كان هناك مجموعة كبيرة ومتلاحقة من المؤلفات التي تناولت تلك الجوانب جزئياً أو كلياً، وتراوحت بين الرسالة الصغيرة ـ مثل الرسالة العذراء لابن المدبّر أو أدب الكتّاب للصولي ـ أو المتوسطة مثل معالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث أو التعريف بالمصطلح الشيف لابن فضل الله العمري ـ أو الموسوعة الكتابية الضخمة الجامعة مثل كتاب صبح الأعشى للقلقشندي. وقد عرفت هذه المؤلفات وأمثالها «بالدساتير» إشارة إلى القواعد والقوانين التي نظمت الكتابة الديوانية وأجهزتها. وفي أواخر العصر المملوكي بلغ مصطلح الكتابة الديوانية درجة عالية ومعقدة من التقنين والدقة والضبط بحيث صار لا يمكن التلاعب بالتغيير أو التبديل فيما كان يصدر عن ديوان الإنشاء، حيث أصبح هذا الديوان «على الأوضاع المحكمة والقانون المستقيم وتبينّ رتب الناس ومنازلهم» على حدّ تعبير خليل بن شاهين الظاهري في كتابه «زبدة كشف الممالك».

والواقع أن ديوان الإنشاء في العصر المملوكي كان معقلاً للثقافة العربية الإسلامية التي كانت هي السائدة بلا منازع، في الوقت الذي كانت فيه جميع مواقع السلطة السياسية والعسكرية بأيدي العناصر التركية أو الجركسية غير العربية. ولقد كان هناك نوع من التوافق الضمني ـ تثبّت وترسّخ مع مرور الزمن ـ في هذا الشأن؛ فولاية أمر الثقافة والشرع والإدارة كانت بأيدي العرب من موظفين في جهاز الإدارة والقضاء ومتفرعاتها، وقد عرفوا بأرباب الأقلام ـ وولاية أمر السلطة والجيش كانت بأيدي الأتراك والجراكسة من أرباب السيوف.

وكانت وظيفة كتابة السرّ مقتصرة ـ بشكل إجمالي ـ على الكتّاب الأدباء والفقهاء من العرب، خاصة أولئك الذين امتلكوا ناصية الكتابة وساهموا في ترسيخ أسس ديوان الإنشاء وتثبيت مصطلح الكتابة الديوانية أمثال محيي الدين بن عبد الظاهر، وأسرة فضل الله العمري التي تولت رئاسة هذا الديوان حوالى القرن من الزمان، والقلقشندي وغيرهم. ومن هنا نستطيع أن نتفهم النقد اللاذع الذي يوجهه المقريزي للشيخ شمس الدين الهروي. وفي جميع الأحوال فإن الذين ترجموا للهروي ـ فضلاً عن المقريزي ـ مثل السخاوي وابن حجر لم يحمدوا له سيرة في هذه الوظيفة ولا في وظائف القضاء والتدريس التي تولاها في القدس والقاهرة، علماً أنهم أشاروا إلى غزارة علومه العقلية، لكنهم غمزوا من ذمته العلمية وعابوا عليه تكبّره وسوء معاملته للناس. وبذلك فإننا نرى أن دفاع أبي المحاسن عنه هو في غير محلّه؛ كما أننا نقف متسائلين أمام محاولات أبي المحاسن المتكرّرة للغمز من أستاذه وشيخه المقريزي الذي هو شيخ المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى.

كما هي عادة الأعاجم. وأمّا علمُه وفضلُه وتبحُّرُه في العلوم العقلية فلا يَشُكُّ فيه إلا جاهلٌ، وهو أهل لهذه الرُّتبة وزيادة، غير أنه صُرِفَ عن الوظيفة بمن هو أهلٌ لها أيضاً وهو القاضي نجم الدين بن حِجّي قاضي قضاة دِمَشْق ورئيسهم، وكلاهُمَا أعني المتوَلّي والمعزول من أعيان العلماء وقدماء الرؤساء، والتعصّب في غير مَحَلِّه مَرْدُود من كل أحد على كائن من كان. انتهى.

ثم في سلخ الشهر المذكور خَلَع السلطانُ على القاضي الشريف شهاب الدين نقيب الأشراف بدمَشْق باستقراره قاضي قضاة دِمَشْق، عوضاً عن القاضي نجم الدين بن حجّي المقدم ذكره.

ثم في يوم الخميس رابع شهر رجب خَلَع السلطانُ على العلّامة علاء الدين علي الرُّومي الحنفي باستقراره شيخ الصُّوفيّة، ومُدَرّس الحنفية بالمدرسة الأشرفية بخط العَنْبَرِيّين بالقاهرة، وكان له مُدَّة يسيرة من يوم قَدِمَ من بلاد الرّوم.

ثم قدم الخبرُ على السلطان بأخذ الفرنج مركبين من مراكب المسلمين قريباً من ثَغر دِمْيَاط، فيهما بضائع كثيرة وعِدّة أناس يزيدون على مائة رجل، فكتب السلطانُ بإيقاع الحَوْطَة على أموال تُجّار الفرنج التي ببلاد الشام والإسكندرية ودِمْيَاط والخَتْم عليها، وتَعْويقهم عن السَّفر إلى بلادهم حتى تَرُدَّ الفرنجُ ما أخذوه من المسلمين، فكلّمه أهلُ الدَّولة في إطْلاقهم فلم يَقْبَل، وأخذ في تجهيز غَزْوهم.

ثم ركبَ السلطانُ من قلعة الجبل ونزلَ إلى جامعه الذي أنشأه بخط العَنْبرِيّين المقدّم ذكره، وجلس به ساعة، ثم عاد إلى القلعة بغير قُمَاش المَوْكِب.

ثم في يوم الأربعاء أوّل شعبان ابْتُدِئ بقراءة صحيح البُخَاري بين يَدَي السُّلطان.

قال المقريزي: وحضر القضاة ومشايخ العلم، والهَرَوِيّ، والشيخ شمس الدين محمد بن الجزري بعد قدومه بأيّام، وكاتب السرّ نجم الدين بن حجّي، ونائبه بدر الدين ابن مُزْهِر، وزين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، والفقهاء الذين

رَتّبهم المؤيد، فاستجَدّ في هذه السنة حضور المباشرين. وكانت العادة من أيّام الأشرف شعبان بن حسين أن تبدأ قراءة البُخَاري في أول يوم من شهر رمضان، ويحضر قاضي القضاة الشافعيّ، والشيخ سِرَاج الدين عمر البُلْقينيّ وطائفة قليلة العدد لسماع البخاري، ويختم في سابع عشرينه، ويُخْلَع على قاضي القضاة، ويركب بغلة بزُنّارِيّ(١) تُخْرَجُ له من الإسطبل السلطاني. ولم يزل الأمر على هذا حتى تسلطن المؤيد شيخ فابتدأ بالقراءة من أول شعبان إلى سابع عشرين شهر رمضان، وطلب قضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم، وقرّر عِدّةً من الطلبة يحضُرُون أيضاً، فكانت تَقَعُ بينهم أبحاث يُسيء بعضُهم على بعض فيها إساءات مُنْكَرَة، فجرَى السلطانُ [برسْبَاي] على هذا واستجدّ ـ كما ذكرنا ـ حضور المباشرين، وكثُرَ الجمعُ، وصار المجلس جميعه صِيَاحاً. انتهى.

قُلْتُ: ليس في هذا شيء مُنْكَرٌ، وكما جدّد الأشرف [شعبان] قراءة البخاري في شهر رمضان، جعله غيرُه من أوّل شعبان، وكلٌّ مِمَّن فعل ذلك سلطانٌ، يتصرّف كيف شاء. ولا يَشُكُّ أحدٌ أن التأنّي في القراءة أفضل من الإدراج، لا سيما كُتُب الحديث ليفهمه كلُّ أحد من مبتدىء أو منتهٍ، وأيضاً كُلَّما كَثُرَ الجمعُ عَظُم الأجْرُ والثَّواب. وأما الصِّياح فلم تبرح مجالس العلم فيها البحوث والمشاحنة، ولو وقع منهم ما عسى أن يقع فهم في أجر وثواب، وليس للاعتراض هنا مَحَلٌّ بالجملة. انتهى.

ثم في يوم الأحد رابع شهر رمضان أخرج السلطان الأمير أرْغُون شاه النَّوْرُوزيّ، والأمير ناصر الدين محمد بن بُوَلي من القاهرة إلى دِمَشْق بَطَّالين؛ وقد تقدّم أن كليهما قد وَلِيَ الأستادارية بالديار المصرية.

وفي هذه الأيام ندبَ السلطانُ جماعة من المماليك السلطانيّة للغَزَاة.

---

(١) الزنّاري: نوع من الأجلال (جمع جلّ) يكون مفتوحاً فوق صدر الحصان ومسدولاً على الكفل بحيث لا يُرى الذيل. وكان الزنّاري يُعطى بدل الكنبوش لمن عظمت مكانته ومقامه عند السلطان، ويصنع من الأطلس الأحمر أو من الجوخ. (السلوك: ٨٥١/١، حاشية).

ولما كان يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سار غُرَابَان من ساحل بُولاق ظاهِرَ القاهرة في بَحْر النيل، بعد أن أُشْحنا بالمقاتلة والأسلحة، وكان فيهما من المماليك السلطانيّة ثمانون نَفَراً غير المُطوِّعة، ورسم السلطان لهم أن يسيرُوا في البَحْر إلى طَرَابُلُس، ويأخذوا أيضاً من سواحل الشام عِدَّة أَغْرِبَة أُخَر فيها المقاتلة، ويسيروا في البحر المالح[1] لعلَّهُم يجدون من يتَجَرَّم في البحر من الفرنج، وهذه أوّل غزوة جهزها السلطانُ الملك الأشرف بَرْسْبَاي رحمه الله.

ثم في يوم الثلاثاء رابع شوّال أمر السلطان بحفر صَهْرِيج بوسط صَحن جامع الأزهر، فابتدأوا فيه من هذا اليوم وحَفَرُوا بوسط صَحْن الجامع المذكور فوجدوا فيه آثار فَسْقِيّة قديمة وبها عِدّة أموات، ثم شرعوا في بنائها حتى كمُلَت وعُمِّر فوقها مَقْعَدٌ لطيف على صفة السبيل، وانتفع أهلُ الجامع به، ودَامَ سنين إلى أن أَمَر السلطانُ الملك الظاهِر جَقْمَق بهَدْمِه، فَهُدِمَ ورُدِمَ.

ثم في يوم السبت تاسع عشرين شوال المذكور حضَر الأمراءُ الخِدْمَة السلطانية على العادة، ونزلوا إلى دورهم، فاستدعى السلطانُ بعد نزولهم الأميرَ بَيْبُغَا المُظَفَّرِي أتَابَك العساكر إلى القلعة، فلَمَّا صار إليها قُبِضَ عليه وقُيِّدَ وحُمِل إلى الإسكندرية من يومه.

ثم في يوم الخميس رابع ذي القعدة خَلَع السلطانُ على الأمير قُجَق العِيسَاوِيّ أمير سلاح باستقراره أَتَابَك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن بَيْبُغَا المُظَفَّرِي بحُكم القَبْض عليه، وخَلَعَ على إينال النَّوْرُوزِيّ أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن قُجَق المذكور، وأَنْعَمَ السلطانُ بإقطاع بَيْبُغَا المذكور على الأمير إينال الجَكَمِيّ أحد الأمراء البطّالين بالقُدْس وكُتِبَ بإحضاره، وعلى الأمير حُسَين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمُش البَهنسِيّ التُّرْكُمانيّ نائب قلعة الجَبَل نِصْفَيْن بالسّوِية بعد أن أخرج منه بلدة القليوبيّة.

(١) هو البحر المتوسط. ويقال له أيضاً بحر الشام.

ثم في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة خَلَع السلطانُ على قاضي القضاة شمس الدين محمد الهَرَوِيّ المعزول عن وظيفة كتابة السرّ قبل تاريخه باستقراره قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، عوضاً عن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حَجَر بحُكْم عَزْله؛ وهذه ولاية القاضي الهَرَوِيّ الثانية للقضاء.

وقدم الأميرُ إينَال الجَكَمِيّ من القُدْس في يوم الاثنين خامس عشرة، وخَلَع السلطانُ عليه باستقراره أميرَ مجلس عوضاً عن إينَال النَّوْرُوزِيّ.

وفي هذه الأيام أنعم السلطانُ على الأمير تَنِبَك من بُرْدْبَك الظَّاهِرِيّ، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بإمْرَة طَبْلَخَاناه عوضاً عن تَغْرِي بَـرْمش البَهنسِي، وآستقرّ أيضاً عوضه في نيابة قلعة الجبل. وتَنِبَك المذكور هو أتَابَك العساكر بديار مصر في زماننا هذا.

ثم في يوم السبت العشرين من ذي القعدة وصلت الغزاةُ المُقَدّم ذكرهم بالغنائم والأسرى.

وكان من خبرهم أنَّهم لمّا خرجوا من ثغر دِمْيَاط تبعَهُم خلائق من المُطَّوِّعة في سلُّورَة(١) وساروا إلى طَرَابُلُس وسارَ معهم أيضاً غُرَابان، وتوجَّهُوا الجميع إلى المَاغُوصة(٢) فأضافهم مُتَمَلِّكُها وأكرمهم، فلم يتعرضوا لبلاده. ومضوا عنه إلى بَلَدٍ يُقَال لها اللُّمَسُون(٣) من جزيرة قُبْرُص فوجدوا أهلها قد استعدُّوا لقتالهم وأخرجوا أهاليهم وعيالهم، وخرجوا في سبعين فارساً تقريباً وثلاثين راجلاً، فقاتلهم المسلمون حتى هَزَمُوهم، وقتلوا منهم فارساً واحداً وعِدَّة رجال، وغَرَّقوا بعضَ أَغْرِبَة وأحرقوا بعضها، ونهبوا ما وجدوه من ظروف السمن والعسل وغير ذلك، وأسرُوا ثلاثة وعشرين رَجُلاً، وأخذوا قِطَع جُوخٍ كثيرة، فَسُرَّ الناسُ بعَوْدهم وسلامتهم وتَشَوَّقَ كلُّ أحدٍ للجهاد. انتهى.

(١) السلّورة: نوع من المراكب متوسطة الحجم يستعمل في الحرب والسلم على السواء، له ثلاثة أشرعة، ويحتوي على أربعين مجذافاً، وهو سريع الحركة. (البحرية في مصر الإسلامية: ٣٤٧).

(٢) الماغوصة: مدينة بجزيرة قبرص، وهي فماغوسطا Famagusta.

(٣) اللمسون: مرفأ في قبرص، وهي ليماسول.

ثم في ثامن عشرين ذي الحجة خلع السلطانُ على الشيخ سعد الدين سعد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد الدّيري الحنفي باستقراره في مشيخة صُوفيّة الجامع المؤيدي ومُدَرِّس الحنفية به بعد موت أبيه بالقُدس.

ثم في تاسع عشرين المحرم من سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ركبَ السلطانُ مُخِفّاً من قلعة الجبل، ونزل إلى جامعه بخط العَنْبَرِيين وكشف عمائره. ثم ركبَ وسارَ إلى جامع الأزهر لرؤية الصَّهْريج الذي عَمَّره. ثم تقدّم وزار الشيخ خليفة والشيخ سعيداً، وهما من المغاربة لهما بالجامع الأزهر مدَّة سنين وشُهِرَا بالخير والصّلاح. ثم خرج من الجامع إلى دار الشيخ محمد بن سلطان، وهو أيضاً أحد من يُظَنّ فيه الخَيْرُ والصّلاح، فزاره أيضاً وعاد إلى القلعة.

ثم في هذا الشهر أيضاً وقع الشرُوع في عمل عدَّة مراكب لغَزْو بلاد الفرنج، وآستمرَّ العمل فيهم كل يوم إلى أن نزل السلطانُ في يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من سنة ثمان وعشرين المذكورة وكشف عمل المراكب المذكورة، ثم عاد من على جزيرة الفيل إلى جهة مناظر «الخمس وجوه» المعروفة بالتّاج التي كان الملك المؤيد جدَّدَها، فأقام بها ساعة هينة، وعاد من على الخَنْدَق من جهة خليج الزَّعْفَران إلى أن طلع إلى القلعة. هذا كله والسلطانُ لا يفتر عن الفحص على أخبار جَاني بَك الصّوفي ولا يُكذِّبُ في أمْرِهِ خبرَ مُخْبر.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين صفر خلعَ السلطانُ على الشيخ محب الدين أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر الشُّشْتُرِيّ البغدادي الحنبلي باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية بعد موت قاضي القضاة علاء الدين علي بن محمود بن مُغْلِي، وكلٌّ منهما كان أعجوبة زمانه في الحفظ وسعة العلم.

ثم في ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الأوّل عمل السلطانُ المولد النبوي بالحوش السلطاني من قلعة الجبل كعادة عمله في كل سنة.

ثم في يوم الأحد سابعه سار الأميرُ أرَنْبُغا[١] اليونسي الناصري أحد أمراء

---

(١) في السلوك: «أرم بغا».

العشرات ورأس نوبة تجريدة إلى مكّة ومعه مائة مملوك من المماليك السلطانية، وتوجه معه سعد الدين إبراهيم المعروف بابن المَرة أحد الكُتَّاب لأخذ مَكْس المراكب الوَارِدَة ببندر جدّة من بلاد الهند، وهذا أول ظهور أمر جدّة. وكان ذلك بتدبير الأمير يَشْبُك الساقي الأعرج، فإنه نفاه الملك المؤيد [شيخ] إلى مكّة، فأقام بها سنين وعَلِمَ أحوال أشراف مكة وما هُم عليه، فحسَّن للسلطان الاستيلاء على بندر جدَّة، ولا زال به حتى وقع ذلك وصار أمرُ جدَّة كما هي عليه الآن(١).

ثم في يوم الخميس سابع عشر شهر ربيع الآخر قَدِمَ الأميرُ سُودُون من عبد الرحمن نائب الشّام إلى القاهرة، وطلع إلى القلعة، بعد أن تلقَّاه أكابرُ الدَّولة، وقَبَّل الأرضَ، وخُلعَ عليه باستمراره، وأُنْزِل بمكان يليق به إلى أن خَلَعَ السلطانُ عليه خِلْعَة السَّفر، وعاد إلى محل ولايته في سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور.

وفي هذا الشهر كمل عمارة البُرْج الذي عُمِّر بالقُرْب من الطِّينَةِ على بَحْرِ المِلْح، وجاء مُرَبَّع الشكل، مساحة كلّ ربع منه ثلاثون ذراعاً، وشُحِن بالأسلحة، وأُقِيم فيه خمسة وعشرون مقاتلاً، فيهم عشرة فرسان، وأُنْزِل حولَه جماعةٌ من عَرَبِ الطِّينة، فانتفع به المسلمون غاية النَّفْع. وذلك أن الفرنج كانت تُقْبِل في مراكبها نهاراً إلى بَرِّ الطِّينَةِ وتَنْزِل بها وتتخطَّف الناسَ من المسلمين من هناك في مُرُورِهم من قَطْيَا إلى جهة العَرِيش من غير أن يَمْنَعَهُم من ذلك أحدٌ، لخُلوِّ هذا المحل من الناس. وتولّى عمارة هذا البُرْج المذكور الـزَّيْني عبد القادر بن فخر الدين بن عبد الغني بن أبي الفرَج، وأخذ الآجُرّ والحَجَر الذي بُنِيَ هذا البرجُ به من خراب مَدِينَة الفَرَما، وأحرق أيضاً الجيرَ من حجارتها. وقد تقدّم ذكر غَزْوِ الفَرَما في مجيء عَمْرو بن العاص إلى مصر في أوّل هذا الكتاب.

ثم في يوم السبت عاشر جمادى الأولى خلعَ السلطانُ على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخواصّ الشريفة باستقرارِه أستَادَاراً عوضاً عن وَلَدِه صلاح الدين محمد.

---

(١) قارن بالسلوك: ٤/٦٨١، وفيه تفسير لسبب تحوّل بضائع التجار من بندر عدن إلى بندر جدّة.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى المذكورة خلعَ السلطانُ على القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بَرَكَة المعروف بابن كاتب جَكَم باستقراره في وظيفته نَظَر الخاصّ الشريف عوضاً عن بدر الدين بن نصر الله المذكور.

وخلع على أمين الدّين إبراهيم بن مَجْدِ الدين عبد الغني بن الهيصم باستقراره ناظر الدّولة عِوَضاً عن كريم الدين بن كاتب جَكَم المذكور.

وفي هذه الأيام كَثُرت الأخبارُ بحركة الفرنج، فخرجَ عِدَّةٌ من الأمراء والمماليك لحراسة الثُّغُور.

ثم في عاشر جمادى الآخرة أمسكَ السلطانُ القاضي نجم الدين عمر بن حجّي كاتب السّرّ، وسُلِّم إلى الأمير جَانِي بَك الأشرفي الدَّوَادَار الثاني فسجنه بالبُرْج من قلعة الجبل، وأُحِيط بداره، وكان سببُ مَسْكِ ابن حِجّي أنه التزَمَ عن ولايته كتابة السّرّ بعشرة آلاف دينار، ثم تسلم ما كان جارِياً في إقطاع ابن السّلطان من حِمَايَات(١) علم الدين داود بن الكُوَيْز ومستأجراته، على أن يقوم لديوان ابن السلطان في كل سنة بألف وخمسمائة دينار، فحمل في مُدّة ولايته لكتابة السّرّ إلى الخزانة الشريفة خمسة آلاف دينار في دفعات متفرقة، فلما كان هذه الأيام طلب السلطانُ منه حَمْلَ ما تأخّر وهو ستة آلاف دينار [وخمسمائة دينار](٢)، فسألَ السلطانَ مشافهةً أن يُنْعِم عليه بالألف وخمسمائة دينار المقرّرة من الحِمَايَات والمسْتأْجَرَات، وتشكّى من قِلّةِ مُتَحصّلها معه، فلم يُجِبْ السلطانُ سؤاله. فنزل إلى داره وكتب ورَقَةً إلى السلطان تتضمَّن أنه غَرِم من حين وَلِيَ كتابةَ السِّرِّ إلى يوم تاريخه اثني عشر ألف دينار، منها الحمل إلى الخزانة خمسة آلاف دينار، ولِمَن لا يُسَمَّى مبلغ ألفي دينار، وللأمراء أربعة آلاف دينار، وذكر تفصيل الأربعة

(١) الحمايات: هي مكوس يفرضها السلطان أو الأمير على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق. وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١١٠).

(٢) زيادة عن السلوك.

آلاف دينار. فلما قرئت على السلطان فهم أنه أراد بمن لا يُذْكر أنه الأمير جَانِي بك الدَّوَادَار. وأخذَ السلطانُ يَسْأَل من جَانِي بك عندما حضرَ هو والأمراء عمّا وصل إليهم وإليه [من ابن حجّي، فأجابوه بما لا يليق في حقّ ابن حجّي][1]، فما هو إلا أن طَلَعَ ابنُ حِجّي إلى القلعة حصَلَ بينهما مُفَاحَشَات ومُقَابَحَات آلت إلى غَضَب السلطان والنصرة لمملوكه جَانِي بَك فقبضَ عليه.

وله سببٌ آخر خَفِيٌّ؛ وهو أن السلطان استدعَى الأميرَ سُودُونَ من عبد الرحمن نائبَ الشام بكتاب عبد الباسط، فلَمَّا وَقَعت بطاقةُ سُودُون من عبد الرحمن سألَ ابنُ حِجّي: لِمَ جاء نائب الشام؟ فقيل له: بطلب من السلطان، فقال: أنا لم أكتُب له عن السلطان بالمجيء، فقال عبد الباسط: أنا كتبتُ له. فحنق نجمُ الدين لَمّا سمع هذا الكلام، وخَاشَنَ عبدَ الباسط باللَّفظ، وقال له: «اعمل أنتَ كاتِبَ السِّرِّ ونظرَ الجيش مَعاً». ثم أخذ يخاشنه بالكلام آستخفافاً به لمعرفته به قَدِيماً، لأن ابن حِجّي كان معدوداً من أعيان دِمَشْق، وعبد الباسط يوم ذاك بِخِدْمَةِ ابن الشهاب محمود. فأسرَّها عبدُ الباسط في نفسه، وعَلِمَ أنه متى طالت يدُه ربما يقع منه في حَقِّه ما يكره؛ فأخذ يُدَبِّرُ عليه حتّى غَيَّر خاطر الأمير جَانِي بَك عليه وتأكدت العَدَاوةُ بينهما، ووقع ما حكيناه.

واستمرّ ابنُ حِجّي في البُرْج من قلعة الجبل إلى ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة من سنة ثمانٍ وعشرين المذكورة، وأخرج من البُرْج في الحَدِيد وحُمِل إلى دِمَشْق حتى يُكْشَف بها عن سيرته، ويأخذ ابنُ حجّي في تجهيز ما بقي عليه من المَال، وكُتِبَ في حقه لنائب الشام، ولقضاة دِمَشْق بعظائم مستشنعة هو بريء عن غالبها.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرة خلع السلطان على القاضي بدر الدين محمد ابن مُزْهِر نائب كاتب السِّرِّ باستقراره في كتابة السِّرّ عوضاً عن نجم الدين ابن حِجّي المذكور.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وخلعَ السلطانُ أيضاً على تاج الدين عبد الوهاب الأسلمي المعروف بالخطير باستقراره في نظر الإسطبل السلطاني عوضاً عن ابن مُزْهِر. وكان الخطيرُ المذكور قريب عهد بالإسلام، وله قَدَمٌ في دين النصرانية، وكان يباشر عند الملك الأشرف في أيام إمرته فرقّاه إلى هذه الوظيفة، وبعد أن كان يخاطب بالشيخ الخطير صار يُنْعَت بالقاضي، فيشترك هو وقضاة الشرع الشريف في هذا الاسم، وقد تداول هذا البلاء بالمملكة قديماً وحديثاً. وأنا لا ألوم الملوكَ في تقديم هؤلاء لأنهم محتاجون إليهم لمعرفتهم لأنواع المباشرة، غير أنني أقول: كان يمكن الملك أنه إذا رقّى واحداً من هؤلاء إلى رُتْبَةٍ من الرُّتَب لا ينعته بالقاضي، وينعته بالرئيس أو بالكاتب أو مثل ولي الدّولة وسعد الدّولة وما أشبه ذلك، ويدع لفظة قاض لقضاة الشرع ولكاتب السّرّ وناظر الجيش ولفضلاء المسلمين، ليعطيَ كل واحد حقه في شهرته والتعريف به. وقد عيب هذا على مصر قديماً وحديثاً فقال بعضهم: «قاضيها مسلماني، وشيخها نصراني، وحجها غواني». قلت: فإن كانت ألفاظ هذه الحكاية خالية من البلاغة فهي قريبة مما نحن فيه.

والخطير هذا إلى الآن في قيد الحياة، وقد كبر سنّه وهرم، بعدما ولي الوزر بديار مصر ثم نظر الدولة، وهو مع ذلك عليه من الغَلَاسة[١]، وعدم النورانية، وفقد الحشمة، وقلة الطلاوة ما لا يعبر عنه. وقد تخومل ولزم داره سنين طويلة من يوم صادره الملك الظاهر جقمق وحَطَّ قَدْرَه، فعد ذلك من حسنات الملك الظاهر ــ رحمه الله تعالى.

وفي هذا الشهر أخذ السلطانُ في تجهيز الغزاة، وعين جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء، وألزم كل أمير أيضاً أن يجهز عشرة مماليك من مماليكه، ونجز عمل الطرائد[٢] والأغربة.

---

(١) الغلاسة: لفظ عاميّ بمعنى تبلّد الذهن.

(٢) االطرائد: جمع طرّاد، وهي سفن صغيرة سريعة السير، صالحة للكر والفرّ في المواجهات البحرية. ويقال طراد وطرّادة وطريدة.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر رجب خلع السلطانُ على قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حَجَر وأعيد إلى قضاء الديار المصرية بعد عَزْلِ قاضي القضاة شمس الدين الهَرَوِيّ.

ثم في يوم الثلاثاء رابع شهر رجب المذكور حُمِلَ الشريفُ مُقْبل أمير اليَنْبُع، والشريف رميثة بن عَجْلان إلى الإسكندرية وسُجِنَا بِهَا.

ثم في ثالث عشرة أنفق السلطانُ في ستمائة رجلٍ من الغُزَاة مبلغ عشرين ديناراً لكل واحدٍ منهم، وجهز الأمراء أيضاً ثلاثمائة رجل، ثم نودي: «من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النَّفَقة». وقام السلطانُ في الجهاد أتمَّ قيام، وقد شرحَ الله صدره له.

ثم في عشرينه سارت خيولُ الأمراء والأعيان من المجاهدين في البر إلى طرابلس، وعدتها نحو ثلاثمائة فرس، لتحمل من طرابلس صحبة غزاتها في البحر لحيثُ هو القَصْد.

ثم ركبَ السلطانُ في يوم الجمعة من القلعة بغير قماش الخدمة بعد صلاة الجمعة، ونَزَل إلى ساحل بولاق حتى شاهدَ الأغربة والطرائد التي عملت برسم الجهاد، وقد أُشحِنُوا بالسلاح والرجال، ثم عاد إلى القلعة. ثم ركب من الغد المقام الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف من القلعة، ونزل ومعه لالاتُه الأمير جاني بَك الأشرفي الدوادار الثاني، وتوجَّه إلى بيت زين الدين عبد الباسط المطلّ على النيل ببُولاق حتى شاهد الأغربة عند سفرهم، فانحدر أربعةُ أغربة، بكل غُرَاب أميرٌ، وتقدَّم الأربعة الأمير جَرِبَاش الكريمي الظاهري حاجب الحجاب المعروف بقاشق، فكان لسفر هذه المراكب ببولاق يوم مشهود. ثم انحدر بعد هذه الأغربة الأربعة أربعةُ أغربة أُخَر، في كل واحد منهم مقدَّم من أعيان المماليك السلطانية، وكان آخرهم سفراً الغراب الثامن في يوم الأربعاء ثالث شعبان، وهذه الغزوة الثانية من غزوات الملك الأشرف [بَرْسبَاي].

ثم في هذا الشهر أفرَجَ السلطان عن الأمير الكبير طَرَبَاي من سجنه

بالإسكندرية، ونقل إلى القُدْس الشريف بطالاً ليقيم به غير مُضيَّق عليه بعد أن أنعم عليه بألف دينار. وكان الإفراج عن طَرَبَاي بخلاف ما كان في ظن الناس، وعُدّ ذلك من محاسن الملك الأشرف، كون طَرَبَاي المذكور كان عَـانَدَه في المُلك، وكونه أيضاً من عظماء الملوك وأكابر المماليك الظاهريّة [برقوق] مِمَّن يخاف منه، فلم يلتفت الأشرف إلى هذا كله وأفرج عنه لما كان بينهما من الود القديم والصّحْبَة من مبادىء أمرهما.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان المذكور أمسكَ السلطانُ الصاحبَ بدر الدين حسن بن نصر الله الأستادار، وأَمْسَك معه ولدَه الأمير صلاح الدين محمد المعزول عن الأستادارية بأبيه المذكور، وعُوِّقا بالقلعة أربعة أيام، ثم نزلا على أنهما يقومان بنفقة الجامكية شهراً وعليقه، وكانت الجامكية يوم ذاك كل شهر ثلاثين ألف دينار.

ثم في يوم الخميس عاشره خلـع السلطان على زين الدين عبد القادر بـن فخر الدين حسن بن نصر الله.

ثم في رابـع عشرة خلـعَ السلطانُ على جمال الدين يوسف بن الصَّفي الكَرَكي المعزول عن كتابة سِرِّ دِمَشْق عوضاً عن بدر الدين حُسَين.

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر رمضان ــ الموافق لرابـع عشر مِسْرَى ــ أوفي النيلُ ستة عشر ذراعاً، ونزل المقام الناصري محمد ابن السلطان لتخليق المقياس وفَتْحِ خليج السد على العادة، ونزلَ معه الملك الصالحُ محمد ابن الملك الظاهر ططر، وحضر تخليق المقياس، وفتـح الخليـج فتعجب الناسُ لنزوله مع ابن السلطان بعد خلعه من ملك مصر حسبما تقدَّم.

قلت: وكان قصد الأشرف برسْباي بركوب الملك الصالـح [محمد] هذا مـع ولده انبساط الصالـح ــ كونه كان كالمحجور عليه بقلعة الجبل ــ وتنزُّهه، لا كما زعم بعضُ الناس أنَّه يريدُ بذلك مشيه في خدمة ولده وازدراءه. كل ذلك وخاطر السلطان مشغول بأمر جاني بك الصّوفي، والفحص عنه مستمر؛ غير أن السلطان

يتشاغل بشيء بعد شيء، وهو الآن مشغولُ الفكرة في أمر المجاهدين، لا يبرح يترقب أخبارهم إلى أن كان يوم الخميس تاسع شوّال ورد عليه الخبرُ من طرابلس بنصرة المسلمين على الفرنج، فدقّت البشائر لذلك بقلعة الجبل وغيرها، وجمع القضاةُ وأعيان الدّيار المصرية بالجامع الأشرفي بخط العنبريين وقُرِىء عليهم الكتابُ الوارد من طرابلس بنصرة المسلمين، فضجَّ الناسُ وأعلنوا بالتكبير والتهليل، ونودي بزينة القاهرة ومصر. ثم قُرِىء الكتابُ المذكور من الغد بجامع عمرو بن العاص بمصر. وبينما الناس مستبشرون في غاية ما يكون من السُّرُور والفرح بنصر الله قَدِمَ الخبرُ في يوم الاثنين ثالث عشر شوَّال المذكور بوصول الغزاة المذكورين إلى الطينة[1]، فقلق السلطان من ذلك وتنغَّص فرحُ الناس وكثر الكلام في أمر عودهم.

وكان من خبرهم: أنهم لما توجَّهُوا من ساحل بُولاق إلى دمياط سارُوا منه في البحر المالح إلى مدينة طرابلس فطلعوا إليها، فانضمَّ عليهم بها خلائق من المماليك والعساكر الشامية وجماعة كبيرة من المطوِّعة إلى أن رحلوا عن طرابلس في بضع وأربعين مركباً، وساروا إلى جهة الماغوصة، فنزلوا عليها بأجمعهم وخيموا في برها الغربي، وقد أظهر متملك الماغوصة طاعة السلطان وعرَّفهم تهيؤ صاحب قبرس واستعداده لقتالهم وحربهم، فاستعدوا وأخذوا حذرهم وباتوا بمخيمهم على الماغوصة، وهي ليلة الأحد العشرين من شهر رمضان. وأصبحوا يومَ الاثنين شَنُّوا الغارات على ما بغربي قبرس من الضياع، ونهبوا وأسَرُوا وقتلوا وأحرقوا وعادوا بغنائم كثيرة، وأقاموا على الماغوصة ثلاثة أيَّام يفعلون ما تقدم ذكره من النهب والأسر وغيره.

---

(١) الطِّينة: هناك مكانان بمصر يعرف كل منها باسم الطينة، أحدهما شرقي بور سعيد والآخر بمركز جرجا من أعمال صعيد مصر. أما الطينة المقصودة هنا فهي الأولى، وهي من البلاد القديمة المندرسة، وقد نعتها ياقوت في معجمه بأنها بليدة، ولكن المرحوم محمد رمزي أنكر ذلك، إذ تبينّ له بالبحث عنها أنها كانت نقطة عسكرية لحراسة الحدود بها قلعة لهذا الغرض، وتقع على بعد ٣٤ كم شرقي مدينة بور سعيد. (نزهة النفوس: ٣/٨٣، حاشية) وانظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي: ١/٨٠.

ثم ساروا لَيْلَة الأربعاء يريدون الملاّحة، وتركوا في البرِّ أربعمائة من الرَّجّالة يسيرون بالقُرْب منهم إلى أن وَصَلُوا إليها ونهبوها وأسَرُوا وأحْرقوا أيضاً. ثم ركبوا البحر جميعاً وأصبحوا باكر النهار فوافاهم الفرنـج في عشرة أَغْرِبَة وقـرقورة[1] كبيرة، فلم يثبتوا للمسلمين وانهزموا من غير حَرْب، واستمر المسلمون بساحل الملاّحة وقد أرست مراكبهم عليها.

وبينما هم فيما هم فيه كَرَّت أَغْرِبَةُ الفرنـج راجعةً إليهم؛ وكـان قَصْد الفرنـج بعوْدِهم أن يَخرج المسلمون إليهم فيقاتلوهم في وسط البحر. فلما أَرْست المسلمون على ساحل الملاّحة، كَرَّت الفرنـج عليهم فَبَرَزَت إليهم المسلمون وقاتلوهم قِتالاً شديداً إلى أن هَزَمَهُم الله تعالى، وعادُوا بالخِزْي، وباتَ المسلمُون ليلةَ الجمعة خامس عشرين شهر رمضان. فلَمَّا كان بُكْرَة نهار الجمعة أَقْبَل عسكرُ قُبْرُس وعليهم أخو الملك، ومشى على المسلمين، فقاتله مقدارُ نصفِ العسكر الإسلامي أشدّ قتال حتى كسروهم، وانهزَمَ أخو الملك بمَن كان معه من العساكر بعد أن كان المسلمون أَشْرَفُوا على الهَلاَك، ولله الحمد والمنة، وقَتَل المسلمون من الفرنـج مقْتَلَةً عظيمة. ثم أمر الأمير جَرِبَاش بإخراج الخُيُول إلى البرِّ، فأخرجوا الخيولَ من المَرَاكِب إلى البرِّ في ليلة السبت، وتجهَّزُوا للمسيـر ليُغيرُوا على نَواحي قُبرُس من الغد.

فلما كان بُكْرَة يوم السبت المذكور ركبوا وساروا إلى المغَارَات[2] حتى وافوها، فأخَذُوا يقتلون ويأْسِرون ويَحرِقُون وينهبون القرَى حتى ضَاقَت مراكبهم عن حَمْل الأَسْرَى، وامتلأت أيديهم بالغَنَائِم، وأَلْقَى كثيرٌ منهم ما أخـذَه إلى

(١) القرقورة والقرقور، وجمعها قراقير: نوع من السفن الكبيرة التي كانت تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة؛ وهي متعددة الشرع والصواري، ومنها ما كان يحتوي على ثلاثة ظهور، وكانت تحتوي على ساحات قتال في المقدمة أو في المؤخرة. (البحرية في مصر الإسلامية: ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

(٢) لعلّ المراد بها الكهوف التي يتحصّن بها القبارصة. وفي نزهة النفوس ما يفهم أن تلك المغارات هي من منطقة الملاّحة المذكورة أعلاه. وفي نزهة النفوس تفصيلات عن معركة قبرص الثانية هذه أوفى مما أورده أبو المحاسن، والجوهري ينقل عادة عن عقد الجمان للعيني، في حين أن أبا المحاسن ينقل هنا عن المقريزي ببعض تصرّف. انظر نزهة النفوس: ٣/٧٨ ـ ٨٢.

الأرْض. فعند ذلك كَتَبَ الأميرُ جَرِبَاش مقدَّم العساكر المجاهدة كِتَاباً إلى الأمير قَصْرُوَه مِن تِمرَاز نائب طَرَابُلُس بهذا الفتح العظيم والنصر المبين صحبة قَاصِدٍ بَعَثَه الأمير قَصْرُوَه مع المجاهدين ليأتيه بأخبارهم. فعندما وصلَ الخبرُ للأمير قَصْرُوَه كتبَ في الحال إلى السلطان بذلك، وفي طَيِّ كتابه كتابُ الأمير جَرِبَاش المذكور، وهو الكتابُ الذي قُرِئ بالأَشْرَفِيَّة بالقاهرة، ثم بجامع عمرو بن العاص. ثم إن الأمير جَرِبَاش لمَّا رأى أن الأمرَ أخذ حَدَّه، وأن السَّلاَمَة غنيمةٌ، ثم ظهر له بعضُ تخَوُّفِ عسكره ــ فإنّه بلغهم أن صاحب قُبرُس قد جَمَعَ عساكر كثيرة واستعدّ لقتال المسلمين ــ فشاوَرَ من كانَ معه من الأمراء والأَعْيَان، فأجمع رأيُ الجميع على العَوْدِ إلى جهة الدّيار المصريّة مخافةً مِن ضَجَرِ العَسْكَرِ الإسلامي إن طالَ القتالُ بينهم وبين أهل قُبرُس إذا صاروا في مُقَابِله. فعند ذلك أجمَعَ رأيُ الأميرِ جَرِبَاش المذكور أن يعودَ بالعساكر الإسلاميّة على أجمل وَجه، فحلّ القِلَاع بعد أن تهيّأ للسّفر، وسار عائداً حتى أرسى على الطِّينَةِ قريباً من قَطْيَا وثغر دِمْيَاط، ثم توجّهوا إلى الدّيار المصريّة. ولما بلغ الناسَ ذلك، وتَحقَّقَ كلُّ أحدٍ ما حصلَ للمسلمين من النَّصْر والظّفر، عادَ سرُورُهم؛ لأن السلطان كان لما بَلَغَه عَوْدُهم نادَى في الناس: «من أرَادَ الجِهَاد فليحضُر لأَخْذِ النَّفَقَة»، فكثر قَلَقُ الناس لذلك، وظنوا كلَّ ظنٍ حى عَلِمُوا من أَمْرِهم ما حكيناه.

هذا ما كان من أمر الغُزَاة. وأما السلطانُ فإنه أفرجَ في يوم الاثنين ثالث عشر شوّال عن الأمير الكبير بَيْبُغَا المظفَّري من سجن الإسكندرية ونقله إلى ثَغر دِمْيَاط، وأنعم عليه بفَرَس بقُمَاش ذَهَب ليركَبَه بدِمْيَاط إلى حيث يشاء.

ثم أخذ السلطانُ ينتظِرُ الغزاةَ إلى أن قَدِمُوا عليه يوم السبت خامس عشرين شوّال المقدم ذكره، ومعهم ألفٌ وستون أسيراً ممن أَسَرُوا في هذه الغَزْوَة. وباتوا تلك الليلة بساحل بُولَاق، وصعدوا في بُكْرَة يوم الأحد سادس عشرينه إلى القلعة، وبَيْنَ أيديهم الأَسْرَى والغنائم، وهي على مائة وسبعين حَمَّالاً وأربعين بَغْلاً وعشرة جِمَال، ما بين جُوخٍ، وصُوفٍ، وصَنَادِيق، وحديد، وآلات حربيّة، وأوَانٍ، وسار الجميع من شارع القاهرة، وقد جلس الناسُ بالحوانيت والبيوت

والأسطحة والشوارع بحيث إن الشخص كان لا يكاد أن يُمرّ إلى طريقه إلا بعد مشقّة كبيرة، وربما لا يستطيع السير ويرجع إلى حيث أتى. وبالجُمْلَة فإنه كان يوماً مشهوداً لم يُعْهَد مثلُه في الدَّولة التركيّة. ولما طلع ذلك كلُّه إلى القلعة وعُرِضَ على السلطان رسمَ السلطانُ ببَيْـع الأَسْرَى وتقويم الأصناف، فقـوِّمَت الأصناف.

ثم آبْتُدِىء بالبيـع في يوم الاثنين سابـع عشرين شوّال بالحَرَّاقة من باب السّلسلة بِحَضْرَةِ الأمير جَقْمَق العلائي أمير آخور الكبير، وتولّى البيـعَ عن السلطان الأميرُ إينَال الشُّشْمَاني الناصريّ أحد أُمراء العشرات ورأس نوبة، فاشتراهُم النَّاس على اختلاف طبقاتهم من أمير وجندي وقاضٍ وفقيهٍ، وتاجرٍ وعاميٍّ. ورسم السلطانُ أن لا يُفَرَّق بين الآباء وأولادهم، ولا بين قريب وقريبه، فكانوا يشترونهم جَمِيعاً، والذي كان وحدَه أُبِيعَ وحدَه. واستمرّ البيـعُ فيهم أيّاماً، وجُمِـعَ ما تحصَّلَ من أثمانهم فأَنْفَقَ السلطانَ مِن ذلك على المجاهدين، فأَعْطَى لطائفة سَبْعَة دنانير ونصفاً، ولطائفة ثلاثة دنانير ونصفاً، وانقضى أمرُ المجاهدين في هذه السنة(١).

قال المقريزي: في يومِ الجمعة سابـع ذي الحِجّة آتَّفَقَت حادثةٌ شنيعة، وهي أن الخُبْزَ قَلّ وجودُه في الأَسْوَاق، فعندما خـرَجَ بدرُ الـدين محمود العيني(٢) مُحْتَسِب القاهرة من دَارِه سائراً إلى القَلْعَة صاحَت عليه العامة واستغاثوا بالأمراء وشكوا إليهم المُحْتَسِب، فعَرَّج عن الشارع وطلَـعَ إلى القلعة وهو خائِفٌ من رَجْمِ العَامَّة له، وشكاهم إلى السلطان، وكان يَخْتَصّ به ويقرأُ له في اللَّيـل تواريـخ الملوك ويُتَرْجِمُهَا له بالتُّركِيّة، فحنق السلطانُ وبعث طائفةً من الأمراء إلى باب زُوَيْلَة، فأخذوا أفْوَاه السِّكَك ليقبضوا على الناس، فَرَجَمَ بعضُ العبيد بعضَ الأمراء بحجرٍ أصابه فقُبِضَ عليه وضُرِب، ثم قُبِضَ على جماعة كبيرة من الناس وأُحْضِرُوا بين يَدي السلطان، فرَسَمَ بتوسيطهم، ثم أسلمهم إلى الوَالِي فضَرَبهم

(١) ذكر الخطيب الجوهري أن متحصل ما جمع من بيع الأسرى «بلغ ثمانية عشر ألف دينار وثماني مائة دينار، ثم باعوا حديداً خاصة بخمسمائة دينار، ثم بقية الغنائم من الجوخ والصوف وأنواع القماش بما يزيد على ألفي دينار». انظر نزهة النفوس: ٣/٨٤.

(٢) في السلوك: «العينتابي» وكلاهما صحيح. وهو المؤرخ الشهير صاحب «عقد الجمان». توفي سنة ٨٥٥هـ.

وقَطَعَ آنافَهم وآذانهم وسجنهم ليلة السبت. ثمّ عُرِضُوا من الغد على السلطان فأفْرجَ عنهم، وعِدَّتُهم اثنان وعشرون رجلاً من المَسْتُورِين ما بين شريف وتاجر، فتنكَّرَت القلوبُ من أجل ذلك، وانطلقت الألسنة بالدعاء وغيره. انتهى كلام المقريزي برمته.

وهو كما قالَ، غير أنه سَكَتَ عن رَجْم العَامّة للعينتَابيّ المذكور يُرِيدُ بذلك تَقْوِيَة الشناعة على العيني لِبُغْضٍ كَانَ بَيْنَهُما قديماً وحديثاً.

ثمّ قدِمَ كتابُ الأمير تَغْرِي بَرْدي المَحْمُودِيّ رأس نوبة النُّوَب وأمير حاجّ المحمل من مَكّةَ في يوم الجمعة حادي عشرين ذي الحجة، يتضمَّن أنه لما نزل عَقَبَة أَيْلة بعثَ قاصِداً إلى الشَّريف حسن بن عَجْلَان أمير مَكّة يُرَغِّبُه في الطاعة ويُحَذِّرُه عاقبة المخالفة، فقَدِمَ عليه ابنُه بَرَكَات بن حسن بن عَجْلَان وقد نزل بطن مَرّ(١) في ثامن عشرين ذي القعدة، فَسُرّ بقدومه ودَخَلَ معه مَكّة في أوّل ذي الحجة، وحَلَفَ له بَيْنَ الحَجَر الأسود والمُلْتَزِم(٢) أن أباه لا يناله مَكْرُوهٌ من قِبَله ولا من قِبَل السلْطان، فعادَ إلى أبيه وقدم به مكّة في يوم الاثنين ثالث ذي الحجة، وأنه حلَفَ له ثانياً وأَلْبَسه التَّشْريف السُّلطاني وقَرَّرَه في إمْرَة مكَّة على عادته، وأنه عَزَم على حضُورِهِ إلى السلطان صُحْبَة الرَّكْب واستخلاف ولده بَرَكَات على مَكَّة. انتهى.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين المحرم سنة تسع وعشرين وثمانمائة خَلَعَ السلطانُ على الأمير إينال الشِّشْمَاني أحد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره في حِسْبَة القاهرة عِوَضاً عن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي.

ثم في رابع عشرين المحرم قدم الأميرُ تَغْرِي بَرْدِي المحمودي رأس نوبة النوب وأمير حاج المحمل بالمحمل، وقَدِمَ معه الأمير الشريف حسن بن عَجْلان، فأكرَمَه السلطانُ وأنزله بمكانٍ يَلِيقُ به. ثم خَلَع عليه في يوم سابع عشرينه

(١) بطن مرّ: من نواحي مكة، عنده يجتمع واديا النخلتين فيصبحان وادياً واحداً. (معجم البلدان).

(٢) الملتزم: ما بين الحجر الأسود والباب. سمّي بذلك لالتزامه الدعاء والتعوّذ. ويقال له المدعى والمتعوّذ. (معجم البلدان).

باستقراره في إمرة مكّة على عادته، بعد أن ٱلْتَزَم بحمل ثلاثين ألف دينار، وأرسل قاصده إلى مَكّة ليُحْضِر المبلغَ المذكور، وأقام هو بالقاهرة رَهِينَةً. وقدمَ أيضاً مع الحاج الأميرُ قَرْقَماش الشَّعباني الناصريّ أحد مقدّمي الألوف، بعد أن أقَام بمكة نحوَ السنتين شريكاً لأمير مَكّة في هذه المُدّة، ومَهّدَ أمورها وأقْمَعَ عبيدَ مَكّة ومُفْسِدِيها وأبَادَهم.

ثم في يوم الأربعاء نصف صفر جمعَ السلطانُ الأمراءَ والقضاة كثيراً من أكابر التجار وتحدّث معهم في إبطال المُعَامَلَة بالذّهب المُشَخّص الذي يقال له الإفْرنْتي، وهو من ضرب الفرنج، وعليه شِعَارُ كُفْرِهم الذي لا تُجِيزُه الشريعة المحمّدية، وأن يَضْرِبَ عوضَه ذهباً عليه السّكّة الإسلامية، فَصَوَّبَ من حضر رأيَ السلطان في إبطاله. وهذا الإفْرنتي المذكور قد كَثُرت المعاملةُ به في زَمَانِنا من حُدودِ سنة ثمانمائة في أكثر مَدَائن الدُّنْيا مثل: القاهرة ومصر، والبلاد الشّامِيّة، وأكثر بلاد الرُّومِ، وبلاد الشرق، والحجاز، واليمن، حتى صار هو النقد الرَّائج والمطلوب في المُعاملات. وانفضَّ المجلسُ على ذلك، وقد كثر ثناء الناس على السلطان بسبب إبطال ذلك.

ولما كان الغد طلبَ السلطانُ صُنَّاعَ دارِ الضَّرْب وشرعَ في ضرْب الذّهب الأشْرفي، وتطلّب من كان عنده من الذهب الإفْرَنْتِي.

ثم في سادس عشرينه نُودِيَ بالقاهرة بإبطال المُعَامَلة بالذهب الإفْرَنْتي، وأنْ يَتَعَامَل الناسُ بالدّنانير الأشْرَفِيَّة زِنَة الدِّينَار مِنْها زِنَة الإفْرنْتي، ثم أَلْزَم السلطانُ الناسَ بحمل ما عندهم من الإفْرنْتِيّة إلى دار الضّرْب.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الأول قدم الأمير قَصْرُوه من تِمرَاز نائب طَرَابُلُس، وطلع إلى القلعة وقبَّل الأرض، وخلعَ السلطانُ عليه خِلْعَة الاسْتِمرار بولايته على عادته. ثمّ في يوم السبت قدَّمَ هديَّته إلى السلطان، وكانت تشتمل على شيء كثير.

وفي يوم الخميس المذكور وصل إلى القاهرة الأميرُ يَرْبُغَا التَّنمِيّ أحد أمراء

العشرات عائداً من بلاد اليَمن بغير طائل. وسببه أن السلطان كان أَطْمَعَه بعضُ الناس في أخذ اليمن وهوّن عليه أمْرها ــ وهو كما قيل ــ غير أن الملك الأشرف لم يَلْتَفِت إلى ذلك بالكلية تَكْذِيباً للقائل له، فأرْسل الأميرَ يَرْبُغَا هذا بهـديَّة لصاحب اليمن وصحبته السَّيْفي أَلْطُنْبُغَا فرنـج الدَّمُرْدَاشيّ والي دِمْيَاط ــ كان ــ ومعهما أيضاً خمسون مَمْلوكاً من المماليك السلطانية، فساروا إلى جدّة، ثم ركبوا منها البَحْر وتوَجَّهوا إلى جهة اليمن، إلى أن وصلوا حَلْي بني يَعْقُوب(١)، فسار منه يرْبُغَا التَّنمي ومعه من المماليك خمسة نفر لا غير، ومعه الهدية والكتاب لصاحب اليمن، وهو يتضمن طَلَب مالٍ للإعانة على الجِهَاد. وأقام أَلْطُنْبُغَا فِرنْـج ببقية المماليك في المراكب، فأكرم صاحبُ اليمن يرْبُغَا المذكور وأخذ تجهيز هدية عَظيمة. وبينما هو في ذلك قدِمَ عليه الخبرُ بأن أَلْطُنْبُغَا فرنـج نَهَبَ بعضَ الضِّياع وقتل أربعة رِجَال، فأنكرَ صاحبُ اليَمن أمرَهم وتَنَبَّه لهم، وقال للأمير يرْبُغَا: «ما هذا خبرُ خيْر؛ فإن العادة لا يَحْضر إلينا في الرّسالة إلا واحد، وأنتم حَضَرْتُم في خمسين رجلاً، ولم يحضر إليَّ منكم إلا أَنْتَ في خمسة نفرٍ، وتأخر باقيكم وقَتَلوا من رجالي أربعةً» ثم طرده عنه من غيْرِ أن يُجَهِّز هَدِيةً ولا وَصَلَهُ بشيء، ولولا خشية العاقبة لقتله، فنجا يرْبغَا بمن معه بأنفسهم، وعادوا إلى مكة، وقدِمَ يرْبغَا إلى القاهرة مُخِفّاً. فلما بلـغ السلطان ذلك أراد أن يُجَهِّز إلى اليمن عسكراً فمنعه من ذلك شُغْلُه بغَزْو الفِرنْـج.

ثم في يوم السبت أوّل شهر ربيـع الآخر خَلَـع السلطان على الأمير قصروه خلعة السفر، وخرج من يومه إلى مَحَلِّ كفالته بطرابلس.

ثم في يوم السبت ثامنه خلـعَ السلطان على الأمير يشبك السَّاقي الأعرج واستقرَّ أمير سلاح عوضاً عن إينال النوروزي بحكم موته.

ثم في خامس عشرين شهر ربيـع الآخر المذكور استقرَّ العلامة كمال الدين محمد ابن همام الدين محمد السِّيواسي الأصل الحنفي في مشيخة التصوف

(١) حَلْيُ بني يعقوب: مدينة بأطراف اليمن على ساحل البحر من جهة الحجاز. (معجم البلدان).

بالمدرسة الأشرفية وتدريسها عِوَضاً عن العلامة علاء الدين علي الرومي بحكم رغبته وعوده إلى بلاده.

ثم في يوم الخميس سابع عشرينه خلع السلطان على القاضي بدر الدين محمود العينتابي باستقراره قاضيَ قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضاً عن زين الدين عبد الرحمن التفهني، واستقر التفهني المذكور في مشيخة صوفية خانقاه شيخون بعد موت شيخ الإسلام سراج الدين عمر قارىء الهداية.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر المذكور نزل من القلعة جماعة كبيرة من الأمراء والمماليك وهم متقلدون بسيوفهم حتى طرَقوا الجودرية إحدى حارات القاهرة، فأحاطوا بها مع جميع جهاتها، وكبسوا على دُورها وفتشوها تفتيشاً عظيماً، وقد وشى بعضُ الناس إلى السلطان بأن جاني بك الصوفي في دار بها، فلم يقعوا له على خبر. وقبضوا على القاضي فخر الدين ماجد بن المزوق الذي كان ولي كتابة السر ونظر الجيش في دولة الملك الناصر فرج وأحضروه بين يدي السلطان، فسأله عن الأمير جاني بَك الصوفي، وحلف له إن دلَّه على مكانه لا يمسه بسوء. فحلف فخر الدين المذكور أنه لا يعرف مكانه ولا وقع بصره عليه من يوم أمسك وحبس، فلم يحمله السلطان على الصدق لمصاهرةٍ كانت بينه وبين جاني بك الصوفي وصحبة قديمة، وأمر به فضرب بين يديه بالمقارع، وأمر بنفيه. ثم نودي من الغد أن لا يسكن أحدٌ بالجودرية، لما ثبت عند السلطان أن جاني بك الصوفي مختف بها. والظاهر أن الذي كان ثَبَت عند الأشْرَف أن جَانِي بَك الصُّوفي كان مُخْتَفِياً بها كان على حقيقته، فيما بَلَغَنا بعد مَوْت المِلِك الأشْرَف، غير أن السَّتَّارَ سَتَرَه وحَمَاه، فلم يَعْثُروا عليه، حتى قِيلَ إنه كان بالدَّار المَهْجُوم عليها، ولم يَنْهَضْ للهُرُوب، فَٱلْتَفَّ بحصيرَةٍ بها، وكلُّ مَن دخلَ الدَّار رأى الحَصيرةَ المذكورة فَلَمْ يَجُسَّها أحدٌ بيده؛ لتعْلَم أن الله على كل شيء قدير.

ولما نُودِي أن لا يسكن أحدٌ بالجُودَرِيّة، انتقلَ منها جماعةٌ كبيرةٌ واستمرت خاليةً زَمَاناً طويلاً، هذا والسلطانُ في كلِّ قليل يَقْبِضُ على جماعةٍ من المماليك

السلطانية ويعاقبهم لِيُقِرُّوا على جاني بَك الصُّوفي، فلم يَقَعْ له عبر خبر. كلُّ ذلك والسلطانُ في شُغْل بتجهيز المجاهدين لِغَزْوِ قُبْرُس.

وورَدَ عليه ـ في يوم السَّبت سابع عشرين جُمَادى الأولى ـ رسولُ صاحب إسْتَانْبُول، وهي القُسْطَنطِينيَّة، بهديَّة وشَفَع في أهْلِ قبرُس أن لا يُغْزَوْا، فلم يلتَفِت السلطانُ إلى شَفاعته، وأخذ فيما هو فيه من تَجْهيز العساكر.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر جُمادى الآخرة من سنة تسعٍ وعشرين المذكورة قَدِمَ من عساكر البلاد الشَّاميَّة عدةٌ كبيرةٌ من الأمراء والمماليك والعشير وطائفةٌ كبيرة من المطَّوِّعة ليسيروا إلى الجهاد، فأُنْزِلُوا بالمَيْدان الكبير.

وفيه خَلَع السلطانُ على قاضي القضاة عزّ الدين عبد العزيز بن علي بن العزّ قاضي قضاة الحَنابلَة بدمشق زمن المؤيّد شيخ باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بديار مصر، عوضاً عن قاضي القضاة مُحبّ الدين أحمد بن نصر الله البَغْدادي بحكم صَرْفه عنها. وكان عزل قاضي القضاة مُحِبّ الدين لِسُوء سيرة أخيه وابنه.

ثم في ثالث عشرين جمادى الآخرة جلسَ السلطانُ بالحُوشِ مِن قلعة الجبل لعَرْضِ المجاهدين، وأنفَقَ فيهم مالاً كبيراً، فكانَ يوماً من أجلِّ الأيّام وأحسنها، لِمَا وقع فيه من بَذْلِ السطان الأموالَ على من تَعَيَّن للجهاد، وعلى عَدمِ ٱلْتِفَات المجاهدينِ لأخذ المال، بل كان الشخصُ إذا وقَفَ في مَجْلِس السلطان ينظر رؤوس النُّوَب تَتهارَبُ من المماليك السلطانية الذين يُرِيدُون أخذَ الدّستور(١) من السّلطان للتوجّه إلى الجهاد، والسلطان يأمرهم بعدَمِ السَّفر، ويعتذِر أنه لم تَبْقَ مراكبُ تحملهم، وهم يتساعون في ذلك مَرَّة بعد أُخرى، وربما تكرَّر وقُوفُ بعضهم الأربعَ مرّات والخمسة، وأيضاً من عِظَم ازْدِحَام الناس على كُتَّابِ المماليك ليكتُبُوهم في جُمْلة المجاهدين في المراكب المُعَيَّنة، حتى إنه سَافَر في هذه الغَزْوَة عدّة من أعيان الفُقَهَاء. ولمّا أن صار السلطان لا يُنْعِمُ لأحد بالتَّوَجُّه، بعد أن اسْتَكْفَت العساكرُ، سافرَ جماعةٌ من غير دُسْتُور؛ وأَعْجَبُ من هذا

(١) الدستور: الإذن والتصريح.

أنه كان الرّجل ينظر في وَجْه المُسَافِر للجهاد يعرفه قبلَ أن يسأله، لِمَا بِوَجْهِهِ من السُّرُور والبِشْر الظاهر بفَرَحِهِ للسَّفر، وبعكس ذلك فيمن لم يُعَيَّن للجهاد، هذا مع كثرة من تعيَّن للسفر من المماليك السلطانية وغيرهم. وما أرَى هذا إلا أنَّ الله تعالى قد شَرَحَ صُدُورَهم للجهاد وحببهم في الغَزْوِ وقتالِ العدوّ، ليقضي اللَّهُ أمراً كان مَفْعُولاً، ولم أنظر ذلك في غَزْوَة من الغَزَوَات قَبْلَها ولا بعدها. انتهى.

ثمَّ في يوم الخميس أوّل شهر رجب أُدِيرَ المحملُ[١] بالقاهرة ومصر على العادة في كل سنة، وعُجِّلَ عن وقته لسفر المجاهدين للغُزَاة.

ثم في يوم الجمعة ثاني شهر رجب من سنة تسع وعشرين المذكورة خرجت المجاهدون[٢] من القاهرة، وسافروا من ساحل بُولَاق إلى جهة الإسكندرية ودِمْيَاط، ومقدّمو العساكر جماعةٌ كبيرةٌ من أمراء الألوف وأمراء الطبلخانات وأمراء العشرات وأعيان الخاصِّكِيَّة، وجماعة كبيرةٌ من أعيان أمراء دِمَشْق وغيرها؛ فالذي كان من مقدّمي الألوف: الأمير إينَال الجَكَميّ أمير مجلس، وهو مقدّم العساكر في المَرَاكِب بالبَحْر، ومعه الأمير قَرَامُرَاد خجَا الشَّعباني أمير جَانْدَار وأحد مقدّمي الألوف، وعدة من الأمراء والمماليك السّلطانية وغيرهم، والذي كان مقدّم العساكر في البَرِّ الأمير تَغْرِي بَرْدِي المَحْمُودِيّ الناصريّ رأس نَوْبَة النُّوَب، ومعه الأمير حسين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمُش نائب القَلْعَة ــ كان ــ وهو يوم ذاك أحد مقدّمي الألوف، فهؤلاء الأربعة من أمراء الألوف. والذي كان من أمراء الطبلخانات الأميرُ قَانْصُوَه النَّوْرُوزِيّ، والأمير يَشْبُك السُّودُونيّ المُشِدّ الذي صار أتَابَك في دَوْلَة الملك الظاهر جَقْمَق، والأمير إينَال العَلَائيّ ثالث رَأْس نوبة، أعني عن السلطان الملك الأشرف إينَال سُلْطَان زَمَانِنَا، وأمير آخر لا يحضرني الآن اسمُه. والذي توجّه من أمراء العشرات فعِدَّةٌ كبيرة. والذي كان من أمراء دِمَشْق: الأمير طُوغَان السَّيْفي[٣] تَغْرِي بَرْدِي أحد مقدّمي الألوف بدِمَشْق، وهو دَوادَار

(١) ابتدأت عادة الطواف بالمحمل وبكسوة الكعبة في القاهرة في سنة ٦٧٥هـ في أيام الظاهر بيبرس البندقداري (خطط علي مبارك: ١/٨٦).

(٢) وهذه هي الغزوة الثالثة لجزيرة قبرص في أيام الأشرف برسباي، وهي أكبر الغزوات.

(٣) في نزهة النفوس: «طوغان من غازي» ولم يذكره المقريزي في السلوك.

الوَالد رحمه الله ومملوكه، وجماعة كبيرةٌ أُخر دُونَه في الرُّتْبَةِ من أمراء دِمَشْق(١). وخَرَجت الأمراءُ في هذا اليوم، وتبعهم المجاهدُون في السّفر في النيل أرْسَالاً حتى كان آخرهم سفراً في يوم السبت حادي عشر شهر رجب المذكور.

وكان ليوم خروج المُجَاهدين بساحِلِ بُولَاق نهارٌ يَجِلُّ عن الوصف، تجمَّعَ الناسُ فيه للفُرْجَة على المسافرين من الأقطار والبلاد والنَّواحي، حتى صار ساحِلُ بُولَاق لا يستطيع الرَّجُل أن يَمُرَّ فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة. وعدّى الناس إلى البَرِّ الغَرْبِيّ بِبَرّ مُنْبَابَة وبُولَاق التَّكْرور، ونصبوا بها الخِيَم والأَخْصَاص. هذا وقد انتشر البحرُ بالمرَاكب التي فيها المتنزِّهُون، وأمّا بيوت بُولاق فلم يقْدِر على بيت منها إلا مَن يكون له جاه عريضٌ أو مال كبير، وتَقَضَّى للناس بها أيامُ سرور وفرح وابتهالٍ إلى الله تعالى بنصر المسلمين وعودهم بالسلامة والغنيمة.

وسار الجميع إلى ثغر دِمْيَاط، وثغر الإسكندرية، وتهيّأوا لسفر، والسلطان مُتَشَوِّف لما يَرِدُ عليه من أخبار سَفَرِهم.

وبينما هم في ذلك وردَ عليه الخبرُ في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب المذكور بأن الغُزَاة مرّوا في طريقهم إلى رشيد، وأقلعوا من هناك يوم رابع عشرينه، وساروا إلى أن كان يوم الاثنين انكسر منهم نحو أربعة مراكب غرق فيها نحو العشرة أنفس، وكانوا بالقُرْب من ساحل الإسلام بِثُغُور أعمال مصر. ولما بلغ السلطان ذلك انزعج غاية الانزعاج حتى إنه كاد يَهْلك، وبكى بكاءً كثيراً، وصار في قلق عظيم، بحيث إن القلعة ضاقت عليه، وعزم على عَدَم سفر الغُزَاة المذكورين. ثم قَوِيَ عنده أنه يُرْسل الأميرَ جَرباش الكَريميّ قاشق حاجب الحجّاب لكشف خبرهم ولعمل مصالحهم وللمشورة مع الأمراء في أمر السفر. وخرَجَ الأمير جَرِباش المذكور مسافراً إليهم وترك السلطانَ في أمرٍ مَريج، وكذلك

(١) ذكر الجوهري أن الذين خرجوا في هذه الغزوة بلغ عددهم واحداً وعشرين أميراً وأربعة مقدّمين واثنين طبلخانات وخمسة عشرات في ألف من المماليك السلطانية. (نزهه النفوس: ٨٥/٣) والظاهر أن هذا كان خارجاً عن المطوِّعة.

جميعَ الناس، إلا أنا تَبَاشَرْتُ بالنّصْر من يومئذ، وقلت: ما بعد الكسر إلا الجَبر(١)، وكذا وقع فيما يأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى. وسار الأمير جَرِباش إلى العسكر فوجَدَ الذي حصل بالمراكب المذكورة تَرْمِيمه سهلٌ، وقد شَرَعَت الصنَّاعُ في إصلاحه، فتَشَاوَرَ مع الأمراء فأجمع الجميعُ على السَّفر، فعند ذلك جمَعَ الأميرُ جَرِبَاش الصُّنَّاع وأصلحَ جميعَ ما كان بالمراكب من الخلل إلى أن تَمَّ أمرُهم، فركبوا وساروا على بركة الله وعونه، وعاد الأمير جَرِباش وأخبرَ السلطانَ بذلك فسكنَ ما كان به.

وكان قَبْل قدوم جَرِباش أو بعد قدومه في يوم الثلاثاء خامس شعبان وردَ الخبرُ على السلطان بأن طائفةً من غزاة المسلمين من العسكر السلطاني لمّا ساروا من رشيد إلى الإسكندرية صَدَفوا في مَسِيرهم أربعَ قطع من مراكب الفرنج وهي قاصدة ثغر الإسكندرية، فكتب المسلمون لمن في رشيد من بقيّة الغُزَاة بسرعة إلحاقهم ليكونوا يداً واحدة على قتال الفِرنج المذكورين. وتقاربوا من مراكب الفِرنج وتَرَامَوْا معهم يومَهم كلَّه بالنُّشَّاب إلى الليل، وباتوا يتمارسون إلى الصباح، فاقتتلوا أيضاً باكر النهار، وبينما هم في القتال وصل بقيّة الغُزَاة من رشيد، فلما رآهم الفرنجُ وَلُّوا الأدبار، بعدما استُشْهِد من المسلمين عشر نفر. وساروا حتى آجتمعوا بمن تقدَّمهم من الغُزَاة من ثغر الإسكندرية، وسافرَ الجميعُ معاً يُرِيدُون قبْرُس في يوم الأربعاء العشرين من شعبان، إلى أن وصلوا إلى قلعة اللِّمَسُون في أُخريات شعبان المقدم ذكره، فبلغهم أن صاحب جَزيرة قبرس قد آستعدَّ لقتالهم، وجمع جمُوعاً كثيرة، وأنه أقام بمدينة الأَفْقُسِيّة(٢) ــ وهي مدينة قبرس ــ وعزم عَلى لقاء المسلمين، فأرسلوا بهذا الخبر إلى السلطان، ثم انقطعت أخبارُهم عن السلطان إلى ما يأتي ذكره.

---

(١) في إنباء الغمر لابن حجر: «فتطيرٌ جماعة من الأمراء، وثبت السلطان ولم يتطيرّ، وقال له كاتب السرّ وهو يومئذ بدر الدين بن هرمز: يا مولانا السلطان، إن ما كان أوله كسر يكون في آخره جبر».

(٢) هي مدينة نيقوسيا عاصمة جزيرة قبرص. ولفظ الأفقسية هو تعريب لاسمها اليوناني: Lefkosia أو التركي: Lefkosa.

وفي يوم السبت رابع عشر شهر رمضان خَلَع السلطان على الأمير يَشْبُك السَّاقي الأعرج أمير سلاح باستقراره أَتَابَك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأمير قُجَق العِيساويّ بحكم وفاته، وأنعم بإقطاع يَشْبُك الأعرج المذكور عَلَى الأمير قَرْقُماس الشّعباني الناصريّ القادم من مَكّة قبل تاريخه، وأنعم بإقطاع قَرْقَماس المذكور عَلَى الأمير بُرْدْبَك السيفي يَشْبُك بن أَزْدَمُر الأمير آخور الثاني، وصار من جملة مقدّمي الألوف، وأنعم بإقطاع بُرْدْبَك على الأمير يَشْبُك أخي السلطان الملك الأشرف بَرْسْبَاي القادم قبل تاريخه بمدَّةٍ يسيرة من بلاد الجاركس، والإقطاع إِمْرَة طبلخاناه، وخلع على سُودُون ميق رأس نَوْبة باستقراره أمير آخور ثانياً عوضاً عن بُرْدْبَك المقدّم ذكره.

ذكر غزوة قبرس على حدتها

ولما كان يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رمضان وردَ الخبرُ على السلطان بأخذ مدينة قُبْرُس وأسْر ملكها جَيْنُوس(١) بن جاك، فدقَّت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثةَ أيام. وكان من خبر ذلك أن الغزاة لما ساروا من الثّغور المذكورة إلى جهة قُبْرُس وصلوا إلى مدينة اللِّمَسُون مجتمعين ومُتَفرِّقين، فبلغهم من أهل اللِّمَسُون أن متملك قُبْرُس جاءهُ نجدةٌ كبيرة من ملوك الفِرنج، وأنه آستعدّ لقتالهم كما تقدّم ذكره. ولما وصلوا إلى اللِّمَسُون نازَلُوا قلعتها وقاتلوا من بها حتى أخذوها عَنْوَةً في يوم الأربعاء سادس عشرين شعبان، ونهبوها وسبوا أهلها، وقتلوا جماعةً كبيرة ممن كان بها من الفِرنج، ثم هدموها عن آخرها. وساروا منها في يوم الأحد أوّل شهر رمضان من سنة تسع وعشرين المقدم ذكرها، بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام، وساروا فرْقَتَيْن: فرقة في البَرّ وعليهم الأمير تَغْرِي بَرْدِي المحموديّ والأمير حُسَين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمُش أحد مقدّمي الألوف ومَن انْضَاف إليهم من أمراء الطبلخانات والعشرات والعساكر المصرية والشاميّة من الخَيّالة والرَّجّالة، وفرقة في البحر ومقدّمُهم الأمير إينال الجَكَميّ أمير مجلس، والأمير قَرَامُراد خَجَا الشّعْبانيّ أحد مقدّمي الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية والشاميّة. وكان سببُ مسير هؤلاء في البحر مخافة أن يطْرُق الفرنج المراكبَ من البحر ويأخذوها ويصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم، وكان ذلك من أكبر المصالح. ثم سار الذين في البرّ متفرقين حتى صاروا بين

(١) المراد يانوس (جانوس) Janus.

اللَّمَسون والملَّاحة، وهم من غير تعبئة لقتال بل على صفَة السُّفـار، غير أنَّ على بعضهم السلاحَ، وأكثرهم بلا سلاح لِشِدَّة الحَر، وصار كلٌّ واحد من القوم يطْلُبُ قُدَّاماً من غير أن يتربَّص أحدهم لآخر، وفي ظنهم أن صاحب قُبرس لا يَلْقاهُم إلا خارج قُبْرُس. وتأخَّر الأمراءُ ساقَةَ العسكر، كما هي عـادة مقدّمي العساكر، والناس تَجِدُّ في السَّير إلى أن يقاربوا قُبْرُس ثم يقفوا هناك يُريحُون خيلهم إلى أن تكتمل العساكرُ وتتهيّأ الأطلابُ للقتال ثم يسيرون جملةً واحدة بعد التعبئة والمصافقة.

وبينما هم في السير إذا هم بمتملك قُبْرُس بجيوشه وعساكره ومن انضاف إليه من ملوك الفِرِنْج وغيرها وقد ملأت الفضاء؛ وكان الذين وافاهم صاحب قُبْرُس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جداً وأكثـرهم خيَّالـة من أعيان المماليك السلطانية. فعندما وقـع العينُ على العين، لم يتمالك المسلمون أن يَصْبرُوا لمن خلفهم حتى يصيروا جملةً واحدة، بل انتهزوا الفرْصَـة وتعرّضـوا للشهادة، وقال بعضهم لبعض: هذه الغنيمة. ثم حرّكوا خيولَهم وقصدوا القومَ بقلب صادق ــ وقد آحتسبوا نفوسهم في سبيل الله ــ وحملوا على الفِرِنْج حملةً عظيمة، وصاحوا: الله أكبر، وقاتلوهم أشدّ قتال، وأردفهم بعضُ جماعة وتخلّف عنهم أُخَر، منهم رجل من أكابر الخاصَّكيَّة أقامَ يستظلّ تحت شجرة كانت هناك. وتقاتل المسلمون مـع الفِرِنْج قتالاً شديداً، قُتِل فيه السَّيفي تَغْرِي بَرْدِي المؤيّدي الخَازِنْدَار، وكان من محاسِنِ الدنيا، لم|تر عيني أكملَ منـه في أبناء جنسـه، والسّيفي قُطْلُوبُغَا المؤيّدي البَهْلَوَان، وكان رَأْساً في الصِّرَاع، ومن مَقُولَةِ تَغْرِي بَرْدِي المقدّم ذكره في الشجاعة والفروسيّة، والسيفي إينَال طَاز البَهْلَوان، والسّيفي نَانَق اليَشْبُكِيّ، وهؤلاء الأربعة من الأعيان والأبطال المعدودة ــ عوَّض اللَّهُ شبابهم الجنة بمنّه وكرمه ــ ثم قُتِلَ من المسلمين جماعة أُخَر، وهم مع قِلّتهم ويَسِير عـددهم في ثبات إلى أن نصـر اللَّهُ الإسـلام، ووقـع على الكفـرة الخـذلان وانكسروا، وأُسِر متملك قُبْرُس مـع كثرة جموعه وعِظَمِ عساكره التي لا تُحْصر، وقلة عسكر المسلمين، حتى إن الذي كان حضر أوائل الوَقْعَةِ أقل من سبعين نفساً قبل أن يصل إليهم الأمير إينَال العلائي الناصري أحد أمراء الطبلخانات ورأس

نوبة ثالث، وهو الملك الأشرف إينَال، والأمير تَغْرِي بَرْمُش، ثم تتابع القومُ طائفةً بعد طائفة؛ كلّ ذلك بعد أن انكسرت الفِرنْج وأُسِر صاحبُ قُبْرُس، وقُتِلَ من قُتِلَ من المسلمين. وَلمّا ترادَفت عساكرُ الإسلام رَكِبُوا أقفية الفِرنْج ووضعوا فيهم السَّيف، وأكثروا من القتل والأسر، وانهزم مَن بقي من الفرنج إلى مدينة قُبْرُس الأفْقُسِيّة. ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان المسلمين قد أَمَدَّ الفرنجَ بهم عَلِي بَك بن قَرَمَان ـ عليه من الله ما يستحقه ـ فقَتَلَ المسلمون كثيراً منهم.

واجتمع عساكر البَرِّ والبحر من المسلمين في الملاّحة يوم الاثنين ثاني شهر رمضان، وتسلم الأميرُ تَغْرِي بَرْدِي المحموديّ صاحب قُبْرُس، كل ذلك والمسلمون يقتلون ويأسرون وينبهون حتى امتلأت أيديهم وتُغُلِّبُوا عن حمل الغنائم.

وأما القتلى من الفِرنْج فلا تُحْصَر ويُسْتَحى من ذكرها كثرة. حدثني بعضُ مماليك الوالد ممن باشر الواقعة من أوّلها إلى آخرها، وجماعة كبيرة من الأصحاب الثقات قالوا: كان موضعَ الوَاقعة أزيَدُ من ألفي قتيل من قتلى الفِرنْج، هذا في الموضع الذي كان فيه القتال، وأما الذي قُتِلَ من الفِرنْج بالضِّياع والأماكن وبطريق قُبْرُس فلا حدّ له ولا حساب؛ فإنه اسْتمرَّ القتل فيهم أيّاماً. واستمروا على الملاّحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان، فساروا منها يريدُون الأفْقُسِيّة مدينة قُبْرُس.

ولما ساروا وافاهم الخبرُ ـ بعد أن تقدّم منهم جماعة كبيرةٌ من المُطَّوِّعة والمماليك السلطانية إلى مدينة قُبْرُس ـ بأن أربعة عشر مركباً من مراكب الفِرنْج مشحونة بالسلاح والمقاتلة أتت المراكب لقتال المسلمين، منها سبعةُ أَغْرِبَة، وسبعة مُرَبَّعَة القِلَاع، فلاقاهم الأميرُ إينَال الجَكَمِيّ أمير مجلس، والأمير قَرَامُرَادْخَجَا الشعباني، والأمير طُوغَان السَّيفي تَغْرِي بَرْدِي أحد مقدّمي دمشق، والأمير جَاني بك رأس نوبة السَّيفي يَلْبُغَا النَّاصري المعروف بالثَّوْر وبمن انْضَاف إليهم من المطوِّعَة وغيرهم ـ وهؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدِّمي العساكر في البحر

بالمراكب ـ واقتتلوا مع الفِرِنْج المذكورين أشدّ قتال حتى هزموهم وأخذوا منهم مركباً مُرَبَّعاً من مراكب الفِرِنْج، بعد أن قَتَلُوا منهم عِدَّةً كبيرة تقارب ما ذكرنا مِمَّن قُتِل بمكان الوَقْعَةِ الأولى، وولت الفرنجُ الأدبار.

واستمرّ الذي توجّه من الغزاة إلى الأَفْقُسِيَّة من المماليك السلطانية وغيرهم يقتلون في طريقهم ويأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة ودخلوا قصرَ الملك ونهبُوه.

ثم عادوا ولم يَحْرِقُوا بمدينة قُبْرُس إلا مواضع يسيرة، ولم يدخل المدينة أحدٌ من أعيان العسكر، وغالب الذي دخلها من المماليك السلطانية والمُطَّوِّعة، وكان دخولهم وإقامتهم بها وعودهم منها في يومين وليلة واحدة.

ثم أقام جميعُ الغزاة بالملَّاحة وأراحوا بها أَبْدَانَهم سبعة أيّام، وهم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح ـ ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، في سنة نيِّف وعشرين من الهجرة.

ثم ركبت الغزاةُ المراكبَ عائدين إلى جهة الدِّيار المصرية، ومعهم الأسرى والغنائم، ومن جملتها متملِّكُ قُبْرُس، في يوم الخميس ثاني عشر رمضان، بعد أن بعثَ أهلُ المَاغُوصَةِ يَطْلُبُون الأمانَ. هذا ما كان من أمرهم. انتهى.

وجزيرة قبرس تسمَّى باللغة الرّومية شبرا(١)، والبحر يحيط بها مائتي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال، والبريد بهذا الفرسخ أربعة فراسخ. وجزيرة قبرس من الإقليم الرّابع من الأقاليم السبعة، وسلطانُها يقالُ له أرادا شبرا(٢): أي سلطان الجزيرة، وقبرس مدينة بالجزيرة تُسَمَّى الأفقسيّة.

---

(١) بالفرنسية: Chypre، وباليونانية: Kyros، وبالتركية: Kipris.

(٢) المراد: Roi de Chypre أي ملك قبرص، وهو جانوس المشار إليه سابقاً. وهو من أسرة لوزينيان التي تسلّمت الجزيرة من ريكاردوس قلب الأسد سنة ١١٩١ م. وفي سنة ١١٩٧ م أسس غي دو لوزينيان في هذه الجزيرة مملكة لاتينية خاضعة للنفوذ الفرنسي ودامت حتى سنة ١٤٧٥ م .(Nouveau Dict. Emcycl. v. 3, p. 580).

ومسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام. وبالجزيرة المذكورة اثنا عشر ألف قرية كباراً وصغاراً، وبمدنها وقراها من الكنائس والدّيارات والقلالي والصوامع كثير. وبها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، وبها الرياحين العطرة كالخزام والياسمين والورد والسُّوْسَن والنرجس والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وغير ذلك. وبمدن الجزيرة المذكورة الأسواق والخانات والحمَّامَات والمباني العظيمة. انتهى.

وأما أمرُ السلطان الملك الأشرف برسباي، فإنه لما بلغه خبرُ أخذِ قبرس في يوم الاثنين ثالث عشرين رمضان حسبما تقدَّم ذكره كاد أن يطير فرحاً. ولقد رأيتُه وهو يَبْكي من شِدَّةِ الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله. ودقَّت البشائر بقلعة الجبل وبسائر مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، وارتجَّت القاهرة وماجت الناس من كثرة السرور الذي هجم عليهم، وقُرِىءَ الكتابُ الواردُ بهذا النصر على الناس بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريِّين بالقاهرة حتى سمعه كلُّ من قَصَد سماعه وحَضَر. وقالت الشعراء في هذا الفتح عِدَّة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التي نَظَمها الشيخ زينُ الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد أعيان موقعي الدَّست بالديار المصرية، وأنشدها بين يَدَي السلطان بحضرَة أَرْبَاب الدولة، والقصيدة ثلاثة وسبعون بَيْتاً، أولها: [الكامل]

بُشراك يا مُلْكَ المليكِ الأشرفي ... بفتوحِ قبرسَ بالحسامِ المشرفي
فتحٌ بشهرِ الصومِ تمَّ له فَيَا ... لَكَ أشرفٌ في أشرفٍ في أشرفِ
فتحٌ تفتحت السمواتُ العلى ... مِنْ أجلِهِ بالنصر واللطفِ الخفي
والله حف جنوده بملائكٍ ... عَادَاتُها التأييد وهو بها حفي

ومنها:

الأشرفُ السلطانُ أشرف مالكٍ ... لولاه أنفس ملكه لم تشرف
هو مكتف بالله أحلم قادرٍ ... راضٍ لآثارِ النبوةِ مقتفي
حَامِي حمى الحرمين بيت الله والـ ... ـقبر الشريف لزائر ومطوف

وكلها على هذا النسق. انتهى.

قلتُ: وكل ذلك والنَّصارى تكذبُ هذا الخبر وتستغربه من أسر متملِّك قُبْرُس وهزيمته على هذا الوجه، لأن أمر هذا النَّصر في غاية من العَجَب من وجوه عديدة:

أولها: قلة مَن قاتل الفرنـج من المسلمين، فإنهم كانوا في غاية من القِلَّة، بحيث إن العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه في هذه المرة.

وثانيهما: أنه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقـع مصاف.

وثالثها: أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسلمين بعد أيّام كثيرة من وجوهٍ عديدة يطول الشرح في ذكرها لا تخفى على من له ذَوْق.

ورابعها: أنه كان يمكن هزيمة الفرنـج ولا يمكن مسكُ الملك وأسره أيضاً من وجوه عديدة.

وخامسها: أن غالب العسكر إذا حصل لهم هزيمة يتحايون ويرجعون غير مرة على من هزمهم، لا سيما كثرة عساكر الفرنـج وقلة من حضر الوقعةَ من عساكر المسلمين في هذه المرَّة، فكان على هذا يمكنهم الكرُّ على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرّة.

وسادسها: أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك وتشتت شمل الفرنـج والاستيلاء على ممالكهم كل ذلك في أقل من نصف يوم؛ فهذا أعجب من العجب.

وما أرى إلا أن الله سبحانه وتعالى أعزّ الإسلامَ وأهلَه، وخذل الكُفْرَ وأهلَه بهذا النصر العظيم الذي لم يُسمـع بمثله في سالف الأعصار، ولا فرح بمثله ملكٌ من ملوك الترك. ولقد صار للملك الأشرف بَرْسْبَاي بهذا الفتـح ميزة على جميـع ملوك التُّرْك إلى يوم القيامة. اللّهم لا مانـع لما أعطيت.

ولما بلـغ الملكَ عَودُ الغُزَاة المذكورين إلى جهة الدِّيار المصريّة، رسَم

فَنُودِيَ بالقاهرة ومصر بالزِّينة، ثم نَدَب السلطانُ جماعة كبيرة من المماليك السلطانية بالتوجّه إلى الثّغور لحفظ مَراكب الغُزَاة بعد خُرُوجهم منها خوفاً من أن يَطْرُقَهم طارقٌ من الفِرنْج مما يأتي صاحبَ قُبْرُس من نَجْدَات الفِرنْج؛ وكان هذا من أكبر المصالح. ثم رسمَ السلطانُ لهم أن يأخذوا جميعَ المراكب من ثَغْر دِمْيَاط ويأتوا بها إلى ثَغْرِ الإسكندرية لتُحْفَظ بها؛ وسبب ذلك أن الغزاة المذكورين كان منهم مَن وصلَ إلى ثغر الإسكندرية، ومنهم من وصل إلى ثغر دِمْيَاط، ومنهم من وصل إلى الطِّينَة، لكثرة المراكب ولاختلاف الأرياح.

وبينما السلطانُ في انتظار المجاهدين قَدِمَ عليه السيِّد الشريف بَرَكات بن حسن بن عَجْلَان أميرُ مكّة منها، وقد استُدْعِي بعد مَوْت أبيه، فأكرمه السلطانُ وخلعَ عليه بإمْرَة مَكّة على أنه يقوم بما تأخّر على أبيه من الذّهب، وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، فإن أباه الشريف حسن بن عَجْلان كان قد حَمَلَ من الثلاثين ألف دينار ـ التي التزم بها قبل موته ـ خمسة آلاف دينار. ثم التزم بركاتُ أيضاً بحمل عشرة آلاف دينار في كلّ سنة، وأنْ لا يتعرض السلطانُ لما يُؤخَذ من بندر جدَّة من عُشُور بضائع التُّجّار الواصلة من الهِنْد وغيره، وأن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور. انتهى.

ولما كان يوم عيد الفطر ابتدأ دخول الغُزَاة إلى ساحل بُولَاق أرْسَالاً كما خرجوا منها. ووافق في هذه الأيام وفاء النيل ستة عشر ذراعاً، فتضاعف مَسَرَّاتُ الناس من كل جهة. واستمرّ دخولهم في كل يوم إلى ساحل بُولَاق إلى أن تكامَل في يوم الأحد سابع شوّال، ونزَلُوا بالميدان الكبير بالقرب من مُورَدَةِ الجِبْس. وأصبحوا من الغد في يوم الاثنين ثامن شوال ـ وهو يوم فطر السلطان؛ فإنّه كان يصوم الستة أيّام من شوّال ـ طلعوا إلى القلعة على كَيْفِيّة ما يُذْكَر، وهم جميعُ الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى، والغنائمُ بين أيديهم، ومتَمَلِّكُ قُبْرُس الملك جَيْنُوس بن جَاك أمامَهم وهو منكّس الأعلام، وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا يعلم عِدَّتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهلُ القرى والبلدان من الأرياف للفرجة. وركبت الأمراءُ من الميدان ومعهم غالبُ الغُزَاة، وساروا من أرض

اللُّوق(١) حتى خرجوا من المَقْس(٢) ودخلوا من باب القنطرة، وشقوا القاهرة إلى باب زُوَيْلَة، وتوجّهُوا من الصَّلِيبَة(٣) من تحت الخانقاه الشيخونية من سويقة منعم(٤) إلى الرُّمَيْلة، والخلق في طول هذه المواضع تزدحم بحيث إن الرجل لا يسمع كلامَ رفيقه من كثرة زغاريد النِّسَاء، التي صُفَّت على حوانيت القاهرة بالشوارع من غير أن يَنْدُبَهم أحدٌ لذلك، والإعلان بالتكبير والتهليل، ومن عظم التهاني. هذا مع تَخْلِيق الزّعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى في الأزقّة. وفي الجملة كان هذا اليوم من الأيام التي لم نرها قبلها ولا سمعنا بمثلها. وساروا على هذه الصّفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرّج(٥)، وهم مع ذلك في ترتيبٍ في مشيهم يُذْهِبُ العقل؛ وهو أنهم قَدّمُوا أوّلاً الفُرْسَان من الغزاة أمام الجميع، ومن خلف الفُرْسان طوائف الرَّجّالة من المُطَّوِّعة وعُشْرَان البلاد الشَّامِيّة وعُرْبَان البلاد وزُعْر القاهرة، ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائمُ محمولةً على رؤوس الحمَّالين، وعلى ظهور الجمال والخيول والبغال والحمير؛ والتي كانت على الرؤوس فيها تاجُ المَلِك وأعلامُه مُنَكَّسة وخيله تُقَاد من وراء الغَنَائِم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفِرِنْج، ثم من بعدهم السَّبْيُ من النساء والصِّغار، وهم أزيد من ألف أسير تقريباً سوى ما ذهب في البلاد والقرى مع المُطَّوِّعة وغيرهم من غير إذن مُقَدّم العساكر، وهو أيضاً يقارب ما ذكر، ومن وراء الأسرى جِيْنُوس ملك قُبْرُس وهو راكب على بغل بقيد حديد، وأُرْكِب معه اثنان من خواصِّه، وعن يمينه الأميرُ إينالُ الجَكَمِيّ أمير مجلس، وأمامه قَرَا مُرَادْ خَجَا الشّعبانيّ أحد مقدّمي الألوف أيضاً، وعن يساره الأمير تَغْرِي بَرْدِي المحموديّ

(١) أرض اللوق: هي الأرض التي طرحها النيل سنة ٢٣٠هـ غربي شارع نوبار باشا.

(٢) المقس: هو الذي عرف قبل الإسلام بقرية أم دنين.

(٣) الصَّليبَة: هي صليبة جامع ابن طولون. وهي خط ينتهي إليه شارع القاهرة الأعظم، وكان على شكل صليب ولذلك سمي بالصليبة.

(٤) سويقة منعم: كانت تقع برأس الصليبة من تحت قلعة القاهرة.

(٥) باب المدرج: أحد أبواب قلعة القاهرة. ويسمى أيضاً باب الدر، وعرف قديماً بباب سارية، وهو فيما بين سور القلعة والجبل.

رأس نوبة النُّوَب، وأمامه الأمير حُسَيْن المدعو تَغْري بَرْمش المحموديّ رأس نوبة النُّوَب، وأمامه الأمير حُسَيْن المدعو تَغْري بَرْمش أحد مقدّمي الألوف أيضاً، وأمامهم أمراءُ الطبلخانات والعَشَرَات على مراتبهم، وأمراء البلاد الشاميّة.

وساروا على هذه الصِّفة حتى طلعوا إلى القلعة، فأُنْزِلَ جَيْنُوس عن البَغل وكُشِفَ رأسُه عند باب المدرَّج، وقد آحتاطه الحجَّابُ وأمراءُ جَانْدَار، وقد صفت العساكرُ الإسلامية من باب المُدَرّج إلى داخل الحوش السلطاني.

فلما دخل جَيْنُوس من باب المدرَّج قَبَّلَ الأرضَ، ثم قام ومَشَى ومعه الأُمراء من الغُزَاة والحجّاب ورؤوس النُّـوَب وهو يَرْسُف في قُيُوده على مَهَـلٍ لكثرة الزِّحام.

هذا وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البَحْرَةِ المقابل لباب الحوش السّلطاني في موكب عـظيم من الأمراء والخـاصّكيّة، وعنـده الشريف بركات بن حسن بن عَجْلان أمير مكة، وهو جالس فوق الأمراء، ورسل خَوَنْد كَار مرَاد بن عثمان متملِّك بلاد الرّوم، ورُسُل صاحب تُـونس من بلاد المغـرب، ورسول الأمير عذرا أمير العَرَب بالبلاد الشّاميّة، وقد طال جلوس الجميـع عند السلطان إلى قـريب الظّهْـر، والسلطان يُرْسِـل إلى الغُزَاة رَسُـولاً بعد رسـولٍ باستعجالهم حتى اجتازُوا بتلك الأماكن المذكورة؛ فإنها مسافة طويلة، وأيضاً لا يقدرون على سُرْعة المشي من كثرة ازدحام الناس بالطرقات. ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب الحوش؛ فلمّا رأى متملك قُبْرُس السلطانَ وهو جالس على المقعد المذكور في موكبه، وأمَرَه مَن معه بتقْبيل الأرض، غُشِيَ عليه وسقَطَ إلى الأرْض. ثم أفاقَ وقبّل الأرضَ، وقام عَلَى قَدَمَيْه عند باب الحُوش تجاه السلطان على بُعْد. وسارت الغنائمُ بين يدي السلطان حتى عُرِضَت عليه بتمامها وكمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك كله، فتقدَّمَت الأمراءُ الغزاةُ وقبّلوا الأرضَ على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينَال الجَكَمِيّ مقدَّم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار مُتَمَلِّك قُبْرُس، فتقدّم ومشى وهو بقُيُودِه، ورأسُه

مكشوفةً؛ وبعد أن مشى خطوات أُمِرَ فقبّل الأرضَ، ثم قام، ثم قبّل الأرضَ ثانياً بعد خطوات، وأخذ يُعَفِّرُ وجهه في التُّرَاب، ثم قام فلم يتمالك نَفْسَه ــ وقد أَذْهَلَه ما رأى من هيبة الملك وعزّ الإسلام ــ فسقط ثانياً مغشياً عليه. ثم أفاق من غشوته وقبّل الأرضَ، وأُوقِفَ ساعةً بالقُرْب من السلطان بحيث إنه يتحقّق شكله. هذا والجاويشيَّة تصيحُ، والشّبابة السلطانية تزعق، والأزان[1] يضرب على آلته، ورؤوس النُّوَب والحجّاب تهول الناس بالعصيّ من كثرة العساكر، والناس بالحوش المذكور، هذا مع ما الناس فيه من التَّهْلِيل والتَّكْبِير بزُقَاقات القلعة، وأطباق المماليك السلطانية وغيرها.

ثم أمر السلطان بجَيْنُوس المذكور أن يتوجّه إلى مكان بالحوش السلطاني، فمروا به في الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطانُ مقدّمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصّكيَّة المقدّم كل واحد منهم على مركب، وكانوا كثيراً جداً؛ لأن عِدَّة مراكب الغُزَاة المصريين والشاميين زادت على مائة قطعة، وقيل مائتان، وقيل أكثر أو أقل ما بين أغْرِبَة، وقَرَاقِير، وزَوَارق وغير ذلك. فأوّل من بدأ بهم السلطانُ وخَلَعَ عليهم أمراء الألوف بمصر والشام، وخلع على كل واحد منهم أطلسين متمَّراً[2]، وقيّد له فرساً بقماش ذهب، وهم الأمير إينال الجَكَمِيّ أمير مجلس، والأمير تَغْرِي بَرْدِي المحموديّ الناصريّ رأس نَوْبَة النُّوَب، والأمير قَرَامُرَادْخَجَا الشَّعْبَانيّ الظاهري بَرْقوق أمير جاندار، والأمير حُسَين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمُش البَهَسْنِيّ التُّرْكَمَانيّ أحد مقدّمي الألوف، والأمير طُوغان السَّيفي تَغْرِي بَرْدِي أحد مقدّمي الألوف بدمشق، ثم أمراء الطبلخانات والعشرات من أمراء مِصر والشام على كل واحد فوقاني كمخا[3] أَحْمر وأَخْضر وبَنَفْسَجِيّ بطرز زركش على قَدْرِ

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) المتمّر: شاش اسكندراني مرقوم بالذهب.

(٣) الفوقاني: نوع من الفرجيات أو الجباب. والكمخا: نسيج به زخارف من نفس لون القماش أو من لون مختلف عنه.

مَراتبهم، وكذلك كل مقدّم مركب من الخاصّكيَّة والأجناد وغيرهم، فكان هذا اليوم يوماً عظيماً جليلاً لم يَقَع مثلُه في سالف الأعصار، أعزَّ الله تعالى فيه دينَ الإسلام وأيّدَه وخذل فيه الكُفر وبدّده.

ثم انفضَّ الموكبُ ونزل كلّ واحد إلى داره. وقد كثرت التهاني بحارات القاهرة وظواهرها لقدوم المجاهدين حتى إن الرَّجل كان لا يجتاز بدَرْبٍ ولا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزَّعْفَران والتهاني. ثم أمر السلطانُ بهدم الزينة فهُدِمَت، وكان لها مدّة طويلة.

ثم أصبح السلطان من الغد وهو يوم الثلاثاء تاسع شوّال جمع التُّجّار لبيع الغنائم من القماش والأواني والأسرى.

ثم أرسل السلطان يطلب من متملك قُبْرُس المالَ، فقال: «مالي إلا رُوحي، وهي بيدكُم، وأنا رجل أسير لا أَمْلِك الدرهم الفرد، من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم؟». وتكرّر الكلامُ معه بسبب ذلك وهو يُجيبُ بمعنى ما أجاب به أوّلاً، حتى طلبه السلطانُ بالحوش ــ وكان به أسارى الفرنج ــ فلما حضر بين يدي السُّلطان وقبَّلَ الأرضَ وأُوقِف، وشاهدَه الأسرى من الفرنج في تلك الحالة صَرَخُوا بأجمعهم صرخة واحدة، وحثوا التراب على رؤوسهم، والسلطانُ ينظرُ إليهم من مجلسه بالمقعد الذي كان جلس به من أَمْسِه. وسببُ صراخ الأسرى وعظيم بكائهم أنه كان فيهم من لا يصدق أنّ ملكهم قد أسر لكثرتهم وتفرقهم في المراكب، والاحتفاظ بهم، وعدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم: إن ملككم مَعنا أسير، يضحك، ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له: بهذه المركب، ويشار إلى مركب الأمير تَغْرِي بَرْدي المحموديّ يهزأ بذلك ويبتسم. فلما عاينوه تحقّقوا أسرَه وهالهم ذلك، وقيل إنَّ بعض سَبْي الفرنج سألت من رجل من المسلمين ــ لما كسروا الصليب الكبير الذي يعرف به جبل الصليب ببلادهم، وكان هذا الصليب معظَّماً عندهم إلى الغاية ــ وقالت: نحن إذا حلف منا رجلٌ أو امرأة على هذا الصَّليب باطلاً أوذي في الوقت، وأنتم قد كسرتموه وأحرقتموه ولم يصبكم بأس، ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم

الشيطانَ فصار يغويكم ويستخفُّ بعقولكم، ونحن قد هدانا الله للإسلام وأنزل علينا القرآن فلا سبيل له علينا، فعندما كسرناه بعد أن ذكرنا اسمَ الله تعالي عليه فَرَّ منه الشيطانُ وذهب إلى لعنة الله، فقالت المرأة: هو ما قلته، وأسلمت هي وجماعةٌ معها. انتهى.

ولما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدي السلطان، وأوقف معه جماعةٌ من قَنَاصلة الفرنج ممن كان بمصر وأعمالها، وتكلم الترجمان معه فيما يفدي به نفسه من المال وإلا يقتله السلطان، صمم هو على مقالته الأولى، فالتزم القناصلة عنه بالمال لفدائه من غير تعيين قدر بعينه. . ، ولكنهم أجابوا السلطانَ بالسمع والطاعة فيما طَلَبه، وعادوا بجينوس إلى مكانه من الحوش والترسيم عليه؛ وكان الذي رسم عليه السّيفي أَركماس المؤيديّ الخاصكي المعروف بأركماس فرعون. وأقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء، فرسم له السلطان ببدلتين من قماشه، وأمر له بعشرين رطل لحم في كل يوم، وستة أطيار دجاج، وخمسمائة درهم فلوساً برسم حوائج الطعام، وفسح له في الاجتماع بمن يختاره من الفرنج وغيرهم، وأدخل إليه جماعةً من حواشيه لخدمته. كلُّ ذلك والسلطانُ مصمم على طلب خمسمائة ألف دينار منه يفدي بها نفسه وإلّا يقتله، والرسل تتردَّد بينهم من التراجمين والقناصلة إلى أن تقرر الصلح بعد أيَّام على أنه يحمل مائتي ألف دينار يقوم منها بمائة ألف دينار عاجلة، وإذا عاد إلى بلاده أرسل بالمائة ألف دينار الأخرى، وضمنه جماعةٌ في ذلك، وأنه يقومُ في كل سنة بعشرين ألف دينار جِزْيَة. واشترطَ جينوس مع السلطان أن يكف عنه طائفة البنادقة وطائفة الكيتلان[1] من الفرنج، فضمن له السلطانُ ذلك، وانعقد الصلح، ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سنذكره في يومه.

هذا ما كان من أمر صاحب قبرس وغزوه. انتهى.

وأما أمور المملكة فإنه لما كان يوم الخميس حادي عشر شوّال المذكور

(١) الكيتلان: نسبة إلى كتالونيا، وهي منطقة في شمالي اسبانيا، عاصمتها التاريخية برشلونة.

سافر الشريف بركات بن حسن من القاهرة إلى مكّة المشرفة أميراً بها مكان والده حسن.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شوّال خلع السلطانُ على الأمير إينال الجكمي أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن الأتابك يشبك الأعرج، وكانت شاغرةً عنه من يوم صار أتابك العساكر لغيبة إينال هذا في الجهاد، وخلعَ على الأمير جرباش الكريمي قاشق حاجب الحجاب باستقراره أمير مجلس عوضاً عن إينال الجمكيّ، وخلع على الأمير قرقماش الشعباني الناصري باستقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية عوضاً عن جرباش المذكور.

ثم في ثامن عشرة خلعَ السلطانُ على الشّريف خَشْرَم بن دوغان بن جعفر الحُسَيْني باستقراره أمير المَدِينَةِ النبويّة عوضاً عن الشريف عَجْلَان بن نعير بن منصور بن جَمّاز، على أنه يقوم بخمسة آلاف دينار. ووقع بسبب ولاية خَشْرَم هذا بالمدينة حادثةٌ قبيحة، وهي أن خَشْرَماً المذكور لما قَدِمَ المدينةَ، وقد رَحَلَ عنها المَعْزُول عنها وهو الشريف عَجْلَان بن نُعير لما بَلَغَه عزلُه، فلم يَلْبَث خَشْرَم بالمدينة غير ليلة واحدة وصبَّحه عَجْلانُ بجموعه ــ وقد حشدَ العرْبَان ــ وقاتل الشريف خشرَماً وحصرَه ثلاثة أيام حتى كسروه، ودخل العربُ المدينة ونهبُوا دُورَها، وشعَّثُوا أسوارها، وأخذوا ما كان للحجّاج الشاميِّين من ودائع وغيرها، وقبضوا على خشرَم المذكور ثم أطلقوه بسبب من الأَسْبَاب، وآستهانوا بحُرْمَةِ المسجد، وارتكبوا عظائم. كل ذلك في أواخر ذي القعدة.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحجة قَدِمَ الأمير جَارْقُطْلو الظاهري برْقُوق نائب حَلَب، فطلع إلى القلعة وقبَّل الأرضَ وخلع السلطانُ عليه خلعة الاستمرار على نيابته، واستمرّ بالقاهرة إلى يوم السبت أول محرم سنة ثلاثين وثمانمائة خلع السلطان عليه خلعة السَّفَر وخرج من يومه إلى محل كفالته.

ثم في يوم الخميس سادس المحرم خلع السلطانُ على الأمير أَزْدَمُر من علي خان الظاهري أحد مقدمي الألوف بديار مصر المعروف بشَايا باستقراره في حُجُوبية حَلَب. قلتُ: درجة إلى أسفل؛ فإنه يستحق ذلك وزيادة، لِمَا كان

يشتمل عليه من المساوِىء والقبائح، لا أعرف في أبناء جنسه أقذر منه؛ كان دَمِيم الخَلْق مذموم الخُلُق، بشع المنظر، كَريه المُعَاشرة، بخيلاً متكبِّراً، ظالماً جبَّاراً، هذا مع الجُبْن والجهل المُفرط وعَدَم التفات الملوك إليه في كل دولة من الدُّوَل، وعُدَّ إخراجُه من مصر من حسنات الملك الأشرف، وأنا أقول: لو كان الرّجل يُرزَقُ على قَدْرِ معرفته، وما يُحْسِنُه من الفضائل والفنون، لكانت رُتْبَة أَزْدَمر هذا أن يكون صبيّاً لبعض أَوْبَاش السُّراباتِيَّة[1]. وقد استوعَبْنا مساوئه في ترجمته في تاريخنا المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. انتهى.

ثم أخذَ السلطانُ في الفحص على جَانِي بَك الصُّوفِيّ على عادته.

وأهلّ شهر ربيع الأوّل؛ ففي ليلة الجمعة رابعه عمل السلطانُ المولدَ النبوِيّ بالحوش من قلعة الجبل.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه أفرجَ السلطانُ عن جَيْنُوس متملِّك قُبْرُس من سجنه بقلعة الجبل، وخلعَ عليه، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكُنْبُوش زركش، ونزل إلى القاهرة في موكب، وأقام بدار أُعِدَّت له، وقد استقرّ أَرْكَمَاس المؤيّدي المعروف بِفِرْعَوْن مُسَفِّرَه، وصار يركبُ من منزله المذكور ويمرُّ بشوارع القاهرة ويزُور كنائس النَّصَارى ومعابدهم، ويتوجّه إلى حيث اختار من غير حَجْر عليه، بعد أن أجرى السلطانُ عليه من الرَّوَاتِب ما يقوم به وبِمَن في خدمته. هذا والخدم تأتيه من النصارى والكُتّاب والقناصلة. وحضرتُ أنا معه في مجلس فَرَأيتُ له ذَوْقاً ومعرفةً؛ عرفت منه بالحَدْس، كونه لا يعرف باللغة العربية.

ولما كان يوم الخميس سابع جمادى الأولى خلعَ السلطانُ على الأمير جَرِبَاش الكَرِيميّ قاشق أمير مجلس باستقراره في نيابة طَرَابُلُس عوضاً عن الأمير قَصْرُوَه من تِمْرَاز، بحُكم انتقال قَصْرُوَه إلى نيابة حَلَب عوضاً عن جَارْقُطْلُو بحُكم عَزْل جَارْقُطْلُو وقُدُومه إلى القاهرة.

وفيه قدم رسولُ صاحب رُودِس الفِرِنْجِيّ، فأُرْكِبَ فرساً، وفي صدره

(١) السرباتية: هم الذين ينزحون مجاري المياه والغائط. والمسرّبة هي مجرى الماء ومجرى الغائط.

صليبُ، وأُطلع إلى القلعة، وقبّل الأرضَ بين يدي السلطان، وسأل عَن مُرْسِلِه صاحب(١) رُودِس أنه طلبَ الأمانَ، وأنه يسأل أن يُعْفَى من تجهيز العساكر الإسلامية إليه، وأن يقوم للسلطانِ بما يَطْلُبُه منه؛ وكان السلطانُ تكلَّم قَبْلَ تاريخه في غَزْوَة رُودِس المذكورة.

ثم في يوم الخميس خامس جمادى الآخرة خلعَ السلطانُ على جَيْنُوس بن جَاك متملِّك قُبْرُس خلعة السَّفر.

ثم في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة المذكورة أمسكَ السلطانُ الأمير تَغْري بَرْدِي المحموديّ رأس نَوْبَة النُّوب، بعد فراغه من لَعِب الكُرَة بالحوش السلطاني، فقبض على تَغْري بَرْدِي المذكور وهو بقماش لَعِب الكُرَة، وقُيِّد وأُخْرِج من يومه إلى سجن الإسكندرية، ولم يَعْلَم أحدُ ذَنْبَه عند السلطان حتى ولا تَغْري بَرْدِي المذكور؛ فإني سألته فيما بعد فقال: لا أَعْلَم على ماذا أُمْسِكْتُ. غير أن المقريزي ذكرَ أنه له ذُنُوبٌ وأسبابٌ في مَسْكِه نذكرها بعد أن نذكرَ قصَّةَ مُبَاشِرِه.

واتَّفق في مَسْكِه حادثةٌ غريبةٌ، وهو أن رجلاً من مباشريه يُقَال له ابن الشَّامِيَّة

(١) كانت جزيرة رودس في ذلك الوقت تحت حكم الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا Les Hospitaliers. وهؤلاء الفرسان كانوا في الأصل أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا بالقدس، ويعرفون أحياناً بفرسان القديس يوحنا أو بفرسان بيت المقدس، وسماهم العرب الفرسان الاسبتارية. وقد نشأت هذه الهيئة من مستشفى أسس في القرن الحادي عشر الميلادي للعناية بالحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة. وعندما أعيد تكوين فرقة الفرسان على أساس عسكري في المرحلة الأولى من الغزوات الصليبية لم تلبث أن ازدادت ثروتها وسطوتها، وأنشئت على غرارها مؤسسات أخرى لمساعدتها في أوروبا كلها. وقد اشترك الاسبتارية مع زملائهم ومنافسيهم فرسان الهيكل أو الداويّة Les templiers في جميع حروب المملكة اللاتينية والصليبيين. وبعد استيلاء العرب على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م انتقل الاسبتارية إلى عكا، ثم إلى قبرص سنة ١٢٩١ م. وبفتحهم لجزيرة رودس سنة ١٣١٠ م/٧١٠ هـ ونتيجة لما جلب انحلال الفرسان الداويّة عليهم من فوائد مادية، بدأوا عهداً تعاظمت فيه قوتهم وسطوتهم، وبدأوا يعرفون بفرسان رودس، وسيطروا على البحر المتوسط، وتمكنوا من وقف غزو المسلمين لأقطار أوروبية، بل أخذوا يلجأون هم أنفسهم إلى الغزو البحري. وفي سنة ١٥٢٢ م هزمهم السلطان العثماني سليمان الأول فانتقلوا إلى جزيرة مالطا التي أصبحت مقرهم الرئيسي وعرفوا باسم فرسان مالطا. ولا تزال إلى اليوم بقايا منهم في أوروبا. وقد أعاد البابا في سنة ١٨٧٩ منصب الرئيس الأعلى للاسبتارية. (انظر الموسوعة العربية الميسّرة: ١٢٨٨؛ والموسوعة الفلسطينية: ٢٠٥/١؛ والقاموس الفرنسي: Petit Larousse، مادة: Hospitaliers).

كان بِخِدْمَتِهِ، فلمَّا بلغه القبضُ عليه شَقَّ عليه ذلك، وخَرَجَ إلى جهة القلعة لِيُسَلِّم عليه، فوافَى نُـزُولَه من القلعـة مُقَيَّداً إلى الإسكنـدرية، فصـار يصيـح ويَبْكي ويستغيث وهو ماشٍ معه حتى وَصَلَ إلى ساحل النِّيل، ووقفَ حتى أُحْدِر أستاذُه تَغْري بَرْدِي المحموديّ في الحرَّاقة إلى جهة الإسكندرية؛ فلمَّا عايَنَ سَفَره اشتد صُرَاخُه إلى أن سَقَط مَيتاً، فحمل إلى داره وغُسِّل وكُفِّن ودُفن.

ثم خلـع السلطانُ على الأمير أَرْكَمَاس الظاهريّ باستقراره رأس نَوْبَة النُّوَب عوضاً عن تَغْري بَرْدِي المذكور، وأنعم عليه بإقطاعه أيضاً، وأنعم بإقطاع أَرْكَمَاس المذكور وتقدمته على الأمير قانِي بَاي الأَبُـوبَكْـرِي الناصريّ المعروف بالبَهْلَوَان ثاني رأس نوبة، وأُنْعِم بطبلخاناه قَانِي بَاي على سُودُون مِيق الأمير آخُور الثاني، وخَلَـع على الأمير إينَال العَلاَئِي الناصري باستقراره رأْس نَوْبَة ثانياً عوضاً عن قَانِي بَاي البَهْلِوان المذكور؛ وإينَال هذا هو الملك الأَشْرَف إينَال سلطانُ زَمَانِنَا.

وأمَّا ما وعَدْنَا بذكره من قول المقريزي في سبب مَسْكِ تَغْري بَرْدِي المذكور قال: وهذا المحمودي من جُمْلة مماليك الملك الناصر فرج. فلما قُتِل فرج خدَم عند الأمير نَوْرُوز الحافظيّ بدِمَشق، وصار له ميزة عنده، فلما قُتِل نَوْرُوز سجَنَهُ الملكُ المؤيّد شيخ بقلعةٍ فما زال محبوساً بها حتّى تنكَّرَ المؤيّد على الأمير بَرْسْبَاي الأمير الدُّقماقي نائب طَرَابُلُس وسجنه بالمَرقَب مـع المحمودي، وإينال الشُّشْمانيّ، فرأى تَغْرِي بَرْدِي المحمودي في ليلة من الليالي مَنَاماً يدُلُّ على أن بَرْسْبَاي يتسلطن، فأعلمه به، فعاهده على أن يقدِّمه إذا تسلطن ولا يعترضه بمكروه. فلمَّا كان من سلطنة الملك الأشرف بَرْسْبَاي ما كان، وتقدمته للمحمودي فيما مضى، وتمادى الحالُ إلى أن بات بالقصر على عادته، فقال لبعض من يَثِقُ به من المماليك ما تقدَّم من منامه بالمَرقَب وأنه وقـع كما رأى، وأنه أيضاً رأى مناماً يُدلُّ على أنه يتسلطن ولا بدّ، فَوَشى ذلك المملوك به للسلطان فحرّك منه كوامِن، منها أنه صار يقول: «لما حججنـا أحضرت ابن عَجْـلاَن، ولما مَضَيْتُ إلى قُبْـرُس أسرتُ مَلِكَهـا، أين كان الأشرف حتى يقال هذا بِسَعْده؟ والله ما كان هذا إلا بسعْدِي»، وتنقل كل ذلك إلى السلطان. انتهى كلامُ المقريزي بتمامه.

ثم في يوم الاثنين أوّل شهر رجب قدم الخبرُ على السلطان بمَوْت الملك المنصور عبد الله ابن الملك الناصر أحمد صاحب اليمن، وأن أخاه مَلك بعدَه ولُقِّب بالأشرف إسماعيل.

ثم في يوم الاثنين ثامن شهر رجب قَدِمَ الأميرُ جارْقُطْلُو المعزول عن نيابة حَلَب إلى القاهرة، وطلع إلى القلعة، وقبّل الأرضَ، فخلع عليه السلطانُ باستقراره أمير مجلس عوضاً عن جَربَاش قاشق بحُكْم انتقال جَرباش إلى نيابة طَرَابُلُس حسبما تقدمَ ذكره.

ثم في تاسع عشر رجب المذكور توجّه الزيني عبد الباسط ناظر الجيش على الهجن إلى حَلَب لعمارة سُورِها ولغيرِ ذلك من المُهِمَّات السلطانية بعدما قدّم عِدَّة خيول قبل ذلك بأيّام.

ثم في يوم الخميس أوّل شهر رمضان فُتِحَ الجامِعُ(١) الذي أنشأه الأمير جَانِي بك الأشرفي الدَّوَادَار الثاني بالشارع الأعْظَم خارج باب زُوَيْلة بخط القِرَبِيِّين، وأُقِيمَ به الجمعةُ في يوم الجمعة ثانيه.

ثم في سابع عشر شهر رمضان المذكور قَدِمَ عبدُ الباسط إلى القاهرة من حَلَب وطلع إلى القلعة، وخلعَ السلطانُ عليه.

ثم في ثالث عشرينه طلع زينُ الدين عبد الباسط بهديّة إلى السلطان فيها مائتا فَرَسٍ، وحلي كثيرٌ ما بين زركش ولؤلؤ وقماش مذهَّب برسم السلطان وثياب صوف وفَرْو وغيره.

ثم في عاشر ذي القعدة قَدِمَ الخبرُ على السلطان بأن قاضي قضاة دِمَشْق نجم الدين عمر بن حِجِّي وُجِدَ مَذْبُوحاً على فراشه ببُسْتَانِه بالنَّيرب خارج دِمَشْق، ولم يُعْرَف قاتله، واتُّهِم الناسُ الشريفَ كاتب سِرّ دمشق ابن الكشك وعبد الباسط بالممالأة على قَتْلِه، وراحَت عَلَى من رَاحت. وكان ابن حجّيّ المذكور من أعْيَان أهل دمشق وفُضَلَائهم، وقد تقدَّم من ذكره نبذةٌ في ولايته كتابة سِرّ مِصر قبل تاريخه.

---

(١) جامع جانبك: لا يزال موجوداً بشارع المغربلين على شمال الذاهب من باب زويلة إلى الحلمية. وقد ابتدأ إنشاؤه سنة ٨٢٨ هـ. (خطط علي مبارك: ١٥٣/٤).

ثم في رابع عشر ذي القعدة، خلع السلطان على الأمير قانِي بَاي البَهْلوان أحد مقدّمي الألوف بمصر باستقراره في نيابة مَلَطْيَة زيادة على ما بيده من إقطاع تقدمة ألف بديار مصر عوضاً عن أَزْدَمُر شَايَا المقدّم ذكرُه لعجزه عن القِيَام بقتال التُّرْكمَان، وأُعيد أَزْدَمُر شايا إلى إقطاعه بحَلَب كما كان أوّلاً.

ثم في يوم الاثنين سلخ ذي القعدة خلعَ السلطانُ على بهاء الدين محمد ابن القاضي نجم الدين عمر بن حجّي باستقراره قاضي قضاة دمشق عوضاً عن والده بحكم وفاته، وولي بهاء الدين هذا القضاء قبل أن يستكمل عذاره.

ثم في سابع عشرين ذي الحجة قَدِمَ مُبَشِّرُ الحاج وأخبرَ بسلامة الحَاجّ ورخاء الأسْعَار بمكة، وأنه قُرِىء مَرْسوم السلطان بمكة المشرّفة في الملأ بمنع الباعة من بَسْطِ البَضائع أيام المَوْسم في المسجد الحَرَام، ومن ضَرْب الناس الخيامَ بالمسجد المذكور [على مصاطبه وأمامها](١)، ومن تَحْويل المِنْبَر في يوم الجمعة والعيدين من مكانه إلى جانب الكعبة حتى يُسْنَد إليها(٢)، فأمر أنْ يُتْرَك مكانه مسامتاً لمقام إبراهيم الخليل عليه السلام، ويَخطب الخطيب عليه هُناك، وأن تُسَدَّ أبوابُ المسجد بعد انقضاء المَوْسم إلا أربعة أبواب من كل جهة باب واحد، وأن تُسَدَّ الأبوابُ الشارعة من البيوت إلى سَطْح المَسْجد، فامْتُثِلَ جميعُ ذلك.

قال المقريزي: وأشبه هذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وقد سأله رجلٌ عن دَمِ البراغيث، فقال: «عجباً لكُم يا أهل العراق، تقتلون الحسين بن علي وتسألون عن دَمِ البَراغيث!!» وذلك أن مكة استقرَّت دار مَكْس، حتى إنه يوم عرفة قامَ المشاعِليُّ(٣) ــ والناس بذلك الموقف العظيم يسألون الله مغفرةَ ذنوبهم ــ فنادى معاشر الناس كافة: «من اشترى بضاعةً وسافر بها إلى غير القاهرة

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) أضاف المقريزي موضحاً ذلك: «لأنه عند جرّه على عجلاته يزعج الكعبة إذا أُسند إليها».

(٣) المشاعلي: هو الذي يحمل المشعل بين يدي الأمير ليلاً، ثم صار علماً على الجلّاد الذي ينفذ حكم الإعدام. راجع فهرس المصطلحات.

حَلَّ دَمُه ومالُه للسلطان»، فأُخِّر التجار القادمون من الأقطار حتى ساروا مع الركب المصري على ما جَرَت به هذه العَادَة المستجدة منذ سنين[١] لتؤخذ منهم مُكُوس بَضَائِعِهم، ثم إذا سارُوا من القاهرة إلى بلادهم من البَصْرَة والكُوفَةِ والعِرَاق أخذ منهم المَكْس ببلاد الشّام وغيرها؛ فهذا لا[٢] ينكر وتلك الأمُور بعثنا[٣] بإنكارها. انتهى كلام المقريزي.

قلت: أنا لا أتابعه على ما أعاب؛ وأبْلَقُ خيرٌ مِن أسود. وكونه رسم بردّ التجار إلى الدِّيار المصرية لتؤخذ منهم المُكُوس[٤] لا يلزم أنه لا يفعل معروفاً آخر. وأما جميع ما أبطله ورَسم بمنعه ففيه غاية الصلاح والتعظيم للبيت العتيق. أما منع الباعة بالحرم فكان من أكبر المصالح والمعروف، فإنه كان يقوم الشخص في طوافه وعبادته وأُذُنه مَلأى من صياح الباعة والغوغاء من كثرة آزْدِحام الشُّرَاة. وأما نصب الخيام فكان من أكبر القبائح، ولعل الله تعالى يغفر للملك الأشرف جميع ذنوبه بإبطال ذلك من الحرم الشريف، فإنه قيل إن بعض الناس كان إذا نصب خيامه بالمسجد الحرام نصب به أيضاً بيت الراحة وحفر له حفرة بالحَرَم، وفي هذا كفاية. وأما تحويل المنبر فإنه قيل للسلطان إن المنبر في غاية ما يكون من الثقل، وأنه كلما أُلْصِق بالبيت الشريف انزعج منه وتصدّع، فمنع بسبب ذلك، وقد صار الآن يحول إلى القُرْب من البيت، غير أنه لا يُلْصَق به، فحصلت المصلحةُ من الجهتين. وأما غَلْقُ أبواب المسجد في غير أيّام المَوْسم إلا أربعة فيعرِفُ فائدةَ ذلك من جاوره بمكة، ويطول الشرحُ في ذكر ما يتأتى من ذلك من المفاسد، وإن كان فيه بعضُ مصلحة لسكان مكة. انتهى[٤].

(١) في السلوك: «منذ سنتين» وهو الصواب.

(٢) في السلوك «لينكر» وهو الصواب.

(٣) كذا في الأصل. وفي إحدى مخطوطات السلوك: «يعتنا» والراجح لدينا أن أبا المحاسن نقلها مصحَّفة. والصواب: «يُعتنى». وعبارة المقريزي: «وهذا لينكر، وتلك الأمور يُعتنى بإنكارها، ويسعى أهل البلادة في إزالتها. فيا نفس جدّي إن دهرك هازل». والمُراد بأهل البلادة هنا أهل البلد المقيمون فيه.

(٤) مرة أخرى ينبري أبو المحاسن للدفاع عن «السلطان» وللغمز من أحكام المقريزي. وهو كالعادة لم يستطع تقديم مبرر مقنع لإجراءات السلطان. فالواقع أن السلطان برسباي كان يحاول الحصول على =

ثم في رابع عشرين ذي الحجة قُبِضَ بالمدينة على أميرها الشريف خَشْرَم بن دوغان بن جعفر بن هبة الله بن جَمَّاز بن منصور بن جَمَّاز، فإنه لم يَقُم بالمبلغ الذي وَعَدَ به، واستقرَّ عوضه في إمرَة المدينة الشريفة مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جَمَّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنَّا بن داود بن قاسم بن

= المال بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وذلك لإسرافه الذي لم يكن له حدّ. وقد عمل على تحويل التجارة من ميناء عدن إلى ميناء جدّة وألزم شريف مكة بأداء الجزية وأن يحمل إليه خراج ميناء جدة. كذلك حرّم على التجار المصريين أن يبعثوا بالسلع المصرية أو الأوروبية إلى جدّة، وبهذا أكره التجار الهنود على شراء تلك السلع من عمّاله وأن يدفعوا فيها أسعاراً حدّدها بنفسه تحديداً تعسفياً، كما فرض رسم تصدير على السلع الهندية التي كان يشتريها تجار من الشام أو مصر. وإذا كان بعض هذه الإجراءات مفهوماً ومشروعاً لجهة زيادة موارد الدولة أو فرض سلطتها الاقتصادية على أطراف المملكة وفي مواجهة الأجانب، فإن كثيراً من إجراءات برسباي كان تعسفياً وغير مشروع: فقد كان يغيّر من وقت إلى آخر سعر الذهب والفضة بما فيه صالحه، وكان يحرم العملة الأجنبية (الدنانير المشخّصة) ليستطيع شراءها بثمن بخس ثم يحيلها إلى عملة مصرية. ومنع استيراد التوابل من الهند ثم اشتراها رخيصة ليبيعها بربح كبير بعد أن انعدمت المنافسة. واحتكر برسباي أيضاً صناعة السكر، بل احتكر زراعة قصب السكر بعض الوقت، وفرض أسعاراً باهظة له مما ألحق بالناس أضراراً بالغة خاصة أنهم كانوا يتخذون من السكر دواءً للطاعون. وقضى السلطان على التجارة بالركود شيئاً فشيئاً بمنعه بيع المصنوعات الشامية للأفراد، وكذلك الخشب والحبوب، وقيّد تجارة الماشية، فانتشرت المجاعة حتى في سنوات الرخاء، وكادت تخلو نواح كثيرة في مصر من السكان للأنانية التي اتصف بها حكم برسباي من ناحية ولانتشار الطاعون من ناحية أخرى. انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٥٣/٧.

ونحن نرى في موقف أبي المحاسن موقفاً متعصباً للسلاطين المماليك، خصوصاً أولئك الذين كان له اتصال بهم. هذا بالرغم من تكراره لادعاء عدم التعصّب، ورمي الآخرين به ـ ومنهم المقريزي ـ تارة لبعدهم عن الدولة وتارة لجهلهم بأحوال السلاطين والترك عموماً. (راجع ما كتبناه عن موقف المقريزي وأبي المحاسن من الظاهر ططر، ص ٤٨ من هذا الجزء، حاشية (١)). وزيادة على ما ذكرناه هناك من أن موقف المقريزي إنما يصدر عن اعتبارين أساسين هما الاعتبار الشرعي الديني والاعتبار العروبي في مواجهة عصبيّة تحكم الترك، زيادة على ذلك ولإيضاحه نورد ما ذكره المقريزي في تعليقه على الإجراءات التي اتخذها برسباي، قال: «ولقد كان السبب في كتابة هذا المرسوم أن رجلاً من العجم يُظهر للناس النسك، ولأمراء الدولة فيه اعتقاد، أمرهم بذلك فأتمروا. وقد أذكرني هذا ما كتب به أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه لما ولي الخلافة: أما بعد، فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعاجم والأعراب القرآن فإن النبيّ ﷺ قال: «الكُفر في العجمة؛ فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا» انتهى كلام المقريزي. انظر السلوك: ٧٥٥/٤.

عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحُسين بن جعفر بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ثم في يوم الجمعة ثالث المحرم سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة قَدِمَ الحَمْل من جزيرة قُبْرُس، ومبلغه خمسون ألف دينار مُشَخَّصة، فرسَمَ السلطانُ بضَرْبها دنانير أشرفيّة، فضُرِبَت بقلعة الجَبَل والسلطان ينظر إليها إلى أن تَمَّت.

ثم في يوم السبت حادي عشر المُحَرَّم المذكور ركب السلطانُ من قلعة الجبل بغير قماش الخِدْمَة[1] ونزل إلى دار الأمير جَانِي بَك الأشرَفي الدَّوَادَار الثاني بحِذْرَة البَقَر[2] ليعوده في مرضه.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشرينه قَدِمَ الركبُ الأوَّل من الحاج، وقدم المحمل من الغد ببقية الحاجِّ، ومعهم الشريف خَشرَم في الحَديد، وقَدِم معهم أيضاً الأمير بَكْتَمُر السَّعْدي من المدينة، وكان له بها من العام الماضي.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من سنة إحدى وثلاثين خلعَ السلطانُ على قاضي القضاة مُحِبِّ الدين أحمد بن نصر الله البغدادي الحنبلي، وأُعيد إلى قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز الحنبلي. ولم يكُن عَزْلُ عِزّ الدين المذكور لسوء سيرته، بل إنه سار في القضاء على طريق غير معتادة، وهو أنه صار يمشي في الأسواق ويشتري ما يحتاجه بيده من الأسواق، وإذا ركب أَرْدَفَ خلفه على بغلته عبده، ويمر على هذه الهيئة بجميع شوارع القاهرة. وكان كثير التردد إليَّ في كل وقت، لأنه كان من جمله أصحاب الوالد، فكان يأتي من المدرسة الصالحيّة ماشياً، ويجلس حيث انتهى به المجلس، فلم يحسُن ذلك ببال أعْيَان الدَّولة، وحملوه على أنه يفعل ذلك تعمداً

(١) المراد بقماش الخدمة الثياب التي يلبسها السلطان عند خروجه من القصر.

(٢) حدرة البقرة: مكانها اليوم شارع المظفر الواصل بين ميدان جامع السلطان حسن وشارع الحلمية القديمة (السيوفية). وانظر خطط المقريزي: ٢/٤٣٩.

ليقال، وقالوا للسلطان ــ وكان له إليه ميل زائد ــ: هذا مجنون. ولا زالوا به حتى عَزَلَه وأعاد القاضي محب الدين[١].

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشر صفر المذكور ركب السلطانُ من القلعة بغير قماش الخدمة ــ وقد صار ركوب السلطان بغير قماش الخدمة عادة، وكان يقبح ذلك في سالف الأعصار، وأول من فعل ذلك الملك الناصر فرج، ثم المؤيد، ثم الأشرف هذا. انتهى. وسارَ حتى شَقَّ القاهرة ودخل من باب زُوَيْلَة وخرجَ من باب النَّصْر إلى خَلِيج الزعفران، فرأى البستان الذي أنشأه هناك، وعاد من خارج القاهرة عَلَى تربته التي عمَّرها بجوار تربة الملك الظاهر برقوق بالصحراء، ثم سار حتى طلع إلى القلعة.

ثم في ليلة الجمعة سابع شهر ربيع الأوّل قُرِىء المولدُ النبويّ بالحوش السلطاني من قلعة الجبل على العادة.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأوّل المذكور أنعمَ السلطانُ بإقطاع الأمير بكتمر السعدي على الأمير قَجْقَار السيفي بكتمر جِلِّق الزردكاش المعروف بجَغْتَاي ــ والإقطاعُ إمْرَة طبلخاناه ــ بعد موت بكتمر السَّعديّ. وكان بكتمر من محاسن الدَّهر مَعْدُوداً من أرباب الكمالات. كان فقيهاً جندياً شجاعاً عالماً، هيناً قوياً عاقلاً، مقداماً عفيفاً لطيفاً، لا أعلم في أبناء جنسه من يدانيه أو يقاربه في كثرة محاسنه. صحبته سنين، وانتفعتُ بفضله ومعرفته وأدبه. وقد استوعبنا ترجمته في تاريخنا المنهل الصافي، ويأتي ذكره أيضاً في الحوادث من هذا الكتاب في محله إن شاء الله تعالى، ولهو أحقُّ بقول القائل: [الكامل]

عقمَ النِّسَاءُ فَمَا يلدنَ شبيهَه إنَّ النساءَ بمثلِهِ عقمُ

ثم في آخر شهر ربيع الأوّل استقر تمرباي التَّمُرْبغاوي الدوادار الثالث دواداراً ثانياً بعد موت الأمير جاني بَك الأشرفي الدَّوَادار، ولم يُنْعَم عليه بإمْرَةٍ إلا

(١) قال المقريزي: «وقد عُزل القاضي عز الدين لتنكّر كاتب السرّ عليه وسعايته به».

بعد مدة طويلة، أنعم عليه بإمْرَة عشرة. وأما جاني بك فيأتي ذكره في الوفيات مطوَّلاً إن شاء الله تعالى.

ثم في شهر ربيع الآخر من هذه السنة تشكّى التجارُ الشاميّون من حملهم البضائع التي يشترونها من بندر جدّة إلى القاهرة، فوقع الاتفاق على أن يؤخذ منهم بمكّة عن كل حمل ـ قلَّ ثمنُه أو كثر ـ ثلاثة دنانير ونصف، وأن يُعفَوا عن حمل ما يقبضونه من جدَّة إلى مصر، فإذا حملوا ذلك إلى دمشق أخذ منهم مَكْسها هناك على ما جَرَت به العادةُ، وتم ذلك.

قال المقريزي: وفي هذا الشهر ـ يعني عن جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ـ كانت الفتنةُ الكبيرةُ بمدينة تعز من اليمن؛ وذلك أن الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن لما مات قامَ من بعده ابنُه الملكُ الناصرُ أحمد بن الأشرف إسماعيل، وقام بعد الناصر أحمد ابنُه الملك المنصور عبد الله في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ومات في جمادى الآخرة سنة ثلاثين وثمانمائة، فأقيم بعده أخوه الملك الأشرف إسماعيل بن أحمد الناصر فتغيّرت عليه نِيّاتُ الجند كافة من أجل وزيره شرف الدين إسماعيل بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر العلوي، فإنه أخَّر صرف جَوَامكهم ومرتّباتهم، فتغيرت منه القلوب، وكَثُرت حُسّادُه لاستبداده على السلطان وانفراده بالتصرّف دونهم، وكان يليه في الرُّتبة الأمير شمس الدين علي بن الحُسَام ثم القاضي نور الدين علي المحالبي مُشِدّ الاستيفاء. فلما اشتدّ الأمرُ على العسكر وكُثرت إهانة الوزير لهم وإطراحه جانبهم ضاقت عليهم الأحوالُ حتى كادُوا أن يموتوا جزعاً، فاتّفق تجهيز خزانة من عَدَن وبرزَ الأمرُ بتوجّه طائفة من العبيد والأتْرَاك إليها لتلقّيها، فسألوا أن يُنْفَق فيهم أربعة دراهم لكل واحد منهم يَرْتَفق بها، فامتنع الوزيرُ ابنُ العَلَوِيّ من ذلك، وقال: «ليمضوا غصباً إن كان لهم غرضٌ في الخِدْمَة، وحين وصول الخزانة يكون خيراً، وإلا ففسح الله لهم، فما للدهر بهم حاجة، والسلطان غنيٌّ عنهم»، فهيّج هذا القول خفاء بواطنهم،

وتحالف العبيدُ والتركُ على الفَتْكِ بالوزير، وإثارة فتنة؛ فبلغَ الخبرُ السلطانَ، فأعلمَ به الوزيرَ، فقال: «ما يُسَوُّوا شيئاً، بل نشق كلّ عشرة في موضع، وهم أعجز من ذلك».

فلما كانَ يوم الخميس تاسع جمادى الأولى هذه قُبَيْل المغرب هجَمَ جماعةٌ من العبيد والتركِ دارَ العَدْل بتعزّ، وافترقوا أربعَ فِرَق: فرقة دخلت من باب الدار، وفرقة دخلت من باب السر، وفرقة وقفت تحت الدار، وفرقة أخذت بجانب آخر. فخرج إليهم الأميرُ سُنْقُر أمير جَانْدَار، فهَبَرُوه بالسّيوف حتى هَلَك، وقتلُوا معه علياً المحالبي مُشِدّ الدَّوَاوين وعِدَّة رجال، ثم طَلَعُوا إلى الأشرف، وقد اختفى بين نسائه وتزيَّا بزيِّهن، فأخذوه، ومضَوْا إلى الوزير العَلَوِي فقال لهم: «ما لكم في قتلي فائدة، أنا أُنفِق على العسكر نفقةَ شهرين»، فمضوا إلى الأمير شَمْس الدين علي بن الحُسَام فقبضوا عليه وقد اختفى، وسجنوا الأشرف في طبقةِ المماليك ووكلوا به، وسجنوا ابن العلوي الوزير وابن الحسام قريباً من الأشرف ووكلوا بهما، وقد قيدوا الجميعَ. وصار كبيرُ هذه الفتنة برْقُوق من جماعة الأتراك، فصعدَ هو وجماعةٌ ليخرج الملك الظاهر يَحْيَى ابن الأشرف إسماعيل بن عباس من ثعبات[1]، فامتنع أمير البلد من الفَتْح لَيْلاً، وبعث الظاهر إلى بَرْقُوق أن يمهل إلى الصبح، فنزل بَرْقُوق ونَادَى في البلد بالأَمَان والاطمئنان والبيع والشراء، وأن السلطان هو الملك الظَّاهِر يحيى بن الأشرف. هذا وقد نهب العسكرُ عند دخولهم دار العدل جميع ما في دار السطنة، وأفحشوا في نهبهم؛ فسلبوا الحريمَ ما عليهن، وانتهكوا منهن ما حرَّم الله، ولم يدع في الدار ما قيمته الدِّرْهم الواحد.

فلما أصبح يوم الجمعة عاشره اجتمع بدار العَدْل التّركُ والعبيدُ وطلبوا بني زياد وبني السنبلي والخدّام وسائر أمراء الدَّولة والأعيان. فلما تكامَلَ جمعُهم وقع بينهم الكلامُ فيمن يقيمونه، فقال بنُو زياد: «وما ثَمَّ غيرُ يحيى فاطْلعُوا له هذه

---

(١) ثعبات: موضع بالقرب من تعز. (غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: ١/٣٠١).

الساعة». فقامَ الأميرُ زين الدين جَيَّاش الكاملي والأمير بَرْقُوق وطلعا إلى ثعبات في جماعةٍ من الخُدَّام والأجناد، فإذا الأبواب مغلقة، فصاحوا بصاحب البلد حتى فتح لهم، ودخلوا إلى القصر، وسلَّموا على الظاهر يَحْيى بالسلطنة، وسألوه أن ينزل معهم إلى دار العَدْل، فقال: «حتى يصل العسكرُ أجمع». ففكُّوا القَيْد من رجليه، وطلبوا العسكر بأسرهم، فطلعوا بأجمعهم وأطلَعُوا معهم بعشرة جنائب، فتقدَّم التركُ والعبيدُ وقالوا للظاهر: «لا نبايعك حتى تَحْلِف لنا أنَّك لا يحدُثُ علينا منك شيءٌ بسبب هذه الفعلة ولا ما سبق قبلها»، فحلف لهم وهم يردِّدُون عليه الأيمان، وذلك بحضرة قاضي القضاة موفَّق الدين علي بن الناشري، ثم حلفوا له على ما يُحِبّ ويختار. فلما انقضى الحلف وتكامل العسكرُ، ركب ونزلَ إلى دار العدل بأبهة السلطنة، ودخلها بعد صلاة الجمعة، فكان يوماً مشهوداً. وعندما استقرّ بالدار أمرَ بإرسال ابن أخيه الأشرف إسماعيل إلى ثُعْبَات، فطلعوا به، وقيَّدُوه بالقَيْد الذي كان الظَّاهر يَحْيى مُقَيَّداً به، وسجنوه بالدّار التي كان الظاهر مسجوناً بها. ثم حُمِلَ بعد أيّام إلى الدُّمْلُوَة(١) ومعه أمّه وجاريتُه؛ وأنعمَ السلطانُ على أخيه الملك الأفضل عباس بما كان له، وخلع عليه وجعله نائب السلطنة كما كان أوّل دولة الناصر وخمدت الفتنة.

وكان الذي حرّك هذه الفتنة بنو زياد، فقام أحمدُ بن محمد بن زياد الكاملي بأعباء هذه الفتنة لحنقه من الوزير ابن العَلَوِي، فإنه كان قد مالأ على قَتْل أخيه جَيَّاش، وخَذَّلَ عن الأخذ بثأره، وصار يمتهن(٢) بني زياد. ثم ألزم الوزير ابن العلوي وابن الحسام بحَمْل المال، وعُصِرَا على كعابهما وأصداغهما، ورُبِطَا من تحت أبطيهما، وعُلِّقَا مُنَكَّسَيْن، وضُرِبَا بالشيب والعِصِيّ وهما يوردان المالَ، فأُخِذَ من ابن العلوي ـ ما بين نقد وعروض ـ ثمانون ألف دينار، ومن ابن الحسام مبلغ ثلاثين ألف دينار. واستقرّ الأميرُ بَرْقُوق أمير جاندار. واستقر الأمير بدر الدين محمد الشُّمْسي أَتَابَك العساكر. واستقرّ ابنه العفيفُ أمير آخور. ثم استقرّ الأمير

(١) الدملوة: حصن عظيم في اليمن، في شمال عدن. (معجم البلدان).

(٢) في الأصل: «ينتهر». وما أثبتناه عن السلوك للمقريزي.

بدر الدين المذكور أستاداراً، وشرع في النفقة على العسكر. وظهر من السلطان نبلٌ وكرمٌ وشهامةٌ بحيث أطاعته العساكرُ بأجمعهم، فإن له قوة وشجاعة حتى قيل إن قَوْسَه يَعْجَزُ من عندهم من التُّرك عن جَرِّه. ومَدَحَهُ الفقيه يحيى بن رويك بقصيدة أولها: [الوافر]

بِدَوْلَةِ مَلكنَا يَحْيَى اليَمَانِي بَلَغْنَا مَا نُرِيدُ مِنَ الأَمَانِي

وعِدَّة القصيدة واحدٌ وأربعون بيتاً، وأجيز عليها بألف دينار. وبهذه الكائنة اختلّ ملك بني رسول من اليمن. انتهى كلام المقريزي.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود بطول هذه الحكاية، غير أن في ذكرها نوعاً من الأخبار والتعريف بالممالك. ولنرجع إلى ما نحن بصَدَده من أحوال الملك الأشرف بَرْسْبَاي صاحب الترجمة.

ولما كان يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة خلعَ السلطانُ على الأميرُ جَارْقُطْلُو أمير مجلس باستقراره أتَابَك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير الكبير يَشْبُك السَّاقي الأعرج. وكان يَشْبُك الساقي المذكور من أفراد العالم، وهو أحد من أدركناه من الملوك من أهل المعرفة والذَّوْق والفضل والرأي والتدبير، كما سنبينه في ترجمة وفاته من هذا الكتاب إن شاء الله.

ثم في يوم السبت عاشر جمادى الآخرة المذكورة كتب السلطان بإحضار جَرِبَاش[1] الكريمي المعروف بقاشق نائب طَرَابُلُس ليستقرّ أمير مجلس على عادته أوّلاً عوضاً عن الأمير الكبير جَارْقُطْلُو، وكتب إلى الأمير الكبير طَرَبَاي الظاهري المقيم بالقُدْس بطَّالاً باستقراره في نيابة طَرَابُلُس.

ثم في يوم السبت أوّل شهر رجب عمل السلطانُ الخدمةَ بالإيوان بدار العدل من القلعة، وأُحْضِرَت رسلُ مُرَاد بَكْ بن عثمان متملك بُرْصَا[2]

(١) في السلوك: «صرماش».

(٢) برصا: ويقال لها بورسة، وبروسة. مدينة في تركيا على خط طول ٢٦° و٤٠ شرقاً، وخط عرض ٤٠° ٣١′ شمالاً، عند سفح جبل كشيش. استولى عليها أورخان بن عثمان سنة ٧٢٦هـ واتخذها مقراً له، وظلت بعده مقرّ السلاطين إلى أن فتحت القسطنطينيّة. (دائرة المعارف الإسلامية: ٧/ ١٧٠).

وأدِرْنَابُولي[١] وغيرهما من ممالك الرُّوم، فكان موكباً جليلاً أُرْكِبَ فيه الأمراءُ والمماليك السلطانية وأجنادُ الحلقة وغيرهم على عادة هيئة خدمة الإيوان من تلك الأشياء المهولة. وقد بطل خِدَم الإيوان من أيّام الملك الظاهر جَقْمَق، وذهب من كان يعرف ترتيبه، حتى لو أَرَادَ أحدٌ من الملوك أن يفعله لا يمكنه ذلك.

ثم في سابع شهر رجب المذكور خلعَ السلطانُ على القاضي كمال الدين بن البَارِزِيّ ــ المعزول قبل تاريخه عن كتابة السِّرّ ثم عن نظر الجيش بالديار المصرية ــ باستقراره في كتابة سِرّ دِمَشْق عوضاً عن بدر الدين حسين بحكم وفاته، من غير سَعْي[٢] في ذلك، بل طلبه السلطانُ وولّاه. وكان القاضي كمال الدين المذكور من يوم عُزِل من وظيفة نظر الجيش بعد كتابة السِّرّ ملازماً لداره على أجمل حالة وأحسن طريقة من الاشتغال بالعلم والوقار والسكينة، وهو على هيئة عمله من الحشم والخدم، وبسط يديه بالإحسان لكل أحد، وترداد الأكابر والأعيان والفضلاء إلى بابه. وسافر في ثاني عشرينه.

ثم في حادي عشره أُدِيرَ محمل الحاج على العادة في كل سنة.

ثم في ثالث عشرينه قَدِمَ الأمير جَرِبَاش الكريمي معزولاً عن نيابة طَرَابُلُس فخلع السلطانُ عليه باستقراره أمير مجلس على عادته أوّلاً. كل ذلك والسلطان في قلق من جهة جاني بَك الصُّوفيّ.

ثم في عشرين شعبان خلعَ السلطانُ على الأمير قَانْصُوه النَّوْرُوزِيّ أحد أمراء الطبلخانات باستقراره في نيابة طَرَسُوس وأضيف إقطاعُه إلى الديوان المفرد.

(١) أدرنابولي: ويقال أدرنة. وهي مدينة تقع على مرتفع من الأرض. انتزعها العثمانيون من الروم عام ٧٦٣هـ. ومنذ العام ٧٦٨هـ أصبحت مقر سلاطين آل عثمان في أوروبا. وظلت هذه المدينة العاصمة الثانية لسلاطين آل عثمان حتى بعد استيلائهم على القسطنطينية عام ١٤٥٣م؛ بينما فقدت بروسة (برصا) أهميتها (دائرة المعارف الإسلامية: ٢/٤٧٦).

(٢) وهي حالة باتت نادرة، إذ أصبحت الوظائف في ذلك الوقت لا يليها إلا من يسعى إليها بالبذل والرشوة. وكان السلاطين في مقدمة المرتشين.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوّال أمسكَ السلطانُ الأمير قُطُج من تِمْرَاز أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، ثم الأمير جَرِبَاش الكريمي قاشق أمير مجلس، فحُمِلَ قُطج في الحديد إلى الإسكندرية فسجن بها، وأُخرِج جَرِبَاش الكريمي بغير قَيْد إلى ثغر دِمْيَاط بطالاً. كل ذلك بسبب جاني بَك الصُّوفيّ، ولِمَا تُحَدِّثُ السلطانَ نَفْسُه بما يفعله من كثرة قلقه منه، ولهذا السبب أيضاً أُخرِجَ قَانْصُوَه وغيره، ويأتي ذكر آخرين.

ثم خَلَعَ السلطانُ على الأمير إينال العلائي الناصري رأس نوبة ثاني باستقراره في نيابة غزّة عوضاً عن تِمرَاز القَرْمَشِي بحكم قُدُوم تِمرَاز للدِّيار المصرية. وأنعمَ السلطانُ بإقطاع إينال المذكور على الأمير تَمُرْبَاي التَّمُرْ بُغَاوِيّ الدَّوَادَار الثاني. ثم كتب بإحضار الأمير بَيْبُغَا المظفري من القُدْس، وكان نُقِلَ إلى القُدْس من دِمْيَاط من نحو شهر واحد، فقَدِم من القُدْس إلى القاهرة في يوم الخميس حادي عشرين ذي القعدة وطلَعَ إلى القلعة، وخَلَعَ السلطانُ عليه باستقراره أمير مجلس عوضاً عن جَرِبَاش الكريمي قاشق. ومنزلة أمير مجلس في الجُلُوس عند السُّلْطان يكون ثاني الميمنة تحت الأمير الكبير، فلما وَلِيَ بَيْبُغَا هذا إمرةَ مجلس أجلسه السلطان على المَيْسَرة فوق الأمير إينَال الجَكَمِيّ أمير سلاح لما سبق له من ولايته أتَابَكِيّة العساكر بالديار المصرية قبل تاريخه، فصار في الحقيقة رتبته أعظم من رتبة الأمير الكبير جَارْقُطْلو بجلوسه فوق أمير سلاح؛ لأن الأمير الكبير لا يمكنه الجلوس فوق أمير سلاح إلا لضرورة. وصار بَيْبُغَا هذا دائماً جُلُوسه فوقه، غير أن إقطاع الأمير الكبير أكثر متحصلاً من إقطاعه، وأيضاً لالتفات السلطان إليه، فإنه كان أكثر كلامه في الموكب السلطاني معه في كل تعلقات المملكة، وليس ذلك لمحبَّتِه فيه، غير أنه كان يُدَارِيه بذلك اتِّقاء فُحشِه. وكان سبب القَبْض عليه أوّلاً أن السلطان شكا له بعض الأجناد من ظُلْم كاشف التّراب، فقال الملك الأشرف: «الكاشف ماله منفعة»، فبادره بَيْبُغَا هذا في الملأ وقال له: «أنت ما عملت كاشف ما تعرف»، فَعَظُمَ ذلك على الأشرف وأسَرَّها في نفسه، ثم قبض عليه، وكذا كان وقع لبَيْبُغَا المذكور مع الملك المؤيّد، حتى قبض عليه

أيضاً وحبسه. وكان هذا شأنه المغالطة مع الملوك في الكلام، غير أنه كان مُناصِحاً للملوك ظاهراً وباطناً؛ ولهذا كانت الملوكُ لا تَبْرَح تغضَبُ عليه ثم ترضى، لعلمهم بسلامة باطنه. وكان الملكُ الأشرف يُمَازِحُه في بعض الأحيان، ويسلِّط عليه بعض الجَراكسة بأن يَزْدَرِيَ جنسَ التَّتار ويعظِّمَ الجراكسة؛ فإذا سمع بَيْبُغَا ذلك سبَّ القائلَ وهجر[1] عليه، وأخذ في تفضيل الأتـراك على طائفة الجَرَاكسة في الشَّجَاعة والكَرَمِ والعظمة، فيشير عليه بعضُ أمراء الأَتْرَاك بالكف عن ذلك، فلا يلتفت ويُمْعِن، والملك الأشرف يضحك من ذلك ويساعده على غرضه حتى يسكت. وقيل إنه جلس مَرّة في مجلس أُنْس مع جماعة من الأمراء، فأخذ بَيْبُغَا في تعظيم ملك التَّتار جنْكِزْ خان، وزاد وأمعن واخترق اختراقات عجيبة، فقال له الأميرُ طُقز الظَّاهريّ الجَرْكَسِيّ: «وأَيْش هو جِنْكِزْ خان؟» فلما سمع بَيْبُغَا ذلك أخذ الطَّبر[2] وأراد قتل طُقُز حقيقةً، وقال له: «كفرت»، فأعاقه الأمراء عنه حتى قام طُقُز من المجلس وراح إلى حال سبيله. وقيل إنه لم يجتمع به بعد ذلك. ومع هذا كلّه كان لجنونه طلاوةٌ ولانحرافه حلاوةٌ، على أنه كان من عظماء الملوك وأحسنها طريقة.

ثم في يوم الخميس سادس ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين المذكورة أمْسَكَ السلطانُ الأمير أُزْبُك المحمدي الدَّوَادَار الكبير، وأخرجه من ليلته بطَّالاً إلى القُدْس بعد أن قبض السلطان على عِدَّةٍ من خاصّكيّته. ولذلك أسبابٌ أعظمها أمر جَانِي بَك الصُّوفِيّ وأشياء أُخَر، منها: أن في أواخر ذي القعدة بلغ السلطانَ أن جماعةً من مماليكه وخاصّكيّته يريدون الفَتْكَ به وقتله ليلاً، فقبَض على جماعة منهم السَّيفي سَنْطباي الأشرفي وغيره في أيّامٍ مُتفرقة، ونَفى جماعةً منهم إلى الشام وقُوص بعد أن عاقب جماعةً منهم، فكَثُرت القالةُ في ذلك. قيل إنه سأل بعضَهم بأن قال: «لو قتلتموني من الذي تنصِّبُونه بَعْدِي في السلطنة؟» فقالوا: «الأمير أُزْبُك»، وقيل غير ذلك. وأخذ السلطانُ في الاستعداد والحَذَر، وسقط

(١) هجر عليه: قال فيه قولاً قبيحاً وأفحش. (لسان العرب).
(٢) الطبر: الفأس. فارسية.

عليه أيضاً مِراراً سهامُ نُشَّاب من أطباق المماليك السلطانية، فهذا كان السبب لقبض أُزْبُك وغيره. وأنا أقول: إن جميع ما وقع من مسك الأمَرَاء، وضَرْب جماعة من الخاصّكيّة بالمقارع، ونفي بعضهم إنما هو لسبب جَانِي بَك الصُّوفيّ لا غير.

ثم في يوم السبت ثامنه خلعَ السّلطانُ على الأمير أرْكَمَاس الظاهريّ رأس نَوْبَة النُّوَب باستقراره دَوَادَاراً كبيراً عوضاً عن أُزْبُك المذكور. وخَلَعَ عَلَى الأمير تِمْرَاز القَرْمَشيّ المعزول عن نيابة غَزَّة باستقراره رأس نَوْبَة، وأنعم عليه بإقطاع أرْكَمَاس المذكور. وأنعم بإقطاع تِمْرَاز الذي كان السلطان أنعم عليه به بعد مجيئه من غَزَّة وهو تقدمة ألف أيضاً على الأمير يَشْبُك السّودوني شاد الشراب خاناه. وأنعم بطبلخاناه يشبُك السُّودُوني على الأمير قَرَاجَا الأشرفي الخازندار. وخلعَ السلطانُ في هذه الأيّام على صفيّ الدين جَوْهَر السّيفي قَنْقَبَاي اللّالا باستقراره خازنداراً عوضاً عن الأمير خُشْقَدَم الظاهري الرّومي بحُكْم انتقاله زماماً عوضاً عن الأمير كافُور الشّبلي الصَّرْغَتْمُشِيّ الرّومي بعد وفاته في السنة الماضية. وكانت وظيفة الخازندارية شاغرة من يوم تاريخه، والسلطان ينظر فيمن يولّيه من الخدام من قدماء خدام الملوك، فَرُشّح مَرْجان خادم الوالد، فخافه الخُدّام من شِدّة بأسه وحوّلوا الأشرف عنه. وكان الطَّوَاشي جَوْهَر الجُلُبَّانِيّ الحَبشِيّ لالا ابن السلطان له حُنُوٌ وصُحْبَةٌ قديمة بجَوْهَر هذا، فكلّم السلطان بسببه ونعته بالدين والعفّة والعقل والتَّدْبير، ولا زال بالسلطان حتى طلبه وولّاه الخازندارية دفعة واحدة ــ فإنه كان من أصاغر الخدَّام لم تسبق له رئاسة قبل ذلك، وإنما كان يعرف بين الخدام بأخي اللالا ــ فنال جَوْهَر هذا من الحُرْمة والوَجَاهة والاختصاص بالملك الأشرف ما لم ينله خادمٌ قبله. انتهى.

ثم في سابع عشرين ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين المذكورة قَدِمَ مُبَشِّرُ الحاج العراقي وأخبر بسلامة الحاج، وأنه قَدِمَ محملُ العراق في أربعمائة جَمَل جهَّزَه السلطانُ حُسَيْن بن علي ابن السلطان أحمد بن أويس من الحِلَّة.[١] وكان

(١) الحلّة: مدينة بين الكوفة وبغداد.

السلطان حُسَيْن هذا قد آستَوْلَى عَلَى شُشْتُر(١) والحِلَّة، وصاهر العَرَب، فقَوِيَ بأسُه بهم، وقاتل شاه محمد بن قَرَا يوسف صاحب بَغْدَاد وتَمّ أسرُه بهذه البلاد المذكورة، وجهّز الحاجَ وكان له سنين قد انقطعَ لاستيلاء هذا الزِّنْدِيق شاه محمد بن قَرا يُوسُف عَلَى العراق، فإنه كان محلول العقيدة لا يتديّن بدين، وقتل العلماء وأباد الناس، وهو أحد أسباب خراب بغداد والعراق هو وأخوته كما سيأتي ذكره، وذكر أقاربه في وفيات هذا الكتاب عند وفاتهم، وذهاب روحهم الخبيثة اللعينة إلى جهنَم وبئس المصير.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة حَدَث مع غروبُ الشمس بَرْقٌ ورَعْدٌ شديد متوالٍ، ثم مطرٌ غزيرٌ خارج عن الحدِّ، وكان الوقت في أثناء فصل الخريف.

(١) ششتر: هي مدينة تستر، ويسميها العامة ششتر، وهو تعريب شوشتر. وهي مدينة من كور الأهواز من خوزستان. (تقويم البلدان ــ ومعجم البلدان).

ذكر قتلة الخواجا نور الدين علي التبريزي العجمي المتوجه برسالة الحطِّي ملك الحبشة إلى ملوك الفرنـج

ولمَّا كان يوم الثلاثاء رابـع عشرين جمادى الأولى من سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة استَدْعَى السلطانُ قُضَاةُ الشرع الشريف إلى بين يديه فاجتمعوا. وندب السلطانُ قاضيَ القضاة شمسَ الدين محمداً البُسَاطِيّ المالكي للكشف عن أمره وإمضاء حُكْم الله فيه، وكان التَبريزِي مسجوناً في سِجْن السلطان، فنقله القاضي من سِجْن السلطان إلى سجنه، وادّعى عليه بالكُفر وبأمور شنيعة، وقامت عليه بينة معتبرة بذلك، فحكم بإراقة دمه. فشُهِّرَ في يوم الأربعاء خامس عشرين جمادى الأولى المذكورة على جمل بالقاهرة ومصر وبُولاق، ونُودِي عليه: «هذا جزاء من يَجْلِبُ السلاح إلى بلاد العَدُوِّ، ويلعب بالـدِّينَيْن». وصار وهـو راكبُ الجمل يتشاهَدُ، ويقرأ القرآن ويُشْهِدُ الناس أنه باقٍ على دين الإسلام، والخلق صحبته أفواجاً، ومن الناس من يبكي لبكائه، وهم العامة الجهلة. والذي أقوله في حقه: إنه كان زِنْدِيقاً ضالاً مستخِفّاً بدين الإسلام. ولا زالوا به إلى أن وصَلوا إلى بَيْن القَصْرَين، فأُنزِلَ عن الجمل، وأُقْعد تحت شُبَّاك المدرسة الصالحية، وضربت عنقُه في الملإ من الخلائق التي لا يَعْلَمُ عددَها إلا الله تعالى. فنسأل الله السلامة في الدين، والموت على الإسلام.

وكان خبر هذا التِّبريزيِّ أنه كان أوَّلاً من جملة تجَّار الأعاجم بمصر وغيرها، وكان يَجُول في البلاد بسبب المَتْجَر على عادة التجار، فاتّفَقَ أنه توجَّه إلى بلاد الحبَشة فحصلَ له بها الرِّبـحُ الهائل المتضاعف. وكان في نفسه قليل الدين، مع جهلٍ وإسراف، فطلبَ الزيادة في المال، فَلَمْ يَرُمْ بوصله إلى مراده إلا أن يتقرّب إلى الحَطِّي ملك الحبشة بالتحف. فصار يأتيه بأشياء نادرة لطيفة؛ من ذلك أنه

صار يصنع له الصُّلْبَان من الذَّهَب المُرَصَّع بالفصوص الثمينة، ويحملها إليه في غاية الاحترام والتَّعْظيم كما هي عادة النَّصارى في تعظيمهم للصليب، وأشياء من هذه المقولة. ثم ما كفاه ذلك حتى إنه صار يَبْتَاعُ السلاح المُثَمَّن من الخُوذ والسَّيوف الهائلة والزرديات والبَكَاتر[1] بأغلى الأَثْمان ويتوجّه بها إلى بلاد الحبشة. وصار يُهَوِّن عليهم أمرَ المسلمين، ويعرفهم ما المسلمون فيه بكل ما تصل القُدْرَة إليه، فتقرّب بذلك من الحطِّي حتى صار عنده بمنزلة عظيمة. فعند ذلك ندبه الحطِّي بكتابه إلى مُلُوك الفِرنـج، عندما بلغه أخذُ قُبْرُس وأَسْرُ ملكها جَيْنُوس، يَحُثُّهم فيه على القيام معهُ لإزالة دين الإسلام، وغَزْوِ المسلمين، وإقامة المِلّة العيسوية ونُصْرَتها، وأنه يسير في بلاد الحبشة في البرِّ بعساكره، وأن الفِرنـج تسير في البحر بعساكـرها في وقت مُعَيَّن إلى سَوَاحل الإسلام، وحَمَّلُه مـع ذلك مُشافَهَات. فخرج التَّبْرِيزي هذا من بلاد الحَطِّي بكتابه وبما حمله من المشافهات لموك الفِرنـج بعَزْمٍ واجتهاد، وسلَكَ في مسيره من بلاد الحبشة البرِّيَّة حتى صار من وراء الواحات[2]، ثم سلك من وراء الواحات إلى بلاد المغْرب، وركب منها البَحْر إلى بلاد الفِرنـج، وأَوْصَل إليهم كتاب الحطّيّ وما معه من المشافهات، ودعاهم للقيام مع الحطِّيّ في إزالة الإسلام وأهله، واستحثهم في ذلك، فأجابه غالبُهم، وأنعموا عليه بأشياء كثيرة، فاستعمل بتلك البلاد عِدّة ثياب مُخَمَّل مُذَهَّبة باسم الحطِّيّ، ورَقَمَهَا بالصلبان، فإنه شعارهم.

قلتُ: لولا أنه داخلهم في كُفْرهم، وشاركهم في مأكلهم ومشربهم، ما طابت نفوسُهم لإظهار أَسْرَارِهم عليه، وكانوا يقولون: هذا رجل مُسْلِمٌ يمكن أنه يتجسّس أخبارَنا وينقلها للمسلمين ليكونوا منا على حذر، وربما أمسكوه بل وقتلوه بالكلية. انتهى.

(١) البكاتر: جمع بكتر، وهو سترة من الزرد. (النجوم: ٦٣٩/٦، طبعة كاليفورنيا).

(٢) الواحات: هي البقاع المعمورة الواقعة على عيون الماء بالصحراء الغربية بمصر، وعددها اليوم خمس واحات هي: سيوه، والبحرية، والفرافرة، والداخلة، والخارجة، وكانت الواحات مراكز هامة لتجارة القوافل. وواحدة الوحات واحة أو واح، وهي كلمة فرعونية، (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٩٣٥).

ثم خرج من بلاد الفِرنـج وسارَ في البحر حتى قدم الإسكندرية ومعه الثياب المذكورة ورهبان من رُهْبَان الحبشة. وكان له عِدّة عبيد، فيهم رجل دين، فنمّ عليه بما فعله، ودلّهم على ما معه من القماش وغيره، فأُحِيطَ بمركبه وبجميـع ما فيها، فوجَدُوا بها ما قاله العبدُ المذكور، فحُمِل هو والرُّهبَان وجميـع ما معه من القاهرة. فسعى بمالٍ كبير في إبقاء مهجته، وساعَدَه في ذلك مِمّن يُتَّهم في دينه، فلم يَقْبَل السلطانُ ذلك، وأمر به فحُبس ثم قتل حسبما ذكرناه، عليه من الله ما يستحقه. انتهى.

ثم في يوم الخميس تاسـع شهر رجب خلـع السلطانُ على جلال الدين محمد ابن القاضي بدر الدين محمد بن مُزْهِر باستقراره في وظيفة كتابة السّرّ بالديار المصرية عوضاً عن والده بحكم وفاته، وله من العمر دون العشرين سنة، ولم يَطُرّ شاربُه. وخلـعَ السلطانُ على القاضي شرف الدين أبي بكر بن سليمان سبط ابن العجمي المعروف بالأشقر أحد أعيان موقِّعي الدّست باستقراره نائب كاتب السّرّ، ليقوم بأعباء الديوان عن هذا الشاب لعدم معرفته وقلّة دُرْبته بهذه الوظيفة. وكانت ولاية جلال الدين المذكور لكتابة السّرّ على حَمْل تسعين ألف دينار من تركة أبيه.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرين شهر رجب المذكور قَدِمَ الأميرُ سُودُون من عبد الرحمن نائب الشام إلى القاهرة وصحبتُه القاضي كمـال الدين محمـد بن البَارِزِيّ كاتب سِـر دِمَشق، وطلعا إلى القلعـة، فخلـع السلطانُ عليهما خلـع الاستمرار. واجتمـع [السلطان] به غير مَرَّة ـ أعني بسُودون من عبد الرحمن ـ فكلّمه سُودون فيما يفعله مماليكه الجلبان بالمباشرين وغيرهم، وخـوَّفه عـاقبة الممـاليك القـرانيص من ذلك، فقـال له الملك الأشـرف: «قد عجـزت عن إصلاحهم»، ثم كشف رأسه ودعا عليهم بالفناء والموت غير مَرة، فقال له الأتابك جارقطلو: «ضَـعْ فيهم السيف وأقِمْ عوضهم، وما دام رَأسُك تعيش فالمماليكُ كثيرٌ، ومائة من القرانيص خيرٌ من ألف من هؤلاء الأجلاب، ولولا حُرْمة السلطان لكان صغارُ عبيد القاهرة كفؤاً لهم».

وكان سبب ذلك أنهم صاروا يضربون مباشري الدَّولة وينهبون بيـوتهم، ووقـع منهم في دوران المحمل في هذه السنة أمور شنيعة إلى الغاية، وتقاتلوا مـع العبيـد حتى قتل بينهما جماعـة وأشياء غيـر ذلك. فمـال السلطان إلى كلام جَارْقُطلو، وأراد مسك جماعة كبيرة منهم، ونفي آخرين، وتفرقة جماعة أُخر على الأمراء، وقال: «أحسب أن مائة ألف دينار ما كانت، ومتى حصلَ نفـعُ المماليك المشتروات لأستاذهم أو لذُرِّيَّته؟». فلما رأى الأمير بيبُغا المظفري ميل السلطان لكلام جارقطلو، أخذ في معارضته وردّ كلامه، فكان من جملة ما قاله: «والله لولا المماليك المشتروات ما أطَاعَك واحدٌ منا ــ وأشار بخروج جاني بك الصوفي من السجن واختفائه بالقاهرة ــ وخلِّ عنك كلامَ هذا وأمثالـه»، وكان عبـد الباسط مساعداً لجارقطلو، ثم التفت بيبغا وقال لعبد الباسط: «أنت تكون سبباً لزوال مُلْك هذا». فعند ذلك أَمْسَك الأشرف عما كان عزم عليه لعلمه بنصيحة بيبغا المظفريّ له. وانفض المجلس بعد أن أمرهم السلطان بكتمان ما وقـع عند السلطان من الكَلام. فلم يخفَ ذلك عن أحد، وبلـغ المماليك الأشرفية، فتحلّفوا لجَارْقُطلو ولعبد الباسط ولسُودون من عبد الرحمن.

فلما كان يوم الجمعة ثاني شعبان نَزَلَ المماليكُ الأشرفية من الأطباق إلى بيت الوزير كَرِيم الدين بـن كاتب المناخ ونهبُوه لتأخر رواتبهم. وسافرَ فيه الأميرُ سُودون من عبد الرحمن إلى محلّ كفالته؛ وكان السلطـان أراد عزله وإبقاءه بمصر فوعد بخمسين ألف دينار حتى خلـع عليه باستمراره، فكلّمه بعضُ أصحابه في ذلك فقال: «أحمل مائةَ ألف دينار ولا أقعد بمصر في تهديد الأجلاب»[١].

(١) المماليك الأجلاب: هم الذين يشتريهم السلطان من التجار الذين يستقدمونهم صغاراً، فيتعلمون في الطباق، فيصيرون من جملة المماليك السلطانية التابعين للسلطان القائم، فهم مشترواته ومماليكه. ويقال لهم أيضاً الجلبان والمشتروات. أما القرانيص فهم مماليك السلاطين السابقين أو الأمراء السابقين الذين ينضمون إلى السلطان القائم. وكانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية مميزة، غير أنهم ــ بحكم انتماءاتهم السابقة المختلفة ــ لا يتميزن بعصبية واحدة تجمعهم ليكونوا قوّة تحقق غاياتها. فلذلك كانوا لا يحصلون على العطاءات الوفيرة ولا ينالون الرتب العالية إلا في حالات قليلة. وقد تميزت علاقتهم بالأجلاب بالتنافر والعداء المتبادل . راجـع أيضاً ص ٣٧ مـن هذا الجزء، حاشية (٢).

ثم لما كان يوم الثلاثاء سادس شعبان ثارت الفتنة بين المماليك الجلبان وبين الأمير الكبير جارْقُطْلو. وكان ابتداء الفتنة أنه وقع بين بعض المماليك السلطانية وبين مماليك الأمير الكبير جارْقُطلو، وضربت الجلبان بعض مماليك جارقطلو، فأخذ المملوك يدافع عن نفسه وردّ على بعضهم، وكان شجّ بعض المماليك السلطانية. فعند ذلك قامت قيامتهم، وحرّك ذلك ما كان عندهم من الكمين من أستاذهم جَارْقُطلو، فتجمعوا على المملوك المذكور وضربوه، فهرب إلى بيت أستاذه واحتمى به. فعادت المماليك إلى إخوتهم واتفقوا على جارْقطلوا، وتردّدُوا إلى بابه غير مَرّة. وباتت الناسُ على تخوّف من وقوع الفتنة لوقوع هذه القضيّة. وأصبحوا من الغد في جمع كثير من تحت القلعة، وقد اتفقوا على قتل جارْقطلو ومماليكه، فماج الناسُ لذلك وأغلقوا الأسواق خشية من وقوع النهب، وتزاحم الناس على شراء الخبز، وأغلقت الدّرُوب، وانتشرت الزعر وأهل الفساد، وتعوّق مباشرو الدولة من النزول من القلعة إلى دُورِهم. وأرسل السلطانُ إليهم جماعةً بالكف عن ما هم فيه، وهدَّدهم إن لم يرجعوا، فلم يلتفتوا إلى كلامه. وساروا بأجمعهم إلى بيت الأمير الكبير جارقطلو، وكان سكنه ببيت الأمير طاز بالشارع الأعظم عند حمام الفارقاني، فأغلق جارقطلو بابه، وأصعد مماليكه على طبلخاناته فوق باب داره ليمنعوا المماليك السلطانية من كسر الباب المذكور وإحراقه. وتراموا بالنشاب، وأقام الأجلابُ يومهم كلَّه مع كثرتهم لا يقدرون على الأمير الكبير جارقطلو ولا على مماليكه، مع كثرة عددهم، لعدم معرفتهم بالحروب ولقلة دربتهم وسلاحهم.

هذا والسلطان يرسل إليهم بالكفّ عما هم فيه، وهم مصممون على ما هم فيه يومَهم كله. ووقع منهم أمور قبيحة في حق أستاذهم وغيره. فلما وقع ذلك غضب السلطان غضباً عظيماً. وأرادَ أن يُوسِع الأمراء في حق مماليكه، فخوفه الأمراء سوء عاقبة ذلك، فأخذ يكثر من الدعاء عليهم سراً وجهراً، وباتوا على ذلك.

فلما أصبحُوا يوم الخميس ثامن شعبان استشارَ الملكُ الأشرفُ الأمراءَ في

أمر مماليكه، فأشاروا عليه بأن يرسل يطلب من الأمير الكبير جَارْقُطْلُو المماليك الذين كانوا سبباً لقيام هـذه الفتنة. وكانت المماليك الجلبان لما رأوا في الأمس حالهم في إدبار، أرسلوا يطلبون غُرَمَاءَهم من مماليك جَارْقُطْلُو من السلطان فلم يُجِبْهُـم السلطان إلى ذلك. فأرسل السلطانُ بعد ذلك للأمير الكبير يطلب مماليكه الذين كانوا في أوّل هذه الفتنة، فأرسل إليه بجماعة منهم، فأخذهم السلطانُ وضَرَبَهم ضَرْباً ليس بذاك، ثم أمر بحبسهم. ووافق ذلك عجزُ المماليك الجُلْبَان عن قتال الأمير الكبير لعدم اجتماع كلمتهم ولفرار أكثرهم وطلوعهم إلى الطَّبَقة، فأذعنوا بالصلح وخمدت الفتنةُ ــ ولله الحمد ــ بعد أن كاد أمرُ هذه الوَقْعَة أن يَتَّسِـع إلى الغاية، لأن غالب الأمراء شَقَّ عليهم ما وقع للأمير الكبير، وقالُوا: «إذا كان هذا يقـع للأمير الكبير، فنحنُ من باب أَوْلَى وأحقّ لأعظم من هذا». وتنبّه من كان عنده كمين من الملك الأشرف من المماليك المؤيّدية [شيخ] وغيرهم، وظهر للسطان لوايـح من ذلك، فاحتار بين مماليكه وأمرائه إلى أن وَقَع الصُّلْـحُ. ومن يومئذ تغيّر خاطر جَارْقُطْلُو من الملك الأشرف في الباطن، مـع خصوصيته بالأشرف، حتى أبدَى بعضَ ما كان عنده في سَفْرَةِ آمِد حسبما يأتي ذكره.

ثم وردَ الخبرُ على السلطان بأن في خامس شعبان هـذا ورَدَ إلى ميناء الإسكندرية خمسةُ أغْرِبَة فيها مقاتلة الفِرنْـج مشحونة بالسلاح، وباتوا بها، وقد استعـدّ لهم المسلمون. فلما أصبحَ النهـارُ واقعـوهم، وقـد أدركهم الـزَّيْني عبد القادر بن أبـي الفرج الأستادار ــ وكان مسافراً بترُّوجة ــ ومعه غالب عرب البُحَيرة نَجْدَةً للمسلمين. فلما كثر جمـع المسلمين انهزمَ الفِرنْـجُ ورُدُّوا من حيث أتوا في يوم الأحد حادي عشرة، ولم يُقْتَل من المسلمين سوى فارس واحد من جماعة ابن أبـي الفَرَج.

قلت قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[١].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

كل ذلك والسلطان مشغول بتجهيز تجريدة إلى بلاد الشَّرْق. فلما كان ثاني عشر شعبان المذكور أنفقَ السلطانُ في ثلاثمائة وتسعين مملوكاً من المماليك السلطانية، لكل مملوك خمسين ديناراً، وفي أربعة من أمراء الألوف، وهم: أرْكَمَاس الظاهريّ الدوادار الكبير، وقَرْقَمَاس حاجب الحجاب، وحسين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمُش البَهَسْنِي، ويَشْبُك السُّودُوني المعروف بالمُشِد، لكل واحد ألفي دينار. وأنفق أيضاً في عِدَّةٍ من أمراء الطبلخانات والعشرات، فبلغت نفقةُ الجميع نحو ثلاثين ألف دينار، ورسم بسفرهم إلى الشّام، فسافروا في سابع عشرين شعبان المذكور.

ثم في يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان حُمِلَت جامكيّة المماليك السلطانية إلى القلعة لتنفق فيهم على العادة، فامتنعوا من قبضها، وطلبوا زيادة لكل واحد ستمائة درهم، وصمموا على ذلك. وترددَت الرُّسُل بينهم وبين السلطان إلى أن زيد في جوامك عِدَّةٍ منهم، وسكنَ شَرُّهُم، وأخذوا الجامكيّة في يوم الاثنين ثامن عشره.

ثم بعد ذلك وقع بين المماليك الجُلْبَان وبين العبيد، فتجمّع السُّودان وقاتلوهم، فقتل بينهم عِدَّةٌ، وصاروا جَمْعَين لكل جمع عَصَبِيَّة.

ثم في يوم الأربعاء تاسع ذي القعدة وردَ الخبرُ على السلطان بأخذ الأمراء المتوجِّهين إلى جهة بلاد الشَّرْق مدينة الرُّهَا من نواب قَرَايُلُك. وكان من خبر ذلك أن العساكر المصرية لما سارت من القاهرة إلى جهة الشّام لأخذ خَرْتَبِرْتْ(١) ــ وقد مات مُتَوَلِّيها، ونازلها عسكر قَرَايُلُك صاحب آمِد ــ فلما وصلُوا إلى مدينة حَلَب ورد عليهم الخبر بأخذ قَرَايُلُك قلعة خَرْتَبِرْت وتحصينها وتسليمها لولده، فأقاموا بحَلَب إلى أن وَرَد عليهم الأميرُ سُودون من عبد الرحمن نائب الشام بعساكر دمَشْق، ثم جميع نوَّاب البلاد الشامية بعساكرها، وتشاوروا في السَّيْر لها، فأجمعَ رأيُهم على المسير. فمضوا بأجمعهم: العسكر المصري والعسكر الشامي

(١) خَرتَبِرت: اسم ارمني يطلق على حصن زياد ببلاد الروم في أقصى ديار بكر.

إلى جهة الرُّهَا، فأتاهم بالبيرة كتابُ أهل الرُّهَا بطلب الأمان، وقد رَغِبوا في الطاعة، فأمنوهم وكتَبُوا لهم كتَاباً. وساروا من البِيرة وبين أيديهم مائتا فارس من عَرَب الطَّاعة كشَّافة، فوصلت الكَشَّافَة المذكورون إلى الرُّهَا في شوّال، فوجدُوا الأميرَ هَابِيل بن الأمير عثمان بن طُرْعَلِي المدعو قَرَايُلُك صاحب آمِد قد وصل إليها ودخلها وحصَّنها وجمع فيها خلائق من أهل الضياع بمواشيهم وعيالهم وأموالهم، فنزلوا عليها، فرموهم بالنُّشَّاب من فوق أسوار المدينة.

فلما رأى هَابِيلُ قِلَّة العَرَب بَرَزَ إليهم في نحو ثلاثمائة رجل من عسكره وقاتلهم، فثبتوا له وقاتلُوه، فقُتِل بين الفريقين جماعةٌ والأكثر من العَرَب، فأخذَ هَابِيل رؤوسهم وعلقها على أسوار المدينة. وبينما هم في ذلك أدركهم العسكرُ المصري والشاميُّ ونزلوا على ظاهر الرُّها يوم الجمعة العشرين من شوال، فوجدُوا هَابِيلَ قد حصّن المدينة، وجعل جماعة من عساكره على أسوارها. فلما قَرُبَ العسكر من سُور مدينة الرُّهَا رماهُم الرّجال من أعلى السور بالنُّشَّاب والحجارة، فتراجع العسكرُ عنهم ونزلوا بخيامهم إلى بعد الظهر. فركبوا الجميع وأرسلوا إلى أهل الرُّها بالأمان، وأنهم إن لم يكفوا عن القتال أخربوا المدينة، فلم يلتفتوا إلى كلامهم ورموهم بالنُّشَّاب. فاتَّفق العسكر حينئذ على الزَّحْف، وركبوا بأجمعهم وزَحَفُوا على المدينة، وجَدُّوا في قتالها. فلم يكُن غير ساعة إلا وأخذوا المدينة واستولوا عليها. وتعلق أعيانُ البلد ومقاتلتها بالقلعة، فانتشر العسكرُ وأتباعهُم بالمدينة ينهبون ويأخذون ما وجدوا ويأسرون مَن ظفِرُوا به، وأمعنوا في ذلك حتى خرجوا عن الحدِّ. وأصبحوا يوم السبت جدُّوا في إحصار القلعة، وأرسلُوا إلى مَن بها بالأمان، فلم يقبلوا واستمرُّوا بالرَّمْي بالنُّشَّاب والحجارة وغير ذلك. ونصبُوا على القلعة المكاحِلَ والمدَافِع، وأخذوا في النقوب، وباتوا ليلة الأحد على ذلك. وأصبحوا يوم الأحد على ما هم عليه من القتال والحصار إلى وقت الضحى، فضعف أمرُ من بالقلعة بعد قتال شديد وطَلَبُوا الأمانَ، فكَفُّوا عند ذلك عن قتالهم. ونزلت رُسُلُهم إلى الأمير سُودُون من عبد الرحمن نائب الشام، وهو مقدّم العساكر، وكلَّمُوهم في نزولهم وتسليمهم القلعة، وحَلَّفُوه هو والأمير قَصْرُوَه

نائب حَلَب على أنهم لا يؤذونهم ولا يقتلون أحداً منهم، فركنوا إلى أيمانهم. ونزلَ الأميرُ هَابِيل بن قَرَايُلُك ومعه تسعة(١) من أعيان أمراء أبيه في وقت الظهر من يوم الأحد ثاني عشرين شوال المذكور، فتسلمه الأميرُ أرْكَمَاس الظاهريّ الدَّوَادَار الكبير. وركب الأمير سُودُون من عبد الرحمن ومعه بقية النُّواب إلى القلعة [ليتسلموها](٢)، فوجدُوا المماليك السلطانية قد وقفوا على باب القلعة ليدخلوا إليها، فكلَّمَهُم النُّوَّاب في عدم دخولهم وقالوا لهم: «نحن أعطيناهم أماناً»، ومنعوهم من الدخول إليها، فأفحشوا في الرَّدِّ على النُّوَّاب فراجعوهم في ذلك، فهمَّ المماليك بقتالهم، وهاجموا القلعة بغير رضا النُّوَّاب، والأمراء ودخلوها. فشقَّ ذلك على النُّوَّاب وعادوا إلى مخيَّمهم. فمدَّ المماليكُ أيديهم هم والتُّرْكُمَان والأَعرابُ والغِلْمَانُ في النَّهْب والسَّبْي حتى نهبوا جميع ما كان بالقلعة، وأسروا النِّسَاء والصِّبْيَان وأفحشوا بها إلى الغاية.

ثم ألقوا النار فيها فأَحْرَقُوها بعدما أخلوها من جميع ما كان فيها، وقتلوا من كان بها وبالمدينة من الرجال والمقاتلة، حتى جاوز فعلُهم الحدَّ.

ثم أخربوا المدينة وألقوا النار فيها فاحترقت، واحترق في الحريق جماعةٌ من النِّسْوَة، فإنهن اختفَين في الأماكن من البلد خوفاً من العسكر، فلما احترقت المدينةُ احترقن الجميع في النار التي أُضرمت بسكك المدينة وخباياها، واحترقَ أيضاً معهن عدةٌ كبيرةٌ من أولادهن.

هذا بعد أن أسرفوا في القتل بحيث إنه كان الطريق قد ضاق من كثرة القتلى. وفي الجملة فقد فعلوا بمدينة الرُّهَا فعل التَّمُرلنكيين وزيادة من القتل والأسر والإحراق والفجور بالنساء(٣) فما شاء الله كان.

ثم رحلوا من الغد في يوم الاثنين ثالث عشرينه وأيديهم قد امتلأت من

---

(١) في الأصل: «تسعون» وما أثبتناه عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) قارن بالسلوك للمقريزي: ٤/٨٠٦ـ ٨٠٩، وفيه تفصيلات أخرى.

النهب والسبي، فقطعت منهم عِدَّة نساء من التَّعب فمتنَ عطشاً، وبيعت منهن بحَلَب وغيرها عدةٌ كبيرة.

قال المقريزي: وكانت هذه الكائنة من مصيبات الدَّهر: [الوافر]

وَكُنَّا نَسْتَطِبُّ إذَا مَرِضْنَا فَجَاءَ الدَّاء مِنْ قِبَلِ الطَّبيب

[فأما بالعهد من قدم][1] لقد عهدنا مَلِكَ مصر إذا بَلَغَهُ عن أحدٍ من ملوك الأقطار قد فعل ما لا يجوز أو فعل ذلك رعيتُه بعث يُنكِرُ عليه ويهدِّدُه، فصرنا نحن نأتي من الحرام بأشنعه ومن القبيح بأفظعه ـ وإلى الله المشتكى ـ انتهى كلام المقريزي.

قلت: لم يكن ما وقع من هؤلاء الغوغاء بإرادة الملك الأشرف، ولا عن أمْره ولا عن حضوره. وقد تقدّم أن نُوّابَ البلاد الشامية وأكابرَ الأمراء منعوهم من دخول القلعة بالجملة فلمْ يقدِرُوا على ذلك لكثرة من كان اجتمعَ بالعسكر من التّركمان والعرب النهّابة، كما هي عادة العساكر. وإن كان كون الأشرف جهَّز العسكر إلى جهة الرُّها، فهذا أمرٌ وقع فيه كلُّ أحدٍ من مُلوك الأقطار قديماً وحديثاً، ولا زالت الملوكُ على ذلك من مبدأ الزَّمان إلى آخره، معروف ذلك عند كل أحد. انتهى.

ثم في ليلة الخميس ثامن ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين المذكورة قدم السيد الشريف شهاب الدين أحمد [بن علي بن إبراهيم بن عدنان الحسيني][2] من دِمَشق بطلب من السلطان بعد أن خرجَ أكابرُ الدَّوْلة إلى لقائه، واستَمَرَّ بالقاهرة إلى يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة فخلعَ السلطان عليه باستقرارِه كاتب السرِّ الشريف بالديار المصرية، عوضاً عن جلال الدين محمد بن مزْهر بحكم عزله، وعملت الطرحة خضراء برقمات ذهب، فكان له موكب جليل إلى الغاية.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

ثم في يوم الجمعة سادس عشره خَلَعَ السلطانُ على جلال الدين محمد بن مُزهر المقدم ذكره واستقر في توقيع[١] المقام الناصري محمد ابن السلطان.

ثم في يوم السبت رابع عشرينه قَدِم القاهرة الأمير هَابيلُ بن قرايلك المقبوض عليه من الرُّها ومعه جماعة في الحديد، فَشُهِّرُوا بالقاهرة إلى القلعة، وسجنُوا بها. وقد تخلف العسكرُ المصري بحلب مخافة أن يهجم قرايُلك على البلاد الحلبية.

وفي هذه السنة كان خراب مدينة تِبريز[٢] وسبب ذلك أن صاحبها إسكندر بن قَرا يُوسف بن قَرَا محمد بن بَيرم خَجا التركماني زحف على مدينة السُّلطانية[٣] وقتل متملكها من جهة القان شاه رُخّ بن تَيْمُورلنك في عدة من أعيان المدينة، ونهب السلطانية وأفسد بها غاية الإفساد. فسار إليه شاه رُخّ في جموع كثيرة، فخرج إسكندر من تِبريز وجمع لحربه، ولَقِيه وقد نزل خارج تِبريز. فانتدب [شاه رُخّ] لمحاربة إسكندر المذكور الأميرَ عثمان[٤] بن طُرْ علي المدعو

(١) أي في وظيفة الموقِّع، والموقِّع هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني، وكان يعرف باسم كاتب الدرج. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥). وبما أن ابن السلطان لا يتمتع بصلاحية إصدار الولايات فيكون المراد بالعبارة هنا أنه استقرّ كاتباً له.

(٢) تبريز: ويقال أيضاً توريز، وكانت قاعدة ملك بني هولاكو في بلاد أذربيجان. (انظر صبح الأعشى: ٣٥٨/٤. ط. دار الكتب العلمية). وقد غزا تيمورلنك أذربيجان سنة ٨٠٢هـ وانتزعها من يد قرا يوسف بن محمد زعيم أسرة قراقيونلو التركمانية. ثم ما لبث قرا يوسف أن استردها سنة ٨٠٩هـ. وفي حياته نودي بابنه بير بوداك أميراً على أذربيجان سنة ٨١٠هـ واستمر إلى سنة ٨٢٣هـ حيث تولى إمارة أذربيجان أسكندر بن قرا يوسف واستمر إلى سنة ٨٤١هـ. (معجم زامباور: ٣٨٣).

(٣) السلطانية: نسبة إلى السلطان، واسمها قنغرلان. وهي عن تبريز في سمت المشرق بميلة يسيرة إلى الجنوب على مسيرة ثمانية أيام. بناها خربندا بن أرغون بن أبغابن هولاكو على القرب من جبال كيلان وجعلها كرسي مملكته (صبح الأعشى: ٣٥٩/٤).

(٤) يعتبر عثمان بن طرعلي المدعو قرايُلُك مؤسس أسرة آق قيونلو (آق قويونلي) التركمانية التي حكمت ديار بكر (آمد) ثم اتخذت تبريز بعد ذلك عاصمة لحكمها. وكانت أسرة آق قيونلو (أي قبيلة القطيع الأبيض أو أصحاب الشاة البيضاء) في صراع مع أسرة قراقيونلو (قرة قويونلي) التركمانية أيضاً، ومعناها في التركية قبيلة القطيع الأسود أو أصحاب الشاة السوداء. وقد توفي قرايولُك سنة ٨٣٨ هـ بعد أن استولى على أملاك القاضي برهان الدين صاحب سيواس وأقامه تيمورلنك على ديار بكر. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٢٨/٤؛ ومعجم زامباور: ٣٨٤).

قرايُلك صاحب آمد ـ وقد أمدّه شاه رُخّ بعسكر كثيف ـ وقاتله خارج تِبرِيز في يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة قتالاً شديداً قتل فيه كثيرٌ من الفئتين إلى أن كانت الكسرة على إسكندر وجماعته، وانهزَمَ وهم في أثره يطلبونه ثلاثةَ أيام، ففاتهم إسكندر. فنهَبت الجغتاي[1] عامّة بلاد أذْرِبيجان وكرسي أذْرِبيجان تِبرِيز، وقتلوا وسبوا وأسروا وفعلوا أفاعيل أصحابهم من أعوان تَيْمُور حتى لم يَدعُوا بها ما تراه العين. ثم ألزَم شاه رُخّ أهْلَ تِبرِيز بمالٍ كبير، ثم جلاهم بأجمعهم إلى سَمَرْقَنْد، فما ترك في تِبرِيز إلا ضَعِيفاً أوعاجزاً لا خير فيه. ثم بعد مُدّة طويلة رحلَ إلى جهة بلاده. وبعد رحيله انتشرت الأكرادُ بتلك النواحي تَعْبثُ وتُفْسِد حتى فُقِدَت الأقواتُ وبيع لحم الكلب الرطل بعدة دنانير.

قلتُ: وقد تكرّر قتال إسْكَنْدَر هذا لشاه رُخّ المذكور غير مَرّة، وهو في كل وقعة تكون الكسرةُ والذِّلّة عليه، وهو لا يَرْعَوِي ولا يستحي ولا يرجع عن جهله وغيِّه. وقد نسبَه بعض الناس للشجاعة لكثرة مواقعته مع شاه رُخّ المذكور، وأنا أقول: ليس ذلك من الشجاعة إنما هو من قِلّةِ مروءته، وإفراط جهله، وسخفه وجنونه، وعدم إشفاقه على رعيّته وبلاده، حيث يقاتل من لا قِبَلَ له به ولا طاقة له بدفعه، فهذا هو الجنون بعينه؛ وإن طاب له ـ من هذا ـ الكحلُ فليَكْتَحِل. وأما إسكندر فإنه بعد هزيمته جال في البلاد وتشتّت شملُه وتبدَّدَت عساكرُه، وسار إلى بلاد الأكراد وقد وقـع بها الثُّلُوج، ثم سار إلى قلعة سَلَمَـاس[2] فحصره بهـا الأكراد، وقاسى شدائد إلى أن نجا منها بنفسه وسار إلى جهة من الجهات. انتهى.

---

(١) يطلق اسم الجغتاي في الأصل على خانات ما وراء النهر من أسرة جغتاي خان المغولي ثاني أبناء جنكيز خان. وقد ابتدأ حكم هذه الأسرة بجغتاي سنة ٦٢٤هـ. وبموت قازان تيمور سنة ٧٤٧هـ انقضى حكم الجغتاي الفعلي على ما وراء النهر، وظل أحفاد جغتاي حتى سنة ١٣٧٠هـ يوليهم على العرش الأمراء الترك حكاماً بالاسم دون الفعل. وكان هؤلاء الحكام يختارون في عهد تيمورلنك من أسرة أكداي. ومع ذلك فإن السكان البدو فيما وراء النهر الذين كانوا طائفة مقاتلة تنعم ببعض الامتيازات ظلوا في عهد تيمورلنك يسمون باسم الجغتاي. وإلى هذا المعنى الأخير تنصرف التسمية الواردة أعلاه. انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٢/٧١ ـ ٨١؛ ومعجم زامباور: ٣٧٠.

(٢) سلماس: مدينة في أذربيجان، بينها وبين تبريز ثلاثة أيام.

ثم في يوم الأحد رابع عشرين المحرّم سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة قدم إلى القاهرة رسولُ ملك الشّرق شاه رُخّ بن تَيْمُورلَنْك بكتابه يطلب فيه شَرْحَ البُخَارِي للحافظ شهاب الدين أحمد بن حَجَر، وتاريخ الشيخ تقي الدين المَقْرِيزِيّ المسمى بالسّلوك لدول الملوك، ويَعْرِضُ أيضاً في كتابه بأنه يريد [أن] يكسوَ الكعبة، ويُجْرِي العيشَ بمكّة، فلم يلتَفِت السلطانُ إلى كتابه ولا إلى رسوله، وكتب له بالمنع في كلٍّ ما طلبه[١].

ثم في يوم الخميس سادس عشرين صفر خلعَ السلطانُ على قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِينِيّ وأعيد إلى قضاء الشافعية بعد عزل الحافظ شهاب الدين بن حجر. وخلعَ أيضاً على القاضي زين الدين عبد الرّحمن التَّفَهْنِيّ وأعيد أيضاً إلى قضاء الحنفية بعد عزل قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني. واستقرّ القاضي صدر الدين أحمد بن العجميّ في مشيخة خانقاه شَيْخُون عوضاً عن التَّفَهْنِيّ، وخلعَ عليه في يوم الاثنين أوّل شهر ربيع الأوّل.

ثم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأوّل المذكور خلعَ السلطانُ على القاضي سعد الدين إبراهيم ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جَكم باستقراره ناظر الخواصّ الشريفة بعد موت والده.

ثم في يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر خلعَ السلطان على قاضي القضاة بدر الدين محمود العَيْنِي المقدّم ذكره باستقراره في حِسْبَة القاهرة عوضاً عن الأمير إينَال الشِّشْمَانِيّ، مضافاً لما معه من نظر الأَحْبَاس.

ثم في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر المذكور خلعَ السلطان على الأمير شهاب الدين أحمد الدَّوَادَار المعروف بابن الأقطع ـ وقد صار قبل تاريخه زَرَدْكَاشاً ـ باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن آقْبُغَا التِّمْرَازِيّ بحكم عزله

(١) أورد كل من المقريزي في السلوك والخطيب الجوهري في نزهة النفوس هذا الخبر دون إشارة إلى رفض طلب شاه رخ. وذكر ابن حجر في إنباء الغمر أن شاه رخ طلب كتاب «فتح الباري في شرح البخاري» لابن حجر فجهزت له ثلاث مجلدات من أول الكتاب. ولم يشر ابن حجر إلى كتاب السلوك للمقريزي.

وقدومه إلى القاهرة على إمْرَته، فإنه كان ولي نيابة إسكندرية على إقطاعه: تقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم في خامس عشرينه خلع السلطانُ على آقْبُغَا الجماليّ الكاشف باستقراره أستاداراً بعد عزل الزّيني عبد القادر بن أبي الفرج، على أن آقْبُغَا يحملُ مائة ألف دينار بعد تكفية الديوان، فكذَبَ وتُخُومِل وعُزِل بعد مُدَّة يسيرة حسبما نذكره. وكان أصلُ آقْبُغَا هذا من الأَوْبَاش من مماليك الأمير كَمَشْبُغَا الجمالي أحد أمراء الطبلخانات، وصار يتردّد إلى إقطاع أستاذه كَمَشْبُغَا المذكور، ثم خدم بلّاصِيّاً عند الكشّاف، ثم ترقّى حتى وَلِيَ الكشفَ في دولة الملك الأشرف هذا، وأثْرَى وكَثُرَ مالُه، فحسّن له شيطانُه أن يكون أستاداراً، وأخذ يسعى في ذلك سنين إلى أن سمَح له الملكُ الأشرف بذلك، وتولّى الأستادارية، وأستاذه الأمير كَمَشْبُغَا الجمالي في قَيْد الحياة من جُمْلة أمراء الطبلخانات، فلم تحسن سيرتُه وعُزِلَ بعد مُدَّة.

وفي هذا الشهر وقع الطاعون بإقليم البُحَيْرَة والغَرْبيَّة بحيث إنه أُحْصِيَ من مات من أهل المحلّة زيادة على خمسة آلاف إنسان. وكان الطاعُون أيضاً قد وقعَ بغَزَّة والقُدْس وصَفَد ودِمَشق من شعبان في السنة الخالية، واستمرّ إلى هذا الوقت، وعُدّ ذلك من النّوادر لأنّ الوَقْت كان شتاء، ولم يُعْهَد وقوعُ الطاعون إلا في فصل الرّبيع. ويعلِّلُ الحكماء ذلك بأنه سَيَلَانُ الأَخْلَاط في فصل الرَّبيع وجمودُها في الشتاء، فوقع في هذه السنة بخلاف ذلك. وكان قَدِمَ الخبرُ أيضاً بوقُوع الطاعُون بمدينة بُرْصَا من بلاد الرُّوم، وأنه زاد عِدَّة من يموت بها في كل يوم على ألف وخمسمائة إنسان. ثم بَدأ الطاعون بالديار المصرية في أوائل شهر ربيع الآخر.

قلت: وهذا الطاعون هو الفناء العظيم الذي حصلَ بالدّيار المصرية وأعمالها في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة.

ثم في يوم الخميس أوّل جمادى الأولى نُودِيَ بالقاهرة بصيام ثلاثة أيّام، وأن يتُوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، وأن يخرجوا من المظالم، ثم إنهم

يخرجون في يوم الأحد رابع جمادى الأولى المذكور إلى الصحْراء. فلما كان يوم الأحد رابعه خرج قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِينيّ في جمع مَوْفُور إلى الصَّحْراء خارج القاهرة، وجَلس بجانب تُرْبة الملك الظاهر بَرْقُوق، ووعظَ الناس، فكَثُرَ ضجيج النَّاس وبكاؤهم في دعائهم وتضرّعهم، ثم انفضوا. فتزايدت عِدَّة الأموات في هذا اليوم عمّا كانت في أمسه.

ثم في ثامن جمادى الأول هذا قَدِمَ كتابُ إسكندر بن قَرا يُوسُف صاحب تِبْريز أنه قَدِمَ إلى بلاده، وقَصْدُه أن يمشي بعد انقضاء الشّتاء لمحاربة قرايُلُك، فلم يَلْتَفِت السلطان إلى كتابه لشُغْلِه بموت مماليكه وغيرهم بالطّاعون.

ثم وَرَدَ كتابُ قَرَايُلُك أيضاً على السلطان يسأل فيه العفْوَ عَن وَلَدِه هَابِيل وإطلاقه، فلم يسمَح له السلطان بذلك.

ثم عَظُمَ الوباءُ في هذا الشهر، وأخذ يتزايد في كل يوم. ثم ورد الخبر أيضاً أنه ضُبِطَ من مات من النِّحرِيرِيّة بالوجه البحري إلى يوم تاريخه تسعة آلاف سوى من لم يُعْرَف وهم كثير جداً، وأنه بلغ عِدّة الأموات في الإسكندرية في كل يوم نحو المائة، وأنه شمِلَ الوباءُ غالبَ الأقاليم بالوجه البحري.

ثم وجد في هذا الشهر بنيل مصر والبرك كثيرٌ من السمك والتماسيح قد طفت على وجه الماء ميتةً، وآصْطِيدَت سمكةٌ تسمى بُنِّيَّة(١) كبيرة، فإذا هي كأنما صبغت بدَمٍ من شدّة ما بها من الاحمرار. ثم وجد في البرِّيّة ما بين السويس والقاهرة عدة كبيرة من الظِّبَاء والذئاب مَوْتَى.

ثم قدم الخبرُ بوقوع الوباء أيضاً ببلاد الفِرنْج.

ثم في يوم الخميس سلخه ضُبِطَت عدّة الأموات التي صُلّي عليها بمصليات

(١) البُنِّيَّة: ضرب من السمك أبيض، يكثر في النيل، ظهره أصفر قاتم إلى زيتوني، وبطنه فضّي اللون، وزعانفه برتقالية إلى حمراء. وينطقه العامة بكسر الباء (المعجم الوسيط).

القاهرة وظواهرها فبلغت ألفين ومائة، ولم يرد منها في أوْرَاق الدِّيوان[١] غير أربعمائة ونيِّف، وبِبُولَاق سبعين. وفشا الطاعون في الناس، وكثر بحيث إن ثمانية عشر إنساناً من صيَّادِي السَّمَك كانوا في موضع واحد فمات منهم في يوم واحد أربعة عشر، ومضى الأربعة ليجَهِّزُوهم إلى القُبُور، فمات منهم وهم مشاة ثلاثةٌ، فقام الواحد بشأن الجميع حتى أوصلهم إلى القُبُور فمات هو أيضاً. قاله الشيخ تقي الدين المقريزي في تاريخه، ثم قال أيضاً: وركبَ أربعون رجلاً في مَركب وساروا من مدينة مصر نحو بلاد الصّعيد، فماتُوا بأجمعهم قبل وصولهم إلى المَيمون. ومرّت امرأة من مصر تريد القاهرة وهي راكبة على [حمار][٢] مكَارِي فماتت وهي راكبة، وصارت ملقاة بالطريق يومها كلّه حتى بدأ يَتَغيَّر ريحها، فدُفِنَت ولم يُعْرَف لها أهلٌ. وكان الإنسان إذا مات تغيّر ريحُهُ سَريعاً مع شِدّة البَرْد. وشنع الموت بخانقاه سِرْيَاقُوس حتى بَلَغت العِدّةُ في كل يوم نحو المائتين. وكثر أيضاً بالمَنُوفِيّة والقَلْيُوبِيّة حتى كان يموت في الكَفْر[٣] الواحد ستمائة إنسان.

قلتُ: والذي رأيته أنا في هذا الوَبَاء أن بيوتاً كثيرة خلَت من سكّانها مع كثرة عددهم، وأن الإقطاع الواحد كان ينتَقِلُ في مدَّة قليلة عن ثلاثة أجناد وأربعة وخمسة. ومات من مماليك الوالد رحمه الله في يوم واحد أربعة من أعيان الخاصّكيّة، وهم: أَزْدَمُر السَّاقِي، وملج السلاح دار، وبِيبَرْس الخاصّكيّ، ويوسف الرَّمَّاح؛ ماتوا الجميع في يوم واحد، فتحيَّرْنا بمن نبدأ بتجهيزه ودفنه على اختلاف سُكْناهم وقِلَّة التَّوَابِيت والدِّكَك، وبالله لم أشهد منهم غيرَ يُوسُف الرَّماح، وأرسلتُ لمن بَقِي غَيْرِي، مع أنّ كلّ واحد منهم أهل لنزول السلطان للصلاة عليه.

---

(١) المراد به ديوان المواريث حيث تسجل أسماء من يموتون. ويسمى أيضاً ديوان المواريث الحشرية. وكان هناك ديوان آخر يسمى ديوان الطرحاء يختص بتسجيل أسماء من يموتون من الفقراء ويطرحون على الطرقات. انظر السلوك: ٤/ ٨٢٢.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الكَفْر: القرية الصغيرة أو النائية. والكفر من الأرض: ما بَعُد عن الناس.

ثم أصبح من الغد مات سُنْقُر دَوَادار الوالد الثاني، وكان من أكَابر الخاصّكيّة من الدّولة المؤيّدية. هذا خلاف من مات منهم من الجَمدَارِيّة ومن مماليك الأمراء. وأما من مات من عندنا من المماليك والعَبِيد والجَوارِي والخدم فلا يدخل تحت حَصْر. ومات من اخوتي وأولادهم سبعةُ أنفس ما بين ذكور وإناث، وأعظمهم أخي إسماعيل؛ فإنه مات وسنُّه نحو العشرين سنة، وكان من محاسن الدَّهر.

قال المقريزي: ثم تزايدت عِدّةُ الأموات عما كانت فأُحْصِيَ في يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة مَن أُخْرِج عن أبواب القاهرة فبلغت عِدَّتُهم ألفاً ومائتي ميِّت سوى من خرج عن القاهرة من أهل الحكور والحُسَيْنِيَّة وبُولاق والصَّلِيبَة ومدينة مصر والقَرَافَتَيْن والصحراء، وهم أكثر من ذلك. ولم يورد بديوان المواريث بالقاهرة سوى ثلاثمائة وتسعين، وذلك أن أُناساً عملوا التوابيت للسَّبِيل، فصار أكثرُ الناس يحْمِلُون موتاهم عليها ولا يوردون الديون أسماءَهم.

قال: وفي هذه الأيام ارتفَعَتْ أسعارُ الثِّياب التي يُكَفَّنُ بها الأموات، وارتفع سعرُ سائر ما يحتاج إليه المَرْضى كالسّكَّر[1] وبِزْرِ الرِّجلة والكُمَّثرى على أن القليل من المَرْضى هو الذي يُعالج بالأدْوِيَة، بل بعضهم يموت موتاً سريعاً في ساعة وأقلّ منها. وعظم الوباء في المماليك السلطانية سكان الطباق بالقلعة الذين كَثُرَ فسادُهم وشرُّهم وعَظُمَ عُتُوُّهم وضرهم، بحيث إنه كان يصبح منهم أربعمائة وخمسون مملوكاً مرضى فيموت منهم في اليوم زيادة على الخمسين مملوكاً. انتهى كلام المقريزي.

قلتُ: والذي رأيتُه أنا أنه مات بعض أعيان الأمراء مقدّمي الألوف، فلم يقدروا له على تابوت حتى أخذ له تابوت من السَّبِيل. وأما الأخ رحمه الله فإنه لما تُوُفِّيَ إلى رحمة الله تعالى وجدنا له تابوتاً، غير أنه لا عدَّة فيه؛ فلما وضع الأخ

---

(١) كان الناس يتّخذون السّكّر دواءً للطاعون، وفي ذلك الوقت كان السلطان الأشرف برسباي قد احتكر صناعة السكّر وزراعة قصبه.

فيه طُرِحَ عليه سَلاّرِي سَمُّور من قماشه، على أن الغاسل أخذ مِنْ عليه قماشاً يساوي عشرة آلاف درهم، ومع هذا لم ينهض أهلُ الحانوت[1] بكسوة تابوته.

وبلغ عِدَّة من صُلِّي عليه من الأموات بمصّلى باب النصر في يوم الأحد عاشر جمادى الآخرة خمسمائة وخمسة، وقد أقام هناك جماعة كبيرة بأدوية وأقلام لضبط ذلك. وبطلت الصلاة بالمصلاة، وإنما صار الناس يصلون على أمواتهم صَفّاً واحداً من باب المُصَلّى إلى تجاه باب دار الحاجب؛ فكان يُصَلِّى على الأربعين والخمسين معاً دفعة واحدة. ومات لشخص بخدمتنا يُسَمَّى شمس الدين الذَّهَبي ولدٌ فخرجنا معه إلى المُصَلَّى، وكان سِنُّ الميّت دون سبع سنين، فلما أن وضعناه للصَّلاة عليه بين الأموات جيء بعدّة كبيرة أُخْرى إلى أن تَجاوَزَ عددُهم الحدّ، ثم صُلِّيَ على الجميع. وتقدمنا لأخذِ الميّت المذكور فوجدنا غيرنا أخذه وترك لنا غيره في مقدار عُمْره، فأخذه أهلُه ولم يفطنوا به؛ ففهمت أنا ذلك، وعرَّفت جماعةً أُخر، ولم نُعْلِمْ أباه بذلك، وقلنا لعلَّ الذي أخذه يُوارِيه أحسن مُوَاراة، وليس للكلام في ذلك فائدة غير زيادة في الحُزْن. فلما دُفِنَ الصَّبِيّ وأخذ أهلُ الحانوت التَّابوت صاحوا وقالُوا: «ليس هذا تابُوتَنَا! هذا عتيق وقماشه أيضاً خَلِق». فأشرتُ إليهم بالسّكات، وهدَّدَهُم بعضُ المماليك بالضَّرب، فأخذوه ومضوا؛ فكانت هذه الواقعة من الغَرَائب المهولة. كل ذلك والطاعون في زيادة ونموٍّ حتى أيقن كلُّ أحد أنه هالك لا محالة. وكنا نخرج من صلاة الجمعة إلى بيتنا، وقد وقف جماعةٌ من الأصحاب والخَدَم، فنتعادد إلى الجمعة الثانية، فينقُص منا عِدَّة كبيرةٌ ما بين ميّت ومريض. واستسلم كلُّ أحد للموت، وطابت نفسه لذلك، وقد أوصى وتابَ وأناب ورجع عن أشياء كثيرة. وصار غالب الشَّبَاب في يَدِ كلٍّ واحد منهم سبحة، وليس له دأب إلا التوجه للمصلاّة للصلاة على الأموات وأداء الخمس والبكاء والتوجّه إلى الله تعالى والتخشّع وماتت عندنا وصيفةٌ مولّدة بعد أن مَرِضت من ضحى النهار إلى أن ماتت قبل المغرب،

(١) الحانوت: هو دكّان الحانوتي الذي يتولى تكفين الموتى وإعداد التوابيت لهم. وهو بهذا المعنى تعبير عامي مصري.

فأصبحنا وقد عجز الخَدَمُ عن تحصيل تابوت لها، فتولت تغسيلها أُمُّها وجماعةٌ من العجائز، وكفَّنُوها في أفخر ثيابها على أحسن وجه، غير أننا لم نَلْقَ لها نعشاً. وقد ألزمني التوجه للصلاة على الأمير الكبير بَيْبُغَا المظفريّ، وعلى الشهابي أحمد بن الأمير تِمْرَاز النائب، فوقفت على الباب والميتة محمولةٌ على أيدي بعض الخَدم إلى أن اجتازت بنا جنازَةُ امْرَأة، فأنزلتُ التابوت غصباً ووضعتها عند الميتة «واشتالتا» على أعناق الرجال، وسارت أمّها وبعض الخدم معها إلى أن قاربت التُّربة فأخذوها من التابُوت ودفنوها.

ثم بلغ في جمادى الآخرة المذكورة عِدَّةَ مَن صُلِّيَ عليه بمصلاة باب النصر فقط في يوم واحد زيادة على ثمانمائة ميّت.

ثم في اليوم المذكور بلغ عِدَّة من خرج من الأموات من سائر أبواب القاهرة اثني عشر ألفاً وثلاثمائة ميّت محرّرة من الكَتَبة الحَسَبَة بأمر شَخْص من أكابر الدَّوْلة، وقيل بأمْرِ السلطان. ثم بلغ عِدَّة من صُلِّيَ عليه بمصلاة باب النصر من الأموات في العشر الأوسط من جمادى الآخرة المذكورة ألفاً ونيفاً وثلاثين إنساناً، ويقارب ذلك مصلاة المؤمني بالرُّمَيْلة، فيكون على هذا الحساب مات في هذا اليوم نحو خمسة عشر ألف إنسان.

قال المقريزي: واتفق في هذا الوباء غرائب، منها: أنه كان بالقرافة الكبرى والقرافة الصُّغْرَى من السودان نحو ثلاثة آلاف إنسان ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير، ففنوا بالطاعون حتى لم يَبْقَ منهم إلا القليل، ففرُّوا إلى أعلى الجبل وباتوا ليلتهم سُهَّاراً لا يأخذهم نومٌ لِشِدَّة ما نزل بهم من فقد أهليهم، وظلوا يومهم من الغد بالجبل؛ فلما كانت الليلة الثانية مات منهم ثلاثون إنساناً، وأصبحوا فإلى أن يأخذوا في دفنهم مات منهم ثمانية عشر.

قال: واتفق أن إقطاعاً بالحَلْقَة تنقّل في أيام قليلة إلى تسعة نفر، وكل منهم يموت. ومن كثرة الشغل بالمرضى والأموات تعطّلت الأسواقُ من البَيْع والشراء، وتزايد ازدحام النّاس في طلب الأكفان والنعوش، فَحُمِلَت الأموات على الألواح،

وعلى الأقفاص، وعلى الأيدي. وعجز الناسُ عن دَفْنِ أمواتهم، فصاروا يبيتون بها في المقابر والحفارون طول ليلتهم يحفرون. وعملوا حفائر كبيرة يبلغ في الحفرة منها عِدَّة أموات. وأكلت الكلابُ كثيراً من أطراف الأموات. وصار الناس ليلهم كلّه يسعون في طلب الغسّال والحَمَّالين والأكفان، وترى النعوش في الشوارع كأنها قطارات جِمَال لكثرتها، متواصلة بعضها في إثر بعض. انتهى كلام المقريزي.

ثم في يوم الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة المذكورة جمع الشريف شهابُ الدين أحمد كاتب السّرّ بالديار المصرية بأمر السلطان أربعين شريفاً، اسم كل شريف منهم محمد، وفرّق فيهم من ماله خمسةَ آلاف درهم، وأجلسهم بالجامع الأزهر، فقرأوا ما تَيَسَّر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة، ثم قاموا هم والناس على أرجلهم ودعوا الله تعالى ــ وقد غص الجامع بالناس ــ فلم يزالوا يدعون الله حتى دَخَلَ وقتُ العَصْر، فصعد الأربعون شريفاً إلى سطح الجامع وأذَّنوا جميعاً، ثم نزلوا وصلّوا مع الناس صلاة العَصْر وانفضُّوا. وكان هذا بإشارة بعض الأعاجم، وأنه عمل ذلك ببلاد الشرق في وباء حَدَث عندهم فارتفع عقيب ذلك.

ولما أصبح الناسُ في يوم السبت أخذ الوباء يتناقص في كلّ يوم بالتدريج حتى انقطع. غير أنه لما نقلت الشمس إلى بُرْج الحمل في يوم ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة ودخل فصل الرّبيع، وأخذ الطاعون يتناقص ــ غير أنه فشا المَوْتُ من يومئذ في أعيان النّاس وأكابرهم ومن له شهرة، بعدما كان أوّلاً في الأطفال والموالي والغرباء والخدم، وفشا أيضاً ببلاد الصعيد، وبغالب الدَّوَاب والطَّير، وبدأ التطويل في الأمراض، ومشت الأطباء والجرائحية للمرضى.

والعجب أن الشريف كاتب السِّرّ الذي جمع الأشراف بجامع الأزهر مات بعد ذلك باثني عشر يوماً، ووَلِيَ أخوه كتابة السرّ عوضه، وقبل أن يلبس الخلْعَة مات أيضاً.

وأما من مات في هذا الوباء من الأعيان فجماعةٌ كبيرة، يأتي ذكر بعضهم في وفيات هذه السنة من هذا الكتاب.

ثم في يوم الاثنين تاسع شهر رجب خَلَع السلطان على الأمير الطُّواشي زين الدين خشْقدم الرّومي اليشبكيّ، نائب مقدّم المماليك، باستقراره مقدّم المماليك السلطانية بعد مَوْت الأمير فخر الدين يَاقوت الأرْغُون شَاوِي الحبشي. وخَلَع السلطانُ على الطوشي فيْرُوز الركْني الرُّومي باستقراره في نيابة مقدّم المماليك عوضاً عن خُشقدم المذكور.

ثم في سادس عشر شهر رجب المذكور قَدِم الأمير تَغْرِي بَرْدِي المحموديُّ من ثَغْر دِمْيَاط ــ وكان قد نقل إليه من سجن الإسكندرية قبل تاريخه بمدّة ــ فرسم السلطان أن يتوجه من قليُوب إلى دِمشق ليكون أَتَابكاً بها عوضاً عن الأمير قَاني بَاي الحمزاوِي بحكم حضور قَاني بَاي المذكور إلى القاهرة ليكون بها من جملة مقدّمي الألوف.

ثم في ثالث عشرينه خَلَع السلطان على الشيخ بدر الدين حسن بن القُدْسيِّ الحنفي باستقراره في مشيخة الشّيُوخ بالشَّيْخُونيّة بعد موت القاضي صدر الدين أحمد بن العجمي.

ثم ورد الخبرُ على السلطان بحَرَكَةِ قَرَايُلُك على البلاد الحَلَبيّة، وأن شاه رُخ بن تَيْمورْلَنْك قد شَتّى بقَرَابَاغ[1]، فأخذ السلطان في تجهيز عسكر للسّفر. هذا وقد أُشِيع بالقاهرة بأن الأمير جَانِي بَك الصُّوفي مات بالطّاعون ودُفِن ولم يَعْرِف به أحدٌ، فلم تَطِبْ نَفْسُ السّلطان لهذا الخَبَر، واستمرّ على ما هو عليه من القَلَق بسببه.

ثم في يوم الأربعاء ثالث شعبان مَنَع السلطانُ نُوَّاب القضاة من الحُكْم، ورَسَم أن يَقْتَصِرَ القاضي الشافعيّ على أربعة نوّاب، والحنفي على ثلاثة،

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وقراباغ: تقع فيا بين السلطانية وتبريز. وذكر القلقشندي أن قراباغ كانت مصيف السلطان وأن مشتاه كان بأوجان بظاهر تبريز. (انظر صبح الأعشى: ٤/٤٢٥).

والمالكي والحنبلي كل منهما على اثنين. قُلْتُ: نعمة طائلة، خمسة عشر قاضياً بمصر، بل ونصف هذا فيه كفاية.

ثم في يوم الاثنين ثامن شعبان أُدِيرَ محملُ الحَاجّ على العادة في كُلّ سنة، ولم يُعْهَد دَوَرانُه في شعبان قبل ذلك؛ غير أن الضَّرُورَة بموت المماليك الرَّمَّاحة اقتضت تأخير ذلك، وكان الجمعُ فيه من الناس دُون العادة لكثرة وَجْدِ الناس على مَوْتَاهم.

ثم في يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قَدِمَ شهابُ الدين أحمد بن صالح بن السّفاح كاتب سِرّ حَلَب باستدعاء ليستقرّ في كتابة السِّرّ بالديار المصرية، ويستقرّ عوضه في كتابه سِرّ حَلَب ابنُه زين الدين عمر، على أن يحمل شهابُ الدين المذكور عشرة آلاف دينار. وكانت كتابة السِّرّ شَغَرَت من يوم مات الشريف شهاب الدين أحمد الدِّمَشقي، وباشر أَخُوه عماد الدين أبو بكر أياماً قليلة ومات أيضاً بالطاعون، فباشر القاضي شرف الدين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السِّرّ إلى يوم تاريخه، بعد أن سعى في كتابة السِّرّ جماعةٌ كبيرة بالقاهرة، فاختارَ السلطان ابنَ السفّاح هذا، وبعث بطلبه، وخلعَ عليه في عشرينه باستقراره في كتابة السّرّ، فباشر الوظيفة بقلّة حُرْمَة وعدم أُبّهة مع جِدَّةِ مِزَاجٍ وخفّةٍ وجهل بصناعة الإنشاء. على أنه باشر كتابة السّرّ بحَلَب سنين قبل ذلك، ومع هذا كله لم ينتج أمرُه لعدم فضيلته؛ فإنه كان يَظهرُ من قراءته للقصص ألفاظاً عاميّة، وبالجملة فإنه كان غير أهل لهذه الوظيفة. انتهى.

ثم في يوم السبت رابع عشرين شوّال قدِمَ المماليك السلطانية من تَجْرِيدَة الرُّهَا إلى القاهرة، وكانوا من يوم ذاك بمدينة حَلَب، وتخلفت الأمراء بها.

ثم في يوم الاثنين ثالث ذي القعدة خلعَ السلطانُ على الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ باستقراره أستاداراً، مضافاً إلى الوَزَر، عوضاً عن آقْبُغَا الجمالي بحكم عجز آقْبُغَا عن القيام بالكُلَف السلطانية.

ثم في سادس ذي القعدة أمسكَ السلطانُ آقْبُغَا المذكور وأُهِينَ وعُوقِبَ على المال، فحمل جملةً، ثم أفْرَجَ عنه واستقرّ كاشِفاً للجسور بعد أيام.

وفي يومِ الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة أيضاً ــ ويوافقه خامس عشر مِسرَى ــ أو في النيل ستّة عشر ذراعاً، فَرَكِبَ السلطانُ الملكُ الأشرف من قلعة الجبل ونزل حتى خَلَّق المقياس، وعاد ففتح خليج السّدّ على العادة، ولم يركب لذلك منذ تسلطن إلا في هذه السنة.

ثم في ليلة السبت خامس عشر ذي القعدة ظهر للحاج المصري وهم سائرون من جهة البحر المالح كَوْكَبٌ يرتفع ويعظم، ثم تفرّق منه شرَرٌ كبارٌ، ثم اجتمع. لما أصبحوا اشتدّ عليهم الحرّ، فهلك مِن مُشَاة الحاج ثم من الركبان عالم كبير، وهلك أيضاً من جِمَالهم وحَمِيرهم عدّة كبيرة، كل ذلك من شدة الحَرّ والعَطَش، وهلك أيضاً في بعض أودية الينبُع جميعُ ما كان فيه من الإبل والغنم.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة ركب السلطانُ من قلعة الجبل ونزلَ إلى بيت ابن البارِزِيّ المُطِلّ على النيل بساحل بُولَاق، وسار بين يديه غُرَابَان في النيل حربيَّة، فلعبا كما لو حارَبا الفرنج، ثم ركب السلطان من وقته سريعاً وسار إلى القلعة.

ثم في عاشر ذي الحجة توجّه زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش إلى زيارة القُدْس الشريف، وعاد في يوم تاسع عشرينه.

ثم وَرَدَ الخبرُ على السلطان في هذا الشهر بتوجه الأمير قَصْرُوَه نائب حَلَب منها والأمراء المجرّدُون معه لمحاربة قَرْقَمَاس بن حسين بن نُعير، فلقوا جمائعه تجاه قلعة جَعْبر، فانهزمَ قَرْقَمَاس عن بيوته، فأخذ العسكرُ في نهب ماله، فرَدَّ عليهم العرَبُ وهزمُوهم وقتلوا كثيراً من العساكر، ومِمَّن قُتِل الأمير قَشْتَم المؤيّدي أتَابَك حَلَب وغيره، وعاد العسكرُ إلى حَلَب بأسوء حال، فعظم ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية.

قال المقريزي: وكان في هذه السنة حوادثُ شَنِيعَة وحروبٌ وفتن؛ فكان بأرض مِصْر بحريِّها وقبليِّها وبالقاهرة ومصر وظواهرها وباءٌ عظيم مات فيه على أقلّ ما قيل مائةُ ألف إنسان، والمجازِفُ يقول هذه المائة ألف من القاهرة ومصر فقط سوى من مات بالوجه القبلي والبحري، وهم مثل ذلك.

قلت: وليس في قول القائل إن هذه المائة ألف من القاهرة ومصر فقط مجازفةٌ أبداً؛ فإن الوباء أقامَ أزيد من ثلاثة أشهر ابتداءً وانتهاء وانحطاطاً، وأقل من مات فيه دون العشرين كل يوم، وأزيد من مات فيه نحو خمسة عشر ألف إنسان، وبهذا المقتضى ما ثَمَّ مجازفة، ومتحصل ذلك يكون بالقياس أزيد مما قيل. انتهى.

قال ـ أعني المقريزي: وغرق ببحر القُلْزُم مركبٌ فيه حجّاج وتجار تزيد عدتهم على ثمانمائة إنسان، لم ينج منهم سوى ثلاثة رجال وهلك باقيهم. وهلك في ذي القعدة أيضاً بطريق مكّة فيما بين الأَزْلم[1] واليَنْبُـع بالحَرّ والعَطَش ثلاثة آلاف إنسان، ويقول المكثرُ خمسة آلاف. وغرق في نيل مصر في مُدَّة يسيرةٍ اثنتا عشرة سفينة، تلف فيها من البضائع والغلال ما قيمته مال عظيم. وكان بغزة والرَّمْلَة والقُدْس وصَفَد ودِمَشْق وحِمْص وحَمَاة وحَلَب وأعمالها وباء عظيم، هلك فيه خلائق لا يُحْصِي عدَدَهم إلا الله تعالى. وكان ببلاد المَشرِق بلاءٌ عظيمٌ، وهو أنّ شاه رُخّ بن تَيْمُور ملك الشَّرق قَدِمَ إلى تِبْرِيز في عسكر يقول المجازف عدّتهم سبعمائة ألف. قلت: يغفر الله لقائل هذا اللفظ، فإنه تجاوز حد المجازفة في قوله. انتهى.

قال: فأقام شاه رُخّ على خُوَيّ[2] نحو شهرين، وقد فرَّ منه إسكندر بن قَرَا يُوسف، فقدِمَ عليه الأميرُ عُثْمان بن طُرْعلي المدعو قَرَايُلُك التركُماني صاحب آمِد في ألف فارس، فبعثه على عسكر لمحاربة إسْكَنْدَر، وسار في أثره، وقد جمـع إسكندر جَمْعاً يقول المجازف إنهم سبعون ألفاً، فاقتتل الفريقان خارج تِبْرِيز فقتل بينهما آلافٌ من الناس، وانهزم إسكندر، وهم في أثره يقتلون ويأسرون وينهبون، فأقام إسكندر ببلاد الكرج ثم بقلعة سَلْمَاس، وحصرته العساكر مُدَّة، فنجا وجمـع نحو الأربعة آلاف، فبعث إليه شاه رُخّ عسكراً أوقعوا به وقتلوا من معه، فنجا بنفسه جَريحاً.

---

(١) الأزلم: منزلة بين الأثيلات وبين رأس وادي عنتر في الطريق إلى مكة. وأصل التسمية: الأزنم ـ بالنون ـ والعامة حرّفته. (صبح الأعشى: ١٤/٣٨٦).

(٢) خويّ: بلد من أعمال أذربيجان. (معجم البلدان).

وفي مدة هذه الحروب ثار أَصْبَهان بن قَرَا يُوسُف، ونزل على المَوْصل ونَهَب تلك الأعمال، وقتل وأفسد فساداً كبيراً. وكانت بعراقي[١] العرب والعجم نهوب ومقاتل، حيث إن شاه محمد بن قَرَا يُوسُف متملك بغداد من عجزه لا يتجاسر على أن يَتَجاوز سور بَغْدَاد. وخلا أحد جانبي بغداد من السكان، وزال عن بغداد اسمُ التمدّن، ورحل منها حتى الحيّاك، وجفّ أكثر النّخل من أعمالها. ومع هذا كلّه وضع شاه رُخّ على أهْلِ تِبريز مالاً، ذهبت في جِبَاياته نعمُهُم [ثم جلاهم بأجمعهم إلى بلاده][٢]. وكثر الإرجاف بقدومه إلى الشّام، فأوقع الله في عسكره البلاء والوباء حتى عاد إلى جهة بلاده. وعاد قَرَايُلُك إلى مَارِدِين فنهبها، ثم عاد ونهب مَلَطْيَة وما حولها.

وكان أيضاً ببلاد الحبشة بلاءٌ لا يمكن وصفه. وذلك أنا أدركنا[٣] ملكها داود بن سيف أرْعَد، ويقال له الحَطِّي ملك أَمْحَرَة، وهم نصارى يعقوبيّة، فلما مات في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة قام من بعده ابنه تَدْرُس بن داود، فلم تطل مُدَّتُه ومات، فملك بعده أخوه أبْرَم، ويقال إسحاق بن داود، وفخم أمرُه؛ وذلك أن بعض مماليك الأمير بُزْلار نائب الشام تَرَقَّى في الخدم، وعُرِف بألْطُنْبُغا مغرق، حتى باشر ولاية قُوص من بلاد الصَّعيد. ففرَّ إلى الحبشة واتَّصل بالحطِّي هذا، وعلّم أتْباعَه لَعِب الرُّمح ورَمْي النُّشّاب وغير ذلك من أدوات الحرب. ثم لحق بالحطِّي أيضاً بعضُ المماليك الجرَاكِسة، وكان زَرَدْكَاشاً، فعمل له زَرَدْخاناه ملوكيَّة. وتوجّه إليه مع ذلك رجلٌ من كُتّاب مصر الأقْبَاط النّصارى يقال له فخر الدولة، فرتّب له مُلْكه، وجبى لَهُ الأموال وجنَّد له الجنود، حتى كثر تَرَفُّهه، بحيث أخبرني من شاهده وقد رَكِبَ في موكب جليل وبيده صَلِيبٌ من ياقوت أحمر قد قبض عليه، ووضع يده على فخذه [فصار يبين ويظهر لهذا الصليب الياقوت طرفان كبيران من قبضته][٢]، فشرهت نفسُه إلى أخذ ممالك الإسلام لكثرة ما

(١) في الأصل: «بعراق». والتصحيح عن السلوك.
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) ضمير المتكلم هنا عائد على المقريزي؛ فأبو المحاسن ينقل عنه.

وصف له هؤلاء من حسنها. فبعث بالتِّبْرِيزيّ التاجر لِيَدْعُو الفرنج للقيام معه، وأوقعَ بمن في مملكته من المسلمين، فقتل منهم وأَسَر وسبى عالماً عظيماً. وكان ممن أسرَ مَنْصُور ومحمد ولدَا سَعْد الدين محمد بن أحمد بن علي بن وَلَصَمْعَ الجبرتي ملك المسلمين بالحبشة، فعاجله الله بنقمته، وهلك في ذي القعدة، وأُقيم ابنُه إنْدِرَاس بن إسحاق، فهلك أيضاً لأربعة أشهر، فأُقِيمَ بعده عمُّه حَزْبناي ابن داود بن سيف أرعد، فهلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين [فأقيم بعده ابن أخيه سلمون بن إسحاق بن داود بن سيف أرعد](١)، فكانت على أمحرة أربعة ملوك في أقلّ من سنة. انتهى كلام المقريزي برمته.

وقد خرجنا عن المقصود، على أنه فيما ذكرنا فوائد يُحْتَمَلُ التطويل بسببها. انتهى.

ثم إن السلطان أخذ في تجهيز عسكر إلى البلاد الحَلَبِيَّة إلى أن انتهى أمرهم. فلمّا كان يوم الاثنين سابع عشرين محرم سنة أربع وثلاثين وثمانمائة بَرَزَ الأمراء المجرّدون من القاهرة إلى الرّيدانيَّة خارج القاهرة، وهم الأميرُ الكبير جَارَقُطْلو أتَابَك العساكر، والأمير إينَال الجَكَمِيّ أمير سلاح، والأمير آقْبُغَا التَّمْرازِيّ أمير مجلس، والأمير تِمْرَاز القَرْمَشِيّ رأس نَوْبَة النُّوَب والأمير قَرَا مُرادْخَجا الشّعباني الظاهريّ بَرْقُوق أمير جَانْدَار، وعِدّة من أمراء الطبلخانات والعشرات، وخمسمائة مملوك من المماليك السّلطانية. وكان سبب تجرّدهم ورود الخبر على السلطان بنزول قَرَايُلُك في أوّل هذا الشهر على مُعَامَلة مَلَطية، وأنه نهبها وأحرقها، وحصر مَلَطْيَة، فخرج إليه الأمير قَصْرُوَه نائب حَلَب، وقد أردفه الأمير سُودُون من عبد الرحمن نائب الشام بعساكر الشام، فأردفهم السلطانُ أيضاً بالعسكر المذكور. فلمّا أن رَحَلُوا من الرّيدانيّة وردَ الخبرُ ثانياً من قِبَل نُوَّاب البلاد الشامية بعود قَرَايُلُك إلى بلاده، وأن المصلحة تقتضي عدم خروج العسكر من مِصر في هذه السَّنة، فرَسَمَ السلطانُ بعودهم من خانقاه سِرْيَاقُوس في يوم الجمعة أوَّل صفر، فرجعوا من وقتهم. واستعيدت منهم النفقة السلطانية التي

(١) زيادة عن السلوك. وهي ضرورية لما يأتي من العدد بعدها.

أُنفِقَتْ فيهم عند سفرهم، فاحتاجوا إلى ردِّ ما اشتروه من الأمتعة بعد ما استعملوها، والأزواد على من آبتاعوها منهم غصباً، ثم آحتاجوا إلى آستعادة ما أنفقوه على غلمانهم وخدمهم، وقد تصرفت الغلمانُ فيها، واشتروا منها آحتياجهم، ودفعوا منها إلى أهليهم ما ينفقونه في غيبتهم، فكلّ واحد من هؤلاء آستُعِيدَ منه ما تصرَّف فيه. فنزل من أجل هذا بالناس ضَرَرٌ عظيم، وكثرت القالة في السلطان، ونفرَت القلوب منه، وتحدّث الناس بذلك أياماً وسنين، ولعله صار مثلاً يُضْرَبُ به إلى يوم القيامة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر صفر المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل في موكب جليل ملوكي احتفل له، ولبس قماش الموكب الكَلَفْتَاه والفَوْقَاني الصّوف الذي بوجهين أحمر وأخضر، كما كان يَلْبَسُ الملك الظاهر بَرْقُوق وغيرُه من الملوك، وجُرّ الجنائب بين يديه، والجاويشيّة تصيح أمامه، وسار وحوله الطَبَرْدَارِية[1]، وعلى رأسه السَّنْجَق السلطاني، حتى عبر من باب زُوَيْلة، فشق القاهرة وخرج من باب الشَّعرِيّة يريد الصّيد بالدير[2] والمنزلة، فتوجَّه إلى الصيد فبات هناك ليلة الثلاثاء، وأصبح اصطاد الكراكي، وعاد إلى مخيّمه وأكل السِّمَاط. ثم ركب وعاد في آخر يوم الثلاثاء إلى القَلعة بعدما شقَّ القاهرة في عوده أيضاً على تلك الهيئة؛ وهذا أوّل ركوبه إلى الصّيد منذ تسلطن.

ثم في خامس عشرينه ركب للصيد ثانياً وعاد من الغد. وتكرّر ركوبه لذلك غير مرّة، وأنا ملازمه في جميع ركوبه للصّيد وغيره.

وفي هذا الشهر توقّف الناس والتجار في أخذ الذهب من كثرة الإشاعة بأنه ينادَى عليه، فنودي في يوم السبت سلخ صفر المقدم ذكره أن يكون سعر الدينار الأشرفيّ بمائتين وخمسة وثلاثين، والدينار الإفْرنتي بمائتين وثلاثين، وهُدِّدَ من زاد

(١) أي حَمَلة الأطبار، وهي الفؤوس. وفي التعريف بالمصطلحات الواردة في هذه الصفحة راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٢) الدير والمنزلة: قريتان قديمتان من أعمال الشرقية بمصر. وكانتا مشتركتين في زمام واحد. (انظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي: ١/٢/٤٢ ـ ٤٣).

على ذلك بأنه يُسْبك في يده، فعاد الضرر على الناس في الخسارة لانحطاط سعر الدينار خمسين درهماً؛ فإنه كان يَتَعامل به الناسُ بمائتين وخمسة وثمانين(١).

ثم في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأوَّل رسم السلطانُ بجمع الصَّيارف والتجار فجمعوا، وأَشْهَدَ عليهم أن لا يتعاملوا بالدراهم القَرَمَانيَّة(٢) ولا الدراهم اللَّنْكِيَّة(٢) ولا القُبْرُسِيَّة، وأن هذه الثلاثة أنواع تباع بسوق الصاغة على حساب وزن كل درهم منها بستة عشر درهماً من الفلوس حتى يُدْخَل بها إلى دار الضَّرب وتُضْرب دراهم أشرفيَّة خالصة من الغشِّ، ونُوديَ بذلك، وأن تكون المعاملة بالدراهم الأشرفيَّة والدراهم البُنْدُقِيَّة(٢) والمؤيَّدية(٢)، فإن هذه الثلاثة فِضَّة خالصة ليس فيها نُحاس بخلاف الدراهم التي مُنِع من معاملتها، فإن عَشَرَتَها إذا سُبِكت تجيء ستة لما فيها من النحاس. ثم نُودي بعد ذلك بأن يكون سعر الأشرفي بمائتين وثمانين والإِفْرنْتي بمائتين وسبعين، واستمرَّ ذلك جميعه لا يقدر أحد على مخالفة شيء منه.

قلت: وهذا بخلاف ما نحن فيه الآن؛ فإن لنا نحو ستة أشهر والناس فيه بحسب اختيارهم في المعاملة بعد أن نُودي على الذَّهب والفضة بعدة أسعار غير مرَّة، فلم يلتفت أحدٌ للمناداة، وأخذوا فيما هم فيه من المعاملة بالدراهم التي لا

(١) المراد بالنداء على الذهب أن يُنادى في الناس بمنع التعامل بالدنانير الذهبية الأجنبية أو المصرية القديمة باستثناء الدنانير الأشرفية التي عملها الأشرف برسباي. وأوضح المقريزي سبب النداء على ذلك بقوله: «وكانت الدراهم الأشرفية التي يتعامل بها الناس في القاهرة ومصر، ويصرف كل درهم منها بعشرين درهماً من الفلوس، قد كثر فيها أنواع من الدراهم، وهي البندقية ضرب الفرنج، والقرمانية ضرب بني قرمان أصحاب الروم، واللنكيّة ضرب بلاد العجم [والمراد بذلك بلاد التتر، نسبة إلى تيمورلنك]، والقبرسية ضرب قبرس، والمؤيدية التي ضربت في اويام المؤيدية شيخ، والدراهم الزغل وهي عمل الزُّغليّة [أي المزيِّفة]، فتردّ عند النقد لكثرة ما فيها من الدراهم سوى الأشرفية. وكان قد نودي بمثل ذلك فيها تقدّم، وعمل به الناس مدّة، ثم ترخصت الباعة في التعامل بها كلها، لما جمعوه منها في أيام النهي عنها، حتى مشت كلها في أيدي الناس، وتعاملوا بها، فلما نودي بالمنع منها عاد الأمر كما كان، فخسر أناس عدة خسارات، وأخذت الباعة وغيرها في جمعها لتتربص بها مدّة، ثم تخرجها شيئاً فشيئاً، لعلمهم أن الدولة لا تثبت على حال، وأن أوامرها لا تمضي». (السلوك: ٤/٨٥١ـ٨٥٢).

(٢) راجع الحاشية السابقة.

يحل المعاملة بها لما فيها من الغِشّ والنحاس. وقد استوعبنا ذلك كلّه مفصَّلاً باليوم في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»[1] إذ هو ضابط لهذا الشأن مشحون بما يقع في الزمان من ولاية وعزل وغريبة وعجيبة.

ثم تَكَرَّر ركوب السلطان في شهر ربيع الأوَّل هذا للصيد غير مرَّة بِعِدَّة نَوَاح. كل ذلك والخواطر مشغولة بأمر جَانِي بك الصُّوفي والفحص عنه مستمر، والناس بسبب ذلك في جهد وبلاء؛ فما هو إلا أن يكون الرجل له عدوّ، وأرادَ هلاكه، أشاع بأن جَانِي بَك الصوفي مختفٍ عنده، فعند ذلك حَلَّ به بلاء الله المنزل من كَبْسِ داره، ونَهْب قُمَاشه، وهَتْك حريمه، وسجنه في أيدي العَوَاتية[2]، ثم بعد ذلك يصير حاله إلى أحد أمرين: إما أن يُضْرَب ويقرِّر بالعقوبة، وإما أن تُبرَّأ ساحتُه ويُطْلق بعد أن يقاسي من الأهوال ما سَيذْكُره إلى أن يموت. ولقد رأيت من هذا النوع أعاجيب، منها أن بعض أصحابنا الخاصّكيّة ضرب بعض السقايين على ظهره ضربةً واحدة، فرمى السَّقَّاءُ المذكور قربته وترك حمله وصاح: «هذا الوقت أُعَرِّف السلطانَ بمن هو مختفٍ عندك»، ومشى مسرعاً خطوات إلى جهة القلعة، فذهب خلفه حواشي الخاصّكي المذكور ليرجعوه، فلم يلتفت، فنزل إليه الخاصّكي بنفسه حافياً، وتبعه إلى الشارع الأعظم حتى لحقه، وقد أعاقه الناسُ له، فأخذ الخاصّكي يتلطَّف به ويترضَّاه، ويبوس صَدْرَه غير مرَّة، ويترقَّق له، وقد عَلاَهُ اصفرارٌ ورَعْدَة، والناس تسخر من حاله لكونه ما يعرف باللغة العربية إلا كلمات هينة، فصار مع عدم معرفته يريد ملاطفة السَّقَّاء المذكور فيتكَلَّم بكلام إذا سمعه الشخص لا يكاد يتمالك نفسه، وسَخر الناس وأهل حارته بكلامه أشهراً وسنين. فلما انتهى أمرُه، وبلغني ما وقع له، كلَّمته فيما فعله وَلُمْتُه في ذلك، فقال: «خلِّ عنك هذا الكلام، والله إن إينـال السلحدار وأخاه يَشْبُك

---

(١) يبتدىء كتاب «حوادث الدهور» للمؤلف بحوادث سنة ٨٤٥هـ، وقد جعله ذيلاً على «السلوك» للمقريزي. والمراد أنه استوعب هذا الموضوع، في كتابه المشار إليه، بلحاظ أخبار ما بعد ٨٤٥هـ، وأما أخبار ما قبل ذلك التاريخ فليس لها محل في كتابه.

(٢) المراد بذلك العُتاة المتجبّرون.

الصُّوفي ضُرِبًا بالمقارع وعُصِرًا أياماً ولم يصرِّح أحد في حقهما بما أراد هذا السّقاء أن يقوله عني». واستمر الخاصّكيّ في قلبه حزازة من السّقّاء المذكور إلى أن تأمّر عشرة في أوّل دولة الملك الظاهر جَقْمَق، فطلب السّقّاء المذكور فوجده قد مات في شعبان من السنة الحالية؛ فهذا ما كان من أمره، ومثل هذا فكثير.

ثم في أواخر شهر ربيع الأوّل المذكور لهج السلطانُ بسفره إلى البلاد الشّامية لمحاربة قَرَايُلُك.

واستهلّ شهرُ ربيع الآخر ـ أوّله الأحد ـ والسلطان والأمراء في الاهتمام بحركة السفر.

ثم في يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى خلعَ السلطان على قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حَجَر، وأعيد إلى قضاء الشافعيّة بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِينيّ.

ثم في جمادى الآخرة خلعَ السلطانُ على الأمير جاني بك السّيْفي يَلْبُغَا الناصري نائب رأس نَوْبَة النُّوَب المعروف بجانِبك الثَّوْر، باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد موت أحمد بن الأَقْطَع.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شوّال خرج محملُ الحاج إلى الرّيْدَانِيّة خَارِج القاهرة صحبة الأمير قَرَاسُنْقُر الظاهريّ. وحجّت في هذه السنة زوجةُ السلطان الملك الأشرف وأمّ ولده الملك العزيز يُوسف خَوَند جُلُبّان الجاركسية بتجمُّلٍ كبير إلى الغاية، وفي خدمتها الزّيْني خُشْقَدَم الظاهريّ الزّمام، وهو أمير الرّكب الأوّل، والزيني عبد الباسط ناظر الجيش.

قال المقريزي: وحَجَجْتُ أنا في هذه السنة رجبيّة، وقد استُجِدّ بعيون القَصَب من طريق الحجاز بئر آحْتُفِرَت، فعظُمَ النّفع بها؛ وذلك أني أدركت بعيون القَصَب [أنه كان] يخرج من بين الجَبَلَيْن ماء يسيح على الأرض فينبتُ فيه من القصب الفارسي وغيره شيء كثير، ويَرْتَفِع في الماء حتى يتجاوز قامة الرّجل في عرض كبير، فإذا نزل الحاج عُيُونَ القَصب أقاموا يومَهم على هذا الماء

يغْتَسِلُون منه ويبتردون به. ثم انقطعَ هذا الماءُ وجفّت تلك الأعشابُ، فصار الحاج إذا نزل هناك احتفرَ حفائِرَ يخرج منها ماءٌ رديء، إذا بات ليلة واحدة في القِرَب نتن، فأغاث الله العباد بهذا البئر، وخرج ماؤها عذباً. وكان قبل ذلك بشهرين قَد حَفَرَ الأميرُ شاهين الطّويل بِئْرَيْن بموضع يقال له زَعم وقيقاب[١]، وذلك أن الحاج كان إذا ورد الوَجْه[٢] تارة يجد فيه الماء وتارة لا يجد فيه، فلما هَلَكَ الناسُ من العطش في السنة الماضِيَة بعثَ السلطانُ بشاهين هذا ــ كما تقدّم ذكرُه ــ فحفر البئرين بناحية زَعم حتى لا يحتاج الحاجُ إلى ورود الوَجْه، فتروّى الحاج منهما وعمّ الانتفاعُ بهما، وبطل سلوك الحاج على طريق الوَجْه من هذه السنة. انتهى كلامُ المقريزي.

قلت: وفرغَت سنة أربـع وثلاثين ولم يسافر السلطانُ ولا أحدٌ من أُمَرَائه إلى البلاد الشّامية.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين محرّم سنة خمس وثلاثين وثمانمائة وصلت زوجةُ السلطان خَوَنْد جُلُبَّان بعد أن حَجّت وقضت المناسك، وقدم محمَلُ الحاج صحبة الأمير قَرَاسُنْقُر.

ثم في يوم الخميس سابـع[٣] شهر ربيـع الآخر من سنة خمس وثلاثين وثمانمائة المذكورة نزل عِدَّةٌ من المماليك الجُلْبَان من الأطْبَاق إلى بَيْتِ الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ ــ وهو يومئذ وزير وأستادار ــ يريدون الفتكَ به، وكان عَلِمَ من الليل، فتغيَّب واستعدّ وهربَ من بيته، فلم يظفروا به ولا بشيء في داره، فعادوا بعد أن أفسدوا فيما حوله من بيوت جيرانه[٤]. وكان لهم من أيام الطاعون قد كَفُّوا عن هذه الفعلة، فَبَلَـغَ السلطانَ نزولُهم فغضب وأخذ في الدّعاء عليهم

(١) في السلوك: «زعم وقبقاب». وفي إنباء الغمر: «زعيم وقبقاب». وفي نزهة النفوس: «راغم وقبقاب».
(٢) الوجه: منزلة من منازل الحاج بين رأس وادي عنتر وبين المخاطب، وبها ماء قليل. (صبح الأعشى: ٣٨٦/١٤).
(٣) في السلوك ونزهة النفوس: «سابع عشر شهر ربيع الآخر».
(٤) في نزهة النفوس أن ذلك كان بسبب تأخر الجامكية يوماً واحداً.

أيضاً بالفناء والوَبَاء، حتى قال له التَّاج الوالي بعد أن زال ما عنده: «وَسِّطْ هؤلاء المعرَّصِين ولا تَدَعْ بعَوْدِ الطاعون على المسلمين»، فقال له السلطان: «يجوز قتلُ المسلم بغير آستحقاق؟» فقال التاج: «وهؤلاء مسلمُون؟» فقال السلطان: «نعم»، فقال التاج: «والله ما هو صحيح»، فضحِكَ السلطانُ، وأَمَرَ به، فَلَكَمَـهُ الخاصَّكيّة لكماً مُزْعِجاً، فقال: «آنظُر صِدْقَ مقالتي، هذا فعل مسلم بمسلم؟» انتهى.

ثم أصبحَ الصاحبُ كريم الدين آستعفى من وظيفة الأستادارية فأعفاه السلطان، واستدعى الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله في يوم السبت ثالث عشرين شهر ربيع الآخر المذكور وأخلعَ عليه باستقراره أستاداراً عوضاً عن الصاحب كريم الدين بعد انقطاع ابن نصر الله في بيته عِدَّة سنين، وهذه ولاية ابن نصر الله الثانية لوظيفة الأستادارية.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرين جمادى الأولى رَكِبَ السلطانُ من القلعة بغير قماش المَوْكِب، ونزل إلى بيت زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، ثم ركب من بيت عبد الباسط إلى بيت القاضي سعد الدين إبراهيم بن كاتب جَكَم ناظر الخواصّ فجلس عنده أيضاً قليلاً، ثم ركب وعاد إلى القلعة. فلما كان يوم سادس عشرينه حملَ عبدُ الباسط وسعد الدين ناظر الخاص تقادم جليلة إلى السلطان، بسبب نزوله إليهما.

وفي هذه السنة تكرّر ركوبُ السلطان ونزوله إلى الصّيد وعبوره إلى القاهرة وتوجّهه إلى النزه ــ بخلاف ما كان عليه أولاً ــ غير مَرّة.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة عزلَ السلطانُ الصاحبَ بدر الدين بن نصر الله عن الأستادارية، وخلعَ من الغد على آقْبُغَا الجمالي باستقراره أستاداراً عوضاً عن ابن نصر الله المذكور، وهذه ولاية آقْبُغَا الثانية، ولزم ابنُ نصر الله داره على عادته، وكان سبب عَزْل الصاحب بدر الدين عن الأستاداريّة أنه لما بلغ آقْبُغَا الجمالي عزل الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ عن الأستادارية سأل في الحضور، وكان متوَلّي كشف البُحَيْرة، فأجيب، فحضر وسعى في الوظيفة على أنّه

يحمل عشرة آلاف دينار، وإن سافر السلطانُ إلى الشام حمَلَ معه نفقةَ شهرين مبلغ أربعين ألف دينار، فأُجِيبَ وأُبقي الكشفُ أيضاً معه، وأُضيف إليه كشف الوجه البحري.

ثم في يوم السبت سابع عشرينه خلعَ السلطانُ على قاضي القضاة بدر الدين محمود العَيْني وأعيد إلى قضاء الحنفية بالديار المصرية، عوضاً عن زين الدين عبد الرحمن التَّفَهْنِي الحنفي بحكم طول مَرَضِه، فباشر العيني القضاء والحسبة ونظر الأحباس مَعَاً لخصوصيته عند الملك الأشرف، فإنه كان يقرأ له تواريخ الملوك وينادمه.

ثم في يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب خلعَ السلطانُ على الأمير صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين بن نصر الله باستقراره محتسب القاهرة عوضاً عن العيني بحكم عزله برغبته عنها؛ وكان صلاح الدين هذا منذ عُزِل عن الأستادارية وعُزِل أبوه عن نظر الخاص وصُودِرَا ملازمين لدارهما.

ثم في يوم الخميس ثالث شهر رجب أُدِيرَ المحملُ على العادة في كل سنة، إلا أنه عُجِّلَ به في هذا اليوم لأجل حركة السلطان إلى السفر إلى البلاد الشاميّة. وكان السلطان أيضاً في هذه السنة أشاعَ سفَره كما قال في العام الماضي، وتجهّز لذلك هو وأمراؤه.

ثم في عشرينه قدم الأميرُ سُودُون من عبد الرحمن نائب الشام باستدعاء، وصحبته القاضي كمال الدين محمد بن البَارِزِيّ السِّرّ بدِمَشْق، فباتا بتربة الملك الظاهر بَرْقُوق بالصحراء، ثم صعدا من الغد في يوم الاثنين حادي عشرينه إلى القلعة وقَبَّلَا الأرضَ، ولما انفضّت الخِدْمَة نزل الأمير سُودُون من عبد الرحمن إلى مكان بغَيْر خلعة، فعلم كلُّ أحد أنه معزول عن نيابة الشام.

فلما كان الغد وهو يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر رجب عملت الخِدْمَة بالقصر السلطاني على العادة، وحضر الأمراء الخِدْمَة على العادة، فقُدِّمَ سُودُون من عبد الرحمن قُدَّام جَارْقُطْلُو وحجبه في دخولهما على السلطان، وجَلَس جَارْقُطْلُو على ميمنة السلطان، وجلس سُودُون من عبد الرحمن على مَيْسَرة

السلطان إلى أن قُرِىء الجيشُ ونجزت العلامةُ. ودخل السلطانُ من الخرجة إلى داخل القَصْر الأَبْلَق، وجلسَ به، واستدعى الخِلَـعَ، وخلـع على الأمير سُودُون من عبد الرحمن نائب الشام باستقراره أَتَابَك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن جَارْقُطْلُو، وخلـع على جَارْقُطْلُو باستقراره في نيابة الشام عوضاً عن سُودُون من عبد الرحمن، وقبَّلا الأرضَ. وفي الوقت تحوّل سُودُون من عبد الرحمن إلى ميمنة السّلطان وذهب جِارْقُطْلُو إلى ميسرة السّلطان بعكس ما كان أوّلاً، ولما خرجا من الخِدْمَة السلطانية حجب جارقطلُو سُودُون من عبد الرحمن. كل ذلك لما ثبت عند السلطان من القواعد القديمة الكائنة إلى يومنا هذا.

وفي هذا اليوم رسم السلطانُ بإبطال حركة سفر السلطان إلى البلاد الشاميّة، فتكلّم النـاسُ أن سبب حركـة السلطان للسّفر إنمـا كانت بسبب سُـودُون من عبد الرحمن لما أشاعه عنه المُتَغَرِّضُون من أنه يريد الوثوب على السلطان، وليس الأمر كذلك، وإنما كان لعَزْل سُودُون من عبد الرحمن أسباب:

أحدها: أنه طالت أيّامه في نيابة الشام، وزادت عظمته، وكثرت مماليكه وحواشيه، فخاف الملكُ الأشرف عاقبته فعزله.

وثانيها: وهو الأقوى عندي: أن السلطان لما استدعاه بكتاب على يد الأمير نَاصِر الدين محمد بن إبراهيم بن مَنْجَك وعاد معه ابن مَنْجَك، فلما كان في بعض الطريق تحادثا، فكان من جُمْلَة كلام سُودُون من عبد الرحمن لابن مَنْجَك: «أنا أدخل أيضاً إلى مصر أميراً بعد طول مُدَّتي في نيابة دِمَشْق»، فنقلها ابنُ مَنْجَك برمتها إلى الملك الأشرف، فتحقّق الملكُ الأشرفُ عند ذلك ما كان أُشِيعَ عنه، فبادر وعَزَله. وكان مُرادُ سُودُون من عبد الرحمن بقوله: «أدخل مصر أميراً» غير ما حَمَلَهُ عليه ابنُ مَنْجَك، وهو أن مُراد سُودون من عبد الرحمن أنه آعتاد بنيابة الشام، وأنه يكره الإقامة بمصر، وأن بعض نيابات البلاد الشامية أحبّ إليه من أن يكون أَتَابَكاً بمصر، وأشياء غير ذلك.

ثم في يوم الخميس ثاني شعبان خلـعَ السلطانُ على الأمير جَارْقُطْلُو خلعة

السَّفر، وخرج من يومه إلى مخيّمه بالرَّيْدَانيّة خارج القاهرة، وقد استقرَّ الأميرُ قَرَاجا الخازندار الأشرفي مُسَفِّره.

ثم خلع السلطانُ من الغد في يوم الجمعة ثالثه على القاضي كمال الدين محمد بن البَارِزِيّ كاتب سِرِّ دمَشْق باستقراره في قضاء دمَشْق مُضَافاً لكتابة سِرِّها عوضاً عن شهاب الدين أحمد بن المحمرة، ولم يجتمع ذلك لأحدٍ قبله في الجمع بين قضاء دِمَشْق وكتابة سِرِّها.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان خلع السلطانُ على دُولَات خَجا الظاهريّ باستقراره والي القاهرة عوضاً عن التاج الشَّوْبَكِي وأخيه عمر. ودُولَات خَجَا هو أحدُ أصاغر المماليك الظاهرية بَرْقُوق ومن شِرَارهم، وكان وضِيعاً تركي الجِنس، كثيرَ الشَّرِّ، يمشي على قَدَمَيْه بالأَسْوَاق في بعض الأحيان. وكان الملك الأشرف يعرفه أيّام جُنْدِيَّته ويتَوَقَّى شَرَّهُ، فلما تسلطن ولَّاه الكشوفيّة ببعض النواحي، فأباد أهلَ تلك الناحية، ثم ولَّاه الكشفَ بالوجه القِبْلي فتنوَّع في عذاب أهل الفساد وقُطَّاع الطريق أنواعاً كثيرة، منها: أنه كان إذا قبض على الحَرَامي أمسكه ونفخَ بالكير في دُبُره حتى تندر[1] عيناه وينفلِقَ دماغُه. ومنها أنه كان يعلِّق الرجلَ مُنَكساً، ولا يزال يرمي عليه بالنُّشَّاب إلى أن يموت، وأشياء كثيرة من ذلك. فلما وَلِيَ الوِلَاية بالقاهرة [كان] أوَّل ما بدأ به أنه أفرج عن جميع أهل الجرائم من الحبوس، وحلَفَ لهم أنه متى ظَفِر بأحد منهم وقد سَرَق ليُوَسِطَنّه. وأرهب إرهاباً عظيماً، وصار يركبُ في الليل ويطوف بحُرْمَةٍ زائدة عن الحد وصدَق في يمينه في السُّرَّاق، فما وقع له سَارِقٌ ممن أطلقه ــ وقد كتب أسماءهم عنده ــ إلا وسَّطَه، فذعر أهلُ الفساد منه، وانكفُّوا عن السَّرِقة. ثم أخذ في التضييق على الناس وإلزامهم بإلزامات منها: أنه أمرهم بكَنْس الشوارع ثم رَشِّها بالماء، وبتعليق كل سُوقِي[2] قنديلاً على دُكّانه، وعاقبَ على ذلك خلائق. ثم منع النساء من الخروج إلى التُّرَب في أيَّام الجُمع، وأشياء كثيرة، إلى أن سئمهُ الناسُ وعزله الأشرف عنهم حسبما يأتي ذكره.

---

(١) أي حتى تخرج عيناه وتبرز.

(٢) أي كل واحد من أهل السوق.

ثم أرسلَ السلطانُ يطلب قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن الكشك الحنفي ليستقرَّ في كتابة سرِّ مصر بعد موت شهاب الدين أحمد بن السَّفاح، على أنه يحمل بسبب ذلك عشرة آلاف دينار، فقدم جوابه في يوم الاثنين ثالث شوَّال في ضمن كتاب الأمير جَارْقُطْلُو نائب الشام على يد نجَّاب، وهو يعتذر لعدم حضوره بضعف بَصَرِهِ وآلام تعتريه، وأرسلَ بمبلغٍ من الذَّهب له صورة، فأعفاه السلطانُ عن ذلك. واستدعى السلطان الصاحبَ كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ وخلعَ عليه في يوم الثلاثاء رابعه باستقراره كاتب السِّرِّ الشريف مضافاً إلى الوزر؛ ولم يقع ذلك في الدَّولة التركية لأحد أنَّ الوَزَرَ وكتابة السرِّ اجتمعا لواحد معاً. ونزلَ الصاحبُ كريم الدين في موكب جليل، وباشر وظيفة كتابة السرّ والوَزَر، مع بعده عن صناعة الإنشاء، وعن كل فضيلة، وقلَّة دربته بقراءة القصص والمطالعات الواردة من الأعمال والأقطار. وكان مع ما هو فيه من الجهل أجهر العينين، لا ينظر في الكتابة إلا من قريب، وفي صوته خشونة؛ فكان إذا أمسك الكتاب في يده ليقرأه على السلطان تنظر أعاجيب من تبحُّرِه في الكتاب بعينه، ثم من توقُّفه في القراءة، ثم من اللَّحن الفاحش الخارج عن الحدّ، مع أن قراءته للكتب ما كانت إلا نادراً، وفي الغالب لا يقرؤها على السلطان إلا القاضي شرف الدين الأشقر نائب كاتب السرّ. وكنتُ أظن أن الأشرف إنما وَلَّى كريم الدين هذا لكتابة السرّ ليطيِّب خاطِرَه ويقويه حتى يعيده إلى وظيفة الأستادارية، فإنه كان ماهراً بتدبير أمور الوَزَر والأستادارية، جيد التنفيذ فيها إلى الغاية، لم تَرَ عَيْني بعده أحسنَ تدبيراً وتصرفاً منه في فَنِّه، غير أنه ليس من خيل هذا الميدان، وبين معرفته بفنه والدِّربة بصناعة الإنشاء زحامٌ، إلى أن كان بعض الأيام والأشرف جالس، وقَدِمَ الصاحبُ كريم الدين هذا، فلمَّا رآه الأشرف من بعيد قال لمن حوله: «هل رأيتم كاتب سِرّ أحشمَ من هذا ولا أَمْثَل؟» فقال له من حضر: «لا والله يا خَوَنْد»، فعند ذلك تحقَّقتُ خلاف ما كنت أظُن وعَلِمتُ أن القَوْم في وادٍ والأمم السالفة في وادٍ[1].

---

(١) وعلّق المقريزي أيضاً على ذلك بقوله: «.. غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا، بحيث إن بعض السوقة =

ثم في يوم الخميس ثالث عشر شوال المذكور ابتدأ السّلطان بالجلوس في الإيوان بدار العدل من قلعة الجبل، وكان قد تَرَكَ الملوك الجلوسَ به بعد الملك الظاهر بَرْقُوق في يومي الاثنين والخميس إلا في النادر أيام خدمة الايوان عند قدوم قُصّاد ملوك الأقطار، فتشعث الإيوانُ ونُسِيَت عوائِدُه ورُسُومُه إلى أن آقتضى رأي السلطان في هذه الأيّام بعمارته وتجديد عهده، فأُزِيل شَعَثُه وتتبعت رُسُومُه، وجلس الملك الأشرف به، وعمل الخِدْمَة السلطانية فيه، وعزم على ملازمته في يومَيْ الخدمة، ورسم بحضور القضاة وغيرهم ممّن كان لهُ عادة بحضور خِدْمَة دار العدل، فلم يتمّ ذلك وتركه كأنه لم يكن.

ثم في ثاني عشرين شوّال هذا قدِمَ الخبرُ من مكة المشرفة بأن عدة زُنُوك(١) قدمت من الصين إلى سواحل الهند، وأرسى منها اثنان بساحل عَدَن فلم تنفق بها بضائعُهم من الصيني والحرير والمِسْك وغير ذلك لاختلال حال اليَمن. فكتب كبيرُ هذين المركبين الزنكيين إلى الشريف بَرَكات بن حسن بن عَجْلاَن أمير مكة وإلى سعد الدين إبراهيم بن المرة ناظر جدَّة يستأذن في قُدُومهم إلى جدَّة، فكتبَا إلى السلطان في ذلك، ورغَّباه في كثرة ما يتحصَّل في قدومهم من المال، فكتب لهم السلطان بالقدوم إلى جدَّة وإكرامهم.

ثم في يوم الاثنين أوَّل ذي القعدة استدعى السلطانُ القضاة الأربعة بجميع نوَّابهم في الحكم بالقاهرة ومصر إلى القلعة لتعرض نوابهم على السلطان، وقد ساءت القالةُ فيهم عند السلطان، فدخلَ القضاةُ الأربعة إلى مَجْلس السلطان،

= ممن نعرفه ولِّي كتابة السرّ بحماة على مال قام به، وهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة. فكان إذا ورد عليه كتاب وهو بين يدي النائب لا يقرأه مع شدة الحاجة إلى قراءته. ثم يمضي إلى داره حتى يقرأه له رجل أعدّه عنده لذلك، ثم يعود إلى النائب فيعلمه بمضمون الكتاب. وتداعى بالقاهرة خصمان عند كبير من قضاتها، فقضى على المدَّعى عليه، فقال له ما معناه إنه حكم بغير الحق، فأمر بإخراجها حتى ينظر في مسألتها. ثم طالع بعض كتب مذهبه، فوجد الأمر على ما ادعاه الرجل من خطأ القاضي، فردَّهما وقال: وجدنا في الكتاب الفلاني الأمر كما قلت. ولم يبال بما تبين من جهله». انظر السلوك: ٨٧١/٤.

(١) كذا بالأصل. ولعلها الجنوك، وهي مراكب صينية كبيرة متعددة القلاع. وتتكون قلاعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصير. انظر البحرية في مصر الإسلامية: ٣٣٦ - ٣٣٧.

وعوّق نوّابهم عن العبور إلى السلطان، فلما جَلَسُوا خاشنهم السلطانُ في اللفظ بسبب كثرة نوّابهم، وانفضّ المجلسُ على أن يَقْتَصر الشافعيّ على خمسة عشر نائباً بمصر والقاهرة، والحنفي على عشرة نوّاب، والمالكيّ على سبعة، والحنبليّ على خمسة، ونزلوا على ذلك. فلم يزل عبد الباسط وغيره بالسلطان حتى زادهم شيئاً بعد شيء إلى أن عادت عِدّتُهم إلى ما كانت عليه، والسلطان لا يعلم بذلك.

ثم في سابعه خلعَ السلطان عَلَى التاج الشَّوْبَكِي باستقراره والي القاهرة بعد عزل دُولَات خَجَا المقدم ذكره، وقد أقمع دُولَات خَجَا المفسدين وأبادهم.

ثم في يوم الأحد ثامن عشرين ذي القعدة أيضاً وردَ الخبرُ عَلَى السلطان بمَوْت جَيْنُوس بن جَاك متملِّك قُبْرُس، فعيّن السلطان شخصاً من الأعيان ومعه ستُّون مملوكاً للتوجه إلى قبرس، فخرجوا في يوم الجمعة خامس عشرين ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ومعهم خلعة لجَوَان بن جَيْنُوس باستقراره في مملكة جزيرة قبرس عوضاً عن والده جَيْنُوس نيابة عن السلطان، ومطالبته بما تأخر على أبيه وهو أربعة وعشرون ألف دينار وبما التزمَ في كلِّ سنة وهو خمسة آلاف دينار، وساروا على ذلك إلى ما يأتي ذكره.

وانسلخت هذه السنة بيوم الأربعاء الموافق لرابع أيام النسيء، وهي سنة تحويل تحوّل الخراجُ فيها من أجل أنه لم يقَع فيها نَوْرُوز، فحُوّلت سنةُ ست إلى سنة سبع وثلاثين[1].

قال المقريزي رحمه الله: واتّفق في سنة ست وثلاثين هذه غرائب منها: أن

---

(١) المراد أن استحقاق خراج سنة ٨٣٥هـ يكون في آخر سنة ٨٣٧هـ. وهو إجراء خراجي قديم في مصر، سببه الاختلاف فيما بين التقويم القبطي الشمسي والتقويم العربي القمري. والفرق بينهما أن كل ٣٣ سنة قمرية تعادل ٣٢ سنة شمسية تقريباً. ولما كانت الزراعة في مصر تعتمد على التقويم الشمسي والشهور القبطية فقد اضطر العرب إلى مراعاة هذا الأمر، وجرت العادة أنه إذا مضى ٣٣ سنة قام المكلفون بشؤون الخراج باعتبار السنة الثالثة والثلاثين على أنها السنة الخامسة والثلاثين وإلغاء التي بينهما كأنها لم تكن. انظر خطط المقريزي: ١/٢٧٣؛ وصبح الأعشى: ١٣/٥٨ ــ ٦٧، طبعة دار الكتب العلمية؛ والأرض والفلاح في مصر: ١٩٩.

يوم الخميس كان أوّل المحرّم ووافقه أوّل يوم من تشرين وهو رأس سنة اليَهُود، فاتّفق أوّل سنة اليهود مع أوّل سنة المسلمين، ويوم الجمعة وافقه أوّل توت وهو أوّل سنة النَّصارى القِبْط، فتوالت أوَائل سني المِلَل الثلاث في يومين متوالين، واتّفق مع ذلك أن طائفة اليهود الربانيين يعملون رؤوس سنيهم وشهورهم بالحساب، وطائفة القرائين يعملون رؤوس سنِيهم وشهورهم برؤية الأهِلّة كما هي عند أهل الإسلام، فيقعُ بين طائفتي اليهود في رؤوس السنين والشهور اختلافٌ كبير، فاتّفق في هذه السنة مطابقةُ حساب الرّبّانِيِّين[١] والقرّائين، فعمل الطائفتان جميعاً رأس سنتهم يوم الخميس، وهذا من النوادر التي لا تقع إلا في الأعوام المتطاولة. انتهى.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين المحرم من سنة ست وثلاثين المذكورة عزلَ السلطانُ آقْبُغَا الجمالي عن الأستادارية، وجعل الزَّنْجير الحديد في رقبته، وأنزله على حمار من القلعة إلى بيت التاج الوَالي بسويقة الصاحب ليعاقبه على استخراج المال.

وأصبح السلطانُ من الغد خلعَ على الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ بإعادته إلى وظيفة الأستادارية عوضاً عن آقْبُغَا المذكور مضَافاً إلى الوَزَر، وعزله عن وظيفة كتابة السّر. ورسَمَ السلطانُ للقاضي شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر أن يباشر الوظيفة إلى أن يستقرّ فيها أحدٌ، وعُيِّن جماعة كبيرة للوظيفة المذكورة فلم يقع اختيار السلطان على أحد منهم.

ورسَمَ السلطان بطلب القاضي كمال الدين ابن البارِزِيّ قاضي قضاة دِمَشْق وكاتب سِرِّها ليستقرّ في كتابة سِرِّ مصر. وخرج القاصدُ بطلبه من القاهرة في يوم الأحد ثاني صفر من سنة ست وثلاثين وثمانمائة ليستقر في كتابة سِرِّ مصر، وأن

(١) يقسم يهود البلاد العربية من حيث فرقهم الدينية إلى فئتين: الأولى فئة اليهود الحاخامين (الربانيين) Rabbinite، والثانية هي الفئة التي تضم جماعة القرّائين Karaites وفرقة السامريين Samaritans. والفرق بين الربانيين والقرائين غير جوهري، بخلاف ما بينهما وبين السامريين. والبعض لا يعدّ السامريين من اليهود. انظر صبح الأعشى: ١٣/ ٢٦٠ ــ ٢٧٣، طبعة دار الكتب العلمية؛ والموسوعة الفلسطينية: ٤/ ٦٣٨.

يستقرّ عوضه في قضاء القضاة بدِمَشْق بهاءُ الدين محمد ابن القاضي نجم الدين عمر بن حِجِّي، وأن يستقرّ عوضه في كتابة سِرّ دِمَشْق قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن الكشك الحنفيّ، ويستقرّ ولد ابن الكشك شمس الدين محمد في قضاء الحنفيّة بدِمَشْق عوضاً عن أبيه، ويستقرّ جمال الدين يوسف بن الصَّفيّ في نظر جيش دِمَشْق عوضاً عن بهاء الدين بن حِجِّي.

ثم في سابع صفر قَدِمَت الرسلُ المتوجِّهة إلى قُبْرُس. وكان من خبرهم أنهم لما توجّهُوا إلى دِمْيَاط ركبوا منها البحر المالح في شينيين[1]، وساروا حتى وصلوا إلى الملاّحة في يوم السبت عاشر المحرّم من سنة ست وثلاثين المذكورة. فلما وصلوا إلى الملاّحة سارَ أعيانُهم في البرّ إلى الأُفْقُسِيَّة[2] وهي مدينة قُبْرُس ودار ملكها. وبلغ متملّك قُبْرُس مجيئهم، فخرجَ إلى لقائهم وزيرُ الملك في أكابر أهل قُبْرُس، فأنزلوهم هناكَ وباتُوا ليلتهم بالمكان المذكور. وأصبحوا من الغد وهو يوم الاثنين ثاني عشر المحرم عبرُوا المدينة ودخلوا على الملك جوَان بن جَيْنُوس بن جَاك في قصرِه، فإذا هو قائمٌ على قَدَمَيْه، فسلّمُوا عليه وبلّغوه الرسالة وأوصلوه كتاب السلطان، كل ذلك وهو قائم على قدميه. فأذعن بالسمع والطاعة، وقال: «أنا مملوك السلطان ونائبه، وقد كنت على عَزْم أن أُرسل التقدمة، فبلغني قُدُومكم فأمسكتُ عن ذلك». فكلّمُوه أن يحلِفَ على طاعة السلطان، فأجابهم إلى ذلك، واستدعى القسيسين وحلَف على الوَفَاء وعلى الاستمرار على الطّاعة والقيام بما يجب عليه من ذلك. فعند ذلك أُفِيض عليه التَّشْرِيف السلطاني المجهّز له على يد كبير القَوْم، فلبسه وقد أظهر السرور والبشر بذلك. ثم خَرَجت الرسلُ من عنده، فداروا بالمدينة وهم ينادَى بين أيديهم باستقرار الملك جَوَان في نيابة السّلطنة بمدينة الأُفْقُسِيّة وسائر ممالكها، وأن لأهل قُبْرُس الأمان والاطمئنان، وأمروهم بطاعته وطاعة السلطان إلى أن دارُوا البلدَ. ثم أنزلوهم في بيت قد أُعِدَّ لهم، وأجري عليهم من الرَّوَاتب ما يليق بهم من كل ما عندهم.

(١) الشيني أو الشينية: من السفن الحربية الكبيرة. وكانت أكثر أنواع السفن استعمالاً في الأسطول الحربي المصري. راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) هي نيقوسيا. راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء، حاشية (٢).

ثم حمل إليهم فيما بعد سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار، وذلك مما تأخّر على أبيه، ثم أظهر خصم أربعة آلاف دينار أُخرى، ووعَدَ بحَمْل العشرة آلاف دينار الباقية بعد سنة. ثم بعث إليهم أيضاً بأربعين ثَوْباً صوفاً برَسْم الهديّة للسلطان، ثم أرسل لكل من الرُّسُل شيئاً بحسب مقامِه وعلى قَدْرِه. ثم أخذ في تجهيزهم وتَسْفِيرهـم حتى كان سفرهم من قُبْرُس بعد عشرة أيام من قدومهم إلى اللِّمَسُون[١]، فأقاموا بها إلى أن تهيّأوا وركبوا البحر وساروا فيه ستّة أيام ووصلوا إلى ثغر دِمْيَاط. ثم خرجوا من مراكبهم ورَكِبُوا المراكب في بحر النيل إلى أن قدموا القاهرة، وطلعوا إلى السلطان وعرّفوه ما وَقَـع لهم مُفَصَّلاً وما معهم من الصّـوف وغيره، فقبِـلَ السلطان ذلك. وقـرأ السلطان كتاب متملّك قبرص[٢] فإذا هو يتضمّن السمعَ والطاعة، وأنه نائب السلطان فيما تحت يده من البلاد والمملكة، وأنه في طي عِلمه ومن جملة مماليكه، فسُرّ السلطان بذلك غاية السُّرُور؛ فإنه كان أشيـع بمصر أنه لما ملك بعد أبيه خرَجَ عن طاعة السلطان، ومنـع الجزية، فوقـع خلاف ذلك. انتهى.

ثم في يوم السبت ثامن صفر خلـعَ السلطانُ على حسن بك بن سـالم الدّوكَرِيّ أحد أمراء التُّركُمان، وهو ابن أخت قَرَايُلُك، باستقراره في نيابة البُحَيْرَة عوضاً عن أمير علي، وأنعم عليه بمائة قَرْقَل[٣]، ومائة قوس، ومائة تَرْكَاش[٤]، وثلاثين فرساً، ووجهه إلى محل تحكمه بمدينة دمنهور، فأقام بها سنين عديدة وإلى الآن متوليها هو ولدُه، وهو يومئذ متولي جَعْبَر.

ثم ورد الخبر على السلطان بامتناع ابن الكشك من ولاية كتابة سِرِّ دِمَشْق، وأنه استعفى من ذلك، فأعفاه السلطانُ، ورسَمَ باستقرار القـاضي تاج الـدين عبد الوهاب بن أُفْتَكِين أحد موقّعي الدَّسْت بدِمَشق في كتابة سِرِّ دِمَشْق. وكتب

---

(١) أي ليماسول.

(٢) في الأصل: «وقرأ كتابه». والتعديل للتوضيـح.

(٣) القرقل: نوع من الدروع المغشاة بالديباج. (صبح الأعشى: ١٤٣/٢، و١١/٤).

(٤) التركاش: لفظ فارسي الأصل معناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. (صبح الأعشى: ٣٠٩/٧).

أيضاً باستقرار محيي الدين يحيى بن حسن بن عبد الواسع الحبحابي المغربي المالكي في قضاء المالكية بدِمَشْق عوضاً عن القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الأموي بعد موته.

ثم في يوم الاثنين أوّل شهر ربيع الأوّل قدِمَ إلى القاهرة رسولُ ملك القِطْلَان[1] من الفِرنج بكتابه، وقد نزل على جزيرة صِقِلِّيَة في ثاني عشرين شهر رمضان بما ينيف على مائة قطعة حربية، وتضمّن كتابُه الإنكار على الدولة ما تعتمده من التجارة في البضائع، وأن رعيّته الفِرنج لا يشترون من السلطان ولا من أهل دولته بضاعةً، وأنهم لا يشترون إلا من التُّجّار، ثم أعاب على السلطنة صناعة المتجر، فردّ السلطان رسولَه رَدّاً قبيحاً، وكتب له جواباً بمثل ذلك.

ثم في هذا الشهر تكرّر توجّه السلطان إلى الصّيد غير مرّة قبلياً وبحرياً؛ فأبعد ما وصل قبلياً إلى إطْفِيح، وبحرياً إلى شبين القَصْر بالشرْقِيَّة.

ثم في تاسع عشر شهر ربيع الأوّل قدِمَ القاضي كمال الدين محمد بن البارِزِيّ من دِمَشق، بعد أن خرَجَ أكابرُ الدَّوْلَة إلى لقائه، وطلع إلى السلطان وقبّل الأرضَ، ثم نزل إلى داره. وطلع من الغد إلى القلعة في يوم السبت العشرين من شهر ربيع الأوّل المذكور، وخلعَ السلطانُ عليه باستقرارِه في كتابة السّر بالديار المصريّة عوضاً عن شهاب الدين أحمد بن السفاح، بعد شغور الوظيفة مُدَّة طويلة، وهذه ولاية كمال الدين المذكور لكتابة السرّ ثاني مرة، ونزل في موكب جليل.

قال المقريزي: وسُر الناسُ به سروراً كبيراً؛ لحسن سيرته وكفايته، وجميل طريقته، وكرمه وكثرة حيائه ــ فالله يؤيّده بمنه ــ انتهى كلام المقريزي.

قلت: هو كما قاله المقريزي وزيادة، حتى إنني لا أعلم في عصرنا هذا من يُدَانِيه في غزير محاسنه. رحمه الله تعالى.

---

(١) القطلان: هم الكيتلان. راجع ص ١٣٨ من هذا الجزء، حاشية (١).

ثم في يوم الخميس أول جمادى الأولى قدِمَ الأميرُ مُقْبِل الحسامي الدوادار ــ كان ــ نائب صَفَد، وكان السلطان قد ركب من القلعة إلى خارج القاهرة، فلقيه السلطانُ وخلعَ عليه، وعاد مُقْبِل المذكور في خِدْمَة السلطان إلى القلعة. ثم نَزَلَ مُقْبِل في دارٍ أُعِدَّت له، فأقام بالقاهرة إلى يوم حادي عاشره، وخلع عليه خلعة السفر، وتوجه إلى محل كفالته بصَفَد.

ثم في يوم الخميس ثامنه خلعَ السلطانُ على الأمير أَسَنْبُغَا الطياري أحد أمراء العشرات، واستقر في نظر جدَّة عوضاً عن سعد الدين إبراهيم بن المَرَة، وأذن لابن المَرَة المذكور أن يتوجه إلى خدمته. فلما كان يوم حادي عشر جمادى الأولى المذكورة نُودِي في الناس بالإذن في السَّفَر إلى الحجاز ــ رجبيَّة ــ صحبة الأمير أَسَنْبُغَا الطياري المذكور، فسُرَّ الناسُ بذلك سروراً زائداً، لأن ابن المرَة كان لا يدع أحداً أن يسافر معه خوفاً عليهم من قطاع الطريق.

ثم في سابع عشرين جمادى الأولى المذكورة سافرَ الوزيرُ كريم الدين بن كاتب المناخ إلى جهة الوجَه القبلي ــ وهو يوم ذاك يباشر الوَزَارة والأستادارية معاً ــ وكان سفرُه إلى الوجه القبلي لتحصيل ما يقدر عليه من الجمال والخَيْل والبغال والغنم والمال لأجل سفر السلطان إلى جهة البلاد الشاميّة. كل ذلك والناس يأخذون ويعطون في سفر السلطان؛ فإنه وقع منه التجهيز للسفر غير مرة ثم تغير عزْمُه عن ذلك.

ثم في تاسع عشرينه قدم إلى القاهرة كتاب القان شاه رُخّ بن تَيْمُورلَنْك صاحب ممالك العَجَم وجَغْتَاي على يد بعض تُجَّار العَجَم يتضمن أنه يريد كُسْوَة الكعبة، وأرعد فيه وأبْرَق، ولم يخاطب السلطان فيه إلا بالأمير بَرْسْبَاي. وقد تكررت مكاتبته للسلطان بسبب كُسْوة الكعبة غير مرة، وهو لا يلتفت إليه ولا يسمح له بذلك، بل يكتب له بأجوبة خشنة محشونة بالتَّوْبِيخ والوعيد والبَهْدَلَة، حتى إنه كلّما ورَدَ منه كتابٌ وأجابه السلطان بتلك الأجوبة الخشنة لا يشكُ الناس أن شاه رُخّ يَرِدُ إلى البلاد الشامية عقيب ذلك، فلم يظهر له خبر ولا نظر له أثر. وقد استخف الملكُ الأشرف بشأنه، حتى إنه صار إذا أتاه قاصِدُه لا يلتفت إليه

ولا إلى ما في يده من الكتب بالكلية. ويأتي ــ إن شاء الله تعالى ــ ذكر ما فعله ببعض قُصَّادِه من الضرب والبهدلة في محله من هذا الكتاب.

قلت: لا أعرف للملك الأشرف في سلطنته حركة بعد افتتاحه لقُبْرُس أحسن من ثباته مع شاه رُخّ المذكور في أمر الكُسوة، وعدم اكترائه به؛ فإنه أقام بفعْلته هذه حُرْمَةً للديار المصرية ولحكَّامِها إلى يوم القيامة. انتهى.

ثم في يوم الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة أَنْفَقَ السلطانُ في المماليك المجرّدين إلى مكة ــ وهم خمسون مملوكاً ــ لكل واحد منهم مبلغ ثلاثين ديناراً، وتجهَّزُوا للسفر إلى مكة صحبة الأمير أَسَنْبُغا الطيّاريّ فلما كان يوم الإثنين ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة بَرَزَ فيه الأميرُ أَسَنْبُغَا الطيّاريّ بمن معه من المماليك السلطانية والحُجَّاج.

وفيه خلع السلطانُ على سعد الدين إبراهيم بن المَرَة ليكون رفيقاً للأمير أَسَنْبُغَا الطَّياريّ في التكلُّمِ على بَنْدَر جدَّة.

وفي هذه الأيام قَوِيَ عزمُ السلطان على السَّفَر، وظهر للناس حقيقة ذلك من تجهيز أمور السلطان وتعلقاته للسفر. وأيضاً فإنه رَسَمَ في هذه الأيام بصَرف نفقة المماليك السطانية بسبب السفر.

ثم في يوم الخميس حادي عشرين جمادى الآخرة المذكورة أنفق السلطانُ في الأُمراء نفقة السَّفَر. فعند ذلك اضطَرَب الناسُ، وأخذوا في تجهيز أُمورِهم، وتَيَقَّنُوا صِدْق القَالَة. فحمل السلطانُ إلى الأمير الكبير أَتَابك العساكر سُودُون من عبد الرحمن أكْياس فِضَّةٍ حساباً عن ثلاثة آلاف دينار، وإلى كلٍّ من أمراء الألوف ــ وهم عشرة أنفس ــ لكل واحد ألفي دينار، وإلى كل من أمراء الطَّبْلَخانات خمسمائة دينار، وإلى كل من أمراء العشرات مائتي دينار، وكل ذلك فضّة حساباً عن الذّهب من سعر الدينار بمائتين وعشرين درهماً، والدينار يومئذ بمائتين وثمانين، فالنفقة على هذا الحكم تنقص مبلغاً كبيراً؛ غير أنه من هو المشاحح لذلك؟! ولسان الحال يقول: يدُ الخلافةُ لا تُطَاوِلُها يدُ. وكان هذا أيضاً بخلاف القاعدة؛ فإنَّ قاعدة الملوك أن تنفق أولاً على المماليك السلطانية، ثم

تنفق على الأمراء، فكان ذلك بخلاف ما كان. وكان له سبب فيما قِيل، وهو أن الملك الأشرف كان عنده بُخْل وعدم محبة للسّفر من مبدأ أمْرِه إلى أيّام سلطنته، وكان أشاع في السنين الماضية أنه يريد السَّفر لقتال قَرَايُلُك: يوهِمُ قَرَايُلُك بذلك ليُرْسِل إليه بالدخول في طاعته، وكان قَرَايُلُك أرسلَ إلى السلطان في ذلك لَمَّا كانَ ولده هَابِيل في حَبْس الملك الأشرف، فلما مات هابِيلُ بالطّاعون في سنة ثلاث وثلاثين في مَحْبَسِهِ أمْسَكَ قَرَايُلُك عن مكاتبات السلطان، وأخذ في ضَرْب معاملاته، وصار السلطانُ في كل سنة يتجهّز للسفر ويشيع ذلك إرْدَاعاً لقَرَايُلُك، فلم يلتفت قَرَايُلُك لذلك. فلَمَّا طال الأمرُ على السلطان حقَّق ما كَان أشاعه من السّفر مخافة العار والقالة في حَقِّه.

وتأييد ما قيل أنني سمعته يقول في بعض منازله في سفره إلى آمِد، وأظنه في العَوْدة: «لو سألني قَرَايُلُك في الصُّلح والدخول في طاعتي بمقدار ما سأله للأمير جَكَم من عوض نائب حَلَب، لما مشيت لقتاله، أو أقل من ذلك لرَضِيتُ». فهذا الخبرُ يقوّي القول المقدّم ذكره.

واستمر السلطانُ في انتظار قُدُوم رسل قَرَايُلُك بالصُّلح في كل يوم وساعة، وهو يترجّى أنه إذا بلغه صحة سفر السلطان إلى قتاله يرسل قُصّاده في السُّؤال بالصُّلح، وأرباب دولته تشير عليه بالتربُّص والتأني في أمر السَّفر مخافةً من وقوعهم في الكُلَف الكثيرة، فأشاروا عليه بأن يُنْفِق في الأمراء أوّلاً، فربما يأتي رسولُ قَرَايُلُك في السؤال ويُبْرَمُ الصلح، فيكون استعادةُ المال منهم أهون من استعادته من المماليك السلطانية. فحَسُنَ ذلك ببال السلطان، وهو كما قيل في الأمثال «إن كلمة الشح مطاعة»، وأنفقَ في الأمراء، وعوَّق نفقة المماليك إلى أن كان يوم سلخ جمادى الآخرة. فلما يئس من قَرَايُلُك أخـذ في نفقة المماليك السلطانية في سلـخ الشهر المذكور، فأنفق على عِدَّة كبيرةٍ من المماليك السلطانية لا يحضُرُني عِدَّتهم.

قال المقريزي: وهم ألفان وسبعمائة. وفي ظني أنهم كانوا أكثر من ذلك، غير أني لم أُحَرِّر عدَّتهم. فجلس السلطانُ بالمقعد الذي على بـاب البَحْرَة من

الحوش السلطاني بقلعة الجَبَل، وأعطى لكل مملوك صُرَّةً فيها ألف درهم وخمسون درهماً فضة أشرَفِيَّة، عنها من الفلوس اثنان وعشرون ألف درهم، وهي مصارفةُ مائةِ دينار من حساب صَرْف كل دينار بمائتين وعشرين درهماً فلوساً، وكان صَرْف الدينار يوم ذاك بمائتين وثمانين درهماً. كما حُمِلت النفقة أيضاً للأمراء على هذا الحساب. وكانت المماليك السلطانية اتَّفقُوا على أنَّهم لا يأخذون إلا مائة دينار ذَهَباً، ودخلوا على ذلك. فلما استدعى الديوان أوّل اسم من طبقة الرَّفْرَف(١)، خرجَ صاحِبُه وأخذ وباسَ الأرضَ وعاد إلى حال سبيله. واستدعى الديوانُ(٢) من هو بَعْدَه، فخرجَ واحدٌ بَعْد واحدٍ إلى أن تمت الطبقة، ولم يتفوّه أحدٌ منهم بكلمة في معنى ما اتفقوا عليه. ولما نزلوا بعد القبض للنفقة صار بعضُهم يوبخُ البعضَ خفية على تَرْك ما اتَّفَقُوا عليه، إلى أن قال لهم بعض المماليك المؤيدية: «احمَدُوا الله على هذا العطاء، فوالله لو لم يُنْفِق [السلطان] فيكم، وأمركم بالسَّفر معه من غير نفقة، لخرجتُم معه صاغرين، وأوّلهم أنا» فضحك القومُ من كلامه وانصرفوا.

قلت: تلك أمة قد خلت. وهؤلاء القوم يأكلون الأرزاق صَدَقَةً عن تلك الأمم السالفة؛ فإننا لا نعلم بقتالٍ وقع في هذا القَرْن ـ أعني عن قرن التسعمائة ـ غير وقعة تَيْمورْلَنْك مع نوَّاب البلاد الشاميّة على ظاهر حَلَب، لا مع العساكر المصريَّة. وأما ما وقع بعد ذلك من الوقائع في الدولة الناصرية [فرج] والدولة المؤيدية [شيخ] والدولة الظاهرية [طَطَر] والدولة المنصورية [محمد بن طَطر] فهو فَرْع من القتال لا القتال المعهود بعينه. وتصديقُ ذلك أنه لم تَكُن وقعة وقعت في هذه الدّول أعظم من وقعة شَقْحَب(٣)، ومع ذلك لم يقتل في المصاف

(١) أي المماليك السلطانية الذين كانوا يقيمون في طبقة الرفرف من القلعة. راجع فهرس المصطلحات (الطباق) وفهرس الأماكن (الرفرف).

(٢) أي صاحب ديوان المفرد. وهو الديوان الذي كان موكلاً بالنفقة على المماليك السلطانية. راجع فهرس المصطلحات: ديوان المفرد.

(٣) شقحب قرية من ضواحي دمشق. ووقعة شقحب حدثت سنة ٦٩٨ هـ وانتصر فيها السلطان قطز على التتار.

خمسون رجلاً من الطائفتين. وما وقع بعد ذلك من الوقائع فتنجلي الوقعة ولم يُقتَل فيها رجل واحدٌ. وقد ثبت عند المؤرخين أنه قُتِل في الوقعة التي كانت بين تَيْمورلَنْك وبين ملك دِلّي أحد ملوك الهِنْد في المصاف زيادة على عشرة آلاف نَفْس في أقلّ من يوم، ونحن لا نُطَالب أحداً بذلك، غير أن الازدراء بالغَيْر عَلَى ماذا؟! انتهى

ثم في يوم الثلاثاء ثالث شهر رجب قدم الصاحب كريم الدين عبد الكريم من الوجه البحري بعد أن أخذ خيول أهله وجِمالهم وأغنامهم وأموالهم، هو وأتباعُه، فما عَفُّوا ولا كَفُّوا.

ثم في يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب المذكور أُدِير محملُ الحاج، ولم يعمل فيه ما جَرَت به العادةُ من التجمّل، ولعب الرَّمّاحة، بل أُوقِفَ المحملُ تحت القَلْعَة وأُعِيدَ، ولم يتوجّه إلى مصر، وهذا شيء لم يعهد بمثله؛ وكان سبب ذلك اشتغال الرَّمّاحة بالتجهيز للسفر صحبة السلطان.

ثم في يوم السبت رابع عشر شهر رجب المذكور خرجَت مُدَوّرة السلطان وخيام الأمراء من القاهرة، ونصبت بالرَّيْدَانِيَّة لأجل سفر السلطان.

ثم في يوم الاثنين سادس عشره خرج أمراء الجاليش مُقَدِّمَةً لعسكر السلطان، وهم الأمير سُودُون من عبد الرحمن أتابك العساكر، والأمير إينَال الجَكَمِيّ أمير سلاح، والأمير قَرْقَمَاس الشَّعْبَانِيّ الناصريّ حاجب الحجّاب، والأمير قانِي بَاي الحمزاوي، والأمير سُودُون مِيق، والجميع مقدّمو ألوف، ونزلوا بخيمهم بطَرَفِ الرَّيْدَانيّة تجاه مسجد التبن.

ثم رسم السلطانُ بإخراج البطّالين من الأمراء من الديار المصرية، فرسم للأمير أَلْطُنْبُغَا المَرْقَبِيّ حاجب الحجّاب ــ كان ــ في الدولة المؤيدية [شيخ] بالتوجّه إلى القُدْس، ثم رَسَمَ له أن يتوجّه صحبة السلطان إلى السَّفر فسافر في ركاب السلطان، وهو يوم ذاك من جُمْلة أمراء العشرات، ثم رَسَمَ السلطانُ بإخراج الأمير أَيْتَمُش الخضري الظاهري المعزول عن الأستادارية قبل تاريخه إلى

القُدْس، فخرج إليه، ومنع السلطانُ من بقي من أولاد الملوك من الأسياد من ذُرِّيَّة الملك الناصر محمد بن قلاوون وغيره من سُكْنَى القلعة وطلوعها في غيبة السلطان، وأُخْرِجُوا من دورهم فيها. وكانوا لَمَّا منعوا من سنين من سَكَن القلعة، ورسَمَ لها الملكُ الأشرف بالنزول منها والركوب حيث شاءوا، سكن أكثرُهم بالقاهرة وظواهرها، فذلّوا بعد عَزِّهِم، وتهتَّكُوا بعد تحجُّبِهم، وبقي من أعيانهم طائفة مقيمة بالقلعة، وتنزل إلى القاهرة في حاجاتهم ثم تعود إلى دورهم، فلما كان سفر السلطان في هذه السنة أُخْرِجُوا الجميع منها ومُنِعُوا من سُكْنَى القلعة، فنزلوا وتفرَّقوا بالأماكن بالقاهرة.

والعجبُ أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان فَعَلَ ذلك بأولادِ الملوك من بني أيّوب، فَجُوزِيَ في ذرّيته، وكان الملك الكاملُ محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب فعل ذلك بأولاد الخلفاء الفاطميين، فكل واحد من هؤلاء جُوزِيَ في أولاده بمثل فِعْلِهِ، ووقع ذلك لابن الملك الأشرف ولغيره، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحَداً.

ثم في يوم سابع عشره خلع السلطانُ على دُولَات خَجَا الظاهريّ بإعادته إلى ولاية القاهرة عوضاً عن التّاج بن سيفة الشُّوبَكِيّ بحُكم سفره مع السلطان مِهْمَنْدَاراً وأستادار الصّحبة. هذا وقد ترشَّح الأميرُ آقْبُغَا التَّمْرَازِي أمير مجلس لإقامته بالقاهرة في غَيْبَة السلطان، وتَرَشَّحَ الأمير حُسَين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمش البَهْنَسِيّ للإقامة بباب السِّلسلة في غَيْبَة السلطان حسبما يأتي ذكره.

ذكر سفر السلطان الملك الأشرف [برسْباي] إلى آمِد

لمّا كان يوم الخميس تاسع عشر شهر رجب من سنة ست وثلاثين وثمانمائة، الموافق لأول فصل الربيع، وانتقال الشمس إلى بُرْج الحَمَل، ركب السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي من قلعة الجبل ببقية أمرائه ومماليكه، وعبّى أُطْلابَه(١)، وتوجّه في الساعة الثالثة من النهار المذكور إلى مُخيَّمه بالرَّيْدانيَّة، خارج القاهرة، تجاه مسجد التِّبْن، فسار في موكب جليل إلى الغاية، وقد خرج الناس لرؤيته، إلى أن وصل إلى مخيمه، وصحبته من الأمراء المقدَّمين: الأمير جَقْمَق العلائي أمير آخُور، والأمير أَرْكَماس الظاهري الدَّوَادار، والأمير تِمْراز القُرْمُشي رأس النُّوَب، والأمير يَشْبَك السُّودوني المعروف بالمُشِدّ، والأمير جانِمْ ابن أخي(٢) الملك الأشرف، والأمير جاني بك الحَمْزاوي، فهؤلاء من مقدّمي الألوف؛ وسافر معه جماعة كثيرة من أُمراء الطبلخاناه، مثل الأمير قَراخُجَا الشعباني الظاهري بَرْقوق، ثاني رأس نوبة، والأمير قَراسُنْقُر مِنْ عبد الرحمن الظاهري برقوق، والأمير قَراجَا الأشرفي شادّ الشرابخاناه، والأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغاوي الدوادار الثاني، والأمير شيخ الرُّكْني الأمير آخور الثاني، والأمير خُجَا سُودون السَّيْفي بَلاط الأعرج، أحد رؤوس النوب، والأمير تَغْري بَرْدي البَكْلَمُشي المُؤذي، أحد رؤوس النوب، فهؤلاء الذين يحضرني الآن أسماؤهم.

وسافر معه عدّة كبيرة من الأمراء العشرات، وخلع(٣) على الأمير حسين بن

---

(١) الأطلاب: جمع طُلْب، وهو الكتيبة العسكرية ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) كذا أيضاً في السلوك ونزهة النفوس. وفي طبعة الهيئة المصرية: «الأمير جانم أخو الملك الأشرف». وقد اعتمدت طبعة الهيئة المصرية على مخطوطة أيا صوفيا حيث وردت عبارة المؤلّف على نحو: «جانم أخي الملك الأشرف» فظن المحقّق أن في العبارة خطأً نحوياً وصحّحها على هذا الأساس، في حين أننا نرى أن في العبارة سقطاً.

(٣) دأب المؤلّف على استخدام صيغة «أخلع» بدلاً من «خلع». وسوف نصحّحها فيما يأتي بعد هذا دون إشارة أو تعليق. وكثيراً ما نقع على مثل هذه الصيغة الخطأ في الكتابات التاريخية العائدة للعصور الوسطى، =

أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمَش، باستقراره في نيابة الغيبة، ورسم له بسكنى باب السلسلة والحكم بين الناس. ورسم باستقرار الأمير آقْبَغَا التِّمْرازي، أمير مجلس، بإقامته بالقاهرة، وبسكنه بقصر بَكْتَمُر عند الكَبْش، والأمير بَرْد بك الإسماعيلي قَصْقَا الحاجب الثاني. وعيَّن أيضاً عدّة من أمراء العشرات والحجّاب بالإقامة بالقاهرة. واستقر بالقلعة المقام الجمالي يوسف ابن السلطان الملك الأشرف، وهو أعظم مقدّمي الألوف، والأمير خُشْقَدَم الظاهري الزمام الرومي، والأمير تَنِبَك البَرْدبكي نائب قلعة الجبل، والأمير إينال الظاهري أحد رؤوس النوب المعروف بأَبْزَى.

وخلع على الأمير إينال الششماني أحد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره أميرَ حاجِّ الموسم، وخلع على الوزير الأستادار الصاحب كريم الدين بإقامته بالقاهرة، وأن يتوجّه أمينُ الدين إبراهيم بن الهَيْصَم ناظرُ الدولة صُحْبَة السلطان.

وبات السلطان ليلة الجمعة بالرَّيْدانية، واشتغل بالمسير من الغد، في يوم الجمعة، بعد الظهر إلى البلاد الشامية، ومعه مَن ذكرنا من الأمراء والخليفةُ المُعْتَضِد بالله داود والقضاةُ الأربعة، وهم: قاضي القضاة شهابُ الدين أحمد بن حَجَر الشافعي، وقاضي القضاة بدرُ الدين محمود العِينْتَابي[1] الحنفي، وقاضي القضاة شمسُ الدين محمد البساطيّ المالكي، وقاضي القضاة محبُّ الدين أحمد البغدادي الحنبلي.

ومن مباشري الدولة: القاضي كمالُ الدين محمد بن البارِزي كاتب السر،

= خاصة لدى المؤرّخين غير المتمكّنين من اللغة العربية مثل الخطيب الجوهري في نسخة النفوس والأبدان وابن إياس في بدائع الزهور. وقد انتقد السخاوي بشدّة مثل هذه الأخطاء لدى أبي المحاسن ونسبها إلى عدم تمكّنه من اللغة (انظر الضوء اللامع: ٣٠٥/١٠). كما أشار الخطيب الجوهري إلى هذا الأمر بقوله إن أبا المحاسن كان «كلما فرغ من تصنيف يتوجّه به إلى مَن يعرف العربية فيصلحه له». (انظر أنباء الهصر، مقدمة الدكتور حبشي، ص ١٩ ـ ٢٠) هذا علماً أن الخطيب الجوهري هو آخر مَن يحقّ له انتقاد أبي المحاسن في هذا الشأن، ذلك أنه يكتب بلغة هي أقرب إلى العاميّة منها إلى اللغة العربية الفصحى.

(١) وشهرته «العيني»، وهو صاحب تاريخ «عقد الجمان».

وزين الدين إبراهيم ابن كاتب جَكَم ناظر الخواصّ، والقاضي شرف الدين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السر، وأئمة السلطان الذين يصلُّون به الخمس، ونديمُه وليُّ الدين بن قاسم الشُّيشِيني؛ فهؤلاء الذين سمحت القريحةُ بذكرهم. وكان سفر السلطان في الغد من يوم خروجه من القاهرة، بخلاف عادة الملوك - انتهى.

وسار السلطانُ بعساكره، لا يتجاوز في سيره المنازلَ[(١)]، إلى أن وصل إلى مدينة غزة، في أول شعبان، بعد أن خرج نائبُها الأميرُ إينال العلائي الناصري، أعني الملك الأشرف إينال، إلى ملاقاته هو وأعيانُ غزّة؛ ودخل السلطان إليها في موكب عظيم سلطاني، وأقام بها، إلى أن رحل منها في يوم الخميس رابعِه، بعد أن نزل بالمَسْطَبة خارج غزة ثلاثة أيام؛ وسار إلى جهة دمشق، ونحن في خدمته، إلى أن وصل إلى مدينة دمشق في يوم الاثنين خامس عشر شعبان. واجتاز بمدينة دمشق بأبّهة السلطنة وشعار الملك في موكب جليل، وحمل الأميرُ جَارْقُطْلُو نائبُ الشام القُبَّةَ والطَّيْرَ على رأسه، إلى أن نزل بالدِّهْليز السلطاني بمنزلة بَرْزَة خارج دمشق، وكذلك جميعُ أُمرائه وعساكره نزلوا [بخيامهم بالمنزلة المذكورة، ولم ينزلوا بمدينة دمشق، شفقةً على أهل دمشق][(٢)].

وأقام السلطان بمخيّمه خمسةَ أيام، وركب فيها غيرَ مرة، ودخل دمشق، وطلع إلى قلعتها مراراً. ثم رحل السلطان من دمشق بأمرائه وعساكره، في يوم السبت عشرينه، يريد البلاد الحلبية، فحصل للعسكر بُعَيضُ مَشَقّة لعدم إقامته بدمشق، من أجل راحة البهائم، ولم يعلم أحدٌ قصدَ السلطان في سرعة السير لماذا؟ وسار [السلطان] حتى وصل إلى حمص ثم إلى حماة، فخرج الأمير جُلْبان نائب حماة إلى ملاقاة السلطان بعساكر حماه، فأقام السلطان بظاهر[(٣)] حماة المذكورة ثلاثة أيام، ثم رحل منها يريد حلب. ولم يدخل السلطان حماة بأبّهة

---

(١) أي إنه كان يرتاح في كل منزلة من منازل الطريق. وقد ذكرها بالتفصيل القاضي ابن حجر العسقلاني في تاريخه إنباء الغمر: ٨/٢٧٤، فلينظر.

(٢) الزيادة من طبعة الهيئة المصرية عن مخطوطة أيا صوفيا. وهي ساقطة من طبعة كاليفورنيا.

(٣) في الأصل: «بعساكر». وما أثبتناه عن طبعة الهيئة المصرية.

السلطنة كما دخل دمشق لما سبق ذلك من قواعد الملوك السالفة: أن السلطان لا يدخل أبداً من مدن البلاد الشامية بأبَّهة السلطنة إلّا دمشق وحلب ثم مصر، وباقي البلاد يدخلها على عادة سفره إلّا الملك المؤيَّد شيخ، فإنه لما سافر إلى البلاد الشاميّة في واقعة نَوْرُوز الحافظي، عمل بحماة الموكبَ السلطانيَّ ودخلها بأبّهة السلطنة، وحمل على رأسه القبةَ والطيرَ الأميرُ الكبيرُ، استقلالاً بنائبها، فإنه لا يحمل القبة والطير على رأس السلطان إلّا أحدُ هؤلاء الأربعة: الأمير الكبير، أو ابن السلطان، أو نائب الشام، أو نائب حلب.

وكان لعمل الملك المُؤيَّد الموكبَ بحماه سببٌ، وهو أنه كان في أيام إمرته، في الدولة الناصرية [فرج] لمّا حاصر الأميرَ نَوْرُوزَ الحافظي بها تلك المدة الطويلة، وقع من حَقِّه من أهل حماة أمورٌ شنيعةٌ، صار في نفسه من ذلك حَزازةٌ، فلما ملكَ البلادَ وتسلطن، أراد أن يُنْكيهم بما هو فيه من العظمة، ويُريهم ما آل أمره إليه ـ انتهى.

وسار السلطان الملك الأشرف من حماة إلى أن وصل إلى حلب في يوم الثلاثاء، خامس شهر رمضان، ودخلها على هيئة دخوله إلى دمشق، بأبّهة السلطنة، وحملَ القُبّةَ والطيْرَ على رأسه الأميرُ قَصْرُوه مِنْ تِمْراز نائب حلب؛ وشَقّ السلطانُ مدينة حلب في موكب عظيم، إلى أن خرج منها على هيئته، ونزل بمخيمه بظاهر حلب برأس العَيْن، ونزل معه جميع عساكره بخيلهم، ولم ينزل أحد منهم بمدينة حلب، فأقام السلطان بمكانه المذكور خمسة عشر يوماً، يركب فيها ويدخل إلى حلب ويطّلع على قلعتها.

وكانت إقامةُ السلطان بحلب هذه المدة، ليَرِد عليه بها قُصّادُ الأمير عثمان بن طُرْعَلي، المدعو قَرَايُلك، في طلب الصلح، فلم يرد عليه أحد ممّن يعتمد السلطان على كلامه، فعند ذلك تهيأ السلطان للخروج إلى جهة آمِد.

وسار من حلب في يوم الاثنين، حادي عشرينَ شهر رمضان، مُخفِّفاً من الأثقال والخيام الهائلة؛ ونزل القضاة بمدينة حلب، وصحب الخليفةَ أميرَ المؤمنين

المعتضد داود، وهو في تَرْسِيم الأمير قَرَاسُنْقُر العبد رحماني، أحد أمراء الطبلخاناه، كما هي العادة في مَشْيِ بعضِ الأمراء مع الخلفاء في الأسفار، كالتَّرْسيم عليه، وهذا أيضاً من القواعد القديمة.

واستمر السلطان في سيره بجميع عساكره، غير أنهم في خِفَّة من أثقالهم، إلى أن وصل البِيرَة، وقد نصب جسر المراكب على بحر الفرات لتعدية العساكر السلطانية عليه إلى جهة الشرق، فنزل السلطان في البرّ الغربي الذي جهة حلب، وأقام بمخيمه، وأمر الأمراء أن تعدِّي إلى تلك الجهة بأَطْلابها قبله، ثم يسير السلطان بالعساكر بعدهم لئلا تروح[1] العساكر على الجسر المذكور، لأن الجسر، وإن كان محكماً، فهو موضوع على المراكب، والمراكب مربوطةٌ موثوقةٌ بالسلاسل، فهو على كل حال، ليس بالثابت تحت الأقدام، ولا بدّ أن يَرتَجّ عند المرور عليه؛ وكانت سعَةُ الجسر بنحو أن يمرّ عليه قطاران من الجِمال المحمّلة - انتهى.

فأخذت الأمراءُ في التعدية إلى جهة البِيرة - والسلطانُ بعساكره في خيامهم - إلى أن انتهى حالُ الأمراء، فأذِنَ السلطانُ عند ذلك للعساكر بالمرور على الجسر المذكور إلى البِيرة من غير عجلة، فكأنه استحثّهم على السرعة، فحمَّلوا جِمالهم للتعدية، ووقع بينهم أمور وضراب ومخاصمة بسبب التعدية، يطول شرحها، إلى أن عدّى غالبهم. فعند ذلك ركب السلطان بخواصِّه ومرّ على الجسر المذكور إلى أن عدّاه. ونزل بقلعة البيرة في يوم السبت سادس عشرين شهر رمضان، ونزلت العساكر المصرية والشامية على شاطىء بحر الفرات وغيره، فأقام السلطان بالبِيرة إلى أن رتّب أمورها وترك بها أشياء كثيرة من الأثقال السلطانية، ورحل منها في أواخر شهر رمضان المذكور إلى جهة آمِدْ حتى نزل على مدينة الرُّها في ليلة عيد الفطر، فوجدناها[2] خراباً خالية من أهاليها وأصحابها لم يسكنها إلاّ مَن عجز عن الحركة من ضعف بدنه أو لقلّة ماله. ونزل السلطان على ظاهرها من جهة الشرق

(١) كذا في الأصل. وفي نسخة أيا صوفيا: «تزدحم».
(٢) إشارة إلى أن المؤلّف كان مرافقاً للسلطان برسباي في حملته على آمد.

وعيّد بها عيد الفطر، ودخلت أنا إلى مدينة الرُّهَا وطلعت إلى قلعتها، فإذا هي مدينة لطيفة، وقلعتها في غاية الحُسْن، على أنها صغيرة جدّاً.

ثم أصبح السلطان يومَ عيد الفطر، وقد اشتغل بالمسير إلى جهة آمد، وإلى الآن لم يعرف لقَرَايُلك خبر، والأقوال فيه مختلفة؛ فمن الناس مَن يقول إنه تهيأ ويريد قتالَ العساكر السلطانية، ومن الناس مَن يقول إنه دخل إلى آمِد وحصّنها، ومن الناس مَن يقول إنه ترك بمدينة آمد ابنَه بعد أن حصّنها، وتوجّه إلى قلعة أَرْقَنِين(١)، وأرقنين على يسار المُتَوجِّه إلى آمد. وسار السلطان بعساكره من الرُّها وعليهم الأسلحة وآلة الحرب، إلى أن نزل إلى آمد في يوم الخميس ثامن شوّال؛ وقبل نزول السلطان عليها صفّ عساكرَه عدّةَ صفوف، ووراءهم الثقل والخدم، حتى ملؤوا الفضاء طولاً وعرضاً. ومشى السلطان هو والخليفة، ومُباشِرو الدولة حولهما بغير سلاح، يوهم أن المباشرين المذكورين هم قضاة الشرع، لكون لبسهم على هيئة لبس الفقهاء، وليس بينهم وبين القضاة فرق، بل كان فيهم مثلُ القاضي كمال الدين بن البارِزِي كاتب السر، وهو أفضل من قضاة كثيرة، وسار السلطان بهم أمام عسكره.

وقد هال أهل آمِد ما رأوه من كثرة العساكر وتلك الهيئة المزعجة التي قلّ أن يجتمع في عساكر الإسلام مثلها، من ترادف العساكر بعضها على بعض، حتى ضاق عليهم اتّساع تلك البراري، وخلف العساكر المذكورة الأَطْلابُ الهائلة، والكُوسات تدقّ، والبوقات تزعق، وقد تجاوز عددَ أَطْلاب الأمراء، لكثرة ما اجتمع على السلطان من العساكر المصرية والنوّاب بالبلاد الشامية وأُمراء التركمان والعربان؛ فكانت عدّة الأطلاب التي بها الطبول والزمور تزيد على مائة طُلْب، ما بين أمراء مصر المقدّمين وبعض الطَّبْلَخَانات ونائب دمشق وأمرائها، وهم عدّة

(١) أرقنين: بلدة بأطراف الروم (آسيا الصغرى) غزاها سيف الدولة الحمداني وذكرها أبو فراس الحمداني في شعره:

إلى أن وردنا أرقنين نسوقها وقد نكلت أعقابنا والمخاصر

وذكر البعض هذه البلدة بالفاء (أرفنين) والصيغة الأولى أشهر. (معجم البلدان).

كثيرة، ونائب حلب وأمرائها وطرابلس وأمرائها، وكذلك حماة وصفَدَ وغزّة ونوّاب القلاع وأمراء التركمان الذين تُضْرَب على بابهم الطُّبول[١]، فدقّت عند قدوم السلطان جميع طبول هؤلاء وزعقت الزمور يداً واحدة، فانطبق الفضاء طبلاً وزمراً حربية، هذا مع كثرة البَراشِم[٢] والأجراس المعلّقة على خيول الحرب المُلبسة بالعدد الكاملة وقلاقل الجِمال.

وعند القرب من مدينة آمِد، أخذت العساكر تلتمّ حتى أشرف أجناد كثيرة على الهلاك من عِظم ازدحام بعضهم على بعض، ومع هذا أعرض العساكر مدَدَ العين، وصار الرجل من العسكر إذا تكلم مع رفيقه لا يسمع رفيقُه كلامَه إلّا بعد جهد كبير لعظم الغوغاء، فانذهل أهلُ آمد ممّا عايَنُوا من كثرة هذه العساكر وشدّة بأسها وحُسْن زِيِّهم، ومن التَّجَمُّل الزائد في العُدد والآلات والخيول والأسلحة، والكثرة الخارجة عن الحدّ في العَدد.

وكان قَرَايُلُك قبل أن يخرج من مدينة آمِد، أمر أن يُطلق الماء على أراضي آمد من خارج البلد من دِجلة، ففعلوا ذلك فارتطمت خيولُ كثيرٍ من العسكر بالماء والطين، فلم يكترث أحد بذلك، ومشى العسكر صفّاً واحداً، وخلف كل صف صفوف لا تعدّ؛ واستمروا في سيرهم المذكور إلى أن حاذوا خندق آمد، وقد بُهِتَ أهلُها لِما داخلهم من الرُّعْب والخوف ممّا طرقهم من العساكر، ولم يَرْمِ منهم أحدٌ بسهم في اليوم المذكور إلّا نادراً، ولا علا أحدٌ منهم على شُرُفات البلد إلّا في النادر أيضاً، وصاروا ينظرون العساكرَ من الفروج التي بين الشُّرُفات.

ولم يكن لآمِد المذكورة قلعة بل سور المدينة لا غير، إلّا أنه في غاية الحُسْن من إحكام بنيانه، وكل بدنة بالسور المذكور تحمي البدنة الأخرى، فلهذا

(١) الأمراء الذين كان يحقّ لهم أن تُضرَب الطبول على أبوابهم كل مساء هم مَن كانوا في رتبة أمير أربعين (أمير طبلخاناه) وما فوق. وكان عدد الطبول يختلف باختلاف الرتبة. فأقلّ ما يضرب على باب أمير طبلخاناه، ثم أمير مائة مقدم ألف، ثم الأمير الكبير أتابك العساكر. أما أكبر جوقة طبول فهي الخاصّة بالسلطان. وقد بطلت عادة دقّ الطبول على أبواب الأمراء مع بداية العهد العثماني.

(٢) البراشم: البراقع.

يصعب حصارُها ويبعد أخذُها عَنْوَةً؛ فوقف العسكر حول آمد ساعة.

ثم مال السلطان بفرسه إلى جهة بالقرب من مدينة آمد، ونزل به في مخيمه، وأمر الناس بالنزول في مُنازلهم، وأمرهم بعدم قتال أهل آمد؛ على أن أوباش القوم تراموا بالسهام قليلاً، فتوجّه كلّ واحد إلى مخيمه، ونزل الجميع بالقرب من آمد، كالحلقة عليها، غير أنهم على بُعدٍ منها، بحيث إنه لا يلحقهم الرمي من السور، وأحدقت العساكر بالمدينة من جهتها الغربية، وكان الموضع الذي نزلنا به هو أقرب الأماكن للمدينة المذكورة.

ونزل السلطان بمخيمه وقد ثبت عنده رحيل قَرَايُلك من آمِد، وأنه ترك أحدَ أولاده بها، فأقام بمخيمه إلى صبيحة يوم السبت عاشر شوّال، فركب وزحف بعساكره على مدينة آمد بعد أن كلّمهم السلطان في تسليمها قبل ذلك؛ وتردّدت الرُّسل بينه وبينهم، فأبى مَن بها من الإذعان لطاعة السلطان وتسليم المدينة إلاّ بإذن قرايلك.

ولما زحف السلطان على المدينة اقتحمت عساكر السلطان خندق آمد، وقاتلوا مَن بها قتالاً شديداً، حتى أشرف القوم على الظفر وأخْذ المدينة، ورُدم غالبُ خندق مدينة آمد بالحجارة والأخشاب.

وبينما الناس في أشدّ ما هم فيه من القتال، أخذ السلطان في مَقْت المماليك وتوبيخهم، وصار كلما جُرح واحد من عساكره وأُتي له به يزدريه ويهزأ به، وينسب القوم للتراخي في القتال.

ثم ليس هو سلاحه بالكامل، وأراد أن يقتحم المدينة بنفسه حتى أعاقه عن ذلك أعيان أمرائه، وهو راكب على فرسه، وعليه السلاح الكامل من الخوذة إلى الركب، واقف على فرسه بمُخيَّمه حيث يجلس، والناس وقوف ورُكبان بين يديه، تعِده بالنصر وُالظفر في اليوم المذكور، وإن لم يكن في هذا اليوم فيكون في الغد، وتذْكُر له أن القلاع لا تؤخذ في يوم ولا يومين؛ وهو يتكلم بكلام معناه أن عساكره تتهاون في قتال أهل آمِد؛ فلا زالت الأمراءُ به، حتى خلع عن رأسه خوذتَه ولبس

تخفيفةً على العادة، واستمر القَرْقَل(١) عليه، إلى أن تَرَضَّاه الأمراء، وخلع قَرْقله، فحمي الحرّ، واشتدت القائلة، وسئمت الناسُ من القتال، هذا مع ما بلغهم من غضب السلطان، بعد أن لم يُبقوا ممكناً في القتال، وقد أثخنت جراحاتُ الأمراء والمماليك من عظم القتال.

[كل ذلك والسلطان ساخط عليهم بغير حق، فعند ذلك فتر عزم القوم عن القتال من يومئذ](٢)، وما أرى هذا الذي وقع إلاّ خذلاناً من الله تعالى لأمر سبق، وإلاّ فالعساكر الذين اجتمعوا على آمِد كان يمكنهم أخذ عدّة مدن، مثل آمد وغيرها.

ولما انقضى القتال، وتوجّه كل واحد إلى مخيمه، وهو غير راضٍ في الباطن، وجد أهلُ آمد راحة كبيرة بعودة القوم عنهم، وبلعوا ريقهم، وأخذوا في تقوية أبراج المدينة وسورها، بعد أن كان أمرهم قد تلاشى، مما دهمهم من شدّة قتال مَن لا قِبَل لهم بقتاله. ونزل السلطان بمخيمه، وندب الأمراءَ والعساكر للزحف(٣)، على هيئة ركوبهم يومَ السبت، في يوم الثلاثاء، وهو أيضاً في حال غضبه؛ فابتدأ الأمير قَصْرُوه نائب حلب، والأمير مُقبل نائب صَفَد، والأمير جَقْمَق العلائي الأمير آخُور، في الكلام مع السلطان في تسكين غضبه، وقالوا: «يا مولانا السلطان، القلاع كما في علم السلطان، ما تؤخذ في يوم واحد، ولا في شهر؛ وثَمّ من القلاع ما حاصره تَيْمُورْلَنْك، مع كثرة عساكره، عشرَ سنين. يا مولانا السلطان، الحصونُ ما تُبنى إلاّ للمنع، ولولا ذاك ما بنى أحد حصناً». وقد اجتهد مماليك السلطان وأمراؤه في القتال، وجُرح الغالب منهم، وكان ممّن جُرِح من الأعيان: الأمير تَغْري بَرْدي المحمودي، رأس نوبة النوب، وهو كان يوم ذاك أتابك [العساكر] بدمشق؛ والأمير سُودون مِيق، أحد مقدّمي الألوف بديار مصر، والأمير تَنِبَك من سيِّدي بك الناصري المعروف بالبَهْلَوان، أحد أُمراء العشرات ورأس

(١) القرقل: نوع من الدروع مصنوع من زرد الحديد ومغطى بالديباج، يلبس تحت الثياب الخارجية.
(٢) هذه الزيادة عن مخطوط أيا صوفيا، وهي ساقطة من طبعة كاليفورنيا.
(٣) في الأصل: «بالزحف».

نوبة؛ وأما من المماليك والخاصْكِيَّة فكثير. فكان آخر كلام السلطان للأمراء: «إن العساكر تركب صحبة الأمراء في يوم الثلاثاء، وتزحف على المدينة، ويكون الذي يركب مع الأمراء للزحف، المماليك القَرَانيص[1]، وأنا ومماليكي الأَجْلاب نكون خلفهم»، أراد بذلك عدم معرفة مماليكه بطرق الحرب، فحمل الناس كلامه على أنه يفعل ذلك شفقةً على مماليكه، وأنه يريد هلاك مَن سواهم.

وقامت قيامة القوم، وتنكّرت القلوب على السلطان في الباطن، وتطاولت أعناق أمرائه إلى الوثوب عليه، واتفق كثير منهم على ذلك لولا أن بعضهم مات من جراحه، وتخوّف بعضهم أيضاً من بعض، وعدم موافقة جماعة أُخَر من أعيان الأمراء لذلك.

وكان ممّن اتُّهم بالوثوب، على ما قيل، الأتابك جَارْقُطْلُو نائب الشام، وطَرَبَاي نائب طَرَابُلُس، ومقبل نائب صَفَد، وتَغْري بَرْدي المحمودي - مات بعد أيام من جرح أصابه - وسُودون مِيق - مات أيضاً من جرح أصابه - والأمير جانِبك الحمزاوي - مات في عوْد الملك الأشرف إلى مصر بعد أن ولّاه نيابة غزة على كره منه، وجماعة كثيرة غير هؤلاء، على ما قيل.

وكان الذي لم يوافقهم على الوثوب، الأمير قصروه، والأمير إينال الجَكَمي أمير سلاح، والأمير جَقْمَق الأمير آخور؛ وأما الأمير سُودون من عبد الرحمن أتابك العساكر، فلم يكن من هؤلاء ولا من هؤلاء، لطول مرضه - من يوم خرج من مصر وهو في محفّة - وكل ذلك لم يتحقّقه أحدٌ، غير أن القرائن الواقعة بعد ذلك تدلّ على صدق هذه المقالة - انتهى.

ولمّا خرج الأمراء من عند السلطان، بعد أن امتثلوا ما رسَمَ به من الزحف

---

(١) القرانيص: هم من بقايا مماليك الأمراء والسلاطين السابقين. وكانوا في مستوى أمراء الخمساوات، وقد حرموا في أكثر الأحيان من الترقية، فلذلك كانوا دائمي السخط على المماليك الأجلاب المشتروات الذين تمتعوا بالامتيازات والترقية. غير أن هؤلاء القرانيص كانوا معروفين بالشجاعة والقدرات القتالية العالية بحيث إن الواحد منهم يعادل عشرة من الأجلاب. - راجع أيضاً فهرس المصطلحات: القرانيص.

في يوم الثلاثاء، بلغ السلطانَ عن الأمراء والمماليك نوع مما ذكرناه، فاضطرب أمره وصار يحاصر المدينةَ وهو في الحقيقة محصور من احتراسه من أمرائه ومماليكه، وأخذ في الندم على سفره، وفتر عزمه عن أخذ المدينة في الباطن، وضعف عن تدبير القتال.

كل ذلك والموكب السلطاني يُعمل في كل يوم، والأمراء تحضره، ويركب السلطان ويسير إلى حيث شاء، ومعه الأمراء والنوّاب، غير أن البواطن معمورة بالغِش، ويمنعهم من إظهار ما في ضمائرهم موانع؛ هذا والقتال مستمر في كل يوم، بل في كل ساعة، بين العسكر السلطاني وبين أهل آمِد، غير أنه لم يقع يوم مثل يوم السبت المذكور، وقتل خلائق من الطائفتين كثيرة، وصار السلطان يضايق أهل آمد بكل ما وصلت قدرته إليه، هذا وقد قَوِي أمرُهم واشتدّ بأسُهم لِما بلغهم من اختلاف عساكر السلطان، وصاروا يصيحون من أعلى السور: «الله ينصر جَارْقُطْلُو»، وانطلقت ألسنتهم بالوقيعة والسبّ والتوبيخ، من السلطان إلى [مَن] دونه.

وبينما السلطان فيما هو فيه، قَدِمَ عليه الأمير دُولات شاه الكُرْدي صاحب أَكِلّ من ديار بكر، فأكرمه السلطان وخلع عليه.

ثم لمّا بلغ الأشرفَ أحمد ابن الملك العادل سليمان ابن المجاهد غازي ابن الكامل محمد ابن العادل أبي بكر ابن الأوحد عبد الله ابن المعظّم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي الأيوبي، صاحبَ حصن «كَيْفَا»، قدومُ السلطان الملك الأشرف إلى آمِد، خرج من الحصن في قليل من عسكره في أوائل ذي القعدة، يريد القدوم [على السلطان]، فاعترضه في مسيره جماعة من أعوان قَرَايُلْك على حِين غفلة، وقد نزل عن فرسه لصلاة العصر، وقاتلوه إلى أن قُتل الملك الأشرف المذكور من سهم أصابه، وانهزم بقيةُ مَن كان معه وانتهبوا، فقَدِمَ جماعة منهم على الملك الأشرف، وعرّفوه بقتل الملك الأشرف صاحب الحصن، فعظم عليه ذلك إلى الغاية.

ومن هذا اليوم أخذ السلطان في أسباب الرحيل عن آمد، غير أنه صار، يترقّب حركة يرحل بها لتكون لرحيله مندوحة(١). ثم ندب السلطان جماعة كبيرة من التركمان والعربان من عسكره لتتبع قتلة الملك الأشرف صاحب الحصن. وكان منذ نزل السلطان على آمد وأتباعُ العسكر السلطاني من التركمان والعربان تعيث وتنهب في قرى آمِد وغيرها ويأتون بما يأخذونه للعساكر المذكورة، وصارت الغلمان تخرج من الوِطاق إلى جهات آمِد وتحصد الزروع وتأتي بها الأجناد، حتى صار أمام خيمة كل جندي جرن كبير من الزرع، وهو الذي قام بعلوفه خيول العسكر في طول مدة الإقامة على آمد، ولولا ذلك لكان لهم شأن آخر.

ولما ندب السلطان الجماعة المذكورة لتتبع قَتَلَة الملك الأشرف وغيره، خرجوا إلى جهة من الجهات فوافوا جماعة كبيرة من أمراء قَرايُلْك وقاتلوهم حتى هزموهم، وأسروا منهم جماعة كبيرة من أمراء قَرايُلك وفرسانه وأتوا بهم إلى السلطان، وهم نيف على عشرين نفساً، فأمر السلطان بقيدهم فقيّدوا.

ثم توجهوا ثانياً فوافقوا جماعة أُخر، فقاتلوهم أيضاً وأسروا منهم نحو الثلاثين، ومن جملتهم قَرَا محمد أحد أعيان أمراء قَرايُلك؛ فأحضر السلطان قَرا محمد وهدّده بالتّوسيط إن لم يُسلِّم له آمِد، فأخذوا قَرا محمد المذكور ومرُّوا إلى تحت سور المدينة، فكلّمهم قَرا محمد المذكور في تسليم المدينة، فلم يلتفتوا إليه، فأخذوه وعادوا. وأصبحَ السلطان فوسَّط منهم تحت سور آمد عشرين رجلاً، من جملتهم قَرا محمد المذكور.

واتفق في توسيط هؤلاء غريبة، وهو أن بعضهم حُمل للتوسيط فاضطرب من أيدي حَمَلته فوقع منهم إلى الأرض، فقام بسرعة وهرب إلى أن ألقى بنفسه إلى الخندق، بعد أن تبعه جماعة، فلم يقدروا على تحصيله؛ ثم خرج من الخندق وقد أُرخي إليه من سور آمِد حبل، وتشبث به إلى قريب الشرفة، فانقطع الحبل

---

(١) المندُوحة: الأرض الواسعة البعيدة. ولك عن هذا الأمر مندوحة: أي لك سعة وفسحة. والمؤلّف يستعملها هنا بمعنى السبب أو الذريعة.

فوقع إلى الأرض، ثم جُرَّ ثانياً إلى أعلى المدينة ونجا، وقيل إنه مات بعد ثلاثة أيام من طلوعه، والله أعلم.

ثم بلغ السلطانَ أن قَرَايُلْك نزل من قلعة أُرْقَنِين بجماعة من عساكره، يريد أن يكبس على السلطان في الليل أو يتوجّه بهم إلى حلب، فندب السلطان جماعة من الأمراء والمماليك في عمل اليَزَك[1] بالنوبة، في كل ليلة لحفظ العساكر؛ ثم رسم السلطان للأمير جارْقُطْلو نائب الشام بالتوجّه لقَرايُلك بقلعة أرْقَنِين، وندب معه جماعة من النوّاب والأمراء والعساكر المصرية ـ وكنت أنا معهم ـ فخرجنا من الوِطاق السلطاني في الليل بجموع كثيرة، وجدّدنا في السير حتى وافينا قَرايُلك وهو بمخيمه تحت قلعة أرقنين بين الظهر والعصر، وكان غالب العسكر قد تخلّف بعدنا. فتقدّم بعض العسكر السلطاني من التركمان والعربان، ومثل الأمير مُقبل الحُسامي نائب صَفَد وآقْبَغا الجمالي المعزول عن الأستادارية وجماعة أُخَر من الأعيان من أمراء مصر والشام، واقتتلوا مع القرايُلُكية قتالاً جيداً إلى أن كانت الكَسرة فينا، وقتل منّا جماعة كثيرة من التركمان والعربان وأمراء دمشق وغيرهم، مثل الأمير تَمُرْباي الجَقْمَقي أحد أمراء دمشق، والأمير بخت خُجَا أيضاً من أمراء دمشق، وجرح أكثر مَن كان معنا مِن الخاصّكية والمماليك، كل ذلك وسنجق السلطان إلى الآن لم يصل إلينا.

وأما جارْقُطْلُو، فإنه لمّا قوي الحرُّ عليه نزل على نهر بالقرب من أُرْقَنِين ليروي خيوله منه، وصار الرائد يرد عليه بأن القوم قد التقوا مع عساكر قَرايُلك،

(١) اليزك: ويجمع على أيزاك، ومعناه الطلائع. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦٤). على أن السياق هنا، وما ورد في صبح الأعشى: ٢٢٣/٧ و٦١/٨ (طبعة دار الكتب العلمية) يشير إلى أن هذا اللفظ يحمل معنى المجموعة العسكرية التي تتولى حفظ وحراسة المعسكر أو الثغر. وإذا كان لا بدّ لنا من اعتماد معنى «الطلائع» الذي ذهب إليه بعض الباحثين مثل كاترمير، فإن هذه الطلائع هي بمعنى المجموعات العسكرية التي تتقدم المواقع العسكرية لجهة العدو للإنذار المبكر، وليس بمعنى الطلائع التي تتقدم الجيوش للاستطلاع، فهذا المعنى الأخير يدلّ عليه لفظ «الجاليش» الذي يكثر استعماله في هذا الكتاب وسائر كتب التاريخ العائدة للعصر المملوكي.

وهم في قلّةٍ وقد عزموا على القتال، فلم يلتفت إلى ذلك وسار على هينته، فتركه بعض عساكره وساروا حتى لحقوا بمَن تقدّمهم وقاتلوا القَرَايُلُكية، وهم مَن تقدّم ذكرهم ممّن قتل من أُمراء دمشق.

ولمّا أن بلغ مَن معنا من الأمراء المصريين ما وقع لجماعتنا، ساقوا أيضاً حتى وافي جماعةٌ منهم العسكر السلطاني، فعند ذلك تراجع القوم وكرّوا على القَرايُلُكية وهزموهم أقبح هزيمة، وتعلّق قَرايُلُك بقلعة أُرْقَنِين وتحصّن بها، ونُهبت عساكره وتمزقوا كل ممزّق. ثم عدنا إلى جهة الوِطاق بآمِد في آخر النّهار المذكور على أقبح وجهٍ ممّن باشر القتال، وهم القليل، وأما غالب العسكر فلم يرَ القتال بعينه.

وصار الأميرُ أُزْبَك جُحَا(١) بين يدي السلطان يثني على التركمان والعربان، ويقول: «يا مولانا هؤلاء هم العسكر الذي ينتصر الملوك بهم لا غيرهم»؛ فعظم ذلك على طائفة من المماليك إلى الغاية، وشنّعوا القالة فيه لكونه تكلم الحق، ومن يومئذ تحقّق السلطانُ ما قيل عن جارْقُطْلُو من تقاعده عن قتال قَرايُلُك، وأكثَرَ أهلُ آمِد من هذا اليوم الدعاءَ للأمير جارْقُطْلو المذكور من أعلى السور، حتى خرجوا عن الحدّ، فلم يدرِ الناس هل كان ذلك مكيدة من مكايد قَرايُلُك ليوقع الخلف بين العسكر بسبب ذلك، أم كان ذلك عن حقيقة، والله أعلم.

هذا والسلطان مجتهد في عمارة قلعة من الخشب تجاه أبراج آمِد، ومَكاحِل(٢) النفط ترمى في كل يوم بالمدافع، والمَنَاجْنِيق(٣) منصوبة، يُرمى بها وأيضاً على الأبراج، وأهل آمِد في أسوأ ما يكون من الحال؛ هذا مع عدم التفات

(١) في الأصل: «خجا». والتصحيح عن المنهل الصافي للمؤلّف. وكان الأمير أزبك «عنده مروة وكرم مع خفّة روح ومجون ودعابة، ولهذا سُمّي جحا ـ بتقديم الجيم».

(٢) مكاحل النفط أو مكاحل البارود هي المدافع التي يُرمَى عنها بالنفط، وبعضها يُرمَى عنه بأسهم عظام، وبعضها يُرمَى عنه ببندق من حديد من زِنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد عن مائة رطل. (صبح الأعشى: ٢/١٤٤).

(٣) كذا. وهي المجانيق أو المنجنيقات، جمع منجنيق، وهو آلة تُرمَى بها الحجارة.

السلطان لحصار آمد الالتفاتَ الكلّي، لشغل خاطره من جهة اختلاف عساكره، وهو بتلك البلاد بين يدي عدوّه، وقد تورّط في الإقامة على حصار آمد، والشروع ملزم. وطالت إقامته على آمد بعساكره نحو خمسة وثلاثين يوماً، وقد ضاق الحال أيضاً على أهل آمِد، فعند ذلك تردّدت الرُّسل بين السلطان وبين قَرَايُلك في الصلح، وكان قرايلك هو البادىء في ذلك، حتى تمّ وانتظم الصلح بينهما على أن قرايلك يقبّل الأرض للسلطان، ويخطب باسمه في بلاده ويضرب السكّة على الدينار والدرهم باسمه، فأجاب إلى ذلك، فأرسل إليه السلطانُ حميَّ القاضي شرف الدين الأشقر نائب كاتب السرّ، وأرسلتُ أنا معه بعضَ أعيان مماليك الوالد ممّن كان في صحبتي من المماليك السلطانية، فتوجّه إليه القاضي شرف الدين المذكور بالخِلع والفرس الذي جهّزه السلطان إليه بقماش ذهب، ونحو ثلاثين قطعة من القماش السكندري.

ولمّا بلغ قَرَايُلْك مجيء القاضي شرف الدين، نزل من قلعة أرْقَنِين بمخيمه، ولقي القاضي شرف الدين المذكور، وسلّم عليه، ثم قام وقبّل الأرض فألبسه القاضي شرف الدين الخلعة، وكانت كامِلِيَّة مُخْمَلٍ كَفَوِيٍّ بمَقْلب سَمُّور، وفَوْقانياً بوجهين أحمر وأخضر، بطراز عريض إلى الغاية. ثم قدم له الفرس صحبة الأُوجاقي(١)، فقام إليه، فأمره القاضي شرف الدين بتقبيل حافر الفرس، فامتنع من ذلك قليلاً، ثم أجاب بعد أن قال: «والله إن هذه عادة تعيسة»، أو معنى ذلك.

ثم أخذ في الكلام مع القاضي شرف الدين، فأخذ القاضي شرف الدين يعظه ويحذّره مخالفة السلطان وسوء عاقبة ذلك، فقال: «وأنا من أين! والسلطان من أين! أنا رجل تركماني في جهة من الجهات!». ثم شرع يذكر قلّة رأي السلطان في مجيئه إلى بلاده، وقال: «أنا يكفيني نائب حلب، وهو بعض نوّاب السلطان، وما عسى كان يفعل السلطان لو أخذ آمد؟ وكل شيء في آمد ما يساوي بعض ما تكلّفه»، ثم قال: «والله لو أعطاني السلطان نصف ما ذهب من الكلف في نعل

(١) الأوجاقي أو الأوشاقي: هو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٤).

خيوله وخيول عساكره، لرضيتُ ودخلتُ في طاعته»، ثم قال: «لو كان مع السلطان أمير من جنس هذا ـ وأشار إلى مملوك الوالد الذي توجّه مع القاضي شرف الدين ـ ما خلّاه يجيء إلى هنا»، وكان المملوك المذكور تَتَرِيّاً، فقال شرف الدين: «بلى، مع السلطان جماعة من جنسه»؛ فقال: «لا والله، كان عندكم واحد نفيتموه إلى القدس بطَّالاً، يعني بذلك الأميرَ قَرامُراد خُجَا الشَّعْباني، أمير جانْدار، وأحد مقدّمي الألوف. ثم قام قَرَايُلْك وقلع الخِلْعَة من عليه وألبسها بعضَ حواشيه، ثم فعل بالكامِلِيَّة أيضاً كذلك؛ وانفضّ المجلس، وبات شرف الدين تلك الليلة عنده، ولم يجتمع به غير المرة الأولى. وعند السفر دخل إليه من الغد وسلّم عليه، فأنعم على قَرَايُلك بأربعة أكاديش يساوي ثمنها أربعة آلاف درهم فلوساً عند صاحب الغرض.

وعاد القاضي شرف الدين إلى السلطان، فاجتمعتُ به قبل السلطان، وعرّفني جميع ما حكيتُه؛ فاتفقنا على جواب نَمقْنَاه يحسُن ببال السلطان، من جنس كلام قرايُلك، لا يخفَى على الذوق السليم معناه. فلما دخل إلى السلطان وأعاد عليه الجوابَ المذكورَ سُرَّ السلطانُ قليلاً بذلك، وعظم سرور مَن حضر من القوم، ومعظم سرورهم بعودهم إلى بلادهم وأوطانهم سالمين مما هالهم مما كانوا فيه من المشقّة، وقد اعتادوا بالتّرف والأمن وقلّة القتال.

وفي الحال أخذ السلطان في أسباب الرحيل، ورحل في ليلة الخميس ثالث عشر ذي القعدة في النصف الثاني من الليل من غير ترتيب ولا تَطْلِيب(١)، ولا تعبية ، ورحلت العساكر من آمِد كالمنهزمين لا يلوي أحد على أحد، بل صار كل واحد يسير على رأيه. وعند رحيل القوم أطلق الغلمان النيران في الزروع المحصودة برسم عليق خُيُول الأجناد، فإنه كان كل جنديّ من الأجناد صار أمام خيمته جرن كبير مما يحصده غلامه ويأتيه به من زروع آمِد، فلما انطلق النار في هذه الأجران، انطبق الوِطاق بالدخان إلى الجو، حتى صار الرجل لا ينظر إلى الرجل الذي بجانبه.

(١) أي ترتيب العساكر في أطلاب. ـ وعن الأطلاب (جمع طُلب) راجع فهرس المصطلحات.

ورحل الناس على هذه الهيئة مسرعين، مخافةَ أن يسير السلطان ويتركهم غنيمةً لأهل آمد. وبالله لو نزلوا في ذلك الوقت لأمسكوا مَن اختاروا [مَسْكَه] قبضاً باليد، ولو أرادوا النهب لغنموا وسعدوا إلى الأبد، لأن السلطان سار قبل رحيل نصف عسكره. وسار القوم من آمد إلى جهات متفرّقة، إلى أن طلع النهار، وقد تمزقت العساكر في طرقات متعددة، لا تعرف طائفة خبر طائفة أخرى، لبُعد ما بينهم من المسافة. فتوجّه أتابكُ العساكر سُودون من عبد الرحمن، وهو مريض ملازم ركوبَ المحفّة، من طريق ماردين السالكة إلى مدينة الرُّهَا، ومعه طائفة كبيرة ممّن تبعه من العسكر السلطاني، وتوجّهت طائفة أخرى من العسكر من الطريق التي سلكناها في الذهاب إلى آمد من جهة قلعة أرْقَنِين التي بها قرايُلك، وتبعهم خلائق وعدّة أطلاب، فافترق الأمراءُ من مماليكهم وأطلابهم، وتشتت شملُهم. وسار السلطان من الطريق الوسطى من على الجبل المعروف قَرَاضاغ، وهذا الطريق أقرب الطرق كالمفازة، غير أنه عسر المسلك إلى الغاية من الطلوع والنزول وضيق الطرقات. وكنت أنا معه بهذا الطريق المذكور، وأكل السبع رجلاً من غلماننا، ووقع ذلك لجماعة أُخَر، واصطادت الناس السباع من الأوكار، وسرنا حتى نزلنا عن الجبل إلى فضاء غربي الجبل المذكور، ومسافة الموضع الذي نزل السلطان به عن أرْقَنِين التي بها قَرَايُلْك مقدار نصف بريد[١] تخْميناً.

وعند نزول السلطان بالمنزلة المذكورة، علم بمَن فقده من عساكره، وتأمل مَن معه منهم، فإذا هم على النصف من عسكره، وأيضاً فيهم الذي تاه عن جِماله، ومنهم مَن لا يعرف طُلْبه أين ذهب، وهو الأمير قَرْقَمَاس الشّعباني حاجب الحجاب، نزل بالمنزلة المذكورة وليس معه غير أصحابه وطائفة نحو خمسة أنفس وهجّان وغلام، فَنَصَبَ السِّيبَة[٢] واستظلّ تحتها من الشمس، وقد سار طُلْبه بجميع

---

(١) البريد في المسافة: أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ٣٥٠٠ ذراع أو ٤٠٠٠ بالذراع الشرعي وهو ما يعادل ٥٠٤٠ متراً أو ٥٧٦٠ متراً. والقول الأول هو المعروف بمسافة الميل في هذه الأيام. (معجم متن اللغة).

(٢) السِّيبة: لفظ فارسي أصله «سه باء» أي ثلاث قوائم. والمراد بها ثلاث خشبات تُضم رؤوسها ويفرج بين قوائمها. (معجم متن اللغة) وفصيحُها: الشِّجاب. والمراد بالسيبة هنا نوع من المظلّة.

ممـاليكه ورَخْتِـه(١) من جهة لا يعـرف متى تعـود إليـه، ومثلُه فكثيـر من الأجنـاد والأمراء.

فلما رأى الملك الأشرف نفسه في قلّة من عساكره، ولم يبقَ معه إلّا شرذمة قليلة، ولم يعلم أين ذهب الباقون، شقّ عليه ذلك وتخوّف من كَبْس قَرَايُلك عليه في الليل، ولم يجد بُدّاً من المبيت في المكان المذكور، لتمزّق عساكره. فلما أن دخل الليل، ندب السلطانُ الأميرَ جَقْمَق العلائي الأميرَ آخورَ الكبيرَ ومعه جماعـة لحفظ العسكر في الليل، فركب الأمير جقمق بمماليكه ومَن انضـاف إليه وضـرب اليَزكَ(٢) على العسكر، وقام بحفظه أحسن قيام إلى الصباح.

قلت: ومن تلك الليلة المذكورة علمتُ حالَ قَرَايُلْك وهمَّتَه، فإنه لو كان فيه بقية ما تَرَك عساكرنا في تلك الليلة بخير، لأن الصلح الذي كـان وقع بينـه وبين السلطان الملك الأشرف كلا شيء: كان فَسْخَ مجلس لا غير، وقد بلغـه ما وقـع لعسكرنا من الشتات والتفرّق، وعلم بجميع ما نحن فيه، لقرب المسافة بيننا، وما ترك الإيقاعَ بنا إلّا عجزاً وجبناً وضعفاً. وأيضاً مَن كان بمدينة آمِد، لو كـان فيهم منعة وقوة بعد ما عاينوا ما وقع لعسكرنا عند الرحيل من التمزّق وعظم الاضطراب، لنزلوا واستولوا على جماعة من العسكر، وباقي العسكر لا يعرفون بذلك، من عظم الغوغاء وشُغل كل واحد بنفسه، مع شدّة سواد الليل وظلمته ـ انتهى.

ولمّا أصبح السلطانُ بكرةَ يوم الجمعة بهذه المنزلة المذكورة، سار منها مـا يريد مدينة الرُّهَا، حتى وصلها بمَن معه من العسكر، وأقام بها، حتى اجتمع به مَن كان ذهب من عساكره في الطرقات. وأخذ السلطان في إصلاح أمر مدينة الـرّها، وطلب الأميرَ إينال العلائي الناصري نائب غزّة، وأراد أن يخلع عليه بنيابة الرّها، فامتنع من ذلك أشدّ امتناع وأفحش في الردّ وخَاشَنَ السلطانَ في اللفظ، وصمّم

(١) الرَّخْت: لفظ فارسي معناه المتاع والأثاث. ومنه الرختوان وهو الذي يتـولى حفظ الأثاث والعنـاية بـه في القصور المملوكية. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١١٣).

(٢) راجع ص ٢١٩، حاشية (١).

على عدم القبول لذلك؛ فغضب السلطان منه، واشتدّ حنقه وهمَّ بالإيقاع به، فخشي عاقبةَ ذلك من عِظَم شوكة إينال المذكور، وأخذ يُثني على نفسه من كونه يحكم على أمرائه ومماليكه وأشياء من هذا المعنى، إلى أن قال: «أنا حكمي ما يسمعه إلا مماليكي»، وطلب الأميرَ قَرَاجا الأشرفي شادَّ الشراب خاناه وخلع عليه باستقراره في نيابة الرّها، وخلع على القاضي شرف الدين نائب كاتب السرّ باستقراره كاتبَ سرِّ الرُّها، وخرجا من بين يدي السلطان بالخِلع على كره.

ثم لما توجّه الأميرُ إينال العلائي نائب غزّة إلى مخيمه، كلّمه الناس من أصحابه فيما وقع منه من تمنُّعه ومُخَاشَنته في الكلام مع السلطان، أو كأنّه خشي عواقب ما وقع منه، فاعتذر من خراب مدينة الرُّهَا، وأنه ليس بها ما يقوم بأوده، وبلغ السلطانَ ذلك فضمن له ما طلبه، وخلع عليه من يومه المذكور باستقراره في نيابة الرُّهَا؛ ثم استعفى شرفُ الدين من كتابة سرّ الرّها، فأُعفي بعد أن حمل خمسمائة دينار للخزانة الشريفة. ثم أمر السلطانُ المماليكَ السلطانية بدفع ما معهم من الشعير للأمير إينال المذكور ليكون له حاصل بالرّها، فبعث كلّ واحد منهم بشيء من علّيق خيوله، فاجتمع من ذلك شونة[1] كبيرة. ثم أنعم السلطان على الأمير إينال المذكور بأشياء كثيرة، وأصلح أمره، وسار بعساكره عن الرّها، إلى أن نزل البِيرة. قلت: وإينال هذا هو الملك الأشرف، سلطان زماننا.

ولما نزل السلطان بالبِيرة أقام بها إلى أن عَدَّت عساكره الجسر الذي نصب على بحر الفرات إلى البرّ الغربي، ثم عدّى السلطان إلى البرّ الغربي المذكور وأقام به يومَه، ورحل من آخر النهار المذكور بعساكره، حتى وصل إلى حلب في خامس عشر ذي القعدة، ونزل بظاهرها بالمنزلة التي نزل بها في ذهابه إلى آمِد، ونزل حوله جميع عساكره، بعد أن أجهدهم التعب، وماتت خيولهم، وتلفت أموالهم من غير فائدة ولا قيام حرمة، غير أن لسان الحال ينشد قول القائل: [الوافر]

(١) الشونة: مستودع الغلال والأتبان.

مَشيناها خُطًى كُتبتْ علينا ومَن كُتِبَت عليه خُطًى مَشاها

وأقام السلطان بحلب نحو العشرة أيام، وأمر النوّاب بالبلاد الشاميّة بالمسير إلى محل كفالتهم؛ وخلع على الأمير جانِبك الحمزاوي، أحد مقدّمي الألوف باستقراره في نيابة غزة، عوضاً عن إينال العلائي، المنتقل إلى نيابة الرُّها، فامتنع جانبك الحمزاوي من ذلك امتناعاً كُلّياً، فألبسه الخلعة كرهاً. قيل: إن جانِبك المذكور، لما لبس الخلعة وخرج هزّ رأسه وأمسك لحية نفسه كالمُتَوعِّد؛ وبلغ الأشرف ذلك، فقال: «حتى يصل إلى غزة»، فمات بالقرب من بعلبك.

وكان جانِبك ممّن اتّهم بالممالأة من الأمراء في آمِد، وتكلم الناس في موت جانِبك المذكور: أنه اغتيل بالسّمّ لقول الملك الأشرف في حقه: «حتى يصل إلى غزة»، فقلت لبعض الإخوان: «يمكن أن يكون ذلك من طريق الكشف والكرامة»، فضحك الحاضرون، وانفضّ المجلس. ثم خلع السلطان على الأمير قاني باي الأبو بكري الناصري، المعروف بالبَهْلوان، أتابك حلب، بانتقاله إلى أتابكية دمشق، بعد موت الأمير تَغْرِي بَرْدي المحمودي بآمِد، مَن جرح أصابه في حصار آمِد، وكان المحمودي أيضاً ممّن اتّهم بالوثوب على الملك الأشرف. وخلع على الأمير قُطُجْ من تِمراز، أحد مقدّمي ألوف حلب، باستقراره أتابكَ حلب، عوضاً عن قاني باي المذكور؛ وخلع السلطان على الأمير كَمَشْبغَا الأحمدي الظاهري، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بتوجّهه إلى الديار المصرية، مبشّراً بعَوْد السلطان إلى الديار المصرية.

وصار السلطان يركب ويسير بحلب، وطلع إلى قلعتها غيرَ مرة، إلى أن خرج منها في يوم الخميس خامس في ذي الحجّة من سنة ست وثلاثين المقدّم ذكرها، يريد جهة دمشق. وسار حتى نزل بحماة، وأقام بها أياماً، ثم رحل منها بعساكره إلى جهة دمشق حتى دخلها في يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة، ونزل بقلعتها، ونزلت عساكره بمدينة دمشق. ودام بدمشق إلى أن برز منها يوم السبت ثامن عشرين ذي الحجة، يريد الديار المصرية، بعد أن خلع على جميع نوّاب البلاد الشامية

باستمرارهم، ولم يحرّك ساكن في الظاهر والله متولّي السرائر. ثم سار السلطان حتى وصل غزة، وقد استقرّ في نيابتها من دمشق الأمير يُونُس الرُّكْني، أحد مقدّمي الألوف بدمشق، وكان يونس المذكور وليها مرة أخرى قبل ذلك.

وأقام السلطان بغزة ثلاثة أيام، ثم رحل منها يريد القاهرة، حتى وصلها في يوم الأحد العشرين من محرّم سنة سبع وثلاثين وثمانمائة، ودخل في موكب جليل من باب النصر بأبّهة الملك وشِعار السلطنة، وعلى رأسه القبّة والطير، تولّى حملَها الأميرُ الكبير سودون من عبد الرحمن وهو مريض، وقد ساعده جماعة من حواشيه في حملها. وشقّ السلطان القاهرة وقد زُيّنت لقدومه أحسن زينة، وسار حتى نزل بمدرسته التي أنشأها بخط العَنْبَرِيين[1] من القاهرة، وصلّى بها ركعتين، ثم ركب منها وسار حتى خرج من باب زويلة، وطلع إلى القلعة بعد أن خرج المقام الجمالي يوسف ولده إلى ملاقاته بالخانقاه، وعاد معه. وكان لقدومه يوم مشهود، وسُرَّ الناس بسلامته، وعاد السلطان إلى مصر بعد أن أتلف في هذه السَّفرة نحو الخمسمائة ألف دينار من النقد، وتلف له من السلاح والمتاع والخيل والجِمال والبِغال مثل ذلك، وأنفق الأمراء بمصر والشأم والعساكر المصرية والشأمية مثل ذلك، وتلف لأهل آمِد وما حولها من الغِلال والزراعات والمواشي شيء كثير إلى الغاية، وقتل أيضاً خلائق، ومع هذا كله كانت سفرة كثيرة الضرر قليلة النفع.

ولم ينل أحد في هذه السفرة غرضاً من الأغراض، ولا سكنت فتنة ولا قامت حرمة، ولا ارتدع عدو. ولهج غالب الناس بأن السلطانَ سعدُه لا يعمل إلاّ وهو بقلعته[2]، وحيثما تحرّك بنفسه بطل سعده، وعدُّوا حركته مع التركمان في نيابته بطرابلس، ثم واقعته مع الأمير جقمق نائب الشام لما أمسكه جقمق وحبسه، ثم سفرته هذه إلى آمد. قلت: الحركات والسكون بيد الله، والحرب سِجال: يوم لك ويوم عليك، والدهر تارة وتارة، والغَيْبُ مُسَتَّر ما هو مُخَبَّر ـ انتهى.

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) المراد بذلك قلعة الجبل وهي مقرّ السلطان المملوكي.

ولمّا طلع السلطان إلى القلعة خلع على الأمراء، وأخذ في إصلاح أمره، وخلع على التاج بإعادته إلى ولاية القاهرة، بعد عزل دُولات خُجا الظاهري. ثم خلع السلطان على الأمير آقْبَغا الجمالي المعزول عن الأسْتَادَارِيَّة قبل تاريخه، باستقراره في ولاية الوجه القبلي، عوضاً عن داؤد التركماني، وكان السلطان أنعم على آقْبَغا المذكور بإمرة عشرة بعد موت الأمير تنبك من سيدي بك المعروف بالبهلوان بآمِد.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ربيع الأول من سنة سبع وثلاثين المذكورة، رسم السلطان بإخراج الأمير الكبير سُودون مِن عبد الرحمن إلى القدس بطّالاً، فاستعفى من السفر، وسأل أن يقيم بداره بطّالاً، فأُجيب إلى ذلك، ولزم داره إلى ما يأتي ذكره. وأنعم السلطان بأقطاعه على الديوان المفرد، ولم يقرّر أحداً غيره في أتابكية العساكر بالديار المصرية؛ وهذا شيء لم نعهد بمثله.

وضُرب رَنْك[1] السلطان على البيمارستان المنصوري بالقاهرة. وكانت العادة جرت من مدة سنين، أن كلّ مَن يلي الإمرة الكبرى، يكون هو الناظر على البيمارستان المذكور، فلما نفدت هذه الوظيفة، تكلّم السلطان على نظرها، وضرب اسمه على بابها.

ثم في يوم السبت أول شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على دُولات خُجا المعزول عن ولاية القاهرة، باستقراره في ولاية المنوفية والقليوبية. ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل ونزل إلى الصيد، وعاد في خامسه. ثم في يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير إينال الشّشماني الناصري، ثاني رأس نوبة، باستقراره في نيابة صفد، بعد موت الأمير مُقبل الحُسامي الدوادار؛ ومقبل أيضاً هو أحد مَن اتّهم بالوثوب على السلطان في آمِد. ثم في حادي عشره خلع السلطان على آقبغا الجمالي المقدّم ذكره باستقراره كاشف الوجه البحري عوضاً عن حسن بك ابن سالم الدُّوكَرِي، وأُضيف إليه كشف الجسور أيضاً. ثم في

(١) الرَّنك: هو الشعار أو الرمز الذي يتّخذه السلطان أو الأمير. وقد كثر استعمال الرنك في الدولة المملوكية حتى صار لكل صاحب وظيفة رنك خاص به. ـ راجع فهرس المصطلحات.

ثالث عشره، ركب السلطاني ونزل إلى البيمارستان المنصوري للنظر في أحواله، فنزل به وأقام ساعة ثم ركب وعاد إلى القلعة.

ثم في يوم الأحد ثامن عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على حسين الكُرْدي، باستقراره كاشف الوجه القبلي، بعد قتل آقبغا الجمالي في خامس عشرينه في حرب كان بينه وبين عرب البحيرة، وقتل معه جماعة من مماليكه ومن العربان. ثم خلع السلطان على الوزير الأستادار كريم الدين ابن كاتب المناخ، كامِلِيَّة بفرو وسمّور بمقلب سمّور لتوجّهه إلى البحيرة، وصحبته حسين الكردي المقدّم ذكره، لعمل مصالحها واسترجاع ما نهبه أهل البحيرة من متاع آقبغا الجمالي بعد قتله، وكتب إليهم السلطان بالعفو عنهم، وأن آقبغا تعدّى عليهم في تحريق بيوتهم وسبي أولادهم ونحو ذلك، قصد السلطان تطمينهم، عسى أن يؤخذوا من غير قتال ولا فتنة.

ثم [في أول جمادى الآخرة][1] أمر السلطان بعدِّ مَن بالإسكندرية من القَزّازين وهم الحُيَّاك، فأُحصيَ في يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة المذكورون، فبلغت عِدَّتُهم ثمانمائة نوْل، بعد ما بلغت عدّتهم في أيام نيابة ابن محمود الأستادار في سنةٍ بضعٍ وتسعين وسبعمائة أربعةَ عشر ألف نوْل ونيّفاً، فانظر إلى هذا التفاوت في هذه السنين القليلة، وذلك لظلم ولاة الأمور، وسوء سيرتهم، وعدم معرفتهم، لكونهم يطمعون في النزر اليسير بالظلم، فيفوتهم أموال كثيرة مع العدل؛ والفرق بين العامر والخراب ظاهر.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب، أُدير محمل الحاج على العادة في كل سنة. ثم في سابع عشرين شهر رجب المذكور، قَدِمَ الأمير بَرْبَغَا التنمي الحاجب الثالث بدمشق إلى القاهرة بسيف الأمير جَارْقُطْلو نائب دمشق، وقد مات بعد مرضه بخمسة وأربعين يوماً، في يوم تاسع عشره، فعيّن السلطان عوضه لنيابة دمشق، الأميرَ قَصْرُوه مِن تِمراز نائب حلب، وكتب له بذلك. ثم في يوم تاسع عشرينه، عيّن السلطان

(١) زيادة عن السلوك.

الأمير خُجا سُودون السيفي بلاط الأعرج، أحد أمراء الطبلخاناه، ورأس نوبة، أن يتوجّه إلى قصروه بالتقليد والتشريف.

وفي اليوم خلع السلطان على الأمير قَرْقَماس الشعباني الناصري، المعروف أهرام ضاغ[1]، حاجب الحجاب، باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن قصروه، وأن يكون مُسَفِّرَه الأميرُ شاد بك الجكمي أحدُ أمراء الطبلخانات ورأس نوبة. وخلع السلطان على الأمير يَشْبَك السُّودوني ثم الظاهري طَطَر المعروف بالمُشِدّ باستقراره حاجبَ الحجاب عوضاً عن قرقماس المذكور، وأنعم بإقطاع قرقماس على الأميرِ آقبغَا التمرازي أمير مجلس، وخلع عليه باستقراره أمير سلاح، وبإقطاع آقبَغَا على الأمير يَشْبَك المذكور. وخلع السلطان على الأمير إينال الجَكَمي أمير سلاح، باستقراره أتابك العساكر، وكانت شاغرة من يوم لزم سُودون من عبد الرحمن بيته، واستقر عوضه في إمرة سلاح آقبغا التمرازي المقدّم ذكره. وخلع السلطان على الأمير جَقْمَق العلائي الأمير آخور باستقراره أميرَ مجلس، عوضاً عن آقْبَغَا التِّمرازي، المقدّم ذكره. وخلع على الأمير حسين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمَشْ باستقراره أميرَ آخور، عوضاً عن جقمق العلائي.

فخرج الجميع، وعليهم الخلع والتشاريف، وجلسوا على المسطبة التي يجلس عليها مقدّم المماليك عند باب السرّ، في انتظار الخيول التي أخرجها السلطان لهم، بسروج الذهب والكنابيش ما خلا تَغْرِي بَرْمَش، فإنه فارقهم من داخل القصر، ونزل إلى باب السلسلة وتسلّمه من وقته. فقعدوا الجميع على المسطبة صفّاً واحداً، وجلس فوق الجميع إينال الجكمي، ثم تحته قرقماس نائب حلب، ثم آقْبَغَا التمرازي، الذي استقرّ أميرَ سلاح، ثم الأمير جقمق الذي استقرّ أمير مجلس، ثم الأمير يشبك المولّى حاجبَ الحجاب، إلى أن حضرت الخيول وركبوا، ونزل كل واحد إلى داره.

فلما نزل جَقْمَق العلائي إلى داره، عرّفه أصحابه وحواشيه أن وظيفة الأمير

---

(١) أهرام ضاغ معناه جبل الأهرام. وقد سمّي بذلك لتكبّره وتعاظمه. (انظر حوادث السنة الأولى من سلطنة جقمق وهي سنة ٨٤٢ هـ).

آخورية كانت خيراً له من وظيفة أمير مجلس، وإن كان ولا بدّ [فيولّى] أميرَ سلاح، فيكون ما فاته من منفوع[(١)] الأمير آخورية، يتعوّضه من قيام الحرمة بوظيفة أمير سلاح. وبلغ السلطان ذلك، فرسم في الحال إلى آقبغا التِّمْرازي أن يكون أمير مجلس على عادته، وتكون الخلعة التي لبسها خلعة الرضى والاستمرار، وأن يكون جقمق أمير سلاح؛ ونزل الأمر إلى كلٍّ منهما بذلك، فامتثلا المرسوم الشريف، واستمر كلٌّ منهما على ما قرّره السلطان ثانياً.

وفي اليوم المذكور رسم السلطان بإخراج الأمير سُودون من عبد الرحمن إلى ثغر دمياط؛ وسببه أن السلطان لما بلغه موت جارْقُطْلُو، استشار بعض خواصّه فيمَن يولّيه نيابة الشأم، فذكروا له سُودون من عبد الرحمن، وأنه يقوم للسلطان بمبلغ كبير مَن ذهب في نظير ذلك. وكان في ظن السلطان أن سودون من عبد الرحمن قد استَرخَتْ أعضاؤه، وتعطّلت حركته من طول تمادي المرض به، وقد أمن من جهته ما يختشيه[(٢)]، فقال السلطان: «سُودون من عبد الرحمن تلف، ولم يبقَ فيه بقية لذلك»، فقالوا: «يا مولانا السلطان، هو المتكلّم في ذلك»، فلم يحملهم السلطان على الصدق، وأرسل إليه في الحال يعرض عليه نيابة الشأم، فقبل، وقال: «مهما أراد السلطان منّي فعلته له»؛ فلما عاد الجواب على السلطان بذلك علم أن غالب ما به تضاعُف، وأن فيه بقية لكل شيء؛ فأمر في الحال بإخراجه إلى ثغر دمياط. ثم خلع السلطان على الأمير بُرْبَغَا التَّنَمي أحد حجّاب دمشق، وأعاده إلى دمشق.

---

(١) كذا؛ والمراد المنفعة أو النفع. وذلك أن وظيفة أمير مجلس ليس فيها مجال للنفع المادي لأن متولّيها يتحدّث على الأطباء والكحّالين، ومن عمله أيضاً تولّي أمر مجلس السلطان في الترتيب وما شابه ذلك. أما الأمير آخور فإنه يتحدّث على إسطبل السلطان ويتولى أمر ما فيه من الإبل والخيل وغيرها مما هو داخل في حكم الإسطبلات، ولا يخفى ما في هذه الوظيفة من أسباب للنفع المادي. وأما وظيفة أمير سلاح ـ التي تقارب وظيفة أمير مجلس من حيث عدم الإفساح في المجال للمنفعة المادية ـ فإنها تؤمّن لصاحبها نوعاً من المقدّمية والوجاهة، وهو ما عبّر عنه المؤلّف بعبارة «قيام الحرمة»، وذلك أن متولّيها يكون عادة أحد الأمراء المقدّمين، وعملها حمل السلاح في الحفلات والاجتماعات. وهذا الأمير هو المقدّم على السلحدارية من المماليك السلطانية وله الإشراف على السلاح خاناه السلطانية. (انظر صبح الأعشى: ٤/١٨ و٥/٤٥٥، ٤٦١).

(٢) كذا؛ والمراد: يخشاه.

ثم في يوم الخميس سابع شعبان من سنة سبع وثلاثين المذكورة، خلع السلطان على الأمير الكبير إينال الجَكَمي باستقراره في نظر البيمارستان المنصوري على العادة.

[وكان تولية إينال المذكور للإمرة الكبرى بغير إقطاع الأتابكية، بل باستمراره على](١) إقطاعه القديم، غير أنه أنعم السلطانُ عليه بقرية حجّة ومردَّة من أعمال نابلس، وكانت من جملة إقطاع الأمير الكبير، ثم خلع عليه بنظر البيمارستان المذكور؛ فهذا الذي حصل له من جهة الأتابكية، ولم ينله منها إلّا مجرّد الاسم فقط.

وفي شهر رجب وشعبان، قرّر السلطان على جميع بلاد الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وسائر الوجه القبلي، خيولاً تؤخذ من أهل النواحي، فكان يؤخذ من كل قريةٍ خمسةُ آلاف درهم فلوساً، عن ثمن الفرس المقرّر عليها، ويؤخذ من بعض النواحي عشرةُ آلاف عن ثمن فرسين، ويحتاج أهل الناحية إلى مغرم آخر لمَن يتولى أخذَ ذلك منهم، فنزل بسبب ذلك على فلّاحي القرى بلاء الله المُنْزَل. وأحصى كُتّاب ديوان الجيش قرى أرض مصر العامرة كلها قبليها وبحريها، فكانت ألفين ومائة وسبعين قرية؛ وقد ذكر المسبّحي(٢) في تاريخه أنها كانت في القرن الرابع عشرةَ آلاف قرية(٣) عامرة؛

(١) ما بين حاصرتين ساقط في طبعة كاليفورنيا. والزيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٢) هو الأمير المؤرّخ عزّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبّحي المتوفّى سنة ٤٢٠ هـ. وتاريخه المشار إليه هو «أخبار مصر» ذكر المؤرّخون أنه يقع في ١٣ ألف ورقة ونحو أربعين مجلداً، يوجد منها اليوم مجلد واحد هو الجزء الأربعون؛ وهذا الجزء يحتوي على حوادث سنة ٤١٥ هـ وحوادث قسم من سنة ٤١٤ هـ. (انظر أخبار مصر للمسبّحي، الجزء الأربعون، مقدمة التحقيق).

(٣) ذكر المقريزي أيضاً في السلوك قول المسبّحي دون الإشارة إلى أن هذا الإحصاء كان في القرن الرابع الهجري. والذي رواه المقريزي في خططه عن بعض العارفين بأمور الخراج في أيامه أنه وقع على جريدة بخط متولّي خراج مصر للدولة الإخشيدية وفيها أن عدّة قرى مصر إلى سنة ٣٤٥ هـ (منتصف القرن الرابع الهجري) بلغت ٢٣٩٥ قرية. أما الرواية التي مفادها أن عدّة قرى مصر بلغت عشرة آلاف قرية فهي رواية ابن عبد الحكم. وقد حدّد ابن عبد الحكم أن ذلك كان في أيام أمير مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ - ١١٧ هـ) أي بدايات القرن الثاني الهجري وليس القرن الرابع كما يشير المؤلّف هنا. ـ ونشير أيضاً إلى أن قاضي المنزلة (معروف بن أحمد، من مؤرّخي القرن العاشر الهجري) ذكر أن عدّة قرى مصر أيام برسباي بلغت ٢٢٧٠ قرية. (انظر السلوك: ٩١٣/٤؛ خطط المقريزي: ٧٣/١ - ٧٤؛ فتوح مصر: ١٥٦؛ نهر النيل في المكتبة العربية لمحمد حمدي المناوي: ١٧١ - ١٧٢).

فانظر إلى تفاوت ما بين الزمنين، مع أمن هذا الزمان وكثرة فتن ذلك الزمان، غير أن السبب معروف والسكات أجمل.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شعبان، برز قرقماس نائب حلب إلى محل كفالته وعليه جمل(١) كبيرة من الديوان.

ثم في تاسع عشر شعبان ختن السلطانُ ولدَه المقامَ الجماليَّ يوسف، وختن معه نحو الأربعين صبيّاً، بعدما كساهم، وعمل لذلك مُهِمّاً هائلاً، للرجال بالحوش السلطاني، وللنساء بالدور من القلعة.

ثم في يوم السبت ثالث عشرينه، فُقد الوزير كريم الدين ابن كاتب المناخ، بعد أن كان استعفى غير مرة من إحدى الوظيفتين: إما الوَزَر(٢) أو الأسْتَادَّارِيَّة، فلم يُعفه السلطان، فلما تسحّب في هذا اليوم، طلب السلطانُ أمينَ الدين إبراهيمَ بن الهَيْصَم، ناظرَ الدولة، وخلع عليه باستقراره وزيراً عوضاً عن الصاحب كريم الدين المذكور.

ثم في يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان المذكور، ظهر الصاحبُ كريم الدين المقدَّم ذكره، وطلع إلى القلعة، فخلع عليه السلطان سَلّاريّاً(٣) من قماشه. ثم طلع كريمُ الدين من الغد، فخلع عليه السلطانُ ثانياً خلعة جليلة، باستمراره على وظيفة الأستادَّارية؛ ونزل إلى داره في موكب جليل، وقد سُرّ به غالب أعيان الدولة، فإن السلطان كان ألزم زينَ الدين عبد الباسط بوظيفة الأستادَّارية، فقال له: «يا مولانا السلطان، ما يليق بي هذه الوظيفة»، فقال: «يليها دوادارُك جانِبك»، فتبرّم أيضاً من ذلك، فخاشنه السلطان في الكلام وأهانه، فأوعد بحمل مبلغ كبير من المال مساعدة للأستادّار، ثم حسَّن للسلطان في الباطن ولاية القاضي سعد الدين إبراهيم ناظر

(١) كذا هي عبارة الاصل. وعبارة المقريزي في السلوك: «برز الأمير قرقماس في تجمّل حسن بالنسبة إلى الوقت ليسير إلى محلّ كفالته». وشبيه بها عبارة نزهة النفوس وهي: «وتوجه إلى محل كفالته في أُبّهة جميلة بالنسبة إلى هذا الوقت».

(٢) يستعمل المؤلّف في كثير من الأحيان تعبير الوزر للدلالة على وظيفة الوزارة.

(٣) السلّاري: نوع من الأقبية يُنسب إلى الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة أيام بيبرس الجاشنكير في دولة المماليك البحرية. ـ وعبارة «من قماشه» تعني من ملابسه الخاصة.

الخاصّ، أستادّاراً، وكلّمه السلطان في ذلك، فأبى سعد الدين إبراهيم أيضاً، وأخذ يستعفي؛ وبينما هم في ذلك، ظهر كريمُ الدين، فتنفَّس خناقُ عبد الباسط وغيره بظهور كريم الدين واستمراره على وظيفته.

وقدم الخبرُ في هذا الشهر من مكة المشرَّفة بأن الوباء قد اشتدَّ بها وبأوديتها، حتى بلغ عدّة مَن يموت بمكة، في اليوم، خمسين نفساً، ما بين رجل وامرأة.

وفي شهر رمضان المذكور تحرّك عزم السلطان على السفر إلى جهة آمِد، لقتال قرايُلك، وكتب إلى بلاد الشام بتعبئة الإقامات من الشعير وغيره على العادة. وكان سبب حركة السلطان لذلك، لما ورد عليه الخبر في يوم ثامن عشره، أن الأمير إينال العلائي نائب الرّها، كان بينه وبين أعوان قَرايُلك وقعة هائلة. وسببه أن بعض عساكر حلب أو عساكر الرُّها خرج يُسيِّر فرسه، فلما كان بين بساتين الرّها، صادف طائفة من التركمان، فقاتلهم وهزمهم؛ وبلغ ذلك الأميرَ إينال، فخرج مسرعاً من مدينة الرّها، نجدةً لمَن تقدّم ذكره، فخرجت عليه ثلاثة كمائن من القرايلكية، فقاتلهم، فكانت بينهم وقعة هائلة، قتل فيها من الفريقين عدّة.

فلما بلغ السلطانَ ذلك، شقّ عليه، وعزم على السفر؛ ثم كتب السلطانُ إلى سائر البلاد الشاميّة، بخروج نوّاب الممالك للحاق الأمير قُرْقَماس نائب حلب بالرُّها؛ ثم بطل ذلك، وكتب بمنعهم من المسير، حتى يصحّ عندهم نزول قَرايُلك على الرّها بعساكره وجموعه، فإذا صحّ لهم ذلك، ساروا لقتاله.

وفي يوم الثلاثاء عشرين شوّال، كتب السلطان باستقرار خليل بن شاهين الشَّيخي، ناظر الإسكندرية وحاجبها، في نيابة الإسكندرية، مضافاً على النظر والحجوبية، عوضاً عن الأمير جانِبك[1] [السيفي يَلْبَغا][1] الناصري [فرج] المعروف بالثور.

وفي شوّال هذا، قَدِمَ على السلطان الخبر من بغداد، على يد قاصد كان السلطان

(١) في الأصل: «جاندار». والتصحيح والزيادة عمّا سيأتي ذكره للمؤلّف.

وجّهه قبل ذلك لكشف أخبار الشرق، وأخبر: أن أصبهان بن قرا يوسف، لما مَلَك بغداد من أخيه شاه محمد بن قَرا يوسف، أساء السيرة، بحيث إنه أخرج جميع أهل بغداد منها بعيالهم، بعد أن أخذ جميع أموالهم، من جليل وحقير، فتشتتوا بنسائهم وأولادهم في نواحي الأقطار، وصارت بغداد ليس بها سوى نحو ألف رجل من جند أصبهان المذكور لا غير، وأنه لم يبق بها سوى ثلاثة أفران تخبز الخبز فقط، ولم يبقَ بها سكان، ولا بيعة، ولا أسواق. فكان فعل أصبهان هذا أقبح من فعل أخيه شاه محمد، فإن شاه محمد لما تنصّر ومال إلى دين النصرانية، قتل العلماء وأباد الفقهاء والصلحاء لا غير، وترك مَن دونَهم. فجاء هذا الزنديق الفاسق، تجاوز فعل شاه محمد من أنه أخرج جميع أهل بغداد؛ وكان غرض أصبهان بذلك أن يخرّب بغداد، حتى لا يبقى لأخيه إسكندر ولا غيره طمع فيها، فمدّ يده في ذلك، حتى صارت بغداد خراباً يباباً لا يأويها إلّا البوم - انتهى.

قال: وإنه أخرب أيضاً الموصل، حتى صارت مثل بغداد وأعظم، من أنه سلب نِعَمَ أهلها وأمر بهم فأُخرجوا منها وتمزقوا في البلاد، واستولت عليها العربان، فصارت الموصل منزلة من منازل العرب، بعد أن كانت تضاهي دار السلام.

قال - أعني القاصد: وان أصبهان أيضاً أخذ أموال أهل المَشْهَد، وأزال نِعَمَهم وتشتتوا في البلاد.

قلت: لا أعلم في طوائف التركمان ولا في أوباش عساكر جَغْتاي، ولا في جهّال التّتار، أوحش سريرة، ولا أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة، ولا أضعف ديناً ولا أعدم مروءة، ولا أقلّ نخوةً ولا أبشع خبراً من هؤلاء الزنادقة الكَفَرَة الفَسَقة، أولاد قَرايُوسف. وعندي أن النصارى أمثل من هؤلاء، فإنهم متمسكون بدين على زعمهم، وهؤلاء زنادقة لا يتديّنون بدين، كَفَرَة ملحدون.

حَدّثني الأمير علي باي المؤيدي العجمي رحمه الله - بعد عوده من عند أصبهان المذكور، لما أرسله السلطان الملك الظاهر جَقْمَق، في الرُّسْليّة إليه - بأشياء: منها أنه كان يمدّ السِّماط بين يديه في بكرة أيام [شهر] رمضان، وأنه سأل علي باي في الأكل

معه من جملة عساكره، فامتنع، فقال له: «أمير عليّ باي، بِتّتعِبْ نفسك سخرةً، بني آدم، هو مثاله مثال الزرع: يطلع ويكبر، ثم يحصد ويزول إلى الأبد، وما ثم شيء غير ذلك، فخلِّ عنك ما أنت فيه، وكل واشرب».

قال: ثم سألت عن أصبهان من بعض خواصّه، عن أحواله، فكان من جملة ما قاله إنه لم يتعبّد عَلَى ملّة من المِلَل منذ بلغ الحُلم إلى يومنا، بخلاف أخيه شاه محمد، فإنه كان أولاً أيام أبيه قَرايُوسف يصوم ويصلّي ويُظهر التنسّك إلى أن مات أبوه فأظهر الميل إلى دين النصرانية، وصار يتعبّد عَلَى ملّتهم.

فهذا الخبر عن شاه محمد وأصبهان، وأضف إليهما إسكندر أيضاً، فإنه كان أيضاً من هذه المقولة في الباطن، ثم من بعدهم أخوهم جهان شاه بن قَرايُوسف ملك تبريز في زماننا هذا، فإنه أيضاً عَلَى طريقهم من الفسق والفجور والانهماك في المُسكِرات، وجميع أفعاله في الباطن تقارب أفعال إخوته، غير أنه يظهر خلاف ذلك، لئلا ينفر الناس عنه وتسوء القالة فيه؛ وقد استوعبنا أحوال هؤلاء الفَسقة في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» بأوسع من هذا، فلْيُنظر هناك.

ثم في يوم الأربعاء أول ذي القعدة، توجّه الأمير جقمق العلائي أمير سلاح، إلى مكة المشرّفة حاجّاً، وسار معه كثير ممّن قَدِمَ من المغاربة وغيرهم، وبسَط يده بالإحسان إليه ذهاباً وإياباً.

قال المقريزي: وفي هذه السنة، يعني عن سنة سبع وثلاثين، طلّق رجل من بني مهديّ من أرض البلقاء امرأته(١) وهي حامل فنكحها رجل غيره، ثم فارقها، فنكحها رجل ثالث، فولدت عنده ضفدعاً في قَدْر الطفل، فأخذوه ودفنوه خوف العار.

ثم في يوم الاثنين ثالث محرّم سنة ثمانٍ وثلاثين وثمانمائة، قَدِمَ قاصِد قَرايُلك صاحب آمِد، بكتاب قَرايُلك ومعه تسعة أكاديش، تقدمةً للسلطان، ودراهم قليلة عليها اسم السلطان لا غير، فلم يحْسُن ذلك ببال أحد.

---

(١) في الأصل: «امرأة». وما أثبتناه عن السلوك للمقريزي.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر المحرّم سنة ثمانٍ وثلاثين المذكورة، أُمسك السلطانُ الأميرَ بردبك الإسماعيلي، أحد أُمراء الطبلخانات، وحاجب ثاني، وأُخرجه إلى دمياط، وأُنعم بإقطاعه على الأمير تغري بردي البكلمشي المعروف بالمؤذي، أحد رؤوس النوب، وخلع عَلَى الأمير جانِبك السيفي يَلْبَغا الناصري المعروف بالثور، المعزول قبل تاريخه عن نيابة الإسكندرية، باستقراره حاجباً ثانياً عوضاً عن بردبك الإسماعيلي المقدّم ذكره.

وفي هذا الشهر أيضاً خلع السلطان على دُولات خُجا وأُعيد إلى ولاية القاهرة عوضاً عن التاج بن سيفة الشوبكي.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين المحرم، عملت الخدمة السلطانية بالإيوان المسمّى دار العدل من قلعة الجبل، بعدَ ما هجرت مدة، لقدوم رسول القان معين الدين شاه رُخْ بن تيمور ملك المشرق. وأحضر الرسول المذكور إلى الموكب بدار العدل وقد هاله ما رآه من حُسْن زيّ هذا الموكب. وكان الرسول المذكور من أشراف شيراز يقال له السيد تاج الدين عليّ، فحضر تاج الدين المذكور إلى بين يدي السلطان، ولم يقبِّل الأرض لكونه من السادة الأشراف. ودفع ما على يده من الكتاب: ثم قدّم ما معه من الهدية، فتضمن كتابُه وصول هديَّةَ السلطان المجهّزة إليه، وأنه نذر أن يكسو الكعبة البيت الحرام، وطلب أن يبعث إليه مَن يتسلمها ويعلّقها من داخل البيت. وتاريخ الكتاب، في ذي الحجة سنة ست وثلاثين. وكان قدوم القاصد من هراة إلى هُرْمُزْ ومن هُرْمُزْ إلى مكة، ثم قدم صحبة ركب الحاج، فأنزله السلطان بمكان، وأجرى عليه ما يليق به من الرواتب. واشتملت هدية شاه رُخْ المذكور على ثمانين ثوب حرير أطلس، وألف قطعة فَيْرُوزَج، ليست بذاك، مبلغ قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار لا غير.

ثم في يوم السبت سادس صفر، عقد السلطان مجلساً بين يديه، بالقضاة الأربعة، بسبب نذر شاه رخ بن تيمور أن يكسو الكعبة؛ فلما جلسوا للكلام، بعد أن سألهم السلطان في معنى ذلك، أجاب قاضي القضاة بدر الدين محمود العَيْني

الحنفي، بأن نذره لا ينعقد، فلم يتكلم أحد، وانفضّ المجلس على ذلك. وصار السلطان يقول: «للعيني مندوحةٌ في منع شاه رُخْ من الكسوة».

ثم عيَّن السلطانُ الأميرَ أَقْطُوه الموساوي الظاهري برقوق للتوجّه [إلى شاه رخ] بردِّ الجواب صحبة قاصده.ـ إنتهى.

ثم في يوم الآثنين خامس عشر المذكور، ثارت مماليك السلطان الجُلبان سُكّان الطِّباق بقلعة الجبل، وطلبوا القبض على مباشري الدولة، بسبب تأخّر جوامكهم، ففرّ المباشرون منهم، ونزلوا إلى بيوتهم، فنزل في أثرهم جمع كبير منهم، ومضوا إلى بيت عبد الباسط ناظر الجيش ونهبوه، وأخذوا ما قدروا عليه. ثم خرجوا وقصدوا بيت الوزير أمين الدين بن الهَيْصَم، وبيت الأستادَّار كريم الدين ابن كاتب المناخ، ونهبوهما أيضاً، ولم يقدروا على قبض أحد من هؤلاء الثلاثة لفرارهم منهم، وغلقت الأسواق وخاف كل أحد على بيته.

هذا وقد صمّم المماليك على الفتك بعبد الباسط. والعجب أن السلطان لم يغضب لعبد الباسط بل انحرف عليه، وأمر بنفيه إلى الإسكندرية لكسر الشرّ، ولم يقع منه في حق مماليكه المذكورين أمر من الأمور، إما لمحبته فيهم، أو لبغضه في عبد الباسط. ولزم عبد الباسط داره، وتردّد الناس للسلام عليه، والسلطان مصمّم على سفره إلى ثغر الإسكندرية.

وأصبح الناس يوم الثلاثاء سادس عشره، وإذا بهَجَّة عظيمة، فَغُلقت جميع شوارع المدينة لإشاعة كاذبة بأن المماليك قد نزلوا ثانياً لنهب بيت عبد الباسط، فاضطرب الناس، وهرب عبد الباسط من داره، وانزعج إلى الغاية، فكان هذا اليوم أعظم وأشنع من يوم النهب. ثم ظهر للناس أن المماليك لم يتحرّكوا ولا نزل أحد منهم. وأما عبد الباسط، فإنه لا زال يسعى ويتكلم له خواص السلطان في عدم خروجه إلى الإسكندرية حتى تمّ له ذلك، وطلع إلى القلعة في يوم سابع عشره، بعد أن التزم عبد الباسط بأن يقوم للوزير من ماله بخمسمائة ألف درهم مصرية تقوية له، وأن السلطان يساعد أستاداره كريم الدين بعليق المماليك شهراً، هذا بعد

أن قدّم عبد الباسط للأشرف تقدمة من المال في خفية من الناس لإقامة حرمته، ولم يخف ذلك عن أحد. وأخذ أمر عبد الباسط في انحطاط، وصار السلطان يهدّده إن لم يلِ الأستادارية هو أو مملوكه جانِبك، وهو يتبرّم من ذلك كله.

ثم استعفى الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم من الوزارة، فعيّن السلطانُ شمسَ الدين بن سعد الدين بن قطارة القبطي لنظر الدولة، وألزمه بتكفية يومه. ورسم السلطان بطلب أُرْغُون شاه النَّوْرُوزي من دمشق، وهو يومذاك أستادار السلطان بدمشق، ليستقر في الوزارة، عوضاً عن ابن الهيصم على عادته قديماً، بعدما عرض السلطان الوزارة على الأستادار كريم الدين ابن كاتب المناخ، فأبى كريم الدين قبول ذلك، وقال: «يا مولانا السلطان، يختار السلطان إمّا أكونُ وزيراً أو أستادّاراً. وأما جمعهما معاً فلا أقدر على ذلك». فغضب السلطان عليه وهمّ بضربه ومَسْكِه، فضمنه القاضي سعد الدين ابن كاتب جَكَمْ، ناظر الخاصّ، ونزل الجميع إلى دورهم، إلى أن عملت مصالح الجماعة.

فلما كان يوم السبت عشرين صفر خلع السلطان على أستاداره الصاحب كريم الدين باستمراره، وخلع على الصاحب أمين الدين بن الهَيْصم باستقراره في نَظَر الدولة على عادته قديماً كما كان قبل الوزارة، وألزمه بتكفية الدولة إلى حين قدوم أرْغُون شاه من الشام، وانفضّ الموكب. فلما نزل الصاحب أمين الدين بالخلعة إلى داره، اختفى في ليلة الاثنين ولم يُعْلَم له خبر. فأصبح السلطان في يوم الاثنين ثاني عشرينه، أمسك الصاحب كريم الدين الأستادار، وخلع في الحال على جانِبك دوادار عبد الباسط باستقراره أستاداراً عوضاً عن صاحب كريم الدين بن كاتب المناخ، فلبس جانِبك الخلعة، ولم يقدر عبد الباسط أن يتكلم في حقه كلمة واحدة. وكان قصد الملك الأشرف أنه متى تكلم أو تمنّع عبد الباسط من ذلك، قبض عليه، فأحسّ عبد الباسط بالشرّ، فكفّ عن الكلام. ثم ألزم السلطانُ القاضي سعدَ الدين إبراهيم ابن كاتب جَكَمْ ناظر الخواص بوظيفة الوزارة، فلم يوافق على ذلك، وانفضّ المجلس على ذلك.

وفي هذا اليوم خرج قاصد شاه رخ، الشريف تاج الدين، من الديار المصرية إلى جهة مُرْسِلِه، وصحبته الأمير أقطوه الموساوي، وعلى يده هدية من السلطان إلى شاه رخ المذكور، وكتاب جواب كتابه يتضمن منعه من كسوة الكعبة، بأن العادة قد جرت قديماً وحديثاً أن لا يكسو الكعبة إلّا ملوك مصر، والعادة قد اعتبرت في الشرع في مواضع، وأن للكسوة أوقافاً تقوم بعملها، لا يحتاج إلى مساعدة في ذلك؛ وإن أراد الملك وفاء نذره، فليبع الكسوة ويتصدّق بثمنها في فقراء مكة، فهو أكثر ثواباً، حيث يتعدّى نفع ذلك إلى جماعة كبيرة، وأشياء من هذه المقولة.

ثم في يوم الخميس خامس عشرينه، بعد انقضاء الموكب من القصر، وتوجُّه السلطان إلى الحوش على العادة، غضب على القاضي سعد الدين [إبراهيم] ناظر الخواص، بسبب تَمنُّعهِ من ولاية الوزارة، وأمر به فضرب بين يديه ضرباً مبرحاً، ثم أُقيم، ونزل إلى داره. ثم طلب السلطانُ الصاحبَ كريم الدين ابن كاتب المناخ من محبسه بالقلعة، وأمر به، فعرِّي من ثيابه، وضربه بالمقارع زيادة على مائة شِيب(١)، ثم ضربه على أكتافه بالعصي ضرباً مبرحاً، وعُصرت رجلاه بالمعاصِير(٢)، ثم أُعيد إلى محبسه يومه؛ وأُنزل من الغد في يوم الجمعة على بغل في أسوإ حال، ومُضي به إلى بيت التاج وإلى القاهرة كان، وهو يومذاك شادُّ الدواوين، ليورد ما ألزم به، بعد أن حوسب، فوقف عليه خمسة وخمسون ألف دينار ذهباً، صولح عنها بعشرين ألف دينار، فنزل إلى بيت التاج وأُخذ في بيع موجوده وإيراد المال المقرّر عليه، إلى أن أفرج عنه في ثامن عشر ربيع الأول، بعدما حُمِّل نحو العشرين ألف دينار، وضمنه فيما بقي أعيان الدولة.

ثم في يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وثلاثين المذكورة،

---

(١) الشيب: سير السوط.

(٢) المعاصير: جمع معصرة، وهي آلة للتعذيب مكوّنة من خشبتين مربوطتين ببعضهما، يوضع بينهما رجلا المُعاقَب أو عقباه، ثم تُشدّ الخشبتان إلى بعضهما شدّاً قوياً فيؤدّي ذلك إلى عصر الرجلين، وقد يؤدّي إلى كسرهما.

خلع السلطان على القاضي سعد الدين ناظر الخواص خلعة الرضى والاستمرار على وظيفته نظر الخواص، وخلع على أخيه القاضي جمال الدين يوسف ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب جكم باستقراره وزيراً، على كره منه، بعد تمنّع زائد؛ وكان منذ تغيب ابن الهيصم، لا يلي الوزارة أحد، والقاضي سعد الدين ناظر الخاصّ يباشرها، ويسدّد أمورها من غير لبس تشريف، فغرم فيها جملة كبيرة، لعجز جهاتها عن مصارفها. والقاضي جمال الدين يوسف المذكور هو عظيم الدولة في زماننا هذا، وناظر جيشها وخاصِّها كان، وهي أول ولاياته للمناصب الجليلة على ما يأتي ذكر ولاياته لغيرها مفصّلاً، في هذا الكتاب وغيره.

وخلع السلطان علَى شمس الدين بن قطارة باستقراره ناظرَ الدولة، فكان الوزيرُ وناظرُ الدولة في طرفي نقيض؛ فالوزير في الغاية من حسن الشكالة والزيّ البهيج، وسنّه دون العشرين سنة، وناظر الدولة في الغاية من قبح الشكالة والزيّ الرديء، وسنّه نحو السبعين سنة ـ انتهى.

ثم في يوم الأحد رابع شهر ربيع الآخر، قَدِمَ الأميرُ أَرْغُونُ شاه النوروزي الأعور، أستادّار السلطان بدمشق إلى مصر بطلب حسبما تقدّم ذكره، لِيَلِيَ الوزارةَ. وطلع إلى القلعة من الغد بتقادم جليلة، وخُلع عليه باستمراره على أستادّارية السلطان بدمشق، على عادته. وفي هذا الشهر تكرر ركوب السلطان إلى الصيد غير مرة.

ثم في جمادى الأولى وقع الشروع في حركة السلطان إلى السفر، لقتال قَرايُلك والفحص أيضاً عن جانِبك الصُّوفي. وفي خامس عشره خلع على دُولات خُجا والي القاهرة باستقراره في ولاية منفلوط، وشغرت الولاية إلى يوم الأحد سابع عشره، فاستقر فيها علاءُ الدين علي بن الطَّبْلاوي.

ثم في يوم السبت أول جمادى الآخرة، خلع السلطان على الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ باستقراره كاشفَ الوجه القبلي، ورسم السلطان أن يستقر محمد الصغير المعزول عن الكشف قبل تاريخه دوادارَ الصاحب

كريم الدين، وأميرُ عليّ الذي كان كاشفاً بالوجه القبلي والوجه البحري رأسَ نوبته، ونزل إلى داره من القلعة في موكب جليل، كلّ ذلك والصاحبُ كريم الدين لم يغيّر زيّه من لبس الكتبة، ولم يلبس الكَلْفَتاه، ولا تقلّد بسيف.

وكان الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم قد خرج من اختفائه، وطلع إلى السلطان بشفاعة الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي الخُازندار، فطلبه السلطان في هذا اليوم وخلع عليه باستقراره شريكاً لعبد العظيم بن صدقة الأسلمي في نظر ديوان المفرد.

ثم في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة المذكورة أمسك السلطانُ القاضي سعد الدين إبراهيم ناظرَ الخاص، وأخاه الصاحبَ جمال الدين يوسف، ورسم عليهما، ثم أفرج عنهما من الغد، وخلع على سعد الدين المذكور باستمراره، وأعفي الصاحب جمال الدين من الوزارة، بعد أن ألزمهما بحمل ثلاثين ألف دينار. وألزم السلطانُ تاجَ الدين عبد الوهاب بن الشمس نصر الله الخطير ابن الوجيه توما ناظر الإسطبل بولاية الوزارة، وخلع عليه من الغد في يوم الثلاثاء ثامن عشره، فباشر ابنُ الخطير هذه الوزارةَ أقبح مباشرة من العجز والتشكّي والقلق وعدم القيام بالكلف السلطانية، مع قيام السلطان معه وإقامة حرمته، وهو مع ذلك لا يزداد في أعين الناس إلاّ بهدلة. وظهر منه في أيام مباشرته الوزارةَ حدّةٌ زائدة، وطيش وخفّة، بحيث إنه جلس مرة للمباشرة، فكثر الناس عنده لقضاء حوائجهم، فضاق خلقه منهم، فقام إلى باب الدخول، وضمّ جميع سَرامِيج[1] الناس الذين كانوا في مجلسه في ذيله، وخرج حافياً إلى خارج داره وألقاهم إلى الأرض، ودخل بسرعة وقال: «اخرجوا إلى سَرَامِيجكم لا يأخذوها» فقال له بعضهم: «تعيش رأس مولانا الصاحب». وسخر الناس من ذلك مدة طويلة، وهو إلى الآن في قيد الحياة، يتشحّط في أذيال الخمول ـ انتهى.

---

(١) السراميج والسراميز: واحدها سَرْمُوجة وسرموزة، وهي الحذاء أو النوع من الخفاف. واللفظ فارسي معناه: رأس الخفّ. (معجم متن اللغة).

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة المذكورة، أنعم السلطان على تِمْراز المؤيدي الخازندار بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، بعد موت الأمير أُرْكَمَاس الجُلْباني، وأنعم بطبلخانة تِمْراز المذكور على الأمير سُنْقُر العزي الناصري نائب حمص، بعد عزله عن نيابة حمص بالأمير طغرق أحد أمراء دمشق.

ثم في يوم الأحد ثالث عشرينه خرجت تجريدة من القاهرة إلى البحيرة، ومقدم العساكر الأمير الكبير إينال الجكمي، والأمير جقمق أمير سلاح، والأمير يَشْبك حاجب الحجاب، والأمير قاني باي الحمزاوي، في عدّة من الأمراء. وسبب ذلك أن لبيداً قدم منهم طائفة إلى السلطان بهدية، وسألوا أن ينزلوا البحيرة، فلم يُجابوا إلى ذلك، ولكن خلع عليهم وتوجّهوا، فعارضهم أهل البحيرة في طريقهم، وأخذوا منهم خلعهم. وكان السلطان يلهج كثيراً بإخراج تجريدة إلى البحيرة، فبلغهم ذلك فأخذوا حذرهم. واتفق مع ذلك أن شتاء هذه السنة لم يقع فيه المطر المعتاد بأراضي مصر، فقَدِمت طائفة من لبيد إلى البحيرة لِمَحْل بلادهم، وصالحوا أهل البحيرة، وساروا إلى مُحارِب وغيرها بالوجه القبلي لرعي الكشيح من أراضي البور من أعمال الصعيد، وكان السلطان قد كتب إلى كاشف الصعيد بأن لا يمكنهم من المراعي حتى يأخذ منهم مالاً، فغضبوا من ذلك وأظهروا الخلاف، فخرجت إليهم هذه التجريدة المقدّم ذكرها(١).

---

(١) المراد بالبحيرة المنطقة الواقعة غربي الدلتا، وعاصمتها دمنهور. ومن عربان البحيرة: لواتة، وعوف من بني سليم، وزنارة، ومزاتة، وهوارة. (انظر نهاية الأرب للقلقشندي).

وكانت علاقات قبائل العربان في مصر متوترة مع السلطات المركزية المتعاقبة منذ عهد الفاطميين وحتى نهاية العصر المملوكي. وكان للأعراب أدوار بارزة في الصراع مع الصليبيين والمغول وفي الصراعات الداخلية؛ كل ذلك دفع السلطات المركزية إلى القيام بمحاولات لكسبهم لصالحها عن طريق مراعاة مصالحهم بقدر الإمكان. أما الفاطميون فقد كانت طريقتهم المفضّلة لكسب البدو رشوتهم بإقطاعات ومبالغ مالية ضخمة. ولجأ الأيوبيون بالإضافة للأعطيات إلى منح رتبة الإمارة «ببوق وعلم» لبعض شيوخ العرب الذين قدّموا خدمات جلّى في الصراع مع الصليبيين. لكن المماليك كانوا أول مَن توصّل لحلّ مشكلة الأعراب حلاً موقّتاً. فعن طريق «إمرة العرب» التي جعلوها رتبة عسكرية عالية ضمن الجهاز الإداري انتظم البدو في بيروقراطية الدولة. وكانت «إمرة العرب» تُعطى لشيخ قبيلة ضخمة ذات نفوذ كبير فتتيح له السيطرة على الأعراب في منطقة واسعة، مع ما يصاحب ذلك من إقطاعات وأعطيات تبذلها الدولة لأمير العرب. أما =

وفي هذا الشهر ندب السلطانُ قاضيَ القضاة شهابَ الدين بن حَجَر أن يكشف عن شروط واقفي المدارس والخَوانِك، ويعمل بها، فسُرَّ الناس بذلك غاية السرور، وكثر الدعاء للسلطان بسبب ذلك؛ فبدأ أولاً بمدرسة الأمير صَرْغَتْمُش(١)

= ضابط الاتصال بين السلطة المركزية وشيوخ العربان فقد كان المهمندار. وكان هذا المنصب يقتضي معرفة دقيقة بأحوال القبائل وأنسابها والعلاقات المتشابكة فيما بينها، «إذ هو الذي يتلقى الرُّسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدّث في القيام بأمورهم». (انظر مسالك الأبصار، قسم قبائل العرب، مقدمة التحقيق، ص ١٦ ـ ١٧؛ وصبح الأعشى: ٢٢/٤).

وبالرغم من جهود المماليك لضبط أوضاع العربان وتنظيم علاقتهم بالدولة فإن ثورات العربان في مصر المملوكية كانت مُزمِنة وعنيفة، رغم تمتّع زعماء العربان بالإقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلّي المحدود، بل ووراثة المشيخات في قبائلهم ونواحيهم مما لم يتح لأمراء المماليك أنفسهم. والسبب الأساسي في ثورات العربان بجميع أقاليم مصر هو الكراهة العنصرية للمماليك الذين حكموا وسادوا وهم أصلاً رقيق. وترجع هذه الكراهة إلى عصر الأيوبيين، وربما إلى عهد أقدم من ذلك، إلى ذلك العهد الذي طرد فيه الخليفة المعتصم العباسي الجند العرب من ديوان الجيش في القرن الثالث الهجري وأحلّ محلهم الترك. وظلّت مشكلة العربان قائمة منذ بداية العصر المملوكي حتى نهايته، فعملوا منذ البداية على تعويق سلطة المماليك وهدمها في مهدها؛ ومن أقوالهم: «إنّا أحقّ بالمُلك من المماليك، وقد كفانا أنّا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد». وقالوا كذلك: «نحن أصحاب البلاد». وذكر المقريزي في «الإعراب» أن زعيم عرب الجعافرة ـ في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ـ «أنف من سلطنة المماليك الأتراك وجمع رهطه وثار في سلطنة أيبك...». وظل العرب يتربصون الدوائر بالمماليك، وما فتن عربان البحيرة إلّا صورة من هذه الثورات المستمرة، ومن ذلك ثوراتهم عام ٧٨٣ هـ ونهبهم محصولات الإقطاعات المملوكية زمن برقوق.

وفي مطلع حكم قايتباي فعل زعيما البحيرة، وهما الجويلي ومرعي، الشنائع في ذلك الإقليم، حتى أقسم الجويلي أنه «لا يمكّن أحداً من أرباب الدولة أن يأخذ خراجاً من بلاد الغربية والبحيرة». ولشدّة بأس عربان البحيرة لم يجرؤ رجال الحملة التي أُعِدّت لقمعهم في ذلك الوقت على الخروج إليهم. وفي أحلك الساعات التي تقرّر فيها مصير الإمبراطورية المملوكية برمّتها، رفض السلطان طومان باي اشتراك العربان معه في الجهاد الأخير، رغم حاجته إلى مزيد من القوّات، فردّ مَن تطوّع منهم إلى بلادهم؛ وطومان باي هو الذي وقع ضحية الخيانة المشهورة من عربان البحيرة. وقد امتدّ حقد العرب على المماليك حتى نهاية العصر العثماني ودخول نابليون. (النجوم الزاهرة: ٣٧/١٥، حاشية للمحقّق).

ولثورات العربان أسباب أخرى سياسية واقتصادية ومذهبية، لا يتّسع المجال هنا لذكرها جميعاً. ـ انظر في ذلك: تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي لأحمد صادق سعد، ص ٤٧٥ ـ ٤٨٣، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩ ـ والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك لسعيد عاشور، ص ٥٢ ـ ٥٤، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢.

(١) انظر خطط المقريزي: ٤٠٣/٢.

بخط الصليبة، وقرأ كِتاب وقْفها، وقد حضر معه القضاة الثلاثة، فأجمل ابنُ حجر في الأمر، فلم يعجب الناسَ ذلك، لاستيلاء المُباشرين على الأوقـاف، والتصرّف فيها بعدم شرط الواقف، وضياع مصالحها، فشدّ في ذلك وأراد عزل جماعة من أرباب وظائفها، فروجع في ذلك، وانفضّ المجلس، وقد اجتهد الأَكَلَةُ في السعي بإبطال ذلك، حتى أبطله السلطان.

قلت: ولو ندب السلطانُ لهذا الأمر أحدَ فقهاء الأمراء والأجناد الذين هم أهل الدين والصلاح، لينظر في ذلك بالمعروف، لكانت هذه الفِعْلة تقاوم فتحه لقبرس، لضياع مصالح أوقاف الجوامع والمساجد بالديار المصرية والبلاد الشأمية، لاستيلاء الطَّمَعة عليها، وتقرير مَن لا يستحق في كثير من وظائفها، بغير شرط الواقف، ومنع مَن يستحق العطاء بشرط الواقف؛ ولهذا قررت الملوك السالفة وظيفة نظر الأوقاف لهذا المعنى وغيره، فتُرك ذلك، وصار الذي يلي نظر الأوقاف شريكاً لمَن تقدّم ذكره، فيما يتناولونه من ريع الأوقاف، والكلام فيما يعود نفعُه عليه من جهة حلّ وقف وبيعه أو لواحد استولى على جهة وقف، وأكله بتمامه، فيبعث خلفه ويُبَلِصُه في شيء له ولأعوانه، ويترك الذي قُرِّرت هذه الوظيفة بسببه، من قديم الزمان، وهو ما تقدّم ذكره، من النظر في أمر الأوقاف والعمل فيما يعود نفعه على الوقف وعلى أرباب وظائفه من الفقهاء والفقراء والأيتام وغير ذلك؛ فلا قوة إلّا بالله.

ثم في يوم الاثنين ثامن شهر رجب، أُدير المحمل على العادة في كل سنة.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشر شعبان، وصل سيف الأمير طَرَبَاي نائب طَرَابُلُس، فرسم السلطان بنقل الأمير جُلُبَان، نائب حماه، إلى نيابة طرابلس، عوضاً عن طرباي. وأصبح من الغد في يوم الخميس سادس عشر شعبان، خلع السلطان على الأمير قاني باي الحمزاوي أحد مقدّمي الألوف باستقراره في نيابة حماه، ونعم بإقطاع قاني باي الحمزاوي وتقدمته على الأمير خُجَا سُودون السَّيْفي بلاط الأعرج، وأضاف طبلخانة خجا سُودون المذكور إلى الدولة، تقويةً للوزير التاج الخطير.

وفي هذا الشهر خرج الأمير قَرْقَمَاس الشعباني نائب حلب منها بالعساكر، ونزل العَمْق، على ما سنحكيه بعد عوده إلى حلب مفصّلاً.

ثم في يوم الثلاثاء رابع شوّال قَدِمَ على السلطان كتاب القان شاه رُخ ملك الشرق، يتضمن الوعيد، وأنه عازم على زيارة القدس الشريف، وأرعد في كتابه وأبرق، وأنكر على السلطان أخذ الرشوة من القضاة، وأخذ المكوس من التجّار ببندر جدّة، وتعاطيه نوع المتجر، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ولا استوعب الكتاب لآخره، بل طلب التاج ابن سيفة وخلع عليه بإعادته إلى ولاية القاهرة، عوضاً عن علاء الدين عليّ بن الطبلاوي بحكم عزله ولزومه داره، بعدما غرم جملة مستكثرة، فكان حاله كقول القائل: [الرمل]

ركب الأهوال في زَوْرَتِه ثم ما سَلَّم حتى ودَّعا

ثم في ثامن عشره، خرج محمل الحاج صحبة أمير الحاج الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغَاوي الدوادار الثاني، وأمير الركب الأول الأمير صلاح الدين محمد بن نصر الله محتسب القاهرة. وحجّت في هذه السنة خَوَنْد فاطمة بنت الملك الظاهر طَطَر، زوجة السلطان الملك.

وفي هذا الشهر ظهر الأميرُ جانِبك الصوفي ببلاد الروم، وكان السلطانُ ـ من يوم فرّ من سجن الإسكندرية إلى يومنا هذا ـ لم يقف له على خبر، بعد أن اجتهد في تحصيله غاية الاجتهاد، وأوذي بسببه خلائق لا تدخل تحت حصر، فأخذ السلطانُ في خبره وأعطى، إلى أن قدم عليه في أواخر هذا الشهر كتاب الأمير قرقماس نائب حلب بذلك. وكان خبر معرفة قَرْقَمَاس بظهوره، أنه وصل معه إلى حلب في يوم الثلاثاء حادي عشر شوّال رجل تركماني يقال محمد، كان قبض عليه قَرْقَمَاس بالعَمْق، ومعه كتاب جانِبك المذكور، في سابع شوّال، إليه وإلى غيره، فسجنه قرقماس بقلعة حلب، وجهّز الكتب في ضمن كتابه إلى السلطان، فلما بلغ السلطان ذلك وتحقّقه انزعج غاية الانزعاج.

ثم قَدِمَ كتاب الأمير بَلَبَان نائب درندة(١) أنه ورد عليه كتاب الأمير جانِبك الصُّوفي يدعوه إلى طاعته، فقبض على قاصده وحبسه، وأرسل بكتابه إلى السلطان.

ثم في يوم السبت سابع عشرين ذي القعدة، عاد الأمير قَرْقَماس نائب حلب إليها، بعد ما كانت غيبته عنها بالعَمْق ومَرْج دابق وعينْتَاب خمسة وسبعين يوماً، وقد فاته أخذ قَيْصَرِيَّة لاستيلاء إبراهيم بن قِرمان عليها، وكان قصد السلطان أخْذَها واستنابة أحد من أمراء السلطان بها.

قلت: ولنذكر ما وعدْنا بذكره لسبب سفر قرقماس نائب حلب منها؛ وسببه أن الأمير صارم الدين إبراهيم بن قرمان صاحب لارِنْدة وقُونية من بلاد الروم، أراد أخذ مدينة قيصرية من الأمير ناصر الدين محمد بن دُلْغادر، وقد تغلّب عليها ناصر الدين المذكور، وأخذها من بني قِرمان وولّى عليها ابنه سليمان، فترامى ابن قرمان في هذه الأيام على السلطان بأن يملّكه قيصرية، ووعد بعشرة آلاف دينار في كل سنة، وثلاثين بُخْتِيّاً(٢) وثلاثين فرساً، سوى خدمة أركان الدولة. فكتب السلطان إلى نائب حلب أن يخرج إلى العَمْق ويجمع العساكر لأخذ قَيْصَرِيَّة؛ فخرج قرقماس إلى العَمْق، وجمع تركمان الطاعة وكتب إلى ابن قرْمان أن يسير بعسكره إلى قيصرية.

فلما بلغ ابن دُلْغادر خروج عسكر حلب لأخذ قيصرية منه، بعث في الحال بامرأته خديجة خاتون بتقدمة للسلطان ومعها مفاتيح قيصرية، وأن يكون زوجها المذكور نائب السلطنة بها، وأن يفرج عن ولدها فياض المقبوض عليه قبل تاريخه من سجنه بقلعة الجبل، ووعد لذلك أيضاً بمال. فقَدِمَت خديجة خاتون المذكورة في أواخر شوّال إلى مصر، وقدّمت ما معها من الهدية، وتكلمت بما هو غرض زوجها، فقبل هديتها وأفرج لها عن ولدها فياض، وخلع عليه بنيابة مرعش.

وبينما السلطان في ذلك، كان نزول قرقماس نائب حلب في يوم الاثنين أول

---

(١) درندة: بلدة بآسيا الصغرى ضمن بلاد إمارة دلغادر التركمانية. (معجم زامباور: ٢٣٥).

(٢) البخت والبخاتي: هي الإبل الخراسانية ذات سنامين ووبر أسود، تستعمل في أسفار الشتاء. (محيط المحيط).

ذي القعدة من العساكر على عينْتاب، فأتاه الخبر بأن حمزة بن دُلغادر خرج عن طاعة السلطان بمَن معه وتوجّه إلى ابن عمّه سليمان بن ناصر الدين بك ابن دُلغادر، بعدما بعث إليه وحلّفه، وأن دوادار جانِبك الصُّوفي ومحمد بن كندغدي بن رمضان التركماني وصلا إلى الأمير ناصر الدين محمد بن دُلْغادر بأبُلُسْتَين، وحلَّفاه أنه إذا قَدِمَ عليه الأمير جانبك الصوفي لا يسلّمه إلى أحد ولا يخذله، وأن جانِبك كان عند الأمير إسفنديار[1] أحد ملوك الروم، فسار من عنده يريد سليمان بن دُلْغادر، فخرج إليه سليمان، وتلقّاه هو وأمراء التركمان.

وقبل أن يصل هذا الخبر إلى السلطان، جهّز خديجة خاتون إلى العود إلى زوجها ناصر الدين بك، فخرجت خديجة ومعها ولدها فياض، وسارت والسلطان ليس له علم بما وقع لابن دُلغادر مع جانِبك الصُّوفي. واستمر قُرْقَماس على عينْتَاب، إلى أن بلغه أن الأمير صارم الدين إبراهيم بن قِرْمان جمع عساكره ونزل على قَيْصَرِيَّة، فوافقه أهلها وسلّموها له، وفرّ سليمان بن ناصر الدين بك منها، فبلغه ظهور جانِبك الصوفي، وأنه اجتمع عليه الأميرُ أسلماس بن كبك، ومحمد بن قطبكي، وهما من أمراء التركمان، ونزلوا على مَلَطْية.

فَقَدِمَ سليمان على أبيه ناصر الدين بأبلستين، ولم يبلغهما إلى الآن خبر الإفراج عن ولده فياض، وخروجه من مصر مع أُمه خديجة، وأخذ ناصر الدين بك يداري السلطنة ليفرج عن ابنه فياض، وندب ابنه سليمان لقتال أعوان جانِبك الصوفي، كل ذلك قبل أن يرد عليه جانِبك الصوفي بمدة، وقيل إنه كان أتاه خفية. وبينما هم في ذلك وصلت خديجة خاتُون وولدها فياض إلى زوجها ناصر الدين محمد بن دُلغادر، فبلغ ناصر الدين مراده بالإفراج عن ولده، وترك مداراة السلطان، وانضمّ إلى جانِبك الصوفي حسبما نذكره في مواضعه من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى. وبلغ ذلك قرقماس نائب حلب، فعاد من سَفرته بغير طائل.

---

(١) هو الأمير مبارز الدين إسفنديار بن بايزيد، من أمراء التركمان بآسيا الصغرى (بلاد الروم). وهؤلاء الأمراء يعرفون باسم الإسفندياريين، وكانوا يحكمون على قسطموني وسينوب وبرغلو. وقد مات إسفنديار المذكور سنة ٨٤٣ هـ. (معجم زامباور: ٢٢٤).

ومن يومئذ اشتغل فكر السلطان الملك الأشرف بأمر جانِبك الصُّوفي، وتحقّق أمره بعدما كان يظنه، وأخذ في عزل جماعة من النوّاب ممّن يُخشَى شرّهم، وتخوّف من قَرْقَماس تخوّفاً عظيماً في الباطن، لئلا يميل إلى جانِبك الصوفي. فأول ما بدأ به السلطان أن عزل الأمير قانْصُوه النُّورُوزي عن نيابة طرسوس، ونقله إلى حجوبية الحجاب بحلب عوضاً عن الأمير طُوغَان السيفي تغري بردي أحد مماليك الوالد، ونقل طوغان المذكور إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، واستقر الأمير جمال الدين يوسف ابن قلدر في نيابة طَرَسُوس عوضاً عن قانصوه.

ثم في صفر من سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، ورد الخبر على السلطان أن شاه رخ بن تيمورلنك أرسل إلى السلطان مراد بك ابن عثمان، متملّك الروم، وإلى الأمير صارم الدين إبراهيم بن قِرْمان المقدّم ذكره، وإلى قرايُلك وأولاده، وإلى ناصر الدين بك ابن دُلْغادر، بخِلَع، على أنهم نوّابُه في ممالكهم، فلبس الجميع خِلَعه، فشَق ذلك على السلطان من كَوْن ابن عثمان لبس خلعته، حتى قيل له إنه فعل ذلك في مجلس أنسه استهزاءً به. قلت: لبسُ الخلعة والفُشار ما إليه!.

ثم في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الأول من سنة تسع وثلاثين المذكورة، خلع السلطان على القاضي شرف الدين أبي بكر نائب كاتب السرّ باستقراره في كتابة سرّ حلب، عوضاً عن زين الدين عمر بن السفّاح، بعد امتناع شرف الدين من ذلك أشدّ امتناع. وسبب ذلك أن ابن السفاح المذكور كتب إلى السلطان مراراً عديدة بالحَطّ على قَرْقَماس نائب حلب، وأنه يريد الوثوب على السلطان والخروج عن الطاعة، وآخر ما ورد كتابه بذلك في نصف صفر من هذه السنة، أعني سنة تسع وثلاثين. فلما وقع ذلك كتب السلطان إلى الأمير قرقماس المذكور بالحضور، وقد يئس السلطان من حضوره لما قوي عنده من خروجه عن الطاعة، وقلق السلطان قلقاً زائداً بعدما طلبه خوفاً من عدم حضوره، فلم يكن بأسرع من مجيء نجّاب[1] قرقماس نائب حلب المقدّم ذكره، في خامس عشرين صفر، يستأذن في قدوم قرقماس إلى

(١) النجّاب: هو البريدي الذي يحمل الرسائل.

الديار المصرية، وقد بلغه شيء مما رُمي به. فغضب السلطان عند ذلك على زين الدين عمر بن السفاح، ورسم بعزله واستقرار شرف الدين المذكور عوضه، وتحقّق السلطان أنه لو كان قرقماس مخامراً، لما استأذن في الحضور، فسُرَّ السلطان بذلك، وكتب له الجواب بأنه تقدّم الطلب له.

وأما قرقماس فإنه لما ورد عليه الطلب من السلطان، خرج على الفور من حلب على الهجن في خواصّه، وسار حتى قَدِمَ إلى خارج القاهرة في يوم الجمعة سادس شهر ربيع الأول المذكور، وطلع من الغد إلى القلعة، فلم يخلع السلطان عليه خلعة الاستمرار لكونه استعفى عن نيابة حلب، فما صدق السلطان بأنه تلفّظ بذلك.

ولمّا كان يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير الكبير إينال الجَكَمي أتابك العساكر بالديار المصرية باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن الأمير قَرْقَماس الشعباني المقدّم ذكره، وخلع على الأمير جَقْمَق العلائي أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن إينال الجكمي، وخلع على قرقَمَاس نائب حلب باستقراره أمير سلاح عوضاً عن الأمير جقمق العلائي. وكان استقرار إينال الجكمي بعد الأتابكية في نيابة حلب، بخلاف القاعدة، غير أن السلطان أكرمه غاية الإكرام، ووعده بنيابة دمشق، لطول مرض الأمير قصروه نائب الشأم. وبالغ حتى إنه أسرَّ له إن مات قصروه قبل وصول إينال إلى حلب فليقم بدمشق، حتى يرسل إليه السلطان بنيابتها. وظهر أيضاً للناس أنه لم يولّه نيابة حلب إلّا لثقته به. ثم خرج الأمير إينال إلى محل كَفَالَتِهِ في ثالث عشره.

ثم في سابع عشره خلع السلطان على الأمير الكبير جقمق العلائي بنظر البيمارستان المنصوري على العادة. وورد الخبر على السلطان: أن بمدينة بروسا[1]، التي يقال لها بُرْصَا من بلاد الروم، وباءً عظيماً دام بممالك الروم نحو أربعة أشهر.

---

(١) بروسا أو بروسة أو بورسة (وتستبدل السين بالصاد) وهي مدينة بتركيا. وقد أصبح لبروسة شأن كبير بعد أن استولى عليها أورخان بن عثمان سنة ٧٢٦ هـ واتخذها مقرّاً له، وظلّت بعده مقرّ السلاطين العثمانيين إلى أن فتحت القسطنطينية. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٧/ ١٧٠ - ١٧٧).

ثم ورد الخبر على السلطان بأن الأمير ناصر الدين بك ابن دُلغادر قبض على الأمير جانِبك الصوفي في سابع عشر شهر ربيع الأول؛ وكان السلطان قَدِمَ عليه من البلاد الشاميَّة كتاب، وفي ضمنه كتاب من عند شاه رُخْ بن تَيْمُورلنك، يتضمن تحريض جانِبك الصُّوفي على أخذ البلاد الشامية، وأنه سيقدم عليه ابنه أحمد جُوكي وبابا حاجي نجدةً له على قتال سلطان مصر، فقبض على حامل هذا الكتاب وحبس، فلما بلغ السلطان ذلك كتب إلى نوّاب البلاد الشامية بالتأهّب والاستعداد لنجدة نائب حلب الأمير إينال الجكمي إذا استدعاهم، ولم يكترث السلطان بقبض جانبك الصوفي وقال: هذه حيلة.

وكان من خبر جانِبك الصوفي والقبض عليه، وهو خلاف ما نقل عنه قبل ذلك لاختلاف الأقوال في أمره، فخبره من هذا الوجه: أنه لمّا فرّ من الإسكندرية، دخل القاهرة بعد أمور، ودام بها سنين مختفياً في حاراتها وظواهرها، إلى أن خرج منها متنكّراً وسار إلى البلاد الشامية، ثم إلى بلاد الروم، فظهر بتُوقات[1] في شوّال من السنة الماضية، أعني سنة ثمانٍ وثلاثين وثمانمائة، فقام متوليها الأمير أرْكُج باشا بمعاونته وأنعم عليه، وكتب إلى ناصر الدين محمد بن دُلْغادر نائب أُبُلُسْتَيْن، وإلى أسلماس بن كبك، وإلى مخمد بن قطبكي، وإلى قرايلك ونحوهم من أمراء التركمان بالقيام معه والاستعداد لنصرته. فانضمّ إلى جانبك الصُّوفي عند ذلك جماعة كبيرة، فتهيأ وخرج بهم من توقات، فوافاه الأمير قُرْمُش الأعور أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية المقدّم ذكره في واقعة جانِبك الصُّوفي لمّا قبض عليه بالقاهرة.

وكان من خبر قُرْمُشْ المذكور، أن الملك الأشرف أمسكه بعد أن قبض على الأمير جانِبك الصُّوفي بمدة يسيرة، وحبسه بثغر الإسكندرية، ثم أطلقه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، فلما خرج الأمير تَنِبَك البَجَاسي عن طاعة الملك الأشرف وافقه قرمش هذا وبقي من حزبه، إلى أن انكسر البجاسي وقبض عليه،

(١) توقات: مدينة بآسيا الصغرى في الجزء الشمالي من كبادوكيا إلى الجنوب من المجرى الأوسط لنهر توزنلي الذي عرفه القدماء باسم إريس. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٠/١٦١).

فاختفى قرمش المذكور ولمْ يظهر له خبر إلى هذا اليوم، فكأنه كان مختفياً بتلك البلاد، فلما ظهر أمر جانِبك الصُّوفي توجّه إليه - انتهى.

وسار الأمير جانِبك الصُّوفي بمَن انضمّ عليه، ومعه الأمير قُرْمُش، من تُوقات إلى الأمير محمد بن قرايُلك صاحب قلعة جمركشك[1]، فأكرمهم محمد المذكور وقواهم، فشنُّوا منها الغارات على مدينة دوركي وضايقوا أهلها ونهبوا نواحيها، فاتفق ورود كتاب شاه رُخ ملك الشرق على قرايُلك [يأمره بالمسير بأولاده وعساكره لقتال إسكندر بن قَرا يوسف سريعاً عاجلاً][2]، فكتب قَرَايُلُك إلى ولده محمد بالقدوم عليه لذلك، فترك محمدٌ جانِبك الصُّوفيَ ومَن معه على دوركي وتوجّه إلى أبيه.

فسار جانِبك إلى أسلماس وابن قطبكي، واجتمعوا ونزلوا على مَلَطْية وحصروها، وكادهم سليمان بن ناصر الدين بك ابن دُلغادر، وكتب إلى جانِبك أنه معه: فكتب إليه أنه يقدم عليه، وكان تقدم بينهما مكاتبات حسبما تقدم ذكره، ومواعدات بمجيء جانِبك إلى أَبُلُسْتَيْن، فلم يقع ذلك، وأرسل جانِبك إليه بالقدوم عليه مع الأمير قرمش الأعور، فأكرمه سليمان، وركب وسار مع الأمير قرمش في مائة وخمسين فرساً إلى جهة جانِبك الصُّوفي، حتى قَدِمَ عليه. فتلقاه جانِبك وعانقه، وعادا بمَن معهما على حصار مَلَطْية، فأظهر سليمان من النّصاحة ما أوجب ركون جانِبك إليه. فأخذ سليمان في الحيلة على جانِبك المذكور بكل ما تصل قدرته إليه، ولا زال به حتى خرج جانِبك معه في عدة من أصحابه ليستريحا بمكان للنزهة فيه، ورتبا قُرْمُش وبقية العسكر على حصار مَلَطْية؛ فلما نزل سليمان وجانِبك للنزهة ورأى أن حيلته تمت، وثب جماعة سليمان على جانبك الصُّوفي وقيّدوه وأركبوه على أكديش، وسار به ليلته ومن الغد حتى وصل إلى بيوته بأَبُلُسْتَيْن وحبسه عنده، فلم يفطن قُرْمُش وأصحابه بمسْك جانبك، حتى جاوز جانبك بلاداً سعيدة. ولما قبض سليمان على جانِبك الصُّوفي أرسل يُعرّف السلطانَ بذلك ويطلب مَن يأتيه من قبل السلطان ويتسلّمه - انتهى.

---

(١) في السلوك: «جمركسك» بالسين المهملة.

(٢) زيادة عن السلوك وطبعة الهيئة المصرية.

وأما السلطان لمّا بلغه خبر القبض على جانِبَك الصُّوفي، لم يحمل ذلك على الصدق، وأخذ فيما هو فيه. فورد عليه في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر سيفُ الأمير قَصْرُوه نائب الشأم، على يد الأمير عليّ بن إينال باي بن قجماس، فعيَّن السلطانُ الأميرَ إينال الجَكَمي نائب حلب إلى نيابة دمشق عوضاً عن قَصْرُوه، ورسم لتَغْري بَرْمَش الأمير آخور الكبير بنيابة حلب عوضاً عن إينال الجكمي، غير أنه لم يخلع على تغري بَرْمش المذكور إلاّ بعد أيام حسبما يأتي ذكره.

ثم في ثالث عشره نودي بعرض أجناد الحلقة ليستعدّوا للسفر إلى الشام ولا يُعفَى أحد منهم. وجمع السلطانُ قضاةَ القضاة بين يديه وسألهم في أخذ أموال الناس للنفقة المتحوَّجة[1] لقتال شاه رُخ بن تيمور، فكثر الكلام وانفضّوا من غير أن يفتوه بذلك. فقيل إن بعض الفقهاء قال: «كيف نفتيه بأخذ أموال المسلمين، وكان لبس زوجته يوم طهور ولدها ـ يعني الملك العزيز يوسف ـ ما قيمته ثلاثون ألف دينار، وهي بدلة واحدة، وإحدى نسائه!»، ولم يعرف القائل لذلك مَن هو من الفقهاء، غير أنه أُشيع ذلك في أفواه الناس. ولمّا بلغ الناس ذلك كثر قلقهم من هذا الخبر.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر المذكور ابتدأ السلطان بعرض أجناد الحلقة، فتجمع بالحوش السلطاني منهم عدّة مشايخ وأطفال وعُميان، وعُرضوا على السلطان فقال لهم: «أنا ما أعمل كل عمل الملك المؤيَّد شيخ من أخذ المال منكم، ولكن اخرجوا جميعكم، فمَن قدر منكم على فرس ركب فرساً، ومَن قدر على حمار ركب حماراً»؛ فنزلوا على ذلك إلى بيت الأمير أركماس الظاهري الدوادار الكبير، فحلّ بهم عند ذلك بلاء الله المنزل، وتحكم فيهم الأَكَلَةُ، وصاروا في أيديهم كالفريسة في يد فارسها، وذلك لعدم معرفة أركماس المذكور بالأحكام، وقلّة دربته بالأمور ـ فإنه كان رجلاً غُتْمِيّاً لا يعرف باللغة التركية

---

(١) أي اللازمة أو المحتاج إليها.

فكيف اللغة العربية؟ـ ففاز المتموّلون وتورّط المفلسون.

قلت: وعُدَّت هذه الفعلة من غلطات الملك الأشرف، كونه يندب لهذا الأمر المهم [مثل أركماس هذا؛ وقد تقدّم أن الملوك السالفة كانت تندب لهذا الأمر](١) مثلَ الأمير طشتمر الدوادار، ومثل سُودون الشَّيْخُوني، ومثل يونس الدوادار، وآخرهم جقمق دوادار المؤيّد، وكل واحد من هؤلاء كان شأنه مع مَن يعرضه كالطبيب الحاذق العارف بمرض مَن يعالجه: ينظر إلى وجه المعروض عليه، ويسأله عن إقطاعه [وعن متحصّله](١) سؤالاً لا يخفاه بعد ذلك شيء من حاله، فعند ذلك ينظر في أمره بفراسته، إن كان إقطاعه يقوم بسفره ألزمه بالسفر غصباً على رغْم أنفه، لا يسمع في أمره رسالة ولا شفاعة، وإن كان لا يقوم بسفره ألزمه بالإقامة، وندبه لحفظ جهة من الجهات، ومشى في جميع عرضه على ذلك، وقد انتصف الناس من كونه ألزم كلٌّ واحد بما هو في قدرته. فكان هذا العرض بخلاف هذا جميعه: تُرك فيه مَنْ إقطاعُه يعمل في السنة [مائة ألف، حيث هو من جهته رجل من أرباب الشوكة أو باذل مال، وألزم بالسفر من إقطاعه يعمل في السنة](١) خمسة آلاف درهم فلوساً، كونه فقيراً ولا عصبية له ـ انتهى.

وبينما السلطان في ذلك ورد عليه كتاب أصْبَهان بن قَرَا يوسف صاحب بغداد، يشتمل على التودّد وأنه هو وأخاه إسكندر يقاتلان شاه رُخ؛ وتاريخه قبل قدوم أحمد جوكي بن شاه رُخ وبابا حاجي بعساكر شاه رخ، وقبل موت قرايُلك.

ثم في سابع عشره قَدِمَ أيضاً قصاد إسكندر بن قرا يوسف صحبة الأمير شاهين الأيدكاري الناصري أحد حجّاب حلب، وعَلَى يدهم رأس الأمير عثمان بن طُرْعَلي المدعو قَرَايُلك، ورأس ولديه وثلاثة رؤوس أُخر؛ وكان السلطان توجّه في هذا اليوم إلى الصيد، فقَدِمَ من الغد يوم الخميس ثامن عشره، فأمر بالرؤوس الستّة فطِيفَ بها على رماح، وقد زُيِّنت القاهرة لذلك فرحاً بموت قَرايُلك، ثم عُلِّقت الرؤوس على باب زويلة ثلاثة أيام.

---

(١) الزيادات ما بين معقوفين عن طبعة الهيئة المصرية.

وكان من خبر موته أنه لمّا سار إسكندر بن قرا يوسف من تِبْرِيز لقتاله إلى أن نزل بالقرب من أُرْزَن[١]، وبلغ قرايُلك مجيئه، جهّز ابنه علي بك ومعه فرقة من العسكر وهو تابِعُهم، فالتقوا هم وإسكندر، فاستظهر عسكر قرايُلك في أول الأمر. ثم إن إسكندر ثبت وحمل عليه بمَن معه حملة رجل واحد عَلَى عسكر قرايُلك فكسرهم، وذلك خارج أُرْزَن الروم المذكورة. فعندما انهزم قرايُلك ساق إسكندر خلفه، فقصد عسكر قرايُلك أُرْزَن الروم، ليتحصّنوا بها، فحِيلَ بينهم وبينها؛ وقبل أن يتجاوزوا عنها، أرمى قرايلك بنفسه إلى خندقها ليفوز بمهجته، وعليه آلة الحرب، فوقع عَلَى حجر فشجّ دماغه؛ ثم قام فحُمل إلى قلعة أُرْزَن الروم بحبال، فدام بها أياماً قليلة، ومات في العشر الأول من صفر في هذه السنة، بعد أن أقام في الأمر نيفاً وخمسين سنة. ومات وقد قارب المائة سنة من العمر، ودفن خارج أُرْزَن الروم، فتتبع إسكندر بن قرا يوسف قبره، حتى عرفه ونبش عليه وأخرجه وقطع رأسه ورأس ولديه وثلاثة رؤوس أُخَر من أمرائه ممّن ظفر به إسكندر في الوقعة، وأرسل الجميع مع قاصده إلى الملك الأشرف، حسبما تقدم ذكره. هذا ما كان من موتة قرايُلك، ويأتي بقية ترجمته وأصلهُ في الوفيات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثم في يوم السبت عشرينه خلع السلطان على الأمير حسين بن أحمد البَهْسْني المدعو تغري بَرْمش، الأمير آخور الكبير، باستقراره نائبَ حلب، عوضاً عن الأتابك إينال الجَكَمي، وسافر من الغد إلى محل كفالته، وتولى الأميرَ آخورية عوضه الأميرُ جانم الأشرفي، وكتب بانتقال الجكمي إلى نيابة الشام عوضاً عن قَصْرُوه بحكم وفاته.

وفي هذا اليوم حضر قصّاد إسكندر بن قرا يوسف بين يدي السلطان بكتابه،

---

(١) أرزن: مدينة في تركيا، من بلاد أرمينية. وقد سمّاها العرب أرزن الروم، وأرز روم أو أرض الروم. وعرّفها الأرمن باسم كارِن والروم باسم ثيودوسيوبوليس. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩، ومراصد الاطّلاع: ١/٥٥، وتقويم البلدان: ٣٧٨).

فقرىء وأُجيب بالشكر والثناء، ووجّه(١) إليه مالاً وغيره من القماش السكندري ما قيمته عشرة آلاف دينار، ووعده بمسير السلطان إلى تلك البلاد. ثم نزل السلطان إلى الإسطبل السلطاني وعرضه بنفسه، وأرسل إلى الصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخ وإلى الأمير يلخجا بجمال كثيرة، وكان ندبهما للسفر إلى بندر جدّة.

ثم في تاسع عشرين شهر ربيع الآخر المذكور توجّه الأمير شاد(٢) بك الجكمي، أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة، إلى الأمير ناصر الدين محمد بن دُلغادر بمال وخيل وقماش سكندري وغير ذلك، وإلى ولده سليمان بمثل ذلك، وكتب لهما أن يسلما شاد بك المذكورَ الأميرَ جانبك الصُّوفي ليحمله إلى قلعة حلب، فسار شاد بك في هذا اليوم؛ تأتي بقية أمره في عوده.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى خلع السلطان على جوهر الصفوي الجُلْبَاني اللّالاَ(٣) باستقراره زِمامَ الدار، بعد موت خُشْقَدَم الظاهري الرومي، وكانت شاغرة من يوم مات خشقدم المذكور.

ولما كان يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة برز الصاحب كريم الدين، والأمير يلخجا الساقي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بمَن معهما من الحاج إلى ظاهر القاهرة، ثم ساروا في تاسع عشره إلى جهة مكة المشرّفة.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الآخرة المذكورة خلع السلطان علَى السيفيِّ آقباي اليَشْبَكي الجاموس أحد دوادارية السلطان الأجناد باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن خليل بن شاهين الشُّيْخي بحكم عزله.

ثم في ثاني عشرينه وصل الأمير أقطوه الموساوي الظاهري بَرْقُوق المتوجّه

---

(١) في الأصل: «وحَمل». وما أثبتناه يناسب السياق.

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «شادي بك».

(٣) لالا: لفظ فارسي بمعنى مربّي الأطفال.

والزمام دار هو المتحدّث على باب ستارة السلطان من الخدّام الخصيان، وهو الموكل بحفظ الحريم. وأصل التسمية «زنان دار» ـ راجع فهرس المصطلحات.

في الرسالة إلى شاه رُخ بن تيمورلنك، وقَدِمَ من الغد إلى القاهرة الشيخ صفا رسول شاه رُخ المذكور بكتابه، فأنزل وأُجري عليه الرواتب؛ ثم ورد الخبر على السلطان أن رسل أصبهان بن قرا يُوسف صاحب بغداد سارت إلى القان معين الدين شاه رُخ، وهو مقيم على قراباغ[1]، بدخوله تحت طاعته وأنه من جملة خدمه، فأقامت رسله ثلاثين يوماً لا تصل إلى شاه رُخ، ثم قدموا بين يديه فأجابه بالإنكار على أصبهان المذكور من كونه أخرب العراق وبغداد وأبطل مسير الحج من بغداد، ثم أمره بعمارة بغداد وأن يعمّرها، وإلاّ فقد مشى عليه وأخرب دياره، وأكثر له من الوعيد، وأنه أمهله في ذلك مدة سنة؛ وكان أصبهان بعث بهدية فأخذها ولم يعوّضه عنها شيئاً، وإنما جهّز له خلعةً بنيابة بغداد وتقليداً، ثم خلع على رسله وأمرهم بالعود إليه وتبليغه ما ذكره لهم بتمامه وكماله. قلت: وفي الجملة إن جور أولاد تيمورلنك أحسن من عدل بني قرا يوسف.

ثم في يوم السبت ثاني شهر رجب أحضر السلطان الملك الأشرفُ الشيخَ صفا رسول شاه رُخ إلى بين يديه، وهو جالس عَلَى المقعدة[2] بالإسطبل السلطاني، بمَن معه من قصّاد شاه رُخ، وقرىء كتابه فإذا هو يتضمن أنه يأمر السلطان أن يخطب له، ويضرب السكة باسمه؛ ثم أخرج الشيخُ صفا خلعةَ السلطان بنيابة مصر، ومعها تاج ليلبسه السلطان، وخاطب السلطانَ بكلام لم يسع السلطان معه صبراً.

وعندما رأى السلطانُ الخلعةَ أمر بها فمزقت تمزيقاً، وأمر بالشيخ صفا المذكور فضرب ضرباً مبرحاً خارجاً عن الحدّ، ثم أُقيم بعد ذلك وأمر به فسحب

---

(١) قراباغ: بأرمينية. وهو اسم لولاية واسعة كانت تُعرَف باسم أرّان، ومنها جنزة وبرذعة وشمكور وبيلقان. وكانت قراباغ مصيف سلاطين التتار. قال القلقشندي: «ومعنى قراباغ البستان الأسود، وفيه قرى ممتدّة، وهو صحيح الهواء طيّب الماء كثير المرعى. وإذا نزل به الأردو ـ وهو وطاق السلطان ـ وأخذت الأمراء والخواتين منازلهم، نصب هناك مساجد جامعة وأسواق منوّعة يوجد بها من كل ما في أُمهات المدن الكبار...» ـ انظر صبح الأعشى: ٤٢٥/٤ ـ طبعة دار الكتب العلمية؛ ومعجم البلدان: أران؛ ومعجم زامباور: ٢٨٢.

(٢) المقعدة والمقعد بمعنى واحد.

إلى بركة ماء بالإسطبل، فأُلقي فيها منكوساً وغمس فيها غير مرة حتى أشرف عَلَى الهلاك، وكان الوقت شتاء شديد البرد. كل ذلك ولم يستجرىء أحد من الأمراء أن يتكلم في أمر الشيخ صفا بكلمة واحدة من نوع الشفاعة لشدّة غضب السلطان. ولقد لازمتُ الملك الأشرف كثيراً من أوائل سلطنته إلى هذا اليوم، ولم أره غضب مثلها قبلها.

ثم طلب السلطان الشيخَ صفا المذكور وحدّثه بكلام طويل، محصوله - يقول لصفا: «إنك تتوجّه إلى شاه رُخ، وتذكُر له ما حلَّ بك من الإخراق والبهدلة والعذاب، وأنه قد ولّاني نيابةَ مصر، إلّا أنا فإني[1] لا أرتضيه شِحنةً[2] لي على بعض قرى أقلّ أعمالي، وإن كان له قوةٌ فهو يُظْهِر ذلك بعد هذا الإخراق بك ويمشي على أعمالنا، وإن لم يأتِ في العام القابل فكلّ ما يأتي منه بعد ذلك فهو من المهملات، ويظهر عجزه وضعف حالته وكثرة فُشاره[3] لكل أحد».

ثم رسم السلطان بإخراجه مع رفقته في البحر المالح إلى مكة، فتوجّهوا وحجُّوا ثم عادوا إلى شاه رخ وبلّغوه ذلك فلم يتحرك بحركة، وهاب ملوكَ مصر بهذه الفعلة إلى أن مات. ولعمري لقد كانت هذه الواقعة من الملك الأشرف حسنة من حسناته التي قامت بفعلتها حرمة العساكر المصرية إلى يوم القيامة.

قلت: ولا أعرف للملك الأشرف فعلة فعلها في أيام سلطنته أحسن ولا أعظم ولا أجمل من إقدامه على هذا الأمر، من ضرب قاصد شاه رُخ وتمزيق خلعته، فإنه خالف في ذلك جميع أمرائه وأرباب دولته، لأن الجميع أشاروا عليه بالمحاسنة في ردّ الجواب، إلّا هو، فإن الله عزّ وجلّ وفّقه إلى ما فعل، ولله الحمد؛ ومن يومئذ عظم أمر الملك الأشرف وتلاشى أمر شاه رُخ في جميع بلاد الإسلام.

---

(١) كذا هي عبارة الأصل. وهي مضطربة، والمراد واضح.

(٢) الشِّحنة في البلد هو متولّي شرطتها.

(٣) الفُشار: الكذب والهذيان. قال في معجم متن اللغة: «وهو عاميّ ليس من كلام العرب، وأصله سرياني فيما أحسب».

ثم خلع السلطان على شيخ الشيوخ بخانقاه سِرْيَاقُوس محبّ الدين محمد بن الأَشْقَر، باستقراره في كتابة السِّر بالديار المصرية عوضاً عن القاضي كمال الدين [ابن] البارِزِي بحكم عزله.

ثم جهز السلطان تجريدة من الأمراء والمماليك السلطانية إلى البلاد الشامية، بسبب ظهور جانِبك الصُّوفي وغيره، وقد بلغ السلطان أن ابن دُلْغادر أطلق جانِبك الصُّوفي.

ثم في حادي عشر [شهر] رجب المذكور قدم الأمير شاد بك الجَكَمي من بلاد أَبُلُسْتَيْن لأخذ جانبك الصُّوفي بغير طائل، بعد أن قاسى شدائد من عظم البرد والمطر والثلوج، حتى إنه هلك من أصحابه جماعة كبيرة من ذلك. وكان من خبر شاد بك أنه لما وصل إلى ناصر الدين بك ابن دُلغادر(١)، تلقاه وأكرمه وأخذ ما معه من الهدية والتحف والمال. ـ قلت: الدورة على هذا لا [على] غيره ـ ثم أخذ ناصر الدين بك ابن دُلغادر يُسوِّفُ بالأمير شاد بك من يوم إلى يوم، إلى أن طال الأمر وظهر لشاد بك أنه لا يمكنه منه، فكلّمه في ذلك فاعتذر ناصر الدين بك بعدم تسليمه من أنه يخاف من أن يعايَر بذلك، وأيضاً مما ورد عليه من كتب شاه رُخ وغيره من ملوك الأقطار بالتوصية عليه وأشياء من هذه المقولة؛ والمقصود: أنه منعه منه، ثم أطلقه وأعاده إلى حاله الأول وأحسن، فعظم ذلك على السلطان إلى الغاية؛ ولم أسأل الأمير شاد بك هل اجتمع بالأمير جانِبك الصُّوفي عند ابن دُلغادر أم لا.

ولما أن عاد شاد بك من عند ابن دُلْغادر(٢) من غير قضاء حاجة، اضطرب الناس، وتحدّث كل أحد بما في نفسه من المغيبات. وكثر قلق السلطان وأخذ

---

(١) هو ناصر الدين محمد بن خليل بن قراجا بن دلغادر (ذولقادر) الساساني. حكم من سنة ٨٠٠ إلى سنة ٨٤٦ هـ. وهو الرابع في سلسلة حكّام بني دلغادر (ذو'لقادر) على إمارة أبلستين ومرعش وعينتاب وغيرها من بلاد الروم بآسيا الصغرى. وقد حكمت هذه الأسرة من سنة ٧٤٠ هـ إلى سنة ٩٢٨ هـ حيث انتقلت تلك المناطق إلى السيادة العثمانية. (معجم زامباور: ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٢) في الأصول: «ابن قرمان» وهو خطأ.

يستحثّ الأمراء المجرّدين في السفر. وأدير محمل الحاج في يوم الاثنين خامس عشرين شهر رجب من غير لعب الرمّاحَة(١) على العادة في كل سنة، لشغل خاطر السلطان.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرين شعبان، برز الأمراء المجرّدون من القاهرة إلى الريدانية خارج القاهرة، وهم: الأمير الكبير جَقْمَق العلائي الناصري الظاهري، والأمير أركماس الظاهري الدوادار، والأمير يشبك السودوني المشد، وهو يومذاك حاجب الحجّاب، والأمير تَنبك البردبكي نائب القلعة كان، والأمير قرا خُجا الحسني، والأمير تَغْري بَردي البَكْلَمُشي المؤذي، والأمير خُجا سُودون السيفي بلاط الأعرج، فأقاموا إلى يوم سابع عشرينه، وسافروا إلى جهة البلاد الشامية. ثم نقل حسن بن أحمد البهسني نائب القدس إلى حجوبية الحجاب بحلب، بسفارة أخيه تَغْري بَرْمَشْ نائب حلب، عوضاً عن الأمير قانصوه النوروزي، بحكم انتقال قانصوه إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق.

ثم في يوم الاثنين سابع شهر رمضان خلع السلطان على الأمير غرس الدين خليل بن شاهين الشيخي المعزول عن نيابة الإسكندرية، باستقراره وزيراً بالديار المصرية، عوضاً عن التاج الخطير الأَسْلَمي.

ثم في يوم الخميس رابع عشرين شهر رمضان قَدِمَ إلى القاهرة الأمير أسلماس بن كبك التركماني مفارقاً لجانِبك الصُّوفي، فأكرمه السلطان وأنعم عليه، ثم خلع عليه في يوم الخميس أول شوّال خلعة السفر ورسم بتجهيزه.

ثم في يوم الخميس ثامن شوّال عزل السلطانُ الوزيرَ خليل بن شاهين

---

(١) جرت العادة عند إدارة المحمل وعرض كسوة الكعبة قبيل السفر إلى الحجاز في موسم الحج من كل سنة أن يقوم فريق من الفرسان الرمّاحة باللعب بالرمح والمبارزة. ويتكوّن هذا الفريق من رئيس يلقب «معلّم الرّماحة» وهو من المقدّمين، ومعه أربعة أعوان من أمراء الطبلخاناه، يلقب الواحد منهم باسم «باش»، ومع هؤلاء أربعون فارساً. وفي هذه المناسبة يلبسون الزيّ الأحمر، وبعد اللعب ينزلون عن خيولهم ويقبّلون الأرض بين يديّ السلطان. ـ انظر بدائع الزهور، ج ٤، ص ٧٢، ٣٩١، طبعة دار الكتب المصرية.

الشيخي عن الوزارة، وألزم الصاحبَ أمين الدين بن الهَيْصَم بشدّ أمور الدولة، ومراجعة عبد الباسط في جميع أحوال الدولة، فمشت الأحوال.

قلت: وهذا كان قصد السلطان أن يلقي الأستادّارِيّة والوزارة في رقبة عبد الباسط، وقد وقع ذلك - انتهى.

ومن يوم ذلك، أخذ عبدُ الباسط يحسّن للسلطان طلبَ الصاحبِ كريم الدين ابن كاتب المناخ وإعادته للوزارة، فيقول له السلطان: «هذا شيء صار يتعلق بك، افعل فيه ما شئت»؛ فكتب في يوم تاسعه بإحضار الصاحب كريم الدين [من بندر جدة على يد نَجّاب بعد فراغ شغله ليَليَ الوزارة.

حدّثني الصاحبُ كريم الدين](١) قال: «كان أولاً إذا كتب إليّ عبد الباسط ورقة في حاجة، يخاطبني فيها مخاطبة ليست بذاك، إلى أن أُضيف إليه التكلّم في الوزارة وطُلبتُ من بندر جدة، فصارت كتبه تأتيني بعبارة عظيمة وتَرَقُّق زائد وتَحَشُّم كبير. فلما أن قدمتُ وعدتُ إلى الوزارة، امتنع مما كان يفعله معي في ولايتي الأولى من الإفراجات التي كان لا يخلو يوم إلاّ ويأتيني شيء منها، فصار في ولايتي هذه كلما قيل له أن يرسل إليّ لأُفرِجَ له عن شيء، يقول: خَلُّوه! يكفيه الذي هو فيه، نحن يجب علينا مساعدته»؛ قلت له: «فكان يساعد؟»، قال: «إي والله! غصباً ومروءة» - انتهى.

ثم في سابع عشرين شوال، كتب بعزل الأمير إينال العلائي الناصري ونائب الرُّها وقدومه إلى القاهرة. وخلع السلطان على الأمير شاد بك الجَكَمي أحد أمراء الطبلخاناه ورأس نوبة ثاني باستقراره في نيابة الرُّها على إقطاعه، عوضاً عن إينال المذكور. وكتب أيضاً بعزل الأمير إينال الششماني الناصري عن نيابة صَفَد، وأن يتوجّه إلى القُدس بطالاً، وأن يستقرّ عوضه في نيابة صفد الأمير تِمْراز المؤيدي أحد مقدّمي الألوف بدمشق.

---

(١) ما بين معقوفين ساقط من طبعة كاليفورنيا. والمثبت من طبعة الهيئة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

ثم في أواخر ذي القعدة قَدِمَ الخبر على السلطان أن شاه رخ بن تيمورلنك رحل عن [حاضرة] مملكة أذربيجان، وهي تِبْريز، بعد أن استناب عليها جهان شاه بن قَرَا يوسف عوضاً عن أخيه إسكندر، وزوّج جِهان شاه المذكور أيضاً بنساء إسكندر المذكور بحكم الشرع، لكون إسكندر كان في عصمته أزيد من ثمانين امرأة.

ونزل شاه رُخْ في أواخر ذي القعدة على مدينة السلطانية، وعزم على أنه لا يرحل عنها إلى ممالكه حتى يبلغ غرضه من إسكندر بن قَرَا يوسف. فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، وأخذ فيما هو فيه من أمر جانِبك الصُّوفي، غير أنه صار في تخوّف من أن يُرْدِفَ شاه رُخ جانِبك الصوفي بعسكر، إذا تمّ أمره من إسكندر.

وأما العسكر المجرّد من مصر وغيرها فإنه لمّا توجّه إلى حلب، سار منها نائبها تَغْري بَرْمَش البَهَسْني بعساكر حلب، وصحبته الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حماه بعساكر حماه، ونزل على عِينْتاب، وقد نزل جانِبك الصُّوفي على مَرْعَش، فتوجّهوا إليه من الدَّرْبند أمام العسكر المصري، ونزلوا على بَزَرْجِق(١) - يعني: سويقة باللغة العربية - ثم عدوا الجسرَ، وقصدوا ناصر الدين بك ابن دُلْغادر نائب أَبُلُسْتَيْن من طريق دَرْبَند كِينُوك، فلم يقدروا على سلوكه لكثرة الثلوج، فمضوا إلى دَرْبَند(٢) آخر من عمل بَهَسْنَا، وساروا منه بعد مشقّة يريدون أبلسْتين، وساروا حتى طرقها تَغْري بَرْمَش المذكور بمَن معه في يوم الثلاثاء تاسع شهر رمضان، فلم يدرك ناصرَ الدين بن دُلْغادر بها، فأمر تَغْري بَرْمَش بنهب أبلسْتين وإحراقها [فنهبت وأُحرقت بأجمعها، ثم أمر العسكر بنهب جميع قراها وإحراقها](٣)

---

(١) ورد هذا الاسم في معجم مزامباور برسم «بازازجيق». وفي دائرة المعارف الإسلامية أن السويقة أو السوق الصغيرة تسمى «بازارچه».

(٢) الدربند: هو المضيق في الجبل، والمدخل بين جبلين. وقد سمّى العرب كل مدخل إلى بلاد الروم باسم الدربند، وجمعوها على الدربندات. وقالوا: بلاد الدروب وبلاد الدربندات، أي بلاد الروم. - انظر صبح الأعشى: ٣٢٢/٥ وما بعدها، طبعة دار الكتب العلمية.

(٣) ما بين معقوفين ساقط من طبعة كاليفورنيا. والزيادة من طبعة الهيئة المصرية.

فنهبوها وأخذوا منها شيئاً كثيراً. ثم عاد نائب حلب بمَن معه والأغنام[١] تُساق بين يديه بعد أن امتلأت أيدي العساكر من النهب، وترك أَبُلُسْتَيْن خراباً قاعاً صفصفاً، وعاد إلى حلب بعد غيبته عنها خمسين يوماً، كل ذلك وأمراء مصر بحلب.

ثم بلغ تَغْري بَرْمَش بعد قدومه إلى حلب أن ناصر الدين بن دُلْغادر نزل بالقرب من كِينُوك فجهز إليه أخاه حسناً حاجب حجاب حلب، وحسن هو الأسَنّ، ومعه مائة وخمسون فارساً إلى عينتاب تقويةً للأمير خُجا سُودون، وقد نزل بها بعد أن انفرد عن العسكر المصري من يوم خرج من الديار المصرية، فتوجّه حسن المذكور بمَن معه إلى خُجَا سُودون وأقام عنده. فلما كان يوم رابع عشرين ذي الحجة من سنة تسع وثلاثين المذكورة، وصل إليهم الأمير جانبك الصُّوفي، ومعه [الأمير] قرمش الأعور، والأمير كَمَشْبَغَا المعروف بأمير عشرة أحد أمراء حلب، وكان توجّه من حلب وانضمّ على جانِبك الصُّوفي قبل تاريخه بمدة طويلة، ومعه أيضاً أولاد ناصر الدين بك ابن دُلْغادر، الجميع ما عدا سليمان، فنزلوا على مرج دُلُوك[٢]، ثم ركبوا وساروا منه إلى قتال خُجا سُودون بعِينْتاب، فركب خُجا سُودون أيضاً بمماليكه وبمَن معه من التركمان والعربان وقاتلهم آخر النهار، وباتوا ليلتهم.

وأصبحوا يوم الثلاثاء خامس عشرين ذي الحجة تقدّم حسن حاجب الحجاب بمَن معه من التركمان والعربان أمام خُجَا سُودون، فتقدّم إليهم جانِبك الصُّوفي بمَن معه، وهم نحو الألفي فارس، فقاتلته العساكر المذكورة وقد تفرّقوا فرقتين: فرقة عليها خُجا سُودون وحسن حاجب الحجاب المقدّم ذكره، وفرقة عليها الأمير تَمُرباي اليوسفي المؤيدي دوادار السلطان بحلب، وتركمان الطاعة في كل فرقة منهما.

وتصادم الفريقان فكانت بينهم وقعة هائلة انكسر فيها جانِبك الصُّوفي، وأُمْسِك الأمير قُرْمُش الأعور، والأمير كَمَشْبَغَا أمير عشرة، وهما كانا جناحي

---

(١) كذا. ولعلّ الصواب «الغنائم» كما في السلوك.

(٢) دلوك: بليدة من نواحي حلب من عمل عينتاب. (معجم البلدان، والدرّ المنتخب: ١٥٧، ١٧٠).

مملكته، وثمانية عشر فارساً من أصحاب جانِبك الصوفي، وانهزم جانِبك في أُناس وتبعهم العساكر فلم يقدروا عليهم فعادوا؛ فأخذ خُجَا سُودون قُرْمُش وكَمَشْبغَا بمَن معهما، وقيّد الجميع وسيَّرهم إلى حلب، وكتب بذلك إلى السلطان. فقدم الخبر على السلطان في صفر من سنة أربعين وثمانمائة، ومع المخبر رأس الأمير قُرْمُش الأعور ورأس الأمير كَمَشْبغَا أمير عشرة، وأنه وسّط مَن قبض معهما بحلب، فشهر الرأسان بالقاهرة، ثم ألقيا في سراب الأقذار بأمر السلطان، ولم يدفنا. ودقّت البشائر لذلك أياماً، وفرح السلطان بذلك، وأرسل إلى نائب حلب وإلى خُجا سُودون بالشكر والثناء. ومن يوم ذاك، أخذ أمر جانِبك الصُّوفي في إدبار، بعد ما كان اجتمع عليه ملوك وخلائق، لقلّة سعده.

قلت: كان جانِبك الصُّوفي خاملاً لا يتحرك بحركة إلاّ وانعكست عليه طول عمره؛ وقد استوعبنا أحواله في تاريخنا «المنهل الصافي»، ويأتي من ذكره هنا أيضاً نبذة في الوفيات وغيرها إن شاء الله تعالى.

ثم في أول شهر ربيع الأول من سنة أربعين المذكورة، رسم السلطان بعزل تِمْراز المؤيدي عن نيابة صفد لسوء سيرته وكثرة ظلمه، ونقله إلى نيابة غزة، عوضاً عن الأمير يونس الرُّكْني؛ ونقل يونس المذكور إلى نيابة صَفَد عوضاً عن تِمْراز المذكور، أعني أن كلاً منهما وَلِيَ عن الآخر، وحمل إليهما التقليدَ والتشريفَ الأميرُ دُولات باي المحمودي الساقي أحدُ أمراء العشرات ورأس نوبة، بسفارة صهره الأمير جانِم الأشرفي الأمير الآخور الكبير.

ثم في يوم الثلاثاء سادس شهر ربيع الأول المذكور، خلع السلطان على الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، بعد قدومه من بندر جُدَّة، باستقراره وزيراً على عادته؛ وكانت شاغرةً من مدة طويلة، ويقوم بمصارفها الزيني عبدُ الباسط بن خليل.

ثم أرسل السلطان يطلب الأمراء المجرّدين إلى الديار المصرية، بعدما أنعم على الأمير الكبير جَقْمَق بألف دينار، وعلى كل مقدّم ألف أيضاً من المجرّدين

بخمسمائة دينار؛ فقَدِموا القاهرةَ في يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من سنة أربعين المذكورة، وطلعوا إلى القلعة وقبلوا الأرض، وخلع السلطان عليهم الخلع السَنِيَّة، وأركبهم خيولاً بقماش ذهب. وتأخر عن الأمراء المذكورين، الأمير خُجَا سُودون، وكانت هذه عادته، إلى أن قَدِمَ في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة من سنة أربعين المذكورة، وطلع إلى القلعة وخلع السلطان عليه وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه زيادة على ما بيده من تقدمة ألف، ثم خلع السلطانُ على القاضي كمال الدين ابن البارِزِي باستقراره قاضي قضاة دمشق، عوضاً عن السراج عمرو بن موسى الحمصي، مسؤولاً في ذلك مرغوباً في ولايته.

ثم في يوم الخميس عاشر شهر رجب من سنة أربعين المذكورة، خلع السلطان على الأمير إينال العلائي الناصري، المعزول عن نيابة الرّها، وهو يوم ذاك من جملة مقدّمي الألوف بالديار المصرية، باستقراره في نيابة صَفَد عوضاً عن الأمير يونس الركني، ورسم بتوجّه يونس المذكور إلى القدس بطالاً. وخلع على الأمير طُوخ من تِمراز المعروف بِيَني بازق[1]، أن يستقر مُسَفِّر الأمير إينال المذكور. ثم في رابع عشر شهر رجب المذكور، أنعم بإقطاع الأمير إينال وتقدمته على الأمير قراجا الأشرفي شادّ الشراب خاناه؛ وأنعم بطبلخانة قراجا علَى الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي الخازندار، وخلع عليه باستقراره شاد الشراب خاناه عوضه أيضاً؛ وخلع السلطان على الأمير السيفي عليّ باي الساقي الخاصكي الأشرفي باستقراره خازنداراً عوضاً عن إينال المذكور.

ثم في يوم الأحد عاشر شهر رمضان عمل السلطان مشورة بالأمراء، لمّا ورد عليه الخبر بأن ناصر الدين بك بن دُلْغادِر ونزيله جانِبك الصوفي زخفا بمَن معهما على بلاد ابن قرمان، فاتفق رأي الجميع على سفر السلطان إلى بلاد الشام. وأخذ الأمراء في أُهبة السفر، ثم انتقض ذلك بعد أيام، وكتب لنوّاب الشام بالمسير إلى

---

(١) يني بازق: لفظة تركية معناها غليظ الرقبة. (الضوء اللامع: ٤/٩).

نحو بلاد ابن قرمان نجدةً لابن قرمان، فإن القوم أخذوا آق شهر[١] ونازلوا قلاعاً أُخر.

ثم في يوم الخميس خامس شوّال خلع السلطان على قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِيني وأُعيد إلى قضاء القضاة بالديار المصرية، عوضاً عن الحافظ شهاب الدين بن حجر.

ثم في يوم الثلاثاء أول ذي القعدة، قَدِمَ سيف الأمير تَمُرْباي اليوسفي المؤيدي دوادار السلطان بحلب؛ وفيه أيضاً قَدِمَ سيفُ الأمير آقْباي اليَشْبكي الجاموس نائب الإسكندرية، بعد موتهما، فخلع السلطان في ثالثه علَى الزيني عبد الرحمن بن علم الدين داؤد بن الكُوَيْز أحد الدوادارية الصغار باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن آقباي اليشبكي بحكم وفاته[٢].

ثم في يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحجة خلع السلطان على الأمير صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، باستقراره كاتبَ السرّ الشريف بالديار المصرية، بعد عزل القاضي محبّ الدين بن الأشقر، مضافاً لما بيده من حسبة القاهرة ونظر دار الضرب ونظر الأوقاف ومنادمة السلطان؛ ونزل في موكب جليل، وقد لبس العمامة المدوّرة والفرجية هيئة أرباب الأقلام وترك زيّ الأجناد، فإنه كان في مبدأ أمره على هيئة الأجناد، وكانت ولايته بغير خاطر عبد الباسط بل على رغم أنفه.

ثم في ليلة الأحد تاسع محرّم سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، بُلِّغ الزيني

(١) آق شهر: مدينة في قلب الأناضول تقوم على سفح سلطان داغ، أي جبل سلطان. ويذكر اسم هذه المدينة في المصادر القديمة باسم «أقشر» و«أخشر» و«أقشهر». وفي الرسم التركي الحديث Aksehir ومعناه المدينة البيضاء. (دائرة المعارف الإسلامية: ٤/١٢٠).

(٢) انفرد الخطيب الجوهري بذكر تولية يوسف بن تغري بردي (المؤلّف) نيابة الإسكندرية بعد وفاة نائبها آقباي اليشبكي. غير أن أبا المحاسن لم يباشر تلك الوظيفة بسبب معارضة الأمير تمرباي الدوادار الثاني وعظيم الدولة القاضي عبد الباسط، فقرّر السلطان النيابة لزين الدين عبد الرحمن بن علم الدين بن الكويز. (نزهة النفوس: ٤/٣٨٤).

عبد الباسط والوزير كريم الدين والقاضي سعد الدين ناظر الخاص بأن المماليك السلطانية على عزم نهب دورهم، فوزّعوا ما عندهم واختفوا، ثم طلعوا إلى الخدمة السلطانية على تخوّف. وقد بلغ السلطانَ ذلك، فأخذ يتوعدهم[١] ويدعو عليهم بالطاعون، فلم يلتفت منهم أحد إلى كلامه، ونزل عدة كبيرة منهم في يوم الأحد سادس عشره إلى دار عبد الباسط وإلى بيت مملوكه جانِبك الأستادّار ودار الوزير كريم الدين، ونهبوا ما وجدوا فيها وأفحشوا إلى الغاية، ولم يعترضوا لأحد في الطرقات خوفاً من العامّة.

ثم في ثاني عشرين المحرّم ورد الخبر على السلطان بأن نائب دَوْرَكي[٢] توجّه في خامس عشر المحرّم، في عدّة نوّاب تلك الجهات وغيرهم في نحو ألفي فارس، وساروا حتى طرقوا بيوت الأمير ناصر الدين بن دُلْغادِر، وقد نزل هو والأمير جانِبك الصوفي بمكان على بُعد يومين من مَرْعَش فنهبوا ما هناك وأحرقوا، ففرّ ابن دلغادر وجانِبك الصُّوفي في نفر قليل، وذلك أن جموعهما كانت مع سليمان بن ناصر الدين بن دُلْغادِر على حصار قَيْصَرِيَّة الروم، فسُرّ السلطان بذلك وأرسل إلى نائب دَوْرَكي بخلعة وشكره. ثم قدم الخبر على السلطان أن الأمير إينال الجَكَمي نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها يريد حلب، وقد سارت جميع نوّاب الشام ليوافوا نائب حلب ويتوجهوا الجميع مدداً لابن قرمان، بعد أن أرسل إينال الجكمي تقدمةً هائلةً للسلطان. ووصلت التقدمة المذكورة إلى القاهرة في يوم السبت سابع صفر المذكور، وهي ذهب نقد عشرة آلاف دينار، وخيول مائتا فرس، منها ثلاثة أرؤس بسروج ذهب وكنابيش[٣] زَرْكَش، وسَمُّور عشرة أبدان، ووَشَق عشرة أبدان، وقاقُم عشرة أبدان، وسنجاب مائة بدن، وبَعلبَكي خمسمائة ثوب،

---

(١) الضمير عائد على المماليك السلطانية.

(٢) دوركي: مدينة إلى الشمال والغرب من حلب، على نحو عشر مراحل منها. وكانت من الأعمال الحلبية الكبار. ويقال فيها أيضاً «دبركي» بإبدال الواو باءً. (صبح الأعشى: ٤/١٣٧).

(٣) الكنبوش والكنفوش: البرذعة تجعل تحت سرج الفرس.

وأقواس حَلْقَة مائة قوس، وجمال بخاتي ثلاث قطر، وجمال عراب ثلاثمائة جمل، وثياب صوف مربّع مائة ثوب.

ثم في يوم السبت خامس شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير خليل بن شاهين الشيخي المعزول عن نيابة الإسكندرية والوزارة قبل تاريخه، باستقراره في نيابة الكَرَك، وسار إليها من وقته.

ثم في يوم السبت تاسع عشر شهر ربيع الأول المذكور من سنة إحدى وأربعين المذكورة، خلع السلطان على الصاحب جمال الدين يوسف ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جَكَم، باستقراره ناظرَ الخاص الشريف بعد موت أخيه القاضي سعد الدين إبراهيم الآتي ذكره في الوفيات إن شاءَ الله تعالى.

ثم في شهر ربيع الآخر كملت عمارة الجامع الذي أنشأه السلطان بخانقاه سِرْيَاقُوس على الدرب المسلوك، وطوله خمسون ذراعاً في عرض خمسين ذراعاً، ورتّب فيه إماماً للصلوات الخمس، وخطيباً وقرّاء يتناوبون القراءة، وأرباب وظائف من المؤذّنين والفرّاشين؛ وجاء الجامع المذكور في غاية الحُسْن، إلاّ أن سقوفه واطئة قليلاً.

ثم في يوم السبت ثالث جمادى الأولى، ركب السلطان من قلعة الجبل إلى الصيد، بعدما شقّ القاهرة، وخرج من باب القنطرة؛ وهذه أول ركبة ركبها للصيد في هذه السنة، وتداول ذلك منه في هذا الشهر غير مرة.

وفيه قدم الأمير تِمْراز المؤيّدي نائب غزة والسلطان يتصيد. وعاد السلطان في خامسه وشقّ القاهرة حتى خرج من باب زُوَيلة ومضى إلى القلعة. ثم أصبح من الغد أمسك تِمْراز المؤيدي المذكور وقيّده وأرسله إلى سجن الإسكندرية فسجن بها، وذلك لسوء سيرته ولِكَمِين كان عنده من الملك الأشرف، فإن تمراز هذا كان ممّن ركب مع الأمير تَنِبَك البَجَاسي نائب الشام، ثم اختفى وظهر وأنعم عليه السلطان بإقطاع دمشق، ثم نقله إلى إمرةِ مائةٍ بعد سَفرة آمِد لشجاعة ظهرت منه

في قتال القَرَايُلُكية، ثم نقله إلى نيابة صَفَد فلم تُحمد سيرته فعزله وولّاه نيابة غَزة، فشُكي منه أيضاً ورُمِي بعظائم فطلبه وأُمسكه ثم قتله بعد مدة. فكان ما عاشه من يوم واقعة البَجَاسي ليوم تاريخه فائدة.

ولما أن أمسك السلطانُ تمرازَ استدعى الأميرَ جَرِبَاش الكريمي قاشق من ثغر دمياط ليولّيه نيابة غزة، فقدم [جَرِباش وامتنع عن نيابة غزة](١) فرسم له بالعود إلى الثغر بطالاً كما كان أولاً. ثم في سابع عشره خلع السلطان على الأمير آقْ بَرْدي السيفي قَجْمَاس أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة غزة عوضاً عن تمراز المذكور، بمال بذله في ذلك.

وقدم الخبر على السلطان بموت جانِبك الصوفي؛ واختلفت الأقاويل في أمره إلى أن كان يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين المذكورة، قدم [مملوكُ](٢) تَغْرِي بَرْمَش نائب حلب إلى القاهرة برأس الأمير جانِبك الصوفي، فدُقّت البشائر لذلك وسُرَّ السلطانُ غاية السرور بموته ولهجت الناس أن السلطان تمّ سعدُه؛ وقد قيل: [المتقارب]

إذا تَـمَّ أمـرٌ بـدا نَـقْـصُـهُ   تَـوَقَّ زوالاً إذا قِـيـل تَـمّ

فأمر السلطان بالرأس فطيف بها على رمح بشوارع القاهرة، والمَشَاعِليّ(٣) ينادي عليها: «هذا جزاء مَن يخالف على الملوك ويخرج عن الطاعة!»، ثم ألقيت في قناة سراب.

وكان من خبر موت جانِبك الصوفي المذكور أنه لما كَبَس عليه وعلى ابن دُلْغادِر نائب دوركي، في محرّم هذه السنة كما تقدّم، وانكسر هو وابن دلغادر، فمقته ابن دُلغادر وافترقا من يومئذ. فسار ابن دلغادر على وجهه يريد بلاد الروم، وقد تشتّت

---

(١) زيادة عن طبعة الهيئة المصرية.

(٢) زيادة عن طبعة الهيئة المصرية والسلوك.

(٣) المشاعلي: هو الجلّاد. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

شمله، وقصد جانِبك الصوفي أولادَ قَرَايُلك: محمداً ومحموداً، وقدم عليهما فأكرماه وأنزلاه عندهما. فأخذ تَغْرِي بَرْمَش نائب حلب يُدَبِّر عليه بكل ما تصل القدرة إليه، ولا زال حتى استمالهما، أعني محمداً ومحموداً ابني قَرَايُلك، ووعدهما بجملة مال إن قبضا على جانِبك المذكور، [يحمل إليهما خمسة آلاف دينار، فمالا إليه ووعداه أن يقبضا على جانِبك المذكور][١]، فعلم جانِبك بالخبر فشاور أصحابه في ذلك فأشاروا عليه بالفرار إلى جهة من الجهات، فبادر جانِبك وخرج من عندهما ومعه عشرون فارساً من أصحابه لينجو بنفسه. وبلغ ذلك القَرَايُلُكية، فركبوا وأدركوه، فقاتلهم، فأصابه سهم سقط منه عن فرسه، فأخذوه وسجنوه عندهم، وذلك في يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فمات من الغد فقُطع رأسه وحمل إلى السلطان، فهذا القول هو المشهور.

وقيل إن جانِبك الصُّوفي مات بالطاعون عند أولاد قَرَايُلك بعد أن أوعدهما تَغْري بَرْمَش بالمال المقدّم ذكره، ولم يقبلا منه ذلك واستمرّا على إكرامه. فلما مات جانِبك الصوفي بالطاعون أخفيا ذلك وقطعا رأسه وبعثا بها إلى تَغْرِي بَرْمَش. قلت: والقول الأول هو المتداول بين الناس. ويأتي بقية ذكر جانِبك الصُّوفي في الوفيات من هذا الكتاب في محلّه إن شاء الله تعالى.

قال المقريزي، بعد أن ساق نحو ما حكيناه بالمعنى، واللفظ مخالف: وحُملت إليه الرأس ـ يعني عن الملك الأشرف ـ فكاد يطير فرحاً وظن أنه قد أمن، فأجرى الله على الألسنة أنه قد انقضت أيامه وزالت دولته، فكان كذلك هذا. وقد قابل نِعم الله عليه في كفاية عدوّه بأن تزايد عتوُّه وكثر ظلمه وساءت سيرته فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وعاجله بنقمته فلم يُهَنِّه ـ انتهى كلام المقريزي.

قلت: وما عسى الملكُ الأشرفُ كان يظلم في تلك المدة القصيرة؟ فإن خبر جانِبك الصُّوفي ورد عليه في سابع عشر جمادى الأولى، وابتدأ بالسلطان مرضُ موته من أوائل شعبان، ولزم الفراش من اليوم المذكور، وهو ينصل ثم ينتكس إلى أن مات

(١) زيادة عن طبعة الهيئة المصرية.

في ذي الحجة. غير أن الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله كان له انخراقات معروفة عنه، وهو معذور في ذلك، فإنه أَحد مَن أدركنا من أرباب الكمالات في فنّه ومؤرّخ زمانه، لا يُدانيه في ذلك أحد، مع معرفتي بمَن عاصره من مؤرّخي العلماء؛ ومع هذا كله كان مَبْعُوداً في الدولة، لا يُدْنِيه السلطان مع حُسْن محاضرته وحلو منادمته. على أن الملك الظاهر برقوق كان قرّبه ونادمه وولّاه حسبةَ القاهرة في أواخر دولته، ومات الملك الظاهر فلم يَمْش حالُه على مَن جاء بعدَه من الملوك وأبعدوه من غير إحسان؛ فأخذ هو أيضاً في ضبط مساوئهم وقبائحهم، فمَن أساء لا يستوحش. على أنه كان ثقة في نفسه ديّناً خيّراً؛ وقد قيل لبعض الشعراء: إلى متى تمدح وتهجو؟ فقال: ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء ـ انتهى[1].

ثم في يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة ورد الخبر على السلطان بأن إسكندر بن قَرَا يوسف، نزل قريباً من مدينة تِبْريز، فبرز إليه أخوه جهان شاه بن قرا يوسف المقيم بها من قِبل شاه رُخ بن تَيْمُورلنك، فكانت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها إسكندر إلى قلعة أَلِنْجا من عمر تِبْريز، فنازلها جهان شاه إلى أن حصره بها أياماً، وأن الأمير حمزة بن قَرَايُلُك متملِّك ماردين وأَرْزَن أخرج أخاه علي بك من مدينة آمِد وملكها منه. فقلق السلطان من هذين الخبرين، وعزم على أن يسافر بنفسه إلى البلاد الشامية، وكتب بتجهيز الإقامات بالشام، ثم أبطل ذلك بعد أيام. ورسم في يوم السبت سابع شهر رجب بخروج تجريدة من الأمراء إلى البلاد الشامية، وعيّن ثمانية نفر من الأمراء مقدّمي الألوف: وهم قَرْقَمَاس أمير سلاح، وأَقْبُغَا التَّمْرازي أمير مجلس، وأَرْكَمَاس الظاهري الدوادار الكبير، وتِمْراز القُرْمُشي رأس نوبة النوب، ويَشْبَك السُّودوني حاجب الحجاب، وجانِم الأشرفي الأمير آخور الكبير، وخُجَا سُودون وقَرَاجا الأشرفي.

---

(١) من الواضح أن دفاع أبي المحاسن عن الأشرف برسباي جاء ضعيفاً، كما أن اتّهامه للمقريزي بالانحراف عن الموضوعية لأسباب ذاتية قد جاء أيضاً غير منصف، ذلك أن ما سنراه من سلوك الأشرف برسباي يؤيّد ما ذهب إليه المقريزي. ـ انظر على سبيل المثال ص ٢٧٥ من هذا الجزء، والحاشية (٢) من نفس الصفحة.

ثم في يوم الاثنين تاسع شهر رجب نودي بأن أحداً من العبيد لا يحمل سلاحاً ولا يمشي بعد المغرب، وأن المماليك السلطانية لا يتعرّض لأحد من العبيد. وكان سبب هذه المناداة أنه لمّا أُدير المحمل في يوم الخميس خامس شهر رجب المذكور، فلما كان أول ليلة من الزينة نزل جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية الذين بالأطباق من قلعة الجبل وأخذوا في نهب الناس وخطف النساء والصبيان[1]، فاجتمع عدد كبير من العبيد السود وقاتلوا المماليكَ الأجلاب، فقُتل من العبيد خمسةُ نفر وجُرح عدّة من المماليك، وخطفت العمائم وأخذت الأمتعة. ثم أخذت المماليكُ تتبّع العبيد فقتلوا منهم جماعة، وقد كَفّت العبيدُ أيديهم عن قتالهم خوفاً من السلطنة، واختفى كثير من العبيد، وقَلَّ مَشْيُ المماليك في الليل إلى أن نودي لهم بهذه المناداة، فسكن الشرّ، ومشى كُلٌّ من الطائفتين على حاله الأول. ثم رسم السلطان بمنع المماليك من النزول من الأطباق إلى القاهرة إلّا لضرورة.

ثم في عاشر شهر رجب أنفق السلطان على الأمراء المجرَّدين لكل أمير ألفي دينار أشرَفِية.

ثم في يوم الأربعاء ثامن عشره ركب السلطان من قلعة الجبل، ونزل إلى خليج الزَّعْفَران فنزل به وأكل السماط، ثم ركب في يومه وعاد إلى القلعة، فأصبح من الغد متوعكَ البدن ساقطَ الشهوة للغداء، ولزم الفراش؛ وهذا أوائل مرضه الذي مات منه؛ غير أنه تعافى بعض أيام، ثم مرض ثم تعافى حسبما يأتي ذكره.

وورد الخبر فيه بوقوع الوباء في بلاد الصعيد[2].

واستهلّ شعبانُ يوم الاثنين والسلطانُ مريض، فأخرج فيه مالاً وفرّقه على الفقراء والمساكين. فلما كان يوم الثلاثاء تاسعه تعافى السلطان وخلع على الأطباء

---

(١) قال المقريزي: «. . . وذلك أن مماليك السلطان نشؤوا على مقت السلطان لرعيته، مع ما عندهم من بغض الناس». ـ انظر السلوك: ١٠٢٦/٤.

(٢) ذكر المقريزي أن هذا الوباء وقع أيضاً بدمشق وحلب واستمر في شهري رجب وشعبان وأوقع الكثير من الضحايا. وذكر تفصيلات أخرى وافية يحسن الرجوع إليها. ـ انظر السلوك: ١٠٢٧/٤.

لعافيته، وركب من الغد ونزل من القلعة إلى القرافة وتصدّق على أهل القرافتين[١]، وعاد وهو غير صحيح البدن.

ثم في يوم السبت ثالث عشر شعبان المذكور، نـزل السلطان من القلعة إلى خارج القاهرة، وعاد ودخل من باب النصر، ثم نزل بالجامع الحاكمي، وقد قيل له إنّ بالجامع المذكور دعامة قد ملئت ذهباً، ملأها الحاكم بأمر الله لمعنى أنه إذا خَرِب يُعَمَّر بما في تلك الدعامة. فلما بلغ الملكَ الأشرف ذلك شرهت نفسه لأخذ المال المذكور، فقيل له إنك تحتاج إلى هدم جميع الدعائم التي بالجامع المذكـور حتى تظفر بتلك الدعامة المذكورة، ثم لا بدّ لك من عمارتها، ويُصْرَف على عمارتها جملة كثيرة لا تدخل تحت حصر، فقال السلطان ما معناه: «إن الذي نأخذه من الـدعامـة يُصرف على عمارة ما نهدمـه، ولا ينوبنـا غير تعب السـرّ»؛ وركب فرسـه وعاد إلى القلعة.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين شعبان المذكور برز الأمير قَـرْقَماس أميـر سلاح، وقد صار مقدّم العساكر، وصُحبتُه مَن تقدّم ذكره من الأمراء، إلى الريدانيـة خارج القاهرة من غير أن يرافقهم في هذه التجريدة أحـد من المماليـك السلطانية، فأقاموا بالريدانية إلى أن سافـروا منها في يـوم السبت سابـع عشرين شعبـان؛ وهذه التجريدة آخرُ تجريدة جرّدها الملك الأشرف من الأمراء. وكتب السلطان إلى الأمير إينال الجَكَمي نائب الشام وغيره من النوّاب أن يسافروا صُحبةَ الأمراء المذكورين إلى حلب، ويستدعوا حمزة بك بن قَرَايُلك إلى عندهم، فإن قَدِمَ عليهم خلع عليه بنيابة السلطنـة فيما يليـه من أعمال ديـار بكر، وإن لم يقـدم عليهم مشوا عليـه بأجمعهم وقاتلوه حتى أخذوه. قلت: [الطويل]

أيَـا دارَهـا بـالخَيْفِ إنّ مـزارَهـا قـريـبٌ ولـكـنْ بـيـن ذلك أهْوالُ

ثم قَدِمَ الخبرُ على السلطان بأن محمد بن قرايُلك توجّـه إلى أخيه حمـزة بك

---

(١) المراد بالقرافتين تلك التي في سفح جبل المقطّم وهي القرافة الصغرى، والتي في شرقي مصر (الفسطاط) بجوار المساكن وهي الكبرى. والقرافة هي مقبرة أهل مصر. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٤٢ ـ ٤٤٥).

المقدّم ذكره، باستدعائه، وقد حقد عليه حمزةُ قتلَه لـلأمير جـانِبك الصـوفي. فإن حمزة لمّا بلغه نزول جانِبك الصوفي على أخويه محمد ومحمود وكتب في الحال إلى أخيه محمد هذا بأن يبعث بالأمير جانِبك الصُوفي إليه مكرّماً مبجّلاً، أراد حمزة [أن] يأخذ جانِبك إلى عنده ليخوّف به الملك الأشرف، فمال محمد إلى ما وعد به تَغْري بَرْمَش نائبَ حلب وقتل جانِبك الصُوفي وبعث برأسه إليه، فأسرَّها حمزةُ في نفسه، وما زال يعد أخاه المذكور ويمنِّيه إلى أن قَدِمَ عليه، وفي ظن محمد أن أخاه حمـزة يولِّيه بعضَ بلاده، فما هو إلاّ أن صار في قبضته قَتَلَه في الحال.

قلت: هـذا شأن البـاغي، الجزاء من جنس عمله؛ وذلـك أنه مِثْـل مـا فَعَـل بجانِبك الصوفي فُعل به - انتهى.

ثم في يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ظهر الطاعون بالقاهرة وظواهرها، وأول ما بدأ في الأطفال والإماء والعبيد والمماليك. وكان الطاعون أيضاً قد عمَّ البلاد الشامية بأسرها.

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشرين شهر رمضان المذكور خُتمت قراءةُ البخاري بين يـدي السلطان بقلعة الجبـل، وقد حضـر قضاةُ القضـاة والعلماء والفقهـاء على العادة؛ هذا وقد تخوّف السلطان من الوباء، فسأل مَن حضر من الفقهاء عن الذنوب التي ترتكبها الناس، هل يعاقبهم الله بالطاعون؟ فقال له بعض الجماعة: إن الزنا إذا فشـا في الناس ظهـر فيهم الطاعـون، وإن النساء يتـزيّنّ ويمشين في الطرقـات ليلاً ونهاراً؛ فأشار آخر أن المصلحةَ منعُ النساء من المشي في الأسواق، فنازعه آخر فقال: لا تُمنَع إلاّ المتبهرجات، وأما العجـائز ومَن ليس لهـا مَن يقوم بـأمرهـا لا تمنع مِن تعاطِي حاجتها. وتباحثوا في ذلك بحثاً كبيراً، إلى أن مـال السلطان إلى منعهنّ من الخروج إلى الطرقات مطلقاً، ظنّاً من السلطان أن بمنعهنّ يرتفع الطاعون. ثم خلع السلطان على مَن له عادة بلبس الخلعة عند خَتْم البخاري[1].

(١) جرت عادة سلاطين المماليك منذ أيام المؤيد شيخ المحمودي على الاحتفال بختم صحيح البخاري في القلعة كل ثلاثة شهور، وذلك بحضور القضاة الأربعة ومشايخ العلم وجماعة من الطلبة. وفي هذا الاحتفال يخلع =

ثم أمرهم باجتماعهم عنده من الغد، فاجتمعوا يوم الخميس واتفقوا على ما مال إليه السلطان؛ فنودي بالقاهرة ومصر وظواهرهما بمنع جميع النساء بأسرهنّ من الخروج من بيوتهنّ، وأن لا تمرّ امرأة في شارع ولا في سوق البتّة، وتُهدَّد مَن خرجت من بيتها بالقتل وأنواع البهدلة، فامتنع جميع النساء من الخروج قاطبة، فتياتهنّ وعجائزهنّ وإمائهنّ من الخروج إلى الطرقات. وأخذ والي القاهرة والحجّاب في تتبّع الطرقات وضرْب مَن وجدوا من النساء، وتشدّدوا في الرّدع والضرب والتهديد، فامتنعن بأجمعهنّ؛ فعند ذلك نزل بالأرامل أرباب الصنائع [ومَن لا يقوم عليها أحد لقضاء حاجتها ومَن تطوّف على الأبواب تسأل الناس](١) من الضرّ والحاجة، بأس شديد.

ثم في يوم السبت سادس عشرينه أفرج السلطانُ عن جميع المسجونين حتى أرباب الجرائم، وأغلقت السجون بالقاهرة ومصر، وانتشرت السرّاقُ والمفسدون في البلد، وامتنع مَن له عند شخص حق أن يطالبه.

قلت: كان حال الملك الأشرف في هذه الحركة كقول القائل: [الخفيف]

رامَ نَفْعاً فضرَّ مِن غير قصدٍ ... ومِنَ البِرِّ ما يكونُ عقُوقا

ثم في سابعِ عشرينه عزم السلطانُ على أن يولي الحسبةَ لرجل ناهض، فذُكر له جماعة فلم يرضهم، ثم قال: «عندي واحد ليس بمسلم، ولا يخاف الله»(٢)، وأمر

= السلطان على القضاة ومشايخ العلم، كما تفرّق الصرُّر على الفقهاء. وأشار المقريزي إلى أن هذا العمل قد أصبح مع تمادي الأيام «منكراً في صورة معروف، ومعصية في زيّ طاعة. وذلك أنه يتصدّى للقراءة مَن لا عهد له بممارسة العلم، ولكنه يصحّف ما يقرأه، فيكثر مع ذلك لحنه وتصحيفه وخطأه وتحريفه. هذا ومَن حضر لا ينصتون لسماعه، بل دأبهم دائماً أن يأخذوا في البحث عن مسألة يطول صياحهم فيها حتى يفضي بهم الحال إلى الإساءات التي تؤول إلى أشدّ العداوات. وربما كفّر بعضهم بعضاً، وصاروا ضحكة لمن عساه يحضرهم من الأمراء والمماليك». ـ انظر السلوك: ١٠٣١/٤، وزبدة كشف الممالك: ٩٠ ـ ٩٢.

(١) الزيادة عن طبعة الهيئة المصرية، وعن السلوك بالمعنى.

(٢) هذا يؤيّد ما ذهبنا إليه في الحاشية (١) ص٢٧١ من هذا الجزء. ذلك أن هذا الإجراء الذي اتخذه السلطان برسباي يخالف الأحكام الشرعية نصّاً وروحاً؛ فوظيفة الحسبة هي من الوظائف التطبيقية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهدف منها انتظام أمور الناس في المعايش والمعاملات والسلوك العام،

فأُحضر إليه دُولات خُجَا الظاهري [برقوق] المعزول عن ولاية القاهرة قبل تاريخه غير مرة، فخلع عليه باستقراره في حسبة القاهرة عوضاً عن القاضي صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين بن نصر الله كاتب السرّ بحكم عزله، وكان رغبة السلطان في ولاية دُولات خُجا هذا بسبب النساء، لما يعلم من شدّته وقلّة رحمته وجبروته.

وعندما خلع عليه حرّضه على عدم إخراج النسوة إلى الطرقات؛ هذا بعد أن تكلم جماعة كبيرة من أرباب الدولة مع السلطان بسبب ما حلّ بالنسوة من الضرر لعدم خروجهنّ، فأمر السلطان عند ذلك فنُودي بخروج الإماء لشراء حوائج مواليهنّ من الأسواق، وأن لا تنتقب واحدة منهنّ بل يكنّ سافرات عن وجوههنّ، قصد بذلك حتى لا تتنكر إحداهنّ في صفة الجواري وتخرج إلى الأسواق، وأن تخرج العجائز لقضاء أشغالهنّ، وأن تخرج النساء إلى الحمّامات ولا يقمن بها إلى الليل. وصار دُولات خُجَا يشدّد على النسوة، وعاقب منهنّ جماعة كبيرة حتى انكفّ الجميع عن الخروج البتّة.

وأهلّ شوّال يوم الخميس وقد حلّ بالناس من الأنكاد والضرر ما لا يوصف من تزايد الطاعون، وتعطّل كثير من البضائع المُبتاعة على النسوة لامتناعهنّ من المشي في الطرقات، وأيضاً مما نزل بالنسوة من موت أولادهنّ وأقاربهنّ، فصارت المرأة يموت ولدها فلا تستطيع أن ترى قبره خوفاً من الخروج إلى الطرقات، ويموت أعزّ أقاربها من غير أن تزوره في مرضه، فشقّ ذلك عليهنّ إلى الغاية، هذا مع تزايد الطاعون.

قلت: كل ذلك لعدم أهلية الحكّام واستحسان الولاة على الخواطىء، وإلاّ

= والضرب على أيدي المفسدين في شتى الأحوال والمجالات. وإذا كان الأمر كذلك فإن من شروط المحتسب أن يكون فقيهاً مسلماً عارفاً بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهى عنه. كما عليه أن يكون من وجوه المسلمين وأعيان المعدّلين المعروفين بالورع والتقوى ومخافة الله في أمور المسلمين. (انظر نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري: الباب الأول؛ وخطط المقريزي: ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤، وصبح الأعشى: ٣/٤٨٣ و٤/٣٧ و٥/٤٥١).

فالحرّة معروفة ولو كانت في الخَمَّارة، والفاجرة معروفة ولو كانت في البيت الحرام، ولا يخفى ذلك على الذوق السليم؛ غير أن هذا كله وأمثاله لولاية المناصب غير أهلها، وأما الحاكم النحرير الحاذق الفطن إذا قام بأمر نهض به وتتبّع الماء من مجاريه، وأخذ ما هو بصدده حتى أزاله في أسرع وقت وأهون حال، ولا يحتاج ذلك إلى بعض ما الناس فيه، وهو ذهاب الصالح بالطالح والبريء مع المجرم، وتحكّم مثل هذا الجاهل في المسلمين الذي هو من مقولة مَن قال: [الطويل]

ولَوْ شا رَبُّكَ لَخَصَّهُمْ بثلاثة ... قُرونٍ وأذْنابٍ وشَقٍّ حوافِر

وما أحسن قول أبي الطيب المتنبي في هذا المعنى: [الطويل]

ووضْعُ النَّدى في موضع السيف بالعُلا ... مُضِرٌّ كوضْعِ السيفِ في موضِع النَّدى

انتهى.

كل ذلك والسلطانُ شهوتُه ضعيفة عن الأكل، ولونه مصفر، وآثار المرض تلوح على وجهه، غير أنه يتجلّد كقول القائل: [الكامل]

وتَجلُّدِي للشامتين أُرِيهِمُ ... أنّي لِريْبِ الدَّهر لا أَتَضَعْضَعُ

ثم في هذا اليوم خلع السلطان على الأمير أَسَنْبُغَا [بن عبد الله الناصري](١) الطيَّاري باستقراره حاجباً ثانياً، عوضاً عن الأمير جانِبك السيفي يَلْبُغَا الناصري المعروف بالثور، بحكم وفاته بمكة المشرَّفة في حادي عشر شعبان.

ثم في يوم الثلاثاء سادس شوّال المذكور، خلع السلطان على قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر، وأُعيد إلى القضاء بعد عزل القاضي علم الدين صالح البُلْقِيني، بعد أن ألزم أنه يقوم لعلم الدين صالح المذكور بما حمله إلى الخزانة الشريفة، وقد بدا للسلطان أنه لا يولّي بعد ذلك أحداً من القضاة بمال، مما داخله من الوهم بسبب عظم الطاعون وأيضاً لمرضٍ تمادى به.

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي للمؤلف.

وفيه ركب السلطان من قلعة الجبل ونزل إلى خليج الزعفران وأقام به يومَه في مخيَّمه يتنزّه، ثم ركب وعاد إلى القلعة في آخر النهار بعد أن تصدّق على الفقراء بمال كثير، فتكاثرت الفقراء على متولّي الصدقة وجذبوه حتى أرموه عن فرسه، فغضب السلطانُ من ذلك وطلب سلطانَ الحرافيش[1] وشيخَ الطوائف[2] وألزمهما

---

(١) سلطان الحرافيش: وسمّي أيضاً شيخ الحرافيش. وقد أُطلقت هذه التسمية في العصر المملوكي على جماعة من الفقراء والمشرّدين والمتسولين. والحرفوش في اللغة هو الجافي الغليظ المتهيىء للشرّ والسافل من الناس. واحرنفشت الرجال إذا صارع بعضهم بعضاً، واحرنفش الديك إذا تهيّأ للقتال. وقد أُطلقت تسمية الحرافيش في العصر الأيوبي على جماعة من المطوّعة لها قياداتها الخاصة تتقدّم الجيش النظامي في الجهاد والغزو دون أن تكون جزءاً أساسياً منه، ولهذه الجماعة حصتها من الغنائم التي تقع يدها عليها. وقد سُمّوا أيضاً في ذلك الوقت باسم حرافيش المسلمين. وهؤلاء الحرافيش أخذوا يفقدون تدريجياً دورهم القتالي بعد زوال الدولة الأيوبية، وانضموا إلى جموع العاطلين والعوام الذين كانت القاهرة تكتظّ بهم مع بداية العصر المملوكي. وانضمّ أغلبهم إلى الخوانق والربط والزوايا الصوفية التي أكثر منها المماليك، ولذلك اقترن اسم الحرافيش بالصوفيّة أو الفقراء لغةً واصطلاحاً، واحترف أكثرهم التسوّل حتى كان ينادى في شوارع القاهرة: «أي حرفوش شحت صُلب»، وذلك حرصاً من المماليك على هيبة هذه الجماعة المتصوّفة من الفقراء واستقطابهم لها لأنهم كانوا يشكّلون ثقلاً اجتماعياً تخشاه الدولة وتحاول استعمالهم في كثير من الأحيان لأغراضها الشخصية. ويقول السبكي في «معيد النعم» حول انتشار ظاهرة الاستجداء بين الحرافيش ما نصّه: «وكثير من الحرافيش اتخذ السؤال صنعة، فيسألون عن غير حاجة، ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون ولا يدخلون للصلاة معهم». وهذه الطائفة من الحرافيش (الحرافشة) بعد أن تفقد دورها العسكري ويضعف شأنها الصوفي سوف تتحوّل في العصر العثماني إلى فئة من المتسولين وتسمى طائفتهم حينئذ بطائفة الشحّاذين وتتخذ شكل نقابة لها شيخ أو كبير هو «كبيرهم شيخ الشحّاتين» على حدّ تعبير الجبرتي الذي يؤكد أن أعدادهم كانت هائلة ومريعة في عصره. وآخر دور شبه عسكري لعبه الحرافيش كان أثناء دخول الحملة الفرنسية مصر، إذ انخرطوا في سلك المقاومة الشعبية إلى جانب الأمراء المماليك دفاعاً عن مصر... وفي الوقت الذي عجز فيه المماليك عن نقل المدافع من داخل القاهرة إلى خارجها حيث معسكرات المقاومة، تطوّع «جمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال، ولهم صياح ونباح وتحارب بكلمات مثل قولهم: الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمّان ـ وهو لقب سافر أطلقوه على قائد الحملة الفرنساوية» الأمر الذي يذكرنا بدور العامّة من الشطّار والعيّارين في بغداد والشام. (انظر حكايات الشطّار والعيّارين في التراث العربي: ١٨٠ ـ ١٨٨).

(٢) شيخ الطوائف: هو شيخ جماعات أو نقابات أرباب الحِرَف والصنائع، مثل طائفة الخضرية، وطائفة الجزّارين، وغيرهما من طوائف صنّاع المواد الغذائية. وكان لا بدّ لكل نقابة من «طريقة» صوفية لها طقوسها الخاصة تضمّ أبناءها وتميّزهم عن غيرهم وتحقّق لهم نوعاً من الحماية والتكتّل، ومن هنا سمّي رئيس الطائفة شيخاً لارتباط زعامته بالطرق الصوفية. ومع تدهور أحوال هذه الطوائف من الناحية الاقتصادية فقد =

بمنع الجُعَيْدِيَّة[١] من السؤال في الطرقات، وألزمهم بالتكسّب[٢]، وأن مَن يشحذ منهم قبض عليه وأخرج لعمل الحفير[٣]. فامتنعوا من الشحاذة، وخلت الطرقات، ولم يبق من السُّؤّال إلّا العميان والزَّمْنَى[٤] وأرباب العاهات.

قلت: وكان هذا من أكبر المصالح، وعُدّ ذلك من حُسن نظر الملك الأشرف في أحوال الرعيّة، فإن هؤلاء الجُعَيْدِيَّة غالبهم قويّ سويّ صاحب صنعة في يده، فيتركها ويشارك ذوي العاهات الذين لا كسب لهم إلّا السؤال ولولا ذلك لماتوا جوعاً، وأيضاً أن غالبهم يجلس بالشوارع ويتمنّى، ثم يقسم على الناس بالأنبياء والصلحاء وهو يتضجر من قسوة قلوب الناس ويقول: لي مقدار كيت وكيت باقول في حب رسول الله أعطوني هذا النزر اليسير فلم يعطني أحد. ويُجتاز به وهو يقول: «ذلك اليهودي والنصراني!»، فيسمعون لمقالته في هذا المعنى. وهذا من المنكرات التي لا ترتضيها الحكّام، وكان من شأنهم أنهم إذا سمعوا هذا القول أخذوا القائل وأوجعوه بالضرب والحبس والمناداة على الفقراء بعدم التقسيم في سؤالهم[٥]، والتحجّر عليهم بسبب ذلك فلم يلتفت أحد منهم إلى ذلك، حتى ظهر للسلطان بعض ما هم عليه في هذه المرة فمنعهم، فما كان أحسن هذا لو دام واستمر ـ انتهى.

= انضمّوا إلى جماعات الحرافيش والزعّار والغوغاء، وما إلى ذلك من الصفات التي أطلقها المؤرّخون عليهم، وامتهنوا الاستجداء. وكانت هذه الطوائف الشعبية تقطن الأحياء الدّنيا التي كانت تقع على تخوم القاهرة مثل: الحسينية وبولاق وباب الشعرية ومصر القديمة. ثم كان لهذه الأحياء حُماتها من أبنائها عُرفوا باسم «عسكر الأحياء»، ثم أطلق على بقاياهم فيما بعد اسم «الفتوّات». (المرجع السابق: ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(١) الجعيدية بلغة ذلك العصر تعني السَّفْلَة. وقد أُطلقت دون تمييز على جماعات من الطبقات الدّنيا من العامّة الفقراء الذين كانوا يتعاطون الاستجداء واللصوصية وما إلى ذلك من الأعمال. وإلى جانب تسمية «الجعيدية» فقد أُطلق عليهم أيضاً تسميات أخرى مثل: السفل، والأوباش، والحشرات، وعجائب المخلوقات، وزعر الحارات البرانية... (المرجع السابق: ٢٠١ ـ ٢١٠).

(٢) أي بكسب عيشهم عن طريق العمل.

(٣) أي أعمال السخرة في حفر الترع وترميم الجسور وغيرها من أعمال صيانة مجاري الريّ.

(٤) هم أصحاب العاهات والأمراض المزمنة.

(٥) المراد نهي الفقراء عن القَسْم على الناس عند سؤالهم، والحَجْر على مَن يفعل ذلك منهم.

كل ذلك والسلطان يتشاغل بركوبه وتنزّهه مما به من التوعّك وهو لا يظهره.
فلما كان يوم الأربعاء سابع شوّال انتكس السلطان ولزِم الفراش. كل ذلك ودُولات خُجَا محتسبُ القاهرة يتتبّع النسوة ويردعهنّ بالعذاب والنكال، حتى إنه ظفر مرة بامرأة وأراد أن يضربها فذهب عقلها من الخوف وتلفتْ وحُملتْ إلى بيتها مجنونة، وتمّ بها ذلك أشهراً؛ وامرأة أخرى أرادت أن تخرج خلف جنازة ولدها فمنعت من ذلك فأرمت بنفسها من أعلى الدار فماتت.

ثم في يوم الجمعة تاسع شوّال اتفق حادثة غريبة، وهو أن العامّة لهجت بأن الناس يموتون يوم الجمعة بأجمعهم قاطبة وتقوم القيامة، فتخوَّف غالب العامّة من ذلك. فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة المذكور حضر الناس إلى الصلاة، وركبت أنا أيضاً إلى جامع الأزهر، والناس تزدحم على الحمّامات ليموتوا على طهارة كاملة؛ فوصلتُ إلى الجامع وجلست به، وأذّن المؤذّنون، ثم خرج الخطيب على العادة ورقي المنبر، وخطب وأسمع الناس إلى أن فرغ من الخطبة الأولى، وجلس للاستراحة بين الخطبتين، فطال جلوسه ساعة كبيرة، فتقلّق الناس إلى أن قام وبدأ في الخطبة الثانية؛ وقبل أن يتمّ كلامه قعد ثانياً واستند إلى جانب المنبر ساعة طويلة كالمغشي عليه، فاضطرب الناس لما سبق من أن الناس تموت في يوم الجمعة بأجمعهم، وظنوا صدق المقالة وأن الموت أول ما بدأ بالخطيب. وبينما الناس في ذلك قال رجل: «الخطيب مات!»، فارتجّ الجامع وضجّ الناس وتباكوا، وقاموا إلى المنبر، وكثر الزحام على الخطيب، حتى أفاق وقام على قدميه ونزل عن المنبر ودخل إلى المحراب، وصلّى من غير أن يجهر بالقراءة، وأوجز في صلاته حتى أتمّ الركعتين. وقَدِمَت عدّة جنائز فصلّى عليها الناس، وأمّهم بعضهم. وبينما الناس في الصلاة على الموتى إذا الغوغاء صاحت بأن الجمعة ما صحّت، والخطيبُ صلّى بعد أن انتقض وضوءه لما غُشي عليه؛ وتقدّم رجل من الناس وأقام وصلّى الظهر أربعاً. وبعد فراغ هذا الذي صلّى أربعاً قام جماعة أُخَر وأمروا فأذّن المؤذّنون بين يدي المنبر، وطلع رجل إلى المنبر وخطب خطبتين على العادة ونزل ليصلّي، فمنعوه من التقدّم إلى المحراب وأتوا بإمام الخمس فقدّموه حتى صلّى بهم جمعة ثانية. فلما

انقضت صلاتُه بالناس قام آخرون وصاحوا بأن هذه الجمعة الثانية لم تصحّ، وأقاموا الصلاة وصلّى بهم رجل آخر الظهر أربع ركعات، فكان في هذا اليوم بجامع الأزهر إقامة الخطبة مرتين وصلاة الظهر مرتين. فقمتُ أنا[1] في الحال، وإذا بالناس تطيّر على السلطان بزوال من أجل إقامة خطبتين في موضع واحد في يوم واحد.

هذا ومرض السلطان في زيادة ونمو، وكلما ترجّح قليلاً خلع على الأطباء ودقّت البشائر، إلى أن عجز عن القيام في العشر الثاني من شوّال.

هذا وقد كثر الموت بالمماليك السلطانية ثم بالدّور السلطانية؛ ومات عدّة من أولاد السلطان والحريم والجواري.

وخرج الحاجُّ في يوم الاثنين تاسع عشره صُحبةَ أمير الحاج آقْبَغَا من مامِش الناصري المعروف بالتركماني، ونزل إلى بِركة الحاج، فمات به عدّة كبيرة من الحجّاج منهم ابن أمير الحاج وابنته في الغد. وبعده في يوم الأربعاء حادي عشرينه، ضُبط عدّة مَن صُلّي عليه من الأموات بالمصلّيات فزادت عدّتهم على ألف إنسان.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرينه خلع السلطان على الأطباء لعافيته وفرح الناس؛ وبينما هم في ذلك إذْ وسَّط السلطانُ طبيبيْه في يوم السبت رابع عشرينه، وهما اللذان خلع عليهما بالأمس. وكان من خبر الأطباء أنه لما خلع السلطان عليهما بالأمس، وأصبح السلطان من الغد فرأى حاله في إدبار، وكان قد قلق من طول مرضه، فشكا ما به لرئيس الأطباء العفيف الأسلمي فأمر له بشيء يشربه، فشربه السلطان فلم يوافق مزاجه وتقيأه لضعف معدته. وكان خَضِر الحكيم كثيراً ما يَتَحَشَّر[2] عند رؤساء الدولة، حتى صار يداخل السلطانَ في أيام مرضه اقتحاماً على الرئاسة، واستمر يلاطف السلطان مع العفيف. وأصبح العفيف وطَلَع إلى القلعة، ودخل على عادته، وإذا بالسلطان قد امتلأ عليه غضباً، وقد ظن في نفسه أن الحكماء

(١) وحضر المقريزي أيضاً هذه الصلاة ونقل لنا في السلوك صورة مطابقة لما نقله أبو المحاسن هنا. انظر السلوك: ٤/١٠٣٩.

(٢) المراد أنه كان كثير التردّد على رجال الدولة تقرّباً وزلفى إلى السلطان.

مقصرون في علاجه ومداواته، وأنهم أخطؤوا في التدبير والملاطفة، فحال ما وقع بصره على العفيف سبَّه ونهره ـ وكان في المجلس القاضي صلاح الدين بن نصر الله كاتب السرّ، والصفوي جوهر الخازندار وعدّة أُخر من الأمراء الخاصكية ـ ثم قال له السلطان: «إيش هذا الذي أسْقَيْتَني البارحة؟». فقال العفيف: «هو كيت وكيت يا مولانا السلطان، واطلب الأطباء واسألْهم هل هو موافق أم لا»، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه وطلب عمر بن سيفا والي القاهرة وأمره بتوسيطه، فأخذه وخرج وتماهل في أمره حتى تأتيه الشفاعة. وبينما العفيفُ في ذلك إذ طلع خَضِر الحكيم وهو مسرع، كونَ العفيف قد سبقه إلى مجلس السلطان، فكلّمه العفيف في أن السلطان إذا سأله عمّا وصفه له العفيف في أمسه لا يعترض عليه، ليسكن بذلك غضب السلطان. فحالَ ما دخل خضر المذكور على السلطان أمر بتوسيطه أيضاً، فأُخذ من بين يدي السلطان أخذاً مزعجاً وأُضيف إلى العفيف، وهو يظن أن ذلك من حنق السلطان، وليس الأمر على حقيقته. وتربّص[1] الوالي في أمرهما، فأرسل السلطانُ مَن استحثّه في توسيطهما، هذا بعد أن وقف ندماء السلطان إلى الأشرف وقبّلوا له الأرض غير مرة، وقبّلوا يده مراراً عديدة بسببهما والشفاعة فيهما وسألوه أن يعاقبهما بالضرب، فأبى إلّا توسيطهما. وأخذ السلطان يستحثّ الوالي برسول بعد رسول من الخاصْكية، والوالي يتنقل بهما من مكان إلى آخر تسويفاً، إلى أن أتى بهما إلى الحدرة عند باب الساقية من قلعة الجبل. وبينما هم في ذلك أتاه[2] رجل من قبل السلطان، وقال له: «أمرني السلطانُ أن أحضر توسيطَهما أو تحضر تجيب السلطانَ بما تختاره من الجواب عن ذلك»؛ فلم يجد عمر بدّاً من أن أخذ العفيف أولاً وحمله، فاستسلم ولم يتحرك حتى وُسّط. فلما رأى خضر ذلك طار عقله وصاح وهو يقول: «عمر! الحكيم أتوسَّط! عندي للسلطان ثلاثة آلاف دينار ويدعني أعيش»، فلم يلتفت الوالي إلى كلامه وأمر به فأُخذ، فدافع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه وخاف خوفاً شديداً، فتكاثروا عليه أعوان الوالي حتى حملوه وهو يتمرّغ، فوُسِّط توسيطاً معذباً لتَلَوِّيه واضطرابه؛ ثم

(١) المراد أنه تريّث وتباطأ.

(٢) الضمير عائد على الوالي.

حملا إلى أهليهما. فعند ذلك تحقّق الناس عظم ما بالسلطان من المرض وشنعت القالة فيه. ومن يومئذ تزايد مرض السلطان وصارت الأطباء متخوّفة من معالجته، ولا يصفون له شيئاً حتى يكون ذلك بمشورة جماعة من الأطباء، واستعفى أكثرهم، وحمل الرسائل على عدم الطلوع لملاطفته(١).

واستمر السلطان ومرضه يتزايد، فلما كان يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة، جمع السلطان الخليفةَ والقضاة الأربعة والأمراء وأعيان الدولة، وعهد بالسلطنة إلى ولده المقام الجمالي يوسف، وكتب العهدَ القاضي شرفُ الدين أبو بكر نائب كاتب السرّ، لمرضِ كاتبِ السرّ القاضي صلاح الدين بن نصر الله بالطاعون. وجلس السلطان بالمقعد الذي أنشأه على باب الدُّهيشة(٢) المطل على الحوش السلطاني، وقد أُخرج إليه محمولاً من شدّة مرضه وضعف قوته، ووقف بين يديه الأميرُ خُشْقَدَم اليَشْبكي مُقدّم المماليك السلطانية بالحوش، ومعه غالب المماليك السلطانية الجلْبان والقَرانيص، وجلس بجانب السلطانِ الخليفةُ المعتضدُ بالله أبو الفتح داود، والقضاة والأمير الكبير جَقْمَق العلائي، ومَن تأخر عن التجريدة من الأمراء بالديار المصرية.

وقام عبدُ الباسط، لغيبة كاتب السرّ صلاح الدين بن نصر الله وشدّة مرضه بالطاعون، وابتدأ بالكلام في عهدِ السلطانِ بالمُلك من بعده لابنه المقام الجمالي يوسف، وقد حضر أيضاً يوسف المذكور مع أبيه في المجلس، فاستحسن الخليفة هذا الرأي وشكر السلطانَ على فِعله لذلك. فقام في الحال القاضي شرفُ الدين أبو بكر سبط ابن العجمي نائب كاتب السرّ بالعهد إلى بين يدي السلطان. وأشهد السلطانُ على نفسه أنه عهد بالمُلك إلى ولده يوسف من بعده، وأمضى الخليفةُ العهدَ، وشهد بذلك القضاةُ، وجعل الأميرَ الكبيرَ جَقْمَق العلائي هو القائم بتدبير

---

(١) كذا هي عبارة الأصل. ولعلّ المراد أنهم أخذوا يتواصون بعدم الطلوع إلى القلعة لعيادة السلطان مخافة بطشه لاختلال مزاجه وتعسّف أحكامه؛ أو أنه حُملت إليهم رسائل أو أوامر سلطانية تنهاهم عن الطلوع إلى القلعة.

(٢) أي باب قاعة الدهيشة في القصر السلطاني بقلعة الجبل. وهي من بناء السلطان الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٥ هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٢).

أمر مملكة المقام الجمالي يوسف، وأشْهَد السلطانُ على نفسه بذلك أيضاً في العهد. ثم التفت السلطانُ إلى جهة الحوش، وكلّم الأميرَ خُشْقَدَم مقدَّمَ المماليك ـ وقصد يُسمع ذلك القول للمماليك السلطانية الجلْبان ـ بكلام طويل، محصوله يعتب عليهم فيما كانوا يفعلونه في أيامه وأنه كان تغيّر عليهم ودعا عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون في سنتي ثلاث وثلاثين ثم إحدى وأربعين فمات منهم جماعة كبيرة، والآن قد عفا عنهم. ثم أوصاهم بوصايا كثيرة، منها أن يكونوا في طاعة ولده، وأن لا يغيروا على أحد من الأمراء، وأن لا يختلفوا فيدخل فيهم الأجانب فيهلكوا، وأشياء من ذلك كثيرة سمعتُها من لفظه لكن لم أحفظ أكثرها لطول الكلام.

ثم أخذ يعرِّف الجميع القرانيص والجِلْبان، أنه يموت، وأنه كان عندهم ضيفاً وقد أخذ في الرحيل عنهم؛ وبكى فأبكى الناسَ وعظم الضجيج من البكاء، ثم أمر لهم بنفقة لجميع المماليك السلطانية قاطبة، لكل واحد ثلاثين ديناراً، فقبّل الجميع الأرض وضجّوا له بالدعاء بعافيته وتأييده؛ كلّ ذلك وهو يبكي وعقله صحيح وتدبيره جيد. وفي الحال جلس كاتبُ المماليك واستدعى اسمَ واحدٍ واحدٍ، وقد صُرَّت النفقةُ المذكورة، حتى أخذوا الجميع النفقة، فحسُن ذلك ببال جميع الناس، وكانت جملة النفقة مائة وعشرين ألف دينار؛ وانفضّ المجلس، وحُمل السلطان وأُعيد إلى مكانه.

ثم في يوم الجمعة سابع ذي القعدة خلع السلطان على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله باستقراره في كتابة السرّ بعد موت ولده صلاح الدين محمد بن حسن بن نصر الله بالطاعون، وخلع أيضاً في اليوم المذكور على نور الدين عليّ السُّوَيْفِيّ إمام السلطان باستقراره محتسِب القاهرة بعد موت دُولات خُجَا بالطاعون، وفرح الناس بموته كثيراً.

وتزايد الطاعون في هذه الأيام بالديار المصرية وظواهرها حتى بلغ عدّة مَن صُلّي عليه بمصلاة باب النصر فقط في يوم واحد أربعمائة ميّت، وهي من جملة إحدى عشرة مصلاة بالقاهرة وظواهرها.

وأما الأمراء المجرَّدون إلى البلاد الشامية، فإنهم كانوا في هذا الشهر رحلوا من أُبُلُسْتَيْن وتوجهوا إلى آق شهر[١]، حتى نزلوا عليها وحصروها وليس لهم علم بما السلطانُ فيه.

ثم اشتد مرض السلطان في يوم الثلاثاء خامس عشرين ذي القعدة واحتجب عن الناس، ومُنع الناس قاطبةً من الدخول عليه، سوى الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي شادّ الشراب خاناه، وعلي باي الأشرفي الخازندار، وجوهر اللّالا الزِّمام؛ وصار إذا طلع مباشرو الدولة إلى الخدمة السلطانية على العادة يعرِّفهم هؤلاء بحال السلطان، وليس أحد من أكابر الأمراء يطّلع إلى القلعة، لمعرفتهم بما السلطانُ فيه من شدّة المرض، وأيضاً لكثرة الكلام في المملكة. وقد صارت المماليك طوائف، وتركوا التّسْيير إلى خارج القاهرة وجعلوا دأبهم التسييرَ بسوق الخيل تحت القلعة والكلام في أمر السلطان. وبطلت العلامةُ[٢]، وتوقف أحوال الناس لاختلاط عقل السلطان من غلبة المرض عليه، وخيفت السبل، ونقل الناس [أقمشتهم من بيوتهم إلى الحواصل مخافة من وقوع فتنة. وأخذ الطاعون يتناقص في][٣] هذه الأيام وهو أوائل ذي الحجّة، ومرض السلطان يتزايد. وكان ابتداء مرض السلطان ضعف الشهوة للأكل، فتولد له من ذلك أمراض كثيرة آخرها نوع من أنواع الملنخوليا[٤]، وكثر هذيانه وتخليطه في الكلام، ولازمه الأرق والسهر مع ضعف قوته.

هذا مع أن المماليك في هذه الأيام صاروا طائفة وطائفة: فطائفة منهم يريدون أن يكون الأمير الكبير جَقْمَق العلائي هو مدبِّر المملكة كما أوصاه الملك الأشرف، وهم الظاهرية البرقوقية والناصرية والمؤيَّدة والسَّيْفيّة؛ وطائفة وهم

---

(١) راجع ص ٢٦٦، حاشية (١).

(٢) أي توقّف السلطان عن توقيع المراسيم والمناشير السلطانية بسبب حالته الصحيّة. والعلامة هي توقيع السلطان بشعار خاص يتّخذه لنفسه.

(٣) زيادة من طبعة الهيئة المصرية عن نسخة أيا صوفيا.

(٤) الملنخوليا: مرض عقلي من مظاهره فساد العقل واضطراب الوجدان وتغلّب الحزن والقلق والميل إلى التشاؤم. وسببه اضطرابات جثمانية أهمها عدم الاعتدال في عمل الغدد الصمّاء. (المعجم الوسيط).

الأشرفية، يريدون الاستبداد بأمر ابن أُستاذهم، كل ذلك من غير مفاوضة في الكلام. وبلغ الأميرَ إينال الأبو بكري المُشِدّ ذلك، وكان أعقل المماليك الأشرفية وأمثلهم وأعلمهم، فأخذ في إصلاح الأمر بين الطائفتين، بأن طيَّب المماليكَ الأشرفية إلى الحَلْف على طاعة ابن السلطان والأمير الكبير جَقْمَق العلائي، حتى أذعنوا ورضوا. فتولّى تحليفَهم القاضي شرفُ الدين نائب كاتب السرّ وحلّف الجميعَ، ثم نزل عبدُ الباسط إلى الأمير الكبير جَقْمَق وحلّفه على طاعة السلطان، وبعد تحليفه نزل إليه الأميرُ إينالُ المُشِدّ والأميرُ عليّ باي الخازندار، وقبّل كلٌّ منهما يده بمَن معهما من أصحابهما، فأكرمهم جقمق ووعدهم بكل خير، وعادوا إلى القلعة وسكن الناس وبطل الكلام بين الطائفتين.

فلما كان يوم الأربعاء عاشر ذي الحجة، وهو يوم عيد النحر، خرج المقامُ الجمالي يوسف وليّ العهد الشريف وصلّى صلاةَ العيد بجامع القلعة، وصلّى معه الأمير الكبير جَقْمَق العلائي وغالب أمراء الدولة، ومشوا في خدمته بعد انقضاء الصلاة والخطبة، حتى جلس على باب الستارة، وخلع على الأمير الكبير جقمق وعلى مَن له عادة بلبس الخلع في يوم عيد النحر، ثم نزلوا إلى دورهم، وقام المقام الجمالي ونحر ضحاياه بالحوش السلطاني. هذا وقد حصل للسلطان نُوَب كثيرة من الصرع حتى خارت قواه ولم يبق إلّا أوقات يقضيها؛ واستمر على ذلك والإرْجاف يتواتر بموته في كل وقت، إلى أن مات قبيل عصر يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة من سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وسنُّه يوم مات بضع وستّون سنة تخميناً؛ فارتجّت القلعة لموته ساعة ثم سكنوا. وفي الحال حضر الخليفةُ والقضاة الأربعة والأمير الكبير جقمق العلائي وسائر أمراء الدولة، وسلطنوا المقامَ الجمالي يوسف ولقبوه بالملك العزيز يوسف، حسبما يأتي ذكره في محلّه. ثم أخذ الأمراء في تجهيز السلطان، فجُهِّز وغُسّل وكُفّن بحضرة الأمير إينال الأحمدي الفقيه الظاهري [برقوق] أحد أمراء العشرات بوصية السلطان له، وهو الذي أخرج عليه كُلْفةَ تَجْهيزه وخرْجَته من مال كان الأشرفُ دفعه إليه في حياته، وأوصاه أن يحضر غسله وتكفينه ودفنه.

ولما انتهى أمر تجهيز الملك الأشرف حُمل من الدور السلطانية إلى أن صُلّي عليه بباب القلعة من قلعة الجبل، وتقدّم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر، لكون الخليفة كان خَلع عليه خلعةَ أَطْلَسَيْن التي خلعها عليه الملكُ العزيز. ثم حُمل من المصلّى على أعناق الخاصْكية والأمراء الأصاغر، إلى أن دُفن بتربته التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة؛ وحضرتُ أنا الصلاةَ عليه ودفْنه، وكانت جنازته مشهودة بخلاف جنائز الملوك، ولم يقع في يوم موته اضطراب ولا حركة ولا فتنة، ونزل إلى قبره قبيل المغرب. وكان مدة سلطنته بمصر سبع عشرة سنة تنقص أربعة وتسعين يوماً، وتسلطن بعده ابنُه الملك العزيزُ يوسف المقدّم ذكره بعهد منه إليه.

وخلَّف الملكُ الأشرفُ من الأولاد العزيزَ يوسفَ وابناً آخرَ رضيعاً أو حملاً، وهما في قيد الحياة إلى يومنا هذا. فأما العزيز فمسجون بثغر الإسكندرية، وأما الآخر فاسمه أحمد، عند عمّه زوج أمه الأمير قَرْقَماس الأشرفي رأس نوبة، وهو الذي تولى تربيتَه، ومن أجل المقام الشهابي[1] أحمد هذا كانت الفتنة بين المماليك الأشرفية والمماليك الظاهرية في الباطن، لما أراد الظاهريةُ إخراجه إلى الإسكندرية. وأما مَن مات من أولاد الملك الأشرف فكثير، وخلَّف من الأموال والتحف والخيول والجمال والسلاح شيئاً كثيراً إلى الغاية. وكان سلطاناً جليلاً سَيُوساً مدبّراً عاقلاً متجمّلاً في مماليكه وخيوله. وكانت صفته أشقر طويلاً نحيفاً رشيقاً مُنوّر الشيبة بهيّ الشكل، غير سبّاب ولا فَحّاش في لفظه، حسن الخلق، ليّن الجانب، حريصاً على إقامة ناموس الملك، يميل إلى الخير، يحب سماع

(١) الشهابي: نسبة إلى شهاب الدين، وهو لقب كان يطلق في العصر المملوكي على مَن اسمه أحمد من الأتراك، ومثله لقب جمال الدين على مَن اسمه يوسف، فيقال مثلاً: الجمالي يوسف بن تغري بردي. وإذا قيل: الصارمي أو العلائي أو الحسامي فهي تعني صارم الدين أو علاء الدين أو حسام الدين، وهي ألقاب لمَن يسمّون إبراهيم أو علي أو حسين. ـ انظر صبح الأعشى: ٤٥٨/٥، طبعة دار الكتب العلمية. والمقام: من ألقاب الكناية المكانية، وقد استعمل في البداية للإشارة إلى صاحب المكان تعظيماً له عن التفوّه باسمه، ثم صار هذا اللقب أرفع الألقاب الأصول في عصر المماليك. وقد اختصّ هذا اللقب بالسلاطين وأبنائهم وولاة العهد. ـ انظر الألقاب الإسلامية: ٤٨٢ ـ ٤٨٧.

تلاوة القرآن العزيز حتى إنه رتّب عدّة أجواق تقرأ عنده في ليالي المواكب بالقصر السلطاني دواماً. وكان يكرم أرباب الصلاح ويُجلّ مقامَهم، وكان يُكثِر من الصوم في الصيف والشتاء؛ فإنه كان يصوم في الغالب يوم الثالث عشر من الشهر والرابع عشر والخامس عشر، يديم على ذلك. وكان يصوم أيضاً أولَ يوم في الشهر وآخرَ يوم فيه، مع المواظبة على صيام يومي الاثنين والخميس في الجمعة، حتى [إنه] كان يتوجّه في أيام صومه إلى الصيد ويجلس على السِّماط وهو صائم ويطعم الأمراء والخاصْكية بيده، ثم يغسل يديه بعد رفع السِّماط كأنه واكَل القوم. وكان لا يتعاطى المُسكِرات ولا يحبّ مَن يفعل ذلك من مماليكه وحواشيه، وكان يحبّ الاستكثار من المماليك حتى إنه زادت عدّة مماليكه المشتروات على ألفي مملوك، لولا ما أفناهم طاعون سنة ثلاث وثلاثين ثم طاعون سنة إحدى وأربعين هذا، فمات فيهما من مماليكه خلائق. وكان يميل إلى جنس الجراكسة على غيرهم في الباطن، ويظهر ذلك منه في بعض الأحيان، وكان لا يحبّ أن يُشهر عنه ذلك لئلا تنفر الخواطر منه؛ فإن ذلك مما يُعاب به على الملوك، وكان مماليكه أشبه الناس بمماليك الملك الظاهر برقوق في كثرتهم، وأيضاً في تحصيل فنون الفروسية؛ ولو لم يكن من مماليكه إلّا الأمير إينال الأبو بكري الخازِندار ثم المُشِدّ لكفاه فخراً، لما اشتملَ عليه من المحاسن، ولم يكن في عصرنا مَن يدانيه فكيف يشابهه؟- انتهى.

وإلى الآن مماليكُه هم معظم عسكر الإسلام. وكانت أيامه في غاية الأمن والرخاء[1] من قلّة الفتن وسفر التجاريد، هذا مع طول مدته في السلطنة. وعمّر في أيامه غالبَ قرى مصر قبليّها وبحريّها مما كان خُرِّب في دولة الملك الناصر فرج، ثم في دولة الملك المؤيَّد شيخ لكثرة الفتن في أيامهما، وترادف الشرور والأسفار

---

(١) يتفق المقريزي مع أبي المحاسن في أن أيام برسباي كانت في غاية الأمن والاستقرار، ولكنّه - أي المقريزي - يخالفه الرأي في أن أيام حكم برسباي كانت أيام رخاء. وبهذا الصدد يقول المقريزي: «وشمل بلاد مصر والشام في أيامه الخراب، وقلّة الأموال بها، وافتقر الناس، وساءت سير الحكّام والولاة...». - انظر السلوك: ٤/١٠٦٦.

إلى البلاد الشامية وغيرها في كل سنة. ومع هذا كله كان الملكُ الأشرفُ مُنَغَّص العيش من جهة الأمير جانِبك الصُّوفي من يوم فرّ من سجنه بثغر الإسكندرية في سابع شعبان سنة ست وعشرين وثمانمائة، إلى أن مات جانِبك قبل موته في سنة أربعين وثمانمائة حسبما تقدم ذكره.

وكان الأشرفُ يتصدَّى للأحكام بنفسه، ويقتدي في غالب أموره بطريق الملك المؤيَّد شيخ، غير أنه كان يعيب على المؤيد سَفَهَ لسانه، إلاّ الملك الأشرف فإنه كان لا يسفَّه على أحد من مماليكه ولا خدمه جملة كافية، فكان أعظم ما شتم به أحداً أن يقول له: «حمار!»، وكان ذلك في الغالب يكون مزحاً. ولقد داومتُ خدمتَه من أوائل سلطنته إلى أن مات، ما سمعتُه أفحش في سبّ واحد بعينه كائن مَن كان. وفي الجملة كانت محاسنُه أكثرَ من مساوئه. وأما ما ذكره عنه الشيخُ تقي الدين المقريزي في تاريخ من المساوىء، فلا أقول إنه مُغرِض في ذلك بل أقول بقول القائل: [الطويل]

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها كفى المرءَ فَخْراً أن تُعَدَّ معايبُه

وكان الأليق الإضراب عن تلك المقالة الشنعة في حقه من وجوه عديدة، غير أن الشيخَ تقي الدين كان ينكر عليه أموراً، منها انقيادُه إلى مباشري دولته في مظالم العباد، ومنها شدّةُ حرصه على المال وشرهه في جمعه. وأنا أقول في حق الملك الأشرف ما قلته في حق الملك الظاهر برقوق فيما تقدّم، فهو بخيل بالنسبة لمَن تقدّمه من الملوك، وكريم بالنسبة لمَن جاء بعده إلى يومنا هذا؛ وما أظرف قول مَن قال: [الكامل]

ما إن وصلتُ إلى زَمانٍ آخر إلاّ بكيتُ على الزمانِ الأوّل

وأما قول المقريزي: «وانقيادُه لمباشريه» ـ يشير بذلك إلى الزيني عبد الباسط ـ فإنه كان يخاف على مالِه منه، فلا يزال يحسّن له القبائح في وجوه تحصيل المال، ويهوّن عليه فِعلَها حتى يفعلها الأشرفُ وينقاد إليه بكلّيته، وحسّن له أموراً لو فعلها الأشرفُ لكان فيها زوالُ مُلْكه، ومالَ الأشرفُ إلى شيءٍ منها لولا معارضة قاضي

القضاة بدر الدين محمود العيني له فيها عندما كان يسامره بقراءة التاريخ، فإنه كان كثيراً ما يقرأ عنده تواريخ الملوك السالفة وأفعالهم الجميلة، ويذكر ما وقع لهم من الحروب والخطوب والأسفار والمِحَن، ثم يفسّر له ذلك باللغة التركية، وينمّقها بلفظه الفصيح، ثم يأخذ في تحبيبه لفعل الخير والنظر في مصالح المسلمين، ويرجعه عن كثير من المظالم، حتى لقد تكرّر من الأشرف قولُه في الملأ: «لولا القاضي العيني ما حَسُن إسلامنا، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة». وكان الأشرفُ اغتنى بقراءة العيني له في التاريخ عن مشورة الأمراء في المهمات، لما تدرّب بسماعه للوقائع السالفة للملوك. قلت: وما قاله الأشرفُ في حق العيني هو الصحيح، فإن الملك الأشرف كان أُميّاً صغير السنّ لما تسلطن، بالنسبة لملوك الترك الذين مسّهم الرقّ، ؛ فإنه تسَلطن وسنّه يوم ذاك نيّف على أربعين سنة، وهو غِرٌّ لم يمارس التجارب، ففقّهه العيني بقراءة التاريخ، وعرّفه بأمور كان يعجز عن تدبيرها قبل ذلك، منها: لما كُسرت مراكبُ الغزاة في غزوة قُبْرُس، فإن الأشرف كان عزم على تبطيلها في تلك السنة ويسيِّرها في القابل، حتى كلّمه العيني في ذلك، وحكى له عدّة وقائع صَعُب أولها وسهُل آخرها، فلذلك كان العيني هو أعظمَ ندمائه وأقربَ الناس إليه. على أنه كان لا يداخله في أمور المملكة البتّة، بل كان مجلسُه لا ينقضي معه إلّا في قراءة التاريخ، وأيام الناس وما أشبه ذلك؛ ومن يوم ذاك حُبّب إليَّ التاريخ وملتُ إليه واشتغلتُ به ـ انتهى.

وقد تقدّم الكلام على أصل الملك الأشرف وكيف ملّكه السلطانُ الملك الظاهر برقوق، وعلى نسبته بالدُّقْمَاقي في أول ترجمته، فلا حاجة للعيادة هنا ثانياً.

انتهى ترجمة الملك الأشرف بَرْسباي رحمه الله تعالى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف برسباي على مصر

وهي سنة خمس وعشرين وثمانمائة؛ على أن الملكَ الصالح محمد ابن الملك الظاهر طَطَر، حكم منها إلى ثامن شهر ربيع الآخر، ثم حكم في باقيها الملكُ الأشرفُ هذا.

وفيها - أعني سنة خمس وعشرين المذكورة - توفي الشيخُ الإمام العالمُ بدر الدين محمود ابن الشيخ الإمام شمس الدين محمد الأقصرائي الحنفي في ليلة الثلاثاء خامس المحرّم، ولم يبلغ الثلاثين من العمر. وكان بارعاً ذكياً فاضلاً فقيهاً مُشارِكاً في عدة فنون، حسن المحاضرة، مقرّباً من الملوك. وكان يجالس الملكَ المؤيَّدَ شيخاً وينادمه، ثم عظم أمره عند الملك الظاهر طَطَر واختصّ به إلى الغاية، وتردّد الناس إلى بابه، ورُشح إلى الوظائف السَنِيّة، [فعاجلته المنية][(1)] ومات بعد مدة يسيرة.

وتوفي الشيخُ علاء الدين عليّ ابن قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن الزبيري الشافعي، في ليلة الأحد ثالث المحرّم وقد أناف على ستّين سنة، بعد أن ناب في الحكم ودرّس بعدّة مدارس وبرع في الحساب والفرائض.

وتوفي الأمير سيفُ الدين آق خُجَا بن عبد الله الأحمدي الظاهري، وهو يلي الكشف بالوجه القبلي في العشرين من المحرم. وكان تركي الجنس، أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، وترقى حتى صار من جملة أمراء الطبلخاناه وحاجباً ثانياً، وتولى الكشف بالوجه القبلي ومات هناك. ولم يكن من المشكورين.

وتوفي الشيخ المحدّثُ شمس الدين محمد بن أحمد بن معالي الحِبْتي الحنبلي الدمشقي في يوم الخميس ثامن عشرين المحرّم. وكان يقرأ البخاري عند السلطان، وهو أحد فقهاء الحنابلة وأحد ندماء الملك المؤيد شيخ وأصحابه قديماً،

---

(١) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.

وولّاه مشيخة المدرسة الخرُّوبية(١) بالجيزة.

وتوفي مقرىءُ زمانه العلّامة شمس الدين محمد بن علي بن أحمد المعروف بالزراتيني الحنفي، إمام الخمس بالمدرسة الظاهرية برقوق، في يوم الخميس سادس جمادى الآخرة وقد جاوز سبعين سنة، بعد أن كُفَّ بصره وانتهت إليه الرئاسة في الإقراء بالديار المصرية ورُحل إليه من الأقطار.

وتوفي الأمير بدر الدين حسن بن السيفي سودون الفقيه الظاهري صهر الملك الظاهر طَطَر وخال ولده الملك الصالح المقدّم ذكره، وهو أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في يوم الجمعة ثالث عشر صفر بقلعة الجبل في حياة والده سودون الفقيه. وكان والده سودون الفقيه، حمو الملك الظاهر ططر، جندياً لم يتأمّر، وصار ولدُه حسن هذا أميرَ مائة ومقدّمَ ألف؛ فلم تطل أيامُه في السعادة، فإنه كان أولاً بخدمة صهره الملك الظاهر طَطَر، فلما تسلطن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه دفعة واحدة، ثم نقله بعد مدة يسيرة إلى إمرة مائة وتقدمة ألف، فعاجلته المنيّة ومات بعد مرض طويل. قلت ـ وهو مثل ـ: «إلى أن يسعد المُعْتَرّ(٢) فرغ عمره». وكان حسن المذكور شابّاً جميلاً حسن الشكالة، إلّا أنه كان بإحدى عينيه خلل.

وتوفي الشيخ الإمام العالم برهان الدين إبراهيم [بن أحمد](٣) بن علي البيجوريّ الشافعي في يوم السبت رابع عشر شهر رجب، وقد أناف على السبعين سنة، ولم يخلف بعده أحفظ منه لفروع فقه مذهبه، مع قلّة الاكترات بالملبس، والتقشّف، وعدم الالتفات إلى الرئاسة.

وتوفي مقدّم العَشير(٤) بالبلاد الشامية، بدر الدين حسن بن أحمد المعروف

---

(١) المدرسة الخروبية: أنشأها بدر الدين محمد بن محمد بن علي الخرّوبي التاجر بعد سنة ٧٥٠ هـ. (خطط المقريزي: ٢/٣٦٩).

(٢) المعترّ: هو الفقير ذو الحاجة يطيف ولا يسأل.

(٣) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.

(٤) مقدّم العشير: هو مقدّم العشائر البدوية (العشير ـ العشران) التي كانت تعيش في مناطق مختلفة من البلاد =

بابن بِشارة[1] في سابع ذي الحجة؛ وكان له رئاسة ضخمة بالنسبة لأبناء جنسه وثروة ومال كثير.

= الشامية وكان لها أثر في تاريخها المحلّي. وهذه العشائر كانت تمثّل عنصر شغب في المنطقة عند انعدام الأمن وضعف السلطة المركزية المملوكية، كما أنها كانت رديفاً لقوّات السلطة ـ عندما تكون هذه الأخيرة قوية ـ في قمع حركات التمرّد والعصيان وفي حماية الثغور. وكانت العشائر البدوية (العشير) منقسمة حسب التقسيم القبلي القديم في بلاد الشام إلى قيسية ويمنية، وكان الصراع بينهما دائماً. (مملكة صفد في عهد المماليك: ٢١١ ـ ٢١٢).

وتقدمة العشير: من مراتب أمراء العربان في عهد المماليك، وكانت تشكّل الطبقة الرابعة من وظائف أرباب السيوف. وكان على مقدّم العشير (العربان) أن يقدّم عدداً من الخدمات للدولة كالحفاظ على طرق المواصلات وحفظ الأمن والمشاركة في تجاريد السلطنة والتعاون معها في القضاء على حركات العصيان والمساعدة في جمع الزكاة والضرائب، إلاّ أنه قلّما كانت تلك العشائر تلتزم بذلك. (انظر صبح الأعشى: ٦٧/٤، و٤٩٧/٥؛ والسلوك: ٧٢/٤، ٧٧، ٤٩٦ ـ ٤٩٧، ٦٢٧؛ والألقاب الإسلامية: ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

(١) آل بشارة: من العشائر العربية التي استوطنت منطقة جبل عامل من البلاد الشامية، وهي المنطقة الممتدة ما بين نهر القرن من ترشيحا وضواحي عكا من أعمال فلسطين جنوباً إلى نهر الأوّلي المعروف قديماً بنهر الفراديس والذي يصب في البحر بالقرب من مدينة صيدا شمالاً، ومن شواطىء البحر المتوسط غرباً إلى واحة الحولة والنميط إلى نهر الغجر ووادي التَّيم شرقاً. والعامليون عرب خلّص بنسبهم ولغتهم وعاداتهم، وهم يتحدّرون من عاملة بن سبأ، وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام قبل الميلاد بثلاثمائة سنة على وجه التقريب بعد حادثة سيل العرم وانهيار سدّ مأرب، وباسمهم سُمّي الجبل. ثم سُمّيت تلك المنطقة أيضاً باسم بلاد بشارة نسبة إلى آل بشارة الذين تولّوا زعامتها العشائرية منذ أوائل الدولة الأيوبية. وسكان بلاد بشارة أو جبل عامل (جبل عاملة) مسلمون على مذهب الشيعة الإمامية، بينهم قسم قليل من المسلمين السنّيين في الثغور وقسم من النصارى في الداخل. وتشير بعض المصادر إلى أنهم مع قبيلة كلب كانوا مساندين لحكم بني أمية. وفي نسب آل بشارة خلاف. (انظر تاريخ جبل عامل: ٢٤ ـ ٢٨؛ وخطط جبل عامل: ١٠٨/١ ـ ١٠٩؛ وأعيان الشيعة: ٥٥/١٥ ـ ٥٦؛ والموسوعة الفلسطينية: ١٥٤/٣).

وتظهر أخبار بني بشارة كزعامة متنفّذة ذات دور بارز في التاريخ المحلي لتلك المنطقة مع بدايات القرن التاسع الهجري. ففي سنة ٨١٠ هـ كان بنو بشارة بزعامة ثلاثة إخوة منهم هم: حسين ومحمد وحسن، وكانوا على طاعة الناصر فرج بن برقوق. وقد كتب ناصر الدين محمد وبدر الدين حسن ابنا بشارة إلى السلطان سنة ٨١١ هـ يسألانه تقدمة العشير في مملكة صفد على عادتهما مقابل ثمانية آلاف دينار يحملانها للسلطان فوافق السلطان على طلبهما. كما أن تقدمة العشير أدّت إلى وقوع صدام بين أبناء بشارة أنفسهم. ففي سنة ٨١٨ هـ سأل حسن بن بشارة (صاحب الترجمة) أن يستقرّ في تقدمة العشير مقابل ثلاثين ألف دينار، فأرسل إليه تشريف بذلك، فبلغ ذلك أخاه محمداً فغضب وجمع على أخيه وقاتله. لكن محمداً هزم =

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وسبعة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً ونصف.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف برسباي على مصر

وهي سنة ست وعشرين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة بالمدينة النبوية، ناصر الدين عبد الرحمن بن محمد بن صالح، في ليلة السبت رابع عشرين صفر. وكان من الفقهاء أعيان أهل المدينة.

وتوفي تاج الدين فضل الله بن الرملي القبطي، ناظر الدولة، في يوم حادي عشرين صفر، بعدما باشر وظيفة نظر الدولة عدة سنين وسُئِلَ بالوزارة غير مرة فامتنع واستمر على وظيفته، ومات وقد أناف على الثمانين سنة. قال المقريزي: وكان من ظَلَمة الأقباط وفُسّاقهم.

وتوفي الأمير ناصر الدين بك محمد بن علي بك بن قَرمان مُتَمَلِّك بلاد قَرَمان[1] في صفر، من حجر أصابه في حربه مع عساكر خوند كار مراد بك بن

= وفرّ إلى البقاع ثم إلى العراق. وبذلك انقسم بنو بشارة إلى قسمين: قسم بزعامة بدر الدين حسن مقدّم العشير وكان على طاعة السلطان، وقسم بزعامة ناصر الدين محمد الذي عاد من العراق وكان خارجاً عن الطاعة ومُعادياً للقسم الأول. وقد استمر حسن بن بشارة مقدّماً للعشير منذ سنة ٨١٨ هـ حتى وفاته سنة ٨٢٥ هـ بعد أن بلغ درجة من القوة والنفوذ جعلته يتقدّم مشايخ العشير ليس في مملكة صفد فقط وإنما في جميع بلاد الشام. (انظر السلوك: ٤/٧٢، ٧٧، ٣٠٩، ٦٢٧؛ وإنباء الغمر: ٣/٥٥؛ والضوء اللامع: ٣/١٣٨).

(١) بلاد قرمان: هي إقليم واسع بآسيا الصغرى وتشمل لارندا وسيواس وقونية وأرمناك وقسطمونية وغيرها مما هو واقع شرقي الخليج القسطنطيني. وقد حكمها اثنا عشر أميراً من أمراء بني قرامان ما بين ٦٥٤ هـ و٨٩٢ هـ. وناصر الدين المشار إليه هو التاسع في سلسلة حكّامها. (انظر معجم زامباور: ٢٣٦ - ٢٣٨؛ وصبح الأعشى: ٥/٣٤٦ - ٣٤٧ طبعة دار الكتب العلمية).

عثمان متملّك بُرْصَا. وكان ابن قَرْمان هذا أُسر في أيام الملك المؤيد شيخ، حسبما ذكرناه في ترجمة الملك المؤيد، وحُبس بقلعة الجبل، إلى أن أفرج عنه الملك الظاهر طَطَر بعد موت الملك المؤيد شيخ، حسبما ذكرناه في ترجمة المؤيد، ووجَّهه إلى بلاده أميراً عليها؛ وأولاد قَرمَان هؤلاء هم من ذريّة السلطان علاء الدين كَيقُبَاد السلجوقي، المقدّم ذكره في هذا التاريخ في محله ـ انتهى.

وتوفي الأمير علاء الدين قُطْلوبَغَا بن عبد الله التَّنمِيّ، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية ثم نائب صفد، بطّالاً بدمشق في ليلة السبت سادس عشر شهر ربيع الأول. وأصله من مماليك الأمير تَنَم الحسني نائب الشام، ورقّاه الملك المؤيد، لكون الملك المؤيد كان تزوج ببنت تَنَم فصار لذلك حواشي تَنَم كأحد أصحابه.

وتوفي قاضي القضاة مجد الدين سالم المقدسي الحنبلي في يوم الخميس تاسع عشرين ذي القعدة، وقد بلغ الثمانين وتكَسّح وتعطّل عدة سنين. وكان معدوداً من فقهاء الحنابلة وخيّارهم.

وتوفيت خَوَنْد زينب بنت السلطان الملك الظاهر برقوق وزوجة الملك المؤيد شيخ ثم من بعده الأتابك قُجُقْ العيساوي؛ وماتت تحته في ليلة السبت ثامن عشرين شهر ربيع الآخر. وهي آخر مَن بقي من أولاد الملك الظاهر برقوق لصلبه؛ وأُمها أم ولد رومية.

وتوفي الأمير سيف الدين تَنِبَك بن عبد الله العلائي الظاهري المعروف بتَنِبَك مِيق نائب الشام بها في يوم الاثنين ثامن شعبان. وتولى نيابة دمشق من بعد الأمير تنبك البجاسي نائب حلب الآتي ذكره. وكان تَنِبَك مِيق أصلُه من مماليك الملك الظاهر برقوق، وترقى بعد موته إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف في دولة الملك المؤيد شيخ، ثم صار رأس نوبة النوب، ثم أمير آخور كبيراً، ثم ولّاه نيابة دمشق بعد مَسْك آقْبَاي المؤيدي، ثم عزله بعد سنين وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ولا زال على ذلك حتى خلع عليه الملك الظاهر طَطَر باستقراره

في نيابة دمشق ثانياً بعد جَقْمَق الأَرْغُون شَاوي الدوادار، فأقام على نيابة دمشق إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان من أكابر المماليك الظاهرية، غير أنه لم يُشهر بدين ولا شجاعة.

وتوفي الحافظ قاضي القضاة وليّ الدين أبو زَرْعَة أحمد ابن الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين [بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم][1] العراقي الشافعي مصروفاً عن القضاء، في يوم الخميس سابع عشرين شعبان. ومولده في ثالث ذي الحجة سنة اثنتين وستّين وسبعمائة. واعتنى به والده الحافظ زين الدين عبد الرحيم وأسمعه الكثير، ونشأ وبرع في علم الحديث، ثم غلب عليه الفقه فبرع فيه أيضاً، وأفتى ودرّس سنين، وتولى نيابة الحكم بالقاهرة، ثم تنزّه عن ذلك ولزم داره مدة طويلة، إلى أن طلبه السلطان وخلع عليه باستقراره قاضي قضاة الديار المصرية بعد وفاة شيخ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلقِيني في شوّال سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فباشر القضاء بعفّة وديانة وصيانة إلى أن صُرف بقاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِيني، فلزم داره إلى أن مات. ولم يخلف بعده مثله في جمعه بين الفقه والحديث والدين والصلاح. وله مصنّفات كثيرة ذكرناها في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» إذ هو محل الإطناب في التراجم.

وتوفي الرئيس علم الدين داؤد بن عبد الرحمن بن الكُوَيز الكَرَكي الأصل الملكي كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، في يوم الاثنين سلخ شوّال ولم يبلغ الخمسين سنة، ودفن خارج القاهرة. وكان اتصل بخدمة الملك المؤيد بالبلاد الشامية وخدم في ديوانه وعُرف به، فلما تسلطن ولّاه بعد مدة نظر الجيش بالديار المصرية سنين إلى أن نقل إلى كتابة السرّ في أيام الملك الظاهر طَطَر بعد عزْل صهره القاضي كمال الدين البارزي بسعيه في ذلك، فلم يُشكر على فعلته، ونُقل كمال الدين المذكور إلى وظيفة نظر الجيش عوضاً عنه. وقد تقدّم ذلك كله في أصل ترجمة الملك الأشرف مفصّلاً فلينظر هناك؛ ودام علم الدين هذا في وظيفة

(١) زيادة عن المنهل الصافي للمؤلّف.

كتابة السرّ سنين إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره. وكان عاقلاً ديّناً رئيساً ضخماً وجيهاً في الدول، غير أنه كان عارياً من كل علم وفن، لا يعرف إلّا قلم الدَّيْوَنة[1] كما هي عادة الكَتَبة، وتولّى كتابةَ السر من بعده جمالُ الدين يوسف بن الصفّي الكَرَكي، فعظمت المصيبة بولاية جمال الدين هذا لهذه الوظيفة الشريفة التي هي الآن أعظم رتب المتعمّمين، لكونه غاية في الجهل وعديم المعرفة بهذا الشأن وغيره.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثمانية أذرع وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف برسباي على مصر

وهي سنة سبع وعشرين وثمانمائة:

فيها خرج الأمير تَنِبَك البَجَاسي عن الطاعة وهو على نيابة دمشق، وقاتله سودون من عبد الرحمن وظفر به وقطع رأسه وبعث به إلى الديار المصرية، وقد تقدّم ذكر ذلك كله في أصل ترجمة الملك الأشرف، ويأتي ذكر تَنِبَك البَجَاسي في وفيات هذه السنة.

وفيها قبض الملك الأشرف على الأتابك بَيْبُغَا المظفري وحبسه بالإسكندرية، وقد تقدّم أيضاً.

وفيها مات قتيلاً الأمير تَنِبَك بن عبد الله البَجَاسي نائب الشام، بعد خروجه عن الطاعة في أول شهر ربيع الأول؛ وهو أحد مَن ترقى في الدولة الناصرية فرج ثم ولّاه الملك المؤيد شيخ نيابة حماه، فخرج عن طاعته مع الأمير قاني باي

---

(١) الديونة: هي عمل الكتابة في ديوان الإنشاء. ويقال أيضاً: فنّ الديونة. واللفظ من مصطلحات العصر المملوكي.

العلائي نائب الشام والأمير إينال الصصلانيّ نائب حلب وغيرهما من النوّاب، ودام معهما إلى أن انكسرا وقبض عليهما فَفرّ تَنِبَك هذا مع مَن فرّ من الأمراء إلى قَرا يوسف ببلاد الشرق، فقام عنده هو والأمير سُودون من عبد الرحمن والأمير طَرَباي إلى أن قَدِموا على الأمير طَطَر بالبلاد الشامية في دولة الملك المظفر أحمد، ثم لما تسلطن طَطَر ولّاه نيابة حماه ثانياً، ثم نقله الملك الأشرف إلى نيابة حلب بعد تغْري بَرْدي أخي قَصْرُوه، وتولى بعده نيابة حماة أغاتُه(١) جَارْقُطْلُو. والعجيب أن جَارْقُطْلُو المذكور كان أغاةَ تَنِبَك البَجَاسي، وولي بعده نيابة حماه مرتين: الأولى في الدولة المؤيدية والثانية في دولة طَطَر، ثم نقل تَنِبَك البَجَاسي إلى نيابة الشام بعد موت الأمير تَنِبَك مِيق فلم تطل مدته بها وخرج عن الطاعة؛ وتولى سُودون مِن عبد الرحمن نيابة الشام عِوضَه وقاتله حسبما تقدم ذكره حتى ظفر به وقتله. وكان تَنِبَك شابّاً جميلاً شجاعاً مِقداماً، وهو أستاذ جميع البَجَاسِيَّة أمراء زماننا هذا بمصر والشأم.

وتوفي الإمام العلّامة شرف الدين يعقوب بن جلال الدين رسولا بن أحمد بن يوسف التُّبَاني(٢)، الحنفي شيخ شيوخ خانقاه شيخون، في يوم الأربعاء سادس عشر صفر؛ وكان فقيهاً بارعاً في العربية والأصول وعلمي المعاني والبيان والعقليات، واختصّ بالملك المؤيد شيخ اختصاصاً كبيراً، وتولى نظر الكسوة ووكالة بيت المال ومشيخة خانقاه شيخون، وأفتى ودرّس واشتغل وصنّف عدة سنين، وكان معدوداً من علماء الحنفية.

وتوفي الوزيرُ تاج الدين عبد الرزاق بن شمس الدين بن عبد الله المعروف بابن

---

(١) الأغا: الرئيس والقائد وشيخ القبيلة. ـ وقد تقدّم تأصيل هذه الكلمة فانظر فهرس المصطلحات. ونلفت القارىء إلى أننا لم نشأ إثقال الأجزاء بتكرار الحواشي الخاصة بالتعريف ببعض المصطلحات من وظائف وألقاب وغيرها. وبالعودة إلى فهارس هذا الكتاب يمكن العثور على أرقام الأجزاء والصفحات التي احتوت على التعريف بتلك المصطلحات. ونتيجة لهذا الحرص، ربما يكون قد فاتنا التعريف ببعض المصطلحات؛ ولذلك سنلحق بمجلد الفهارس قسماً مرتباً على حروف الهجاء للتعريف بما يكون قد فاتنا التعريف به.

(٢) التباني: نسبة إلى بلدة تُبان من قرى ما وراء النهر من نواحي نَسَف. (معجم البلدان).

كاتب المناخ في يوم الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى وهو غير وزير، وابنه الصاحب كريم الدين عبد الكريم قد ولي الوَزَر في حياته؛ وكان جدّ أبيه باشرَ دين النصرانية ثم حسن إسلام آبائه، وكان مشكور السيرة في ولايته للوزارة لكنه استجدّ في أيام ولايته مكس الفاكهة[1]، ثم عزل بعد مدة يسيرة وصار ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة. قلت: هذا هو الشقي الذي ظلم الناسَ لغيره.

وتوفي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله الظاهري المعروف بالأشْقر، وهو أحد أمراء دمشق، بها في جمادى الأولى. وكان وليَ شاد الشراب خاناه في الدولة الناصرية، ثم صار في الدولة المؤيدية رأس نوبة النوب ثم أمير مجلس، ثم نُكب وانحطّ قدره وحبس سنين، إلى أن أخرجه الأمير طَطَر وأنعم عليه بإمرة عشرين بالقاهرة، فدام على ذلك إلى أن أخرجه الملك الأشرف بَرْسباي إلى الشأم على إمرة مائة وتقدمة ألف، فدام بدمشق إلى أن مات؛ وكان غير مشكور السِّيرة في دينه ودنياه.

وتوفي الملك العادل فخر الدين أبو المفاخر سليمان ابن الملك الكامل شهاب الدين غازي ابن الملك العادل مجير الدين محمد ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر بن شادي، وقيل: ابن محمد، بن تقي الدين عبد الله ابن الملك المعظّم غياث الدين تُوران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي صاحب حصن كَيْفا من ديار بكر، وملَكَ بعده الحصن ابنه الملكُ الأشرف. وكان العادل أديباً شاعراً عاقلاً، وله نظم جيد ذكرناه في ترجمته في «المنهل الصافي».

(١) مكس الفاكهة: ضريبة تؤخذ من تجّار الفاكهة. والمكوس هي الأموال التي تحصّل من أصحاب الصناعات والتجارات على أنواعها ومما يستخرج من البرّ والبحر وغير ذلك مما يذهب لصالح السلطان أو أصحاب الإقطاعات. وكانت تلك الأموال تُسمى المال الهلالي الذي يُجبى شهرياً، تمييزاً لها عن المال الخراجي الذي يُجبى كل سنة. وقد كثر هذا النوع من المكوس في أيام الدولة المملوكية وتفنّن السلاطين وأصحاب الإقطاعات في فرضها على الناس حتى كادت تشمل كل متعلقات معيشتهم اليومية. كما كان بعض السلاطين يتقرّبون إلى الرعيّة بإلغاء بعضها من وقت إلى آخر. (انظر خطط المقريزي: ١/١٠٣ ـ ١١١).

وتوفي خطيب مكة جمال الدين أبو الفضل ابن قاضي مكة محب الدين أحمد ابن قاضي مكة أبي الفضل محمد النويري الشافعي المكّي في شهر ربيع الآخر بمكة، وهو والد صاحبنا الخطيب أبي الفضل [محمد][1] النويري، وهم من أعيان فقهاء مكة أباً عن جدّ.

وتوفيت خَوَنْد الكبرى فاطمةُ زوجةُ السلطان الملك الأشرف وأُمّ ابنه المقام الناصري محمد في خامس عشر جمادى الآخرة، وكانت قبل الأشرف تحت الأمير دُقْماق المحمدي، الذي ينتسب إليه الأشرف بالدُّقْماقي، وكان والدها من أعيان تجّار القرِم، وكانت من الخيِّرات، ودفنت بقبّة المدرسة الأشرفية بخط العنبريين، وكان لها مقام كبير عند زوجها الملك الأشرف.

وتوفي الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد عليّ ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يحيىٰ ابن الملك المنصور عمر بن رسول، التركماني الأصل اليمني المولد والمنشأ والوفاة، صاحب بلاد اليمن ومدن ممالكه: زبيد وتعزّ وعدن والمُهْجم وحَرَض وجِبْلة والمنصورة والمحالب والجُوَّة والدُّمْلُوة وقوارير والشحر وغيرهم. وكان موته في سادس عشر جمادى الآخرة بصاعقة سقطت عليهم بحصن قوارير خارج مدينة زَبِيد، فارتاع الملكُ الناصر هذا من ذلك ولزم الفراش أياماً إلى أن مات. وأُقيم بعده في ممالك اليمن الملك المنصور عبد الله؛ وكان الناصر هذا من شرّار ملوك اليمن.

وتوفي قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بالجامع المؤيدي شمسُ الدين محمد بن عبد الله بن سعد العبسي الديري الحنفي المقدسي بالقدس، وقد توجّه إليه زائراً في يوم عرفة؛ ومولده في سنة أربع وأربعين وسبعمائة بالقدس، وهو والد شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديري. وكان إماماً في الفقه وفروعه، بارعاً في العربية والتفسير والأصول والحديث، وأفتى ودرّس سنين بالقدس؛ ثم طلبه الملكُ المؤيد

(١) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.

كاتب المناخ في يوم الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى وهو غير وزير، وابنه الصاحب كريم الدين عبد الكريم قد ولي الوَزَر في حياته؛ وكان جدّ أبيه باشرَ دين النصرانية ثم حسن إسلام آبائه، وكان مشكور السيرة في ولايته للوزارة لكنه استجدّ في أيام ولايته مكس الفاكهة[1]، ثم عزل بعد مدة يسيرة وصار ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة. قلت: هذا هو الشقي الذي ظلم الناسَ لغيره.

وتوفي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله الظاهري المعروف بالأشْقر، وهو أحد أمراء دمشق، بها في جمادى الأولى. وكان وليَ شاد الشراب خاناه في الدولة الناصرية، ثم صار في الدولة المؤيدية رأس نوبة النوب ثم أمير مجلس، ثم نُكب وانحطّ قدره وحبس سنين، إلى أن أخرجه الأمير طَطَر وأنعم عليه بإمرة عشرين بالقاهرة، فدام على ذلك إلى أن أخرجه الملك الأشرف بَرْسباي إلى الشأم على إمرة مائة وتقدمة ألف، فدام بدمشق إلى أن مات؛ وكان غير مشكور السِّيرة في دينه ودنياه.

وتوفي الملك العادل فخر الدين أبو المفاخر سليمان ابن الملك الكامل شهاب الدين غازي ابن الملك العادل مجير الدين محمد ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر بن شادي، وقيل: ابن محمد، بن تقي الدين عبد الله ابن الملك المعظّم غياث الدين تُوران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي صاحب حصن كَيْفا من ديار بكر، وملَكَ بعده الحصن ابنه الملكُ الأشرف. وكان العادل أديباً شاعراً عاقلاً، وله نظم جيد ذكرناه في ترجمته في «المنهل الصافي».

(١) مكس الفاكهة: ضريبة تؤخذ من تجّار الفاكهة. والمكوس هي الأموال التي تحصّل من أصحاب الصناعات والتجارات على أنواعها ومما يستخرج من البرّ والبحر وغير ذلك مما يذهب لصالح السلطان أو أصحاب الإقطاعات. وكانت تلك الأموال تُسمى المال الهلالي الذي يُجبى شهرياً، تمييزاً لها عن المال الخراجي الذي يُجبى كل سنة. وقد كثر هذا النوع من المكوس في أيام الدولة المملوكية وتفنّن السلاطين وأصحاب الإقطاعات في فرضها على الناس حتى كادت تشمل كل متعلقات معيشتهم اليومية. كما كان بعض السلاطين يتقرّبون إلى الرعيّة بإلغاء بعضها من وقت إلى آخر. (انظر خطط المقريزي: ١/١٠٣ - ١١١).

وتوفي خطيب مكة جمال الدين أبو الفضل ابن قاضي مكة محب الدين أحمد ابن قاضي مكة أبي الفضل محمد النويري الشافعي المكّي في شهر ربيع الآخر بمكة، وهو والد صاحبنا الخطيب أبي الفضل [محمد][1] النويري، وهم من أعيان فقهاء مكة أباً عن جدّ.

وتوفيت خَوَنْد الكبرى فاطمةُ زوجةُ السلطان الملك الأشرف وأُمّ ابنه المقام الناصري محمد في خامس عشر جمادى الآخرة، وكانت قَبل الأشرف تحت الأمير دُقْماق المحمدي، الذي ينتسب إليه الأشرف بالدُّقْماقي، وكان والدها من أعيان تجّار القرِم، وكانت من الخيِّرات، ودفنت بقبّة المدرسة الأشرفية بخط العنبريين، وكان لها مقام كبير عند زوجها الملك الأشرف.

وتوفي الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل عباس ابن الملك المجاهد عليّ ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يحيىٰ ابن الملك المنصور عمر بن رسول، التركماني الأصل اليمني المولد والمنشأ والوفاة، صاحب بلاد اليمن ومدن ممالكه: زبيد وتعزّ وعدن والمُهْجم وحَرَض وجِبْلة والمنصورة والمحالب والجُوّة والدُّمْلُوة وقوارير والشحر وغيرهم. وكان موته في سادس عشر جمادى الآخرة بصاعقة سقطت عليهم بحصن قوارير خارج مدينة زَبِيد، فارتاع الملكُ الناصر هذا من ذلك ولزم الفراش أياماً إلى أن مات. وأُقيم بعده في ممالك اليمن الملك المنصور عبد الله؛ وكان الناصر هذا من شرّار ملوك اليمن.

وتوفي قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بالجامع المؤيدي شمسُ الدين محمد بن عبد الله بن سعد العبسي الديري الحنفي المقدسي بالقدس، وقد توجّه إليه زائراً في يوم عرفة؛ ومولده في سنة أربع وأربعين وسبعمائة بالقدس، وهو والد شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديري. وكان إماماً في الفقه وفروعه، بارعاً في العربية والتفسير والأصول والحديث، وأفتى ودرّس سنين بالقدس؛ ثم طلبه الملكُ المؤيد

(١) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.

في سنة تسع عشرة وثمانمائة، وولّاه قاضيَ قضاة الحنفية بعد موت قاضي القضاة ناصر الدين محمد ابن العديم مسؤولاً في ذلك، فباشر القضاء بعفّة وديانة وصيانة عدّة سنين، إلى أن تركه رغبةً، وولي مشيخة الجامع المؤيدي داخل باب زويلة إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره.

وتوفي الشيخُ الصالح الزاهد المسلِّك[1] أبو بكر بن عمر بن محمد الطريني الفقيه المالكي، في يوم عيد النحر بالغربية بمدينة المحلة من الوجه البحري من أعمال القاهرة، ولم يخلّف بعده مثله في كثرة العبادة والتقشّف وترك الدنيا ولذّتها حتى لعلّه مات من قلّة الغذاء؛ وكان يُقصد للزيارة من البلاد البعيدة، وله كرامات ومصالح، يعرفه كل أحد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأربعة عشر أصبعاً.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الأشرف بَرسْباي على مصر

وهي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة:

فيها كانت أول غزوات الملك الأشرف التي سيّرها في البحر حسبما تقدّم ذكره. وفيها قُتل الأمير تَغْري بَرْدي بن عبد الله المؤيدي المعروف بأخي قصرُوه نائب حلب ـ كان ـ بقلعة حلب، بعد أن حُبس بها مدة في شهر ربيع الأول؛ وأصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وأحد خاصكيته، ثم أمّره المؤيدُ عشرةً، ولما مات الملك المؤيد أنعم عليه الأمير طَطَر في دفعة واحدة بإمرة مائة وتقدمة

(١) المسلِّك: اسم فاعل من تسليك الطريق وهو تعريفها. والمراد تعريف المريدين الطريق إلى الله تعالى وإدخالهم فيها. وهو من ألقاب الصوفية، وكان يستعمل أحياناً مضافاً إلى ياء النسب، فيقال: المسلِّكي. (صبح الأعشى: ٦/٢٧ ـ ٢٨).

ألف وجعلهُ أميرَ آخور كبيراً عوضاً عن طوغان الأمير آخور، ثم ولاّه نيابة حلب فعصى في أواخر دولة طَطَر وخرج عن الطاعة، فوُلّي تَنِبَك البَجَاسي عوضه في نيابة حلب؛ ومات طَطَر فتوجّه تَنِبَك إليه وقاتله وهزمه وملَك حلب، ثم حاصره بقلعة بهسنا حتى أخذه بالأمان وحمله إلى قلعة حلب فحبس بها إلى يوم تاريخه؛ وكان شاباً طائشاً خفيفاً غير مشكور السيرة، واقتحم الرئاسة فنالها فلم يمهله الدهر وأُخذ قبل أن تتمّ سنتُه.

وتوفي قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن عليّ ابن التاجر بدر الدين أبي الثّناء محمود بن أبي الجود أبي بكر الحموي الحنبلي المعروف بابن مُغْلي، قاضي قضاة الديار المصرية، في يوم الخميس العشرين من المحرّم وقد قارب السبعين سنة؛ وأصله من سَلَمْية، وكان آباؤه يعانون المتجر، وولد هو بحماة وطلب العلم وقَدِمَ القاهرة شابّاً في زيّ التجّار في سنة إحدى وتسعين، ثم عاد إلى حماه وأكبّ على طلب العلم، حتى برع واشتهر بكثرة الحفظ، حتى إنه كان يحفظ في كل مذهب من المذاهب الأربعة كتاباً في الفقه، ويحفظ في مذهبه كثيراً إلى الغاية، مع مشاركة جيدة في الحديث والنحو والأصول والتفسير؛ وتولّى قضاء حماة في عنفوان شبيبته ودام بها إلى أن طلبه الملكُ المؤيد وولاّه قضاء الديار المصرية، ونزل بالقاهرة في جوارنا بالسبع قاعات[1] وسكن بها إلى أن مات.

حدّثني صاحبُنا قاضي القضاة جلالُ لدين أبو السعادات محمد بن ظهيرة قاضي مكة بها، قال: قدِمتُ القاهرة فدخلتُ إلى ابن مُغْلي هذا فإذا بالقاضي

(١) السبع قاعات: بنيت هذه القاعات بالقلعة في أيام الناصر محمد بن قلاوون الذي أسكنها سراريه، ويقال إنه مات عن ألف ومائتي وصيفة،مولدة سوى مَن عداهنّ من بقية الأجناس. أما دار المؤلّف التي يشير إليها فهي التي كانت تُعرَف بدار ابن فضل الله، نسبة إلى بني فضل الله العمري الذين تولّوا رئاسة ديوان الإنشاء في مصر قرابة مائة عام منذ عهد الأشرف خليل بن قلاوون حتى السنوات الأخيرة من عهد الظاهر برقوق. وكانت دار ابن فضل الله (وهي دار الأمير تغري بردي والد المؤلّف) من أبهج دُور القاهرة وأعظمها. وكانت دار ابن فضل الله ودار بيبرس (نسبة إلى السلطان بيبرس الجاشنكير) والسبع قاعات دُوراً متجاورة تقع فيا بين حارة زويلة والبندقانيين ومن جملة إسطبل الجميزة. (انظر خطط المقريزي: ٢/٥٦، ٥٩، ٢١٢).

وليّ الدين السَّفْطي عنده؛ فسلّمتُ وجلستُ، فأخذ السَّفْطي يثني على ابن مُغْلي ويعرّفني بمقامه في كثرة العلوم، وكان مما قاله: مولانا قاضي القضاة يحيط علمه بالمذاهب الأربعة؛ فقال ابن مُغْلي: يا قاضي وليّ الدين، أسَأْتَ في التعريف! لِم لا قلتَ بجميع مذاهب السلف؟ قال: فمن يومئذ لم أجتمع به. قلت: كان عنده زهو وإعجاب بنفسه، لغزير فضله وكثرة ماله. وقد وقع له مع العلاّمة نظام الدين يحيىٰ السيرامي الحنفي بحث بحضرة السلطان الملك المؤيد، فقال له القاضي علاء الدين المذكور: يا شيخ نظام الدين، أسمِعْ مذهبك. وسرد المسألة من حِفظه ـ وهذه كانت عادته، وبذلك كان يقطع العلماءَ في الأبحاث ـ فجاراه الشيخُ نظام الدين في المسألة، ولا زال ينقله من شيء إلى شيء حتى دخل به إلى علم المعقول، فارتبك ابن مُغْلي، واستظهر الشيخُ نظام الدين وصاح عليه في الملأ: مولانا قاضي القضاة حِفْظُه طاح، هذا مقام التحقيق. فلم يردّ عليه ـ انتهى.

والذي اشتهر به ابن مُغْلي كثرة المحفوظ. حكى بعض طلبة العلم، قال: استعار مني ابن مُغْلي أوراقاً نحو عشرة كراريس، فلما أخذها منّي احتجت إلى مراجعة شيء منها في اليوم المذكور، فرجعت إليه وقلت له: أُريد أنظر في الكراريس نظرة ثم خذها ثانياً، فقال: ما بقي لي بها حاجة، قد حفظتُها؛ ثم ألقاها إليّ وسَرَدها من حفظه، فأخذتها وعدت وأنا متعجّب من قوة حافظته.

وتوفي الأديب الشاعر زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري[١] في سابع جمادى الآخرة؛ وكان ولي حِسْبةَ مصر القديمة في الدولة الظاهرية برقوق بمال عجز عن أدائه، ففرّ إلى اليمن واتصل بملوكها لفضيلة كانت فيه من كتابة المنسوب ونظم الشعر ومعرفة الأدب، فأقام باليمن مدة ثم عاد إلى مكة وحجّ وقَدِمَ القاهرة، ثم رحل إلى الشام ثم عاد إلى مصر فمات بعد قدومه إليها بأيام قليلة.

---

(١) لقّب بالآثاري لإقامته في أماكن الآثار النبوية مدّة. له أكثر من ثلاثين كتاباً في الأدب والنحو. وله رسالة هامة في الخط سمّاها «العناية الربّانية في الطريقة الشعبانية» وهي من ضمن المراجع التي اعتمدها القلقشندي في كلامه على الخط. (الأعلام: ٣/١٦٤؛ وصبح الأعشى: ٣/٢٠، ٢٩، ٥٦، ٦١).

وكان له نظم جيد. من ذلك ما قاله في مدح قاضي القضاة جلال الدين البُلْقيني لما عُزل عن القضاء بالقاضي شمس الدين الهَرَوِيّ، واتفق مع ذلك زينة القاهرة لدَوران المحمل، فتغالى في الزينة شخص يسمى الترجمان، وعلّق على باب بيته حماراً بسُرِّياقات على رؤوس الناس، بأحسن هيئة؛ وتردّد الناس إلى الفرجة على الحمار المذكور أفواجاً، فقال شعبان هذه الأبيات: [الوافر]

أقام الترجمانُ لسانَ حال عن الدنيا يقول لنا جهارا:
زمانٌ فيه قَدْ وَضَعُوا جِلالاً عن العَلْيَا وقد رَفَعُوا حِمارا

وتوفي الشيخ الإمام الأديب الشاعر العلّامة بدر الدين محمد بن عمر بن أبي بكر الدَّمَامِيني المالكي الإسكندري شاعر عصره بمدينة كَرْبَركا[1] من بلاد الهند، في شعبان عن نحو سبعين سنة. وكان مولده ومنشأه بثغر الإسكندرية. وبرع في الأدبيات وقال الشعر الفائق الرائق، وعانى دَوْلَبَة عمل القماش الحرير بإسكندرية، فتحمّل الديون بسبب ذلك، حتى ألجأته الضرورة إلى الفرار، فذهب إلى الهند، فأقبل عليه ملوكها وحسن حاله بها، وأثرى وكثر ماله، فلم تطل أيامه، حتى مات. ومن شعره: [السريع]

لاما عِذَارَيْك هُما أَوْقعا قَلْبَ المحبِّ الصَّب في الْحَيْنِ
فجُدْ له بالوَصْل واسْمَحْ به فـفيكَ قد هَامَ بِلامَيْنِ

وله: [البسيط]

قُلتُ له والدُّجى مُوَلٍّ ونَحْنُ بالأُنْس في التَّلاقي
قد عَطَسَ الصبحُ يا حبيبي فلا تُشَمِّتْهُ بالفِراقِ

وله: [الرجز]

بَدا وقد كان اختفى الرَّقيبُ مِنْ مَراقِبِه

(١) صوابه: «كلبركه» Kulbarga بإقليم الدكن بالهند. وقد حكمها ملوك آل بهمان من سنة ٧٤٨ هـ إلى سنة ٩٣٢ هـ. (معجم زامباور: ٤٣٧).

فقلتُ: هذا قاتلي بِعَيْنِه وحاجِبِه

وله: [الرمل]

قُمْ بنا نركب طِرْفَ اللَّهْو سَبْقاً للمدام
واثْنِ يا صاح عناني لكُمَيْتٍ ولجام

وتوفي الأمير سيف الدين أبو بكر حاجب حُجّاب طرابلس بها، وكان يُعرف بدوادار الأمير جَكَم نائب طرابلس. أظنه تركمانياً، فإني رأيت كلامه يشبه ذلك، ولا عرفت أصله.

وتوفي الأمير سيف الدين طُوغَان بن عبد الله الأمير آخور، قتيلاً بقلعة المَرْقَب في ذي الحجة. وكان أصله تركمانيّاً مكّاريّاً لبغال الأمير طُولُو الظاهري نائب صفد، ثم تنقل في الخدم حتى اتصل بالملك المؤيد شيخ أيام إمرته، وترقى عنده ليقظة كانت فيه، حتى صار أميرَ آخورِه، فلما تسلطن أمَّره وولّاه حجوبية دمشق، ثم نيابة صفد، ثم جعله أمير مائةٍ ومقدمَ ألفٍ بالديار المصرية، وأميرَ آخورٍ كبيراً بعد الأمير تَنِبَك مِيق لما نُقل إلى نيابة دمشق بعد مَسْك آقباي. ولمّا ولي الأمير آخورية نالته السعادة وعظُم في الدولة، إلى أن عيَّنه المؤيد للسفر صُحبة الأتابك أَلْطُنْبُغَا القَرْمُشي إلى البلاد الشامية من جملة مَن عيَّنه من الأمراء. ومات الملك المؤيد، فوقع ما حكيناه من اضطراب المملكة الشامية وعصيانِ جَقْمَق، فانضمّ طُوغان هذا مع جقمق، ولا زال من حزبه إلى أن انكسر وتوجّه معه إلى قلعة صَرْخَد. ولما قُبض على جقمق، قُبض على طُوغان هذا معه ونُفي إلى القدس. ثم أمسك ثم أطلق، ورُسم له أن يكون بطَّالاً بطَرَابُلُس فدام بها مدة، فبلغ السلطانَ عنه ما أَوْجَبَ القبضَ عليه وحبْسَه بالمَرْقَب، ثم قتله في التاريخ المقدّم ذكره؛ وكان لا فارسَ الخيل ولا وجهَ العرب.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر التَّنُّوخي الحموي الشهير بابن العطار،

في ثالث عشر شوّال بالخليل عليه السلام، وهو متولٍّ نظرَه. ومولده في سنة أربع وسبعين وسبعمائة بحماه، وبها نشأ، وتولّى حجوبيتَها، ثم نُقل إلى دمشق، وولي دوادارية الأمير قاني باي نائب الشام بأمره إلى أن نوَّه القاضي ناصر الدين ابن البارِزي بذكره، واستقدمه إلى القاهرة لمصاهرة كانت بينهما، فولّاه الملك المؤيد نيابة الإسكندرية، إلى أن عزله الأمير طَطَر في الدولة المُظَفَّرِيَّة، وتعطّل في داره سنين حتى ولّاه الملك الأشرف نظر القدس والخليل، فدام به إلى أن مات. وكان فاضلاً عاقلاً سَيُوحاً حلو المحاضرة، يُذاكر بالتاريخ والشعر. وهو والد صاحبنا الشهابي أحمد(١) بن العطار رحمه الله.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البِيري الشافعي، شيخ خانقاه سعيد السعداء، في يوم الجمعة رابع عشرين ذي الحجة على نحو الثمانين سنة. وهو أخو جمال الدين يوسف البيري الأستادّار المقدّم ذكره في الدولة الناصرية فرج.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف برسْباي على مصر

وهي سنة تسع وعشرين وثمانمائة سنة.

فيها كان فتح قبرس وأخْذ ملكها أسيراً حسبما تقدم ذكره في أصل ترجمة الأشرف هذا مفصّلاً.

وفيها توفي شيخ الإسلام وأحد الأئمة الأعلام، سراج الدين عمر بن عليّ بن فارس، شيخ شيوخ خانقاه شيخون، المعروف بقارىء الهداية(٢) في شهر ربيع

---

(١) راجع وفيات سنة ٧٩٤ هـ. وله ترجمة وافية في المنهل الصافي والضوء اللّامع.

(٢) عُرف بذلك لأنه قرأ كتاب «الهداية» في فروع الحنفية أكثر من مرّة وجوّده على أيدي أكثر من شيخ من شيوخ زمانه. والهداية يعتبر من أجلّ كتب الحنفية وهو من تأليف شيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ.

الآخر، بعد أن انتهت إليه رئاسة مذهب أبي حنيفة في زمانه، هذا مع مَن كان في عصره من العلماء. كان بارعاً مفنّناً في الفقه وأصوله وفروعه، إماماً في العربية والنحو، وله مشاركة كبيرة في فنون كثيرة؛ وهو أول مَن أقرأني القرآن بعد موت الوالد. ومات وقد صار المعوّل على فتواه بالديار المصرية، بعد أن تصدّى للإفتاء والإقراء عدّة سنين وانتفع به غالب الطلبة. وكان مقتصراً في ملبسه ومركبه، يتعاطى حوائجه من الأسواق بنفسه، مع جميل السيرة وعظم المهابة في النفوس، يهابه حتى السلطان، مع عدم التفاته لأهل الدولة بالكليّة، حتى لعَلّي لم أنظره دخل لأحد منهم في عمره، وهو مع ذلك لا يزداد إلّا عظمة ومهابة.

ولمّا ولّاه الملكُ الأشرف مشيخةَ الشيخونية(١) مسؤولاً في ذلك، أراد الشيخُ سراج الدين المذكور أن يحضر إلى الخانقاه المذكور ماشياً، وكان مسكنه بالمدرسة الظاهرية ببين القصرين، وامتنع من ركوب الخيل، فأرسل إليه الملك الأشرف فرساً وألزمه بركوبها، فلما ركبها أخذ بيده عصاة يسوقها بها، حتى وصل إلى الخانقاه المذكورة فنزل عنها كما ينزل عن الحمار برجليه من ناحية واحدة، هذا كله وعليه من الوقار والأبّهة ما لم تنلها أصحاب الشكائم ولا كبار العمائم؛ وهو أحد مَن أدركنا من الأفراد الذين مشوا على طريق فقهاء السلف رحمه الله تعالى. ونزل بعده في مشيخة الشيخونية قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التَّفَهْني الحنفي بعد عزله عن القضاء بقاضي القضاة بدر الدين محمود العيني.

وتوفي الشيخ المعتقد خليفة المغربي، نزيل جامع الأزهر، في حادي عشرين المحرّم، فُجاءةً في الحمّام، بعدما كان انقطع بالجامع المذكور مُكِبّاً على العبادة نيفاً وأربعين سنة. وكان للناس فيه اعتقاد كبير ويُقصد للزيارة والتبرّك به. ولمّا مات خلف مالاً له صورة، وكانت جنازته مشهورة.

وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النَّوْرُوزي أمير سلاح في أول شهر

---

(١) هي الخانقاه الشيخونية التي بناها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٦ هـ ورتّب بها دروساً على المذاهب الأربعة ودرساً في الحديث ودرساً في القراءات. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢١).

ربيع الآخر بالقاهرة؛ وأصله من مماليك الأمير نَوْرُوز الحافظي ودواداره، ثم ولي بعده نيابةَ غزة ثم حماه ثم طرابلس، إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وخلع عليه باستقراره أميرَ مجلس، ثم أميرَ سلاح، فاستمر على ذلك إلى أن مات وفي نفسه أمور، فأخذه الله قبل ذلك. وكان متجمّلاً في ملبسه ومماليكه ومركبه وسِماطه إلى الغاية، وفيه مكارم وحب للعظمة مع ظلم وخلق سيىء وقلّة دين وبطش بحواشيه ومماليكه وغلمانه وإظهار جبروت. وهو صهري، زوج أُختي خَوَنْد فاطمة ومات عنها، ولكن الحق يقال على أيّ وجه كان؛ وفرح الناس بموته كثيراً وأوّلهم السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي.

وتوفي السيد الشريف حسن بن عجلان بن رُمَيْثَة ـ واسم رُمَيْثَة مُنجد ـ ابن أبي نُمَيّ محمد بن أبي سعد حسن بن أبي غرير قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن المُثَنَّى بن أبي محمد الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة بالقاهرة، ودُفن بالصحراء بحوش الملك الأشرف بَرْسباي وقد أناف على الستّين سنة. ومولده بمكة، وولي إمارتها في دولة الملك الظاهر برقوق في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، ثم ولي سلطنة الحجاز كله: مكة والمدينة واليَنْبُع من قِبَل الملك الناصر فرج في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة، واستناب عنه بالمدينة الشريفة وخطب له على منبرها. وطالت أيامه في السعادة، على أنه وقع له أمور وحوادث ومِحَن، وحمله ذلك على فعل أشياءٍ ليست بمشكورة، من مصادرة التجّار، وأخذ الأموال؛ وقد ذكرنا أمر خروجه من مكة وقدومه مع الأمير تغري بردي المحمودي إلى القاهرة، في أصل هذه الترجمة واستقراره في إمرة مكة على عادته، إلى أن مات بها قبل أن يتوجّه إلى مكة. واستقر بعده في إمرة مكة ابنُه الشريف بركات الآتي ذكره في محله.

وتوفي العلاّمة قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد بن

محمود بن أحمد بن فضل الله بن محمد الرَّازي الهَرَوي الشافعي بالقدس في ثامن عشر ذي الحجة. ومولدُه بهراة سنة سبع وستّين وسبعمائة. وكان إماماً بارعاً في فنون من العلوم، وكان يقرىء على مذهب أبي حنيفة ومذهب الشافعي، والعربية وعلمي المعاني والبيان، ويذاكر بالأدب والتاريخ، ويستحضر كثيراً من الأحاديث حفظاً. وصحب تيمورلنك مدة طويلة، ثم قَدِمَ القاهرة، وصحب الوالد، وولي قضاء الشافعية بالديار المصرية مرتين فلم ينتج أمره فيهما لبغض أولاد العرب له، كما هي عادة المباينة بين أولاد العرب والأعاجم، وتعصبوا عليه وأبادوه وجحدوا علومه. وولي كتابة السرّ أيضاً بالديار المصرية أشهراً، ثم عُزل ونُكب ووقع له أمور في ولايته للقضاء في المرة الثانية، إلى أن تولى نظر القدس والخليل، إلى أن مات هناك. وكان شيخاً ضخماً طوالاً أبيض اللحية مليح الشكل، غير أنه كان في لسانه مَسَكَةٌ تمنعه عن الطلاقة، وله مصنفات تدلّ على غزير علمه واتّساع نظره وتبحّره في العلوم.

وتوفي قاضي القضاة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد بن حسن بن غانم بن محمد بن علي الطائي البساطي المالكي وهو غير قاض، في يوم الاثنين العشرين من جمادى الآخرة، عن ثمانٍ وثمانين سنة؛ وكان فقيهاً مشاركاً في فنون، وعنده معرفة بالأحكام وسياسة ودربة بالأمور؛ وقد تولى قضاء الديار المصرية سنين كثيرة، وولي حسبة القاهرة شهراً، ثم صُرف ولزم داره إلى أن مات.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين قُجُقْ بن عبد الله العيساوي الظاهري أتابك العساكر بالديار المصرية، في تاسع شهر رمضان؛ وهو أحد المماليك الظاهرية وممّن أنشأه الملك الناصر فرج، وصار أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية، ثم ولي حجوبية الحجاب في الدولة المؤيدية شيخ، ثم أُمسك وحُبس إلى أن أطلقه الأمير ططَر وولاّه أميرَ مجلس، ثم صار أميرَ سلاح في أوائل دولة الملك الصالح، ثم صار أتابكَ العساكر بالديار المصرية بعد مسك الأتابك بيبغا بن عبد الله

المظفري، إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان قُجُق أميراً عاقلاً عارفاً بفنون الفروسية رأساً في ركوب الخيل ولعب الكرة، مع بخل وشحّ زائد وحُسْن شكالة، وكان تركي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي تاج الدين محمد بن أحمد المعروف بابن المكلَّلة وبابن جَمَاعة، في ثامن شهر ربيع الآخر؛ وكان ولي حسبة القاهرة بالمال فلم تطل مدته وعُزل عنها.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن عبد الله أحد أعيان موقِّعي الدست[١] بالديار المصرية المعروف بابن كاتب السَّمْسَرة وبابن العمري، في يوم الأربعاء العشرين من شعبان. وكان له وجاهة في الدولة، معدوداً من أعيان الديار المصرية رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وخمسة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء كالسنة الخالية.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف [برسْباي] على مصر

وهي سنة ثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ الإمام المعتقد زاهد وقته وفريد عصره، أحمد بن إبراهيم بن محمد اليمني الأصل الرومي البُرصاوي[٢] المولد والمنشأ، المصري الدار والوفاة،

(١) موقّع الدست: هو الكاتب الذي يجلس للكتابة بين يدي السلطان. والدَّست هو مرتبة جلوس السلطان. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) في طبعة كاليفورنيا: «البرماوي». والتصحيح عن طبعة المؤسسة المصرية وما يستفاد من السلوك. والبرصاوي نسبة إلى مدينة «برصا» وهي بورسا أو بروسا من بلاد الروم في تركيا. وقد سبق التعريف بها فانظر ص ٢٥٠. حاشية (١) من هذا الجزء.

المعروف بابن عرب[1] الحنفي، في ليلة الأربعاء ثاني شهر ربيع الأول بخلوته بخانقاه شيخون، فغسِّل بها وحُمل إلى مصلاة المؤمني على رؤوس الأصابع، ونزل السلطان الملك الأشرف وحضر الصلاة عليه، وأمَّ بالناس قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي، ثم حُمل وأُعيد إلى الشيخونية فدفن بها؛ وكان له مشهد عظيم إلى الغاية، وأُبيع بعده ما كان عليه من الثياب بأثمان غالية للتبرّك بها.

قلت: وابن عرب هذا أعظم مَن أدركناه من العُبّاد الزهّاد في الدنيا وعدم الاجتماع بالملوك ومَن دونهم، والاقتصار في المأكل والملبس؛ وكان أولاً ينسخ للناس بالأُجرة، وهو مُكِبٌّ على طلب العلم والعبادة سنين طويلة، إلى أن استقر من جملة صوفية خانقاه شيخون، بمبلغ ثلاثين درهماً في الشهر، فتعفَّف بذلك عن النسخ، وانقطع عن مجالسة الناس، وسكن بخلوة في الخانقاه المذكورة وأعرض عن كل أحد، وأخذ في الاجتهاد في العبادة، واقتصر على ملبس خشن حقير إلى الغاية، وصار يقنع بيسير القوت ولا ينزل من خلوته إلاّ ليلاً لشراء قوته، ثم يعود إلى منزله في كل ثلاثة أيام مرة واحدة بعد عشاء الآخرة. وكان من شأنه إذا حاباه أحد من السُّوقَة فيما يشتريه من قوته، تركه وما حاباه به. فلما عُرف منه ذلك ترك الباعة محاباته ووقفوا عندما يشير إليهم به. وكان في كل شهر خادم الخانقاه يحمل إليه الثلاثين درهماً فلا يأخذها إلاّ عدداً، لأن المعاملة بالفلوس وزناً حدثت بعد انقطاعه عن الناس، وكان لا يعرف إلاّ المعادَدَة[2]. وكان لا يقبل من أحد شيئاً

(١) ذكر ابن حجر في إنباء الغمر: ١٢٣/٨ أنه سُمّي بابن عرب لأن أصله عربي ومولده ونشأته في بلاد الروم. وكان من عادة الروم والترك أنهم يسمّون مَن كان حاله كذلك بابن عرب.

(٢) كان التعامل بالدنانير والدراهم معاددة ـ أي بالعدد ـ لأن الأولى كانت ذهبية ويغلب على الثانية الفضة. أما الفلوس فقد كان التعامل بها في غالب الأحيان وزناً، وذلك لغير سبب: فهي أُحدثت أصلاً كمقابل للأشياء الزهيدة الثمن تيسيراً لمعاملات الناس في هذا المجال، وكانت مصنوعة من النحاس بوزن معلوم وهو أن يكون وزن الفلس مثقالاً (ووزن المثقال ٢٤ حبة خرّوب أو من ٧٢ إلى ٧٤ حبّة شعير). وكان كل ٤٨ فلساً عدّاً تقدّر قيمتها بدرهم واحد نُقرة، وهو المكوّن من ثلثين فضة وثلث نحاس. غير أن تلك الفلوس كان وزنها يتناقص تدريجياً بسبب تلاعب الناس بأوزانها، وتحوّلت في كثير من الأحيان إلى مجرد كسر نحاسية غير ذات قيمة، وضعفت ثقة الناس مما اقتضى في بعض الأحيان إلغاؤها وإحداث فلوس جُدُد مطبوعة بالسكّة السلطانية بدلاً من الفلوس القديمة التي كانت تسمى الفلوس العتق كما حدث سنة =

البتّة. وكان يغتسل بالماء البارد صيفاً وشتاءً في بكرة نهار الجمعة، ويمضي إلى صلاة الجمعة من أول نهار الجمعة، ويأخذ في الصلاة والقراءة. وكان يطيل قيامه في الصلاة بمقدار أن يقرأ في كل ركعة حزبين من غير أن يُسمع له قراءة ولا تسبيح. وكان لا يُرى نهاراً إلّا عند ذهابه يوم الجمعة إلى الجامع. وكان يُعجز السلطانَ ومَن دونه في الاجتماع به. ويحكى عنه كرامات كثيرة، ذكرنا بعضها في ترجمته في المنهل الصافي، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته.

وتوفي الأمير سيف الدين قَشْتَمْ بن عبد الله المؤيدي الدوادار، الذي كان ولي نيابة الإسكندرية في دولة الملك المظفر أحمد، ثم قبض عليه وأخرج بعد مدة إلى حلب على إمرة بها، واستمر بحلب إلى أن خرج مع نائبها الأمير قصرُوه لقتال التركمان، فقُتل في المعركة في المحرّم. وكان غير مشكور السّيرة؛ وهو أخو إينال المؤيدي المعروف بأخي قَشْتَمْ؛ وكلاهما ليس بشيء، من المهْمَلين.

وتوفي الشيخ المحدِّث الفاضل شهابُ الدين أحمد بن موسى بن نصير المتبولي المالكي في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الأول، عن خمس وثمانين سنة. وقد حدّث عن عمر بن [الحسن بن مزيد المعمر المسند الرحلة زين الدين أبي حفص المراغي الحلبي الشهير بابن](١) أُميلة، وست العرب(٢)، وجماعة؛ وناب

= ٧٥٩ هـ في سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. ولكن الفلوس الجُدُد أيضاً ما لبثت أن فقدت صدقيتها بسبب تناقص وزنها وفسادها، مما اقتضى التعامل بالفلوس وزناً حتى قدّر كل ١١٨ رطلاً من الفلوس بمبلغ ٥٠٠ درهم نقرة، واحتوى الرطل على عدد من الفلوس تراوح بين ٢٤، ٣٦، ٤٠ فلساً تقريباً تبعاً لوزن الفلس.

وعبارة المؤلّف: «وكان لا يعرف إلّا المعادنة» تبدو لنا غير دقيقة لأن صاحب الترجمة كان يتقاضى راتباً شهرياً ويخرج إلى السوق لقضاء حاجاته بنفسه رغم انقطاعه إلى الزهد والعبادة، وبالتالي فإنه كان ولا بدّ على علم بحال السوق وأحوال النقود. ونرجّح أن المراد بعبارة المؤلّف هو الإشارة إلى عدم ثقة صاحب الترجمة بتلك النقود (الفلوس) شأنه في ذلك شأن غالبية الناس. وعبارة المؤلّف تكون أكثر استقامة لو قال: «وكان لا يرضى التعامل إلّا بالدراهم، ويرفض التعامل بالفلوس وزناً» أو ما هو بمعنى ذلك.

(١) الزيادة عن المنهل الصافي. وفي شذرات الذهب: «عمر بن حسن بن يزيد بن أميلة». ولد ابن أميلة سنة ٦٨٠ هـ وتوفي سنة ٧٧٨ هـ.

(٢) وجدنا اثنتين من المحدّثات باسم ستّ العرب. الأولى ستّ العرب بنت الجمال إبراهيم بن ناصر الدين =

في الحكم[1] سنين رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ شهابُ الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن الزعيفريني[2] الدمشقي الشاعر في ربيع الأول. وكان ينظم الشعر، ويكتب المنسوب، ويتكلم في معرفة علم الحرف[3]، ويتكلم أيضاً في المغيّبات، ومال إليه بسبب ذلك جماعة من الأكابر، وأثرى، وامتُحن في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، وقطع الملك الناصر لسانه وعقدتين من أصابعه، ورفق به المشاعلي عند قطع لسانه فلم يمنعه ذلك من الكلام.

وكان سبب هذه المحنة أنه نظم لجمال الدين الأستادار ملحمة أوهمه أنها ملحمة قديمة، وأنه يملك مصر؛ وبلغ ذلك الملكَ الناصرَ فرج فأمر به ما ذكرناه. ولما قُطعت أصابعه، صار يكتب بعد موت الملك الناصر بشماله؛ فكتب مرة إلى قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي يقول: [الطويل]

لقد[4] عشتُ دهراً في الكتابة مُفْردا   أُصَوِّرُ منها أَحْرُفاً تُشْبه الدُّرَّا

= محمد بن الكمال عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة. حدّثت عام ٨٢٩ هـ بإجازتها من أبي محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن المهندس، وأخذ عنها المحبّ محمد بن الشحنة. (الضوء اللامع: ١٢/٥٦) ولعلّها هي المقصودة. والثانية ستّ العرب بنت محمد بن فخر الدين علي بن أحمد البخاري أُم محمد. وهي مسندة مكثرة، سمع منها بعض مشهوري الحفّاظ وانتشر عنها حديث كثير. كانت إقامتها في صالحية دمشق. وممّن روى عنها الحافظ ابن الجزري (محمد بن محمد) سمعها في دارها بسفح قاسيون سنة ٧٦٦ هـ. توفيت سنة ٧٦٧ هـ. (الأعلام: ٣/٧٧).

(١) نائب الحكم: هو نائب قاضي القضاة.

(٢) في طبعة كاليفورنيا: «الزعفريني». والتصحيح عن المنهل الصافي والسلوك.

(٣) علم الحرف أو علم أسرار الحروف أو علم الحروف والأسماء: نوع من علوم السحر والطلّسمات يدّعي الوصول إلى المراد عن طريق معرفة أسرار الحروف. ويقول أصحاب هذا العلم إن الوصول إلى أسرار الحروف لا يكون بالقياس العقلي والبرهان وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي. ويسمى أيضاً السيمياء. وقد ظهر هذا «العلم» على أيدي بعض غُلاة المتصوفة، وكان لهم فيه مؤلّفات كثيرة جداً عدّ منها صاحب كشف الظنون ٢١٩ مؤلّفاً. (انظر كشف الظنون: ٢/٦٥٠ - ٦٦٠؛ ومقدمة ابن خلدون: ٩٣٦ - ٩٤٤).

(٤) في طبعة كاليفورنيا: «لو». وما أثبتناه من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا، وهو أنسب في المقام.

وقد عاد خطي اليوم أضْعفَ ما تَرَى وهــذا الـذي يَسَّــر اللّهُ لليُســرَى

فــأجابــه قــاضي القضــاة صــدر الــدين المــذكــور: [الطويل]

لَئِنْ فَقَــدتْ يُمنـاكَ حُسْنَ كِتَــابَــةٍ فـلا تحْتَمِلْ هَمّـاً ولا تعتقـد عُسْرَا

وأبشِــر ببشـــرٍ دائـمٍ ومَسَــرَّةٍ فقد يَسَّر اللهُ العظيمُ لك اليُسْرَى

وتـوفي الأمير الـطواشي الرومي شِبْـل الدولـة كـافـور الصَّـرْغَتْمُشي زمـام دار السلطان، وقد قارب الثمانين سنة من العمر، في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر. وأصله من خدّام الأمير صَرْغَتْمُش الأشرفي، ثم أخذه الأتـابك منْكِلي بَغـا الشمسي وأعتقه. وترقى إلى أن ولّاه الملك الناصر فرج زمامَ داره، فدام على ذلك إلى أن عُزل بعد موت الملك المؤيد بمرجان الخازندار الهندي، ثم أُعيد إليها بعد مدة. وهو الذي أنشأ التربة العظيمة بالصحراء، وبها خطبة وعمائر هائلة، وله مدرسة أخرى أنشأها بخط حارة الـديلم من القاهـرة. وتولّى بعده الزمامية الأمير الـطواشي خُشْقَدَم الظاهري الخازندار.

وتـوفي الشيخ الأديب البـارع المفنن بدر الـدين محمد بن إبـراهيم بن محمد المعـروف بالبَشْتَكي الـظاهري[1] المـذهـب، في يوم الاثنين ثـالث عشرين جمـادى الآخر، فُجاءةً في حوض الحمّام. وكان من تلامذة الشيخ جمال الدين بن نبـاتة في الأدب، وكان أحد الأفراد في كثرة النسخ: كان ينسخ في اليوم خمس كراريس، فإذا تعب اضطجع على جنبه وكتَب كما يكتب وهـو جالس، فكتب مـا لا يدخـل تحت حصر. وكثيراً ما يوجد ديوان شعر ابن نباتة بخطّه. ومن شعره: [الوافر]

وكـنتُ إذا الـحــوادثُ دنَّسَـتْـنـي فَــرَغْتُ إلى المُــدامــةِ والنَّــديم

لأغْسِــلَ بــالكؤوس الـهَمَّ عَـنّي لأن الــراحَ صـابــونُ الــهُـمـوم

(١) المذهب الظاهري: هو مـذهب فقهي إسلامي يعتمـد على استنبـاط أحكامـه على ظـاهر النصّ القـرآني والحديث ويعرض عن التأويل والرأي والقياس. وأول مَن قال به داود بن علي بن خلف الأصبهاني الملقّب بداود الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠ هـ. ومن أشهر أتباع هذا المذهب والمجتهدين فيه ابن حزم الأنـدلسي. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

وكان بينه وبين ابن خطيب داريًا[١] أهاجيٌّ ومكاتبات، ثم بينه وبين شرف الدين عيسى العالية المعروف بعويس[٢]؛ وفيه يقول عويس المذكور: [المتقارب]

أيا مَعْشَرَ الصَّحْبِ مِنِّي اسْمَعُوا مقالي وكُسِّ أُخْتِ مَن يَنْتَكي
ألا فالْعَنُوا آكلين الحشيش ويُولوا على شارب البَشْتَكي

قلت: والبشتكي ضرب من المُسكِرات مثل التُّمُرْبَغاوي والشُّشُش. وله أيضاً فيه:

صحبت جندي لُوغِيَّه[٣] في السكر وأنواع الشروب
كيف ما أجي أُلقاه سكران والبشتكي تَحْتو مكبوب

وتوفي قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجّي بن موسى بن أحمد بن سعد الحسبانيّ السّعدي الدمشقي الشافعي، قاضي قضاة دمشق وكاتب السرّ بالديار المصرية، مذبوحاً على فراشه ببستانه بالنَّيْرَب خارج دمشق، في ليلة الأحد مستهل ذي القعدة، عن ثلاث وستّين سنة، ونسب قتله للزيني عبد الباسط، وللشريف شهاب الدين أحمد كاتب سرّ دمشق ثم مصر؛ وكان القاضي نجم الدين فقيهاً بارعاً فاضلاً كريماً حشماً وقوراً، له مكارم وأفضال وسؤدد، وهو أحد أعيان أهل دمشق وفقهائهم رحمه الله تعالى. وقد تقدّم ذكر محنته عندما وِلي كتابةَ سرّ مصر في ترجمة الملك الأشرف هذا، فليُنظر هناك.

وتوفي الملكُ المنصور عبد الله ابن الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف إسماعيل، صاحب اليمن في جمادى الأولى بها، وأُقيم بعده أخوه الملكُ الأشرف

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سليمان بن يعقوب الأنصاري المتوفى سنة ٨١٠ هـ. كان شاعر دمشق في عصره. وداريًا قرية من قرى غوطة دمشق. (الأعلام: ٥/ ٣٣٠).
(٢) هو عيسى بن حجّاج بن عيسى بن شدّاد السعدي القاهري المتوفى سنة ٨٠٧ هـ. وهو شاعر ظريف له شُهرة بمعرفة الشطرنج. وكان يلقب «عويساً» بتصغير اسمه. (الأعلام: ٥/ ١٠٢).
(٣) أي له غِيّة. وهو تعبير عامّي مصري بمعنى له ميل وهوى.

إسماعيل ثم خُلع بعد مدة، وأُقيم بعده الملك الظاهر هِزَبْر الدين يحيىٰ ابن الملك الأشرف إسماعيل في ثالث شهر رجب؛ وقد تقدّم ذكر نسبه في ترجمة والده من هذا الكتاب في سنة سبع وعشرين وثمانمائة. وفي أيام هؤلاء الملوك، تلاشى أمر اليمن، وطمع فيها كل أحد.

وتوفي القاضي بدرُ الدين محمد بن محمد [بن محمد بن إسماعيل بن علي البدر أبو عبد الله القرشي][(1)] القلقشندي الشافعي أمين[(2)] الحكم بالقاهرة، في يوم الاثنين رابع عشرين المحرّم؛ وكان مولده أيضاً في أول المحرّم من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وكانت لديه فضيلة وعنده مشاركة.

وتوفي القاضي تقي الدين محمد بن زكيّ الدين عبد الواحد بن عماد الدين محمد ابن قاضي القضاة علم الدين أحمد الإخنائي المالكي أحد نوّاب الحكم بالقاهرة وهو بمكة، في ثالث ذي الحجة، عن ثلاث وستّين سنة. وكان من بيت فضل وعلم ورئاسة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وخمسة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف برسْباي على مصر

وهي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي أميرُ الملأ عذراء بن [عليّ][(3)] بن نُعَيْر بن حَيّار بن مُهَنّا مقتولاً في المحرم.

وتوفي الأمير الفقيه سيف الدين بَكْتَمُر بن عبد الله السعدي، أحد أمراء

---

(1) زيادة عن الضوء اللامع.

(2) أي قاضي القضاة.

(3) زيادة عن السلوك والضوء اللامع.

الطبلخانات بالديار المصرية، في يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول، بسكنه بدار أستاذه القاضي سعد الدين إبراهيم بن غُراب بخط قنطرة طُقُزْدمر، ولم يخلّف بعده في أبناء جنسه مثله بل ولا في غير أبناء جنسه، لما اشتمل عليه من المحاسن: كان فاضلاً ديِّناً شجاعاً بارعاً في فنون الفروسية، انتهت إليه الرئاسة في حمل المُقَيَّرة(١) ورمي النُّشّاب في زمانه، هذا مع البشاشة والكرم وحُسْن الشكل والتواضع وحُسْن المحاضرة وجودة المشاركة في كل علم وفن، مع الفصاحة في اللغة التركية والعربية، والدين المتين والعفّة عن المنكرات والفروج؛ ولا أعرف مَن يدانيه في محاسنه، فكيف يشابهه! وكان طوالاً جسيماً ضخماً ذا قوة مُفرِطة، مليح الشكل، واللحية مدوّرة بادية الشيب. قبض مرة بأكتاف شخص من أعيان الخاصّكيَّة المشاهير بالقوة، وهزّه وأفلته، ثم قال له: «ما بقي فيك شيء يا فلان»، فلم ينطق ذلك الرجل بكلمة وذهب خجلاً لكثرة دعاويه، فقلت لبَكْتَمُر: «هذا الذي أنت فيه من كثرة الإدمان»، فقال: «منذ بلغتُ الحُلُمَ وأنا متزوج، غير أنني لا أهمل نفسي»، فقلت له: «هذه منح إلّهيَّة». ولما مات أنعم السلطان بطبلخانته على الأمير قُجْقَار جَغْتاي السيفي بَكْتَمُر جِلَّق. ومات بكتمر السعدي هذا وسنّه نحو خمسين سنة تخميناً، وكان رومي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانِبك بن عبد الله الأشرفي الدوادار الثاني وعظيم دولة أستاذه الأشرف بَرْسْباي في يوم الخميس سابع عشرين شهر ربيع الأول، وسنّه نحو خمسة وعشرين سنة تخميناً، ودفن بمدرسته التي أنشأها بخط القربيين خارج باب زويلة على الشارع، ثم نقل منها بعد مدة إلى تربة أستاذه بالصحراء، وحضر السلطانُ غسلَه ثم الصلاةَ عليه؛ وكان أُشيع عنه أن نفسه تحدّثه بالمُلك، فعاجلته المَنيّة. وكان أصله من مماليك الملك الأشرف برسباي، اشتراه صغيراً في أيام إمرته وقاسى معه خطوبَ الدهر أيامَ حبسه بقلعة المَرْقَب وغيرها، ولما تسلطن

(١) المُقيَّرة: مقرعة أو سوط لها سير من شعر مفتول. (حاشية طبعة كاليفورنيا: ١١١/٦). وفي القاموس أن القيِّر - كهيِّن - هو الحاذق من الرّماة.

الملك الأشرف عرف له ذلك مع محبته له، فرقّاه وأنعم عليه بإمرة عشرة وجعله خازنداراً، ثم أرسله بتقاليد الأمراء نوّاب الشأم: تَنِبَك البجَاسي وغيره، ثم أنعم عليه بعد حضوره بإمرة طبلخاناة، وخلع عليه بالدوادارية الثانية عوضاً عن الأمير قَرْقَمَاس الشعباني الناصري بحكم انتقاله إلى إمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ، فعظُم في الدولة ونالته السعادة، حتى تزايد أمره وخرج عن الحدّ من كثرة إنعامه وإظهار الجميل والأخذ بالخواطر، حتى ركن إليه غالب أعيان الدولة من الخاصْكِيَّة، وكثر تردّد الناس إليه، وصار أكابر الدولة مثل عبد الباسط وغيره تتردّد أيضاً إلى خدمته، إذا سمح لهم بذلك، وله عليهم الفضل؛ وصار أمرُه في نمو وزيادة، وقصده الناس من الأقطار لقضاء حوائجهم. وبينما هو في ذلك وقد اشتغل الناس به وأُشير إليه بالأصابع، وقد مرض ولزم الفراش مدة ونزل [السلطان] إلى عيادته مرة، ثم رسم بطلوعه إلى القلعة، فحُمل إليها وتولى السلطان تمريضه، فأفاق قليلاً وترعرع، فأُنزل إلى داره. وكان سكنه بالدار التي في سوق القبو الحسيني، وللدار باب من حدرة البقر، وهي الآن سكن الأمير يَشْبك الفقيه المؤيدي؛ وعند نزوله إليها عاوده المرض، ونزل إليه ثانياً فوجده كما قيل: [السريع]

لم يبقَ إلاّ نَفَسٌ خافِتٌ ومُقْلَةٌ إنْسانُها باهِتُ
يَرْثي له الشّامتُ مِمّا به يا ويحَ مَن يَرْثي له الشّامِتُ

وبعد طلوعه مات في تلك الليلة، فنزل السلطان إلى داره وحضر غسلَه ـ كما تقدم ـ والصلاةَ عليه.

وكان أميراً شابّاً حلو الشكالة، للقِصر أقرب، أخضر اللون مليح الوجه صغير اللحية مدوَّرها، فصيحاً ذكيّاً حاذقاً، متحرّكاً متجمّلاً في مركبه وملبسه وسِماطه إلى الغاية، يكتب كتابة ضعيفة ويقرأ، إلاّ أنه كان عارياً [من العلوم](١) لم يسبق له اشتغال [بعلم](١)، وما كان دأبه إلاّ فيما هو فيه من الأمر والنهي وتنفيذ الأمور؛ واتُّهم السلطان بموته، والله أعلم بحاله.

(١) زيادة لتوضيح السياق. وهي مناسبة للعبارات التي درج المؤلّف على استخدامها في هذا المجال.

وتوفي الشيخ المعتقد الصالح سعيد المغربي نزيل جامع الأزهر، به، في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول، بعد أن جاور بجامع الأزهر عدّة سنين. وكان للناس فيه اعتقاد كبير، وله كرامات ويُقصد للزيارة والتبرّك بدعائه. زرتُه غير مرة، ومات وقد علا سنّه وطال مرضه. وترك نحو الألفي دينار ما بين ذهب وفضة وفلوس.

وتوفي الأمير سيف الدين أَزْدَمُر بن عبد الله من علي جان الظاهري المعروف بأزْدَمُر شايا، في سادس شهر ربيع الآخر. وهو أحد أمراء حلب، بعد أن تنقل في عدّة إمريات بالشأم ومصر، وصار أمير مائة ومقدّم ألف بديار مصر، ثم أُخرج إلى نيابة ملطية، ثم نقل إلى إمرة بحلب إلى أن مات بها. وقد تقدّم التعريفُ بحاله عند إخراجه من مصر في ترجمة الملك الأشرف، ومات وسنّه نيف على خمسين سنة. وكان من سيئات الدهر: لم يُشهر بدين ولا كرم ولا شجاعة ولا معرفة ولا عقل، مع كِبْر وجبروت وظلم وسوء خلق. وكان قصيراً نحيفاً أصفرَ دميماً حقيراً في الأعين، وعُدَّ إخراجه من مصر من محاسن الملك الأشرف.

وتوفي الأمير سيف الدين كَمَشْبُغَا بن عبد الله الجمالي الظاهري أحد أمراء الطبلخانات بطّالاً، في يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، وقد علا سنّه؛ وكان من أكابر المماليك الظاهرية برقوق وممّن تأمّر في أيام أستاذه. وكان تركي الجنس عاقلاً فقيهاً ديّناً خيِّراً عفيفاً عن المنكرات والفروج، وطالت أيامُه في الإمرة، وتولى نيابة قلعة الجبل في الدولة الناصرية فرج، واستمرَّ من جملة أمراء الطبلخانات في صدر من الدولة الأشرفية بَرْسْباي إلى أن أُخرج الملكُ الأشرفُ إقطاعَه، فلزم داره على أحسن وجه إلى أن مات وهو في عشر الثمانين.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين يَشْبك [بن عبد الله] الساقي الظاهري الأعرج أتابك العساكر بالديار المصرية، في يوم السبت ثالث جمادى الآخرة؛ وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصْكِيَّته، وصار ساقياً في أيام أستاذه الظاهر. ثم ثار على الملك الناصر في أيام تلك الفتن، ووقع له أمور وحروب انصاب في بعضها بجرح أصابه، بطل منه شقته (؟) وصار يعرج منه عرجاً فاحشاً،

ثم عـوفي، وانتمى للأميـر نَوْرُوز الحـافظي إلى أن ولّاه نيـابةَ قلعـة حلب، إلى أن أمسكـه الملكُ المؤيدُ شيـخ وحبسه بعـد قتل نَـوْرُز؛ ثم نفاه إلى مكـة بـطّالاً سنين عديدة، إلى أن استقدمه الملك الظاهر طَطَر إلى القاهرة. ومات [طَطَر] قبل أن ينعم عليه بإمرة، فأنعم عليه الملك الأشرف بَرْسْباي بـإمرة مـائة وتقـدمة ألف عـوضاً عن قُرْمُش الأعور دفعة واحدة. ثم صار أمير سلاح، ثم ولي أتابكيةَ العساكر بعد الأميـر قُجُق العيساوي، فاستمر على ذلك إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان من رجال الدهر عقلاً وحزماً ودهاءً ومعرفةً وتدبيراً، مع مشاركة جيدة في الفقه والقراءات، ومعرفة تامّة بفنون الفروسية وأنواع المـلاعيب، كالـرمح والنّشـاب وغيره. وكان يكتب المنسوب ويحفظ القرآن. وكانت نفسه تحدّثه بأمور، فإنه كـان يكثر من ذكر أخبار تيمورلنك وشدّة بأسه لكونه كـان أعرج، وقـد صار أمـره إلى ما صـار. وهو الـذي حسَّن للملك الأشرف الاستيـلاء على بندر جـدة، والقبض على حسن بن عجلان. ولو عاش لحسَّن له أخذ اليمن كله. [وتولى الأتابكية بعده الأمير جارْقُطْلُو الظاهري](١).

وتوفي بدر الدين حسن كاتب سرّ دمشق وناظر جيشها، بها، في يوم الأربعـاء لستٍّ بقين من جمادى الآخرة؛ وكان أصله من سَمَرة دمشق. وخدم عند الأمير بَكْتَمُر جِلَّق نائب دمشق، ثم ترقّى إلى أن جمع له بين كتابة سرّ دمشق ونظر جيشها، بسفارة الأمير أُزْبَك المحمدي الدوادار الكبير، كون أُزْبَك كان متزوجاً ببنت زوجته.

وتوفي الشيخ الإمام العالم المفنن شمس الدين محمد بن عبد الدائم بن موسى البـرماوي الشـافعي، أحد فقهـاء الشافعيـة ومدرّس المـدرسة الصـلاحيـة بـالقـدس الشريف، في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الآخرة وقد أناف على ستّين سنـة، بعدما أفتى واشتغل عدّة سنين.

وتوفي القاضي بـدر الدين حسن بن أحمـد بن محمد البُـرْدَيْني الشافعي أحـد

---

(١) زيادة عن نسخة أيا صوفيا.

نوّاب القضاة الشافعية، في يوم الاثنين خامس عشرين شهر رجب وقد أناف على الثمانين سنة. وكان قاضي سوء لم يُشْهَر بعلم ولا دين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاثة أذرع سواء. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسباي على مصر

وهي سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارَنْباري[١] الشافعي أحد فقهاء الشافعية، في ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول، وقد أناف على التسعين سنة. وكان بارعاً في الفقه وأصوله والعربية والحساب، مشاركاً في عدّة فنون. وخطب ودرَّس وأفتى وأقرأ عدة سنين بدمياط والقاهرة.

وتوفي القاضي نور الدين علي الصفَّطي وكيل[٢] بيت المال وناظر الكسوة، في ليلة الثلاثاء سلخ جمادى الآخرة. وكان يباشر الشهادةَ بديوان العلائي آقْبَغا التِّمْرازي أمير مجلس، وعند أستاذه تِمْراز من قبله.

وتوفي الشريف عجلان بن نُمَيْر بن منصور بن جَمَّاز بن منصور بن جماز بن حمّاد بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنأ بن حسين بن مهنأ بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيىٰ بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب

(١) نسبة إلى بلدة بارنبار بمصر بالقرب من دمياط.

(٢) وكالة بيت المال: وظيفة عظيمة الشأن، وكان لمن يتولاّها التحدّث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراضٍ ودُور وغير ذلك. وكانت هذه الوظيفة لا تسند إلاّ لذوي الهيبة من شيوخ العدول، ويفوّض إليه عن الخليفة بيع ما يرى بيعه من كل ما يمتلك ويجوز التصرّف فيه شرعاً. كما كان له أيضاً عتق المماليك وتزويج الإماء وتضمين ما يقتضي الضمان وغير ذلك. وكان مجلس مَن يتولى هذه الوظيفة بدار العدل. ورتبته تكون تارة أرقى من رتبة المحتسب وأحياناً أقلّ منها. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦١) - وعن الألفاظ الاصطلاحية الأخرى الواردة هنا ينظر فهرس المصطلحات.

رضي الله عنه، مقتولاً في ذي الحجة، بعدما ولي إمارةَ المدينة النبوية غيرَ مرة.

وتوفي الأديبُ نور الدين علي بن عبد الله الشهير بابن عامرية، في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر بمدينة النحريرية بالغربية من أعمال القاهرة. وكان شاعراً أديباً مُكثِراً، وأكثر شعره في المدائح النبوية.

وتوفي الواعظ المُذَكِّر شهابُ الدين أحمد بن عمر بن عبد الله المعروف بالشابّ التائب بدمشق، في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رجب عن نحو سبعين سنة؛ وكانت لديه فضيلة، ورحل إلى البلاد، وصحب المشايخ، ونظم الشعر على قاعدة الصوفية، وحصل له قبول تامّ من الناس.

وتوفي العبد الصالح شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الصوفي، بعدما عمي بسنين، في ليلة الثلاثاء ثالث عشر المحرّم؛ ومولده في سنة تسع وأربعين.

قال المقريزي: «وهو أحد مَن صَحِبته من أهل العبادة والنسك. ورأَس مدةً، واتصل بالملك الظاهر برقوق، ووَلي نظرَ البيمارستان المنصوري بالقاهرة، وجالَ في الأقطار ورحل إلى بغداد والحجاز واليمن والهند رحمه الله تعالى».

وتوفي الأمير شمس الدين محمد بن سعيد المعروف بسويدان، أحد أئمة السلطان، في يوم الاثنين سابع صفر؛ وكان أبوه عبداً أسودَ، سكن القرافة ووُلد له ابنه هذا. وحفظ القرآن الكريم وقرأ مع الأجواق فأَعْجبَ الملك الظاهر برقوق صوته فجعله أحد أئمته، واستمر على ذلك إلى دولة الملك الناصر فرج فولّاه حسبة القاهرة، ثم عزله بعد مدة فعاد كما كان أولاً، يقرأ في الأجواق عند الناس ويأخذ الأجرة على ذلك. وصار رئيس جوقة، واستقرأْتُه أنا كثيراً. وكان أسودَ اللون طوالاً.

وتوفي الشيخ المعتقد محمد بن عبد الله بن حسن بن الموّاز في يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الله الشَّطَّنَوْفي[1] الشافعي

(١) نسبة إلى شَطْنَوْف، وهي قرية بمصر من نواحي كورة الغربية وعندها يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقاً =

في ليلة الاثنين سادس عشرين شهر ربيع الأول وقد قارب الثمانين. وبرع في الفقه والفرائض وغير ذلك، ودرّس عدّة سنين، وانتفع به جماعة كبيرة من الطلبة.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن مُزْهِر الدمشقي النابلسي كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، بها، في ليلة الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة عن نحو الخمسين سنة؛ وكان من بيت رئاسة. وَلِي أبوه كتابةَ سرّ دمشق، وباشر بدرُ الدين هذا كتاب الإنشاء بدمشق، واتصل بخدمة الأمير شيخ المحمودي نائب دمشق. فلما قَدِمَ شيخ إلى مصر بعد قتل الملك الناظر فرج، قَدِمَ ابن مُزْهِر هذا معه مع مَن قَدِمَ من الشاميين. ولما تسلطن شيخ ولّاه نظر الإسطبل السلطاني فدام على ذلك سنين. ثم ناب عن القاضي كمال الدين محمد بن البارزي في كتابة السرّ، وقام بأعباء الديوان في أيام علم الدين داؤد بن الكُوَيز ومَن بعده، إلى أن خلع عليه السلطان الملك الأشرفُ بَرْسباي باستقراره كاتبَ السرّ الشريف بالديار المصرية، فباشر الوظيفة بحُرمة وافرة، وأثرى وكثر ماله، إلى أن مات في التاريخ المذكور. قال[1]: وخلف مالاً كثيراً لطمع كان فيه وشُحّ.

وتوفي الشريف خَشْرَم بن دُوغَان بن جعفر بن هبة الله بن جَمّاز بن منصور بن جَمّاز بن شيحة الحسيني، أمير المدينة، مقتولاً أيضاً في حرب في ذي الحجة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وسبعة أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وستة عشر أصبعاً.

* * *

= إلى تنّيس، وفرقة تمضي غرباً إلى رشيد. (معجم البلدان: ٣٤٤/٣؛ وصبح الأعشى: ٣١٧/٣ ط. دار الكتب العلمية).

(١) في كثير من الأحيان يهمل المؤلّف ذكر اسم المصدر الذي ينقل عنه؛ فهو أحياناً يكتفي بذكر كلمة «قال» دون أن يكون السياق مفيداً في معرفة المصدر، وأحياناً أخرى يهمل كليّاً الإشارة إلى المصدر. والتحقيق يدلّنا على أن معظم نقوله (في تراجمه لوفيات هذه الفترة) كانت عن المقريزي في «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» وعن العيني في «عقد الجمان».

السنة التاسعة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسباي على مصر

وهي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة.

فيها كان الطاعون العظيم الذي لم نُدرك بمثله بمصر وقراها، بل وبغالب البلاد الشامية، حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الأشرف هذا في وقته.

[وكان هذا الطاعون أعظم من هذه الطواعين كلها وأفظعها، ولم يقع بالقاهرة ومصر بعد الطاعون العام الذي كان سنة تسع وأربعين وسبعمائة(١) نظير هذا الطاعون؛ وخالف هذا الطاعونُ الطواعين الماضية في أمور كثيرة، منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع، وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف، وأشياء غير ذلك ذكرناها في محلها](٢).

---

(١) حدث هذا الطاعون في أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٩ هـ. وقد شمل هذا الطاعون معظم أنحاء المعمورة فامتد من أقصى الشرق إلى أوروبا عبر الطرق التجارية المارّة بغرب آسيا والشام وآسيا الصغرى ومصر. وأطلقت المراجع الأوروبية على هذا الطاعون اسم (Black Death) أي الوباء الأسود، وحقّت عليه هذه التسمية أو ما هو أشنع منها لشدّة ما أحدثه من المرض والفناء في مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط. قال المقريزي: «وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس. وعملت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحُمِلَ أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحُفِرت الحفائر وأُلقوا فيها، وكانت الحفرة يُدفَن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر. ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عمّ أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البرّ». وقد ذكر المقريزي تفصيلات وافية عن آثار هذا الوباء في جميع أنحاء المعمورة وخاصة في مصر والبلدان الإسلامية. ـ انظر السلوك: ٧٥٩/٢ ـ ٧٩١ ـ قارن أيضاً ببدائع الزهور: حوادث سنة ٧٤٩ هـ، والنجوم الزاهرة، الجزء العاشر، ترجمة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وحوادث سنة ٧٤٩ هـ.

وقد لفت الدكتور محمد مصطفى زيادة إلى ناحية هامّة وخطيرة في هذا الشأن بقوله: «المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى أن الفناء الذي وقع في مختلف الأقاليم الأوروبية بسبب هذا الوباء نفسه أدّى إلى تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة. وفي أخبار هذا الوباء بأقاليم مصر والشام والشرق الأوسط كله مجال للباحثين في التاريخ الاقتصادي لهذه الأقاليم» (السلوك: ٧٨٥/٢، ح ٢). وهي دعوة نعتقد أنها ما زالت مفتوحة.

(٢) الفقرة الموضوعة بين معقوفين ساقطة في طبعة كاليفورنيا. وقد زدناها من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

وفيها توفي القاضي شرف الدين أبو الطيب محمد ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله الغَزّي الأصل، المصري، في ليلة الأربعاء سابع عشر ربيع الأول، ودفن بالصحراء، ومات بغير الطاعون؛ ومولده في ليلة السبت حادي عشرين ذي القعدة سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ونشأ بالقاهرة واشتغل يسيراً وخدم الأميرَ طَطَر مُوَقِّعاً(١) عدةَ سنين، فلما تسلطن رشّحه لنظر الجيش فلم يتم له ذلك، ووَلِي نظرَ الكسوة، ونظر أوقاف الأشراف، ثم نظر دار الضرب إلى أن مات. وكان شابّاً كريماً وفيه محبة لأهل العلم والفضل والصلاح، إلاّ أنه كان فيه حِدّة مزاج وبادرة مع تديّن وتحشُّم.

وتوفي الأمير سيف الدين أُزْبَك بن عبد الله المحمدي الظاهري برقوق الدوادار الكبير، بالقدس بطّالاً، في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الأول؛ وهو أحد المماليك الظاهرية برقوق وترقّى إلى أن صار أمير مائة ومقدَم ألف بدمشق، ثم قبض عليه الملك المؤيد شيخ بعد واقعة نَوْرُوز وحبسه سنين، إلى أن أطلقه في أواخر دولته، وأنعم عليه بإقطاع هيِّن بدمشق أميرَ عشرة.

فلما أن صار الأمر إلى الأمير طَطَر أنعم عليه بإمرة طبلخاناة بديار مصر، ثم صار أمير مائة ومقدم ألف، ثم رأس نوبة النُّوب بعد الأمير قصروه [من تِمْراز] في أوائل الدولة الأشرفية، ثم نقل إلى الدوادارية الكبرى بعد سُودون من عبد الرحمن، لما نقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تَنِبَك البَجَاسي، فدام في الدوادارية إلى أن أُشيع عنه أنه يريد الوثوب على السلطان، ولم يكن لذلك صحة، فأَخْرَجَه السلطان إلى القدس بطّالاً، ومُسفِّره الأمير قَراخُجا الحسني رأس نوبة، فدام بالقدس إلى أن مات.

وكان أميراً ضخماً عاقلاً حشماً مهاباً ديِّناً عفيفاً عن المنكرات والفروج، خليقاً للإمارة؛ وهو أحد مَن تولى تربيتي رحمه الله تعالى. ولقد كان به تجمُّل في الزمان وأهله.

---

(١) الموقّعون هم كتّاب الدست وكتّاب الدرج. ويرى القلقشندي أن تسمية «الموقع» تنطبق على كاتب الدست دون غيره. ـ راجع فهرس المصطلحات.

وتوفي القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جَكَم، ناظر الخاصّ الشريف في ليلة الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول بغير طاعون[١] ودفن بالقرافة، وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلاة المؤمني؛ وتولى ابنُه القاضي سعد الدين إبراهيم وظيفةَ نظر الخاص من بعده، وقد تطاول أعناق بني نصر الله وغيرهم إلى الوظيفة فلم يلتفت السلطانُ إلى أحد، وولّاها لسعد الدين المذكور.

وكان القاضي كريم الدين المذكور رئيساً حشماً متواضعاً كريماً بشوشاً هيِّناً ليِّناً ساكتاً[٢] عاقلاً. باشر في ابتداء أمره استيفاء الدولة[٣]، ثم نظر الدولة[٤]، وغيرهما من خدم أعيان الأمراء، آخرهم الملك الأشرف بَرْسْباي، إلى أن طلبه السلطان الملك الأشرف وولّاه نظر الخاصّ الشريف بعد عزل الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله عنها، واستقراره أستاداراً، في يوم الاثنينَ ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمانٍ وعشرين وثمانمائة؛ وكان ذلك آخر عهد بني نصر الله بهذه الوظيفة. واستقر في نظر الدولة من بعده أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم.

وباشر القاضي كريم الدين الوظيفة بحرمة وافرة، ونالته السعادة وعظم في الدولة وأثرى، ومشى حال الخاص[٥] في أيامه، حتى قيل إنه منذ وَلي الخاص إلى

(١) إشارة الكاتب هنا ـ وقبل هذا ـ إلى أن صاحب الترجمة مات بغير طاعون دلالة على أن القاعدة في تلك السنة كانت الموت بالطاعون، وأن الموت العادي هو الاستثناء.

(٢) كذا. ولعلّ الصواب: «ساكناً» بالنون الموحدة.

(٣) استيفاء الدولة: هي وظيفة مستوفي الدولة. وعمله ضبط كليات المال في كافّة المملكة في الشام ومصر، وكان يعاونه عدد من المستوفين. وهو من كتّاب الأموال، وعمله كمستوفي الصحبة، وليس من السهل التمييز بينهما. ومرتبة المستوفي عادة هي دون مرتبة الناظر في دواوين الدولة، غير أن أهمية المستوفي كانت تغلب أحياناً على أهمية الناظر. وقد بقي اسم المستوفي في بلاد فارس يطلق على كبار موظفي المالية إلى القرن التاسع عشر الميلادي. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ٣١٠ ـ ٣١١).

(٤) نظر الدولة أو نظر الدواوين: هي وظيفة ناظر الدولة أو ناظر الدواوين. ويسمى أحياناً ناظر النظّار أو الصاحب الشريف. وعمله مشاركة الوزير في التصرّف والنظر في المالية وأرزاق الموظفين من أصحاب الأقلام. (صبح الأعشى: ٥/٤٦٥).

(٥) أي انتعشت أحوال «خزانة الخاص» خاصة السلطان بما يصلها من الواردات من الجهات المختلفة التي كان يقفها السلطان لنفسه.

أن توفي لم يبطل الواصل عنه يوماً واحداً، مبالغةً في إقبال سعده وتيامُن الناس بولايته، ومات من غير نكبة(١) رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين كَمَشْبَغَا بن عبد الله الفيسي المزوّق الظاهري منفياً بدمشق، في رابع عشر شهر ربيع الآخر وقد ناهز الستّين سنة من العمر؛ وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، ورقاه الملك الناصر فرج إلى أن جعله أميرَ آخور كبيراً مدة يسيرة، ثم عزله الملك الناصر أيضاً، ثم وقع له أمور وانحطّ قدره في دولة الملك الأشرف بَرْسْباي، وتولى كشف البَرّ، وساءت سيرته من كثرة ظلمه وقلّة دينه مع الإسراف على نفسه؛ وفي الجملة فمُستراحٌ منه ومن مساوئه.

وتوفي السيد الشريف علي بن عنان بن مغامس بن رُمَيْثة. تقدّم أن اسم رميثة

---

(١) تميّزت دولة المماليك بقسميها (البحرية والبرجية) باشتداد الصراعات على السلطة والوظائف، وكانت القاعدة التي تحكم سلوك الجميع هي أن السلطة لِمَن سبق وغلب، وأن من حق ذوي السلطان التخلّص من خصومهم وحتى ممّن يشتبهون به. لذلك كانت السِمَة الغالبة على دولة المماليك هي التصفيات السياسية. وكلما كانت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية تسوء ويعمّ الفساد الإدارة والحكم (خاصة في دولة الجراكسة البرجية) كلما كانت النكبات تطاول كبار الموظفين الإداريين والعسكريين، أولئك الذين كانوا يحصلون على وظائفهم ببذل الأموال والرشوة، حتى إذ غضب السلطان على أحدهم لتقصيره في دفع ما يترتب عليه، أو بدا للسلطان استبداله بآخر أكثر بذلاً، نكبه واستصفى أمواله وممتلكاته. لذلك كان الموظف الكبير يعتبر محظوظاً وسعيداً إذ أمضى أيام وظيفته دون نكبة في نفسه أو ماله، الأمر الذي يحرص المؤلّف على الإشارة إليه كلما سنحت له الفرصة، وهي إشارات تدلّ على الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة السائدة.

وقد درس الأستاذ ڤيت (Wiet) تراجم ٢٢٥ موظفاً كبيراً في عصر المماليك، فوجد أن ٨٤ منهم أُعدموا، و٥ ماتوا في السجن، و٢ ماتا في الخارج بعد الخروج على السلطان الحاكم، و١٦ ماتوا في قتال العدو، و٨٨ ماتوا موتاً طبيعياً أثناء تولّيهم الوظيفة، و٦ أُحيلوا إلى التقاعد. ولم يستطع أن يجمع البيانات الكافية عن ١٦ منهم. وإذا استعرضنا حياة سلاطين دولة المماليك البحرية الممتدة بين عامي ٦٤٨ هـ و٧٨٤ هـ نجد أن سلاطينها الذين بلغوا خمسة وعشرين سلطاناً انتهت حياتهم على الشكل التالي: ٧ قتلوا أثناء تولّيهم السلطة، ٤ قتلوا بعد العزل والهرب، ٧ عُزلوا، اثنان هاربان، ٥ ماتوا وهم على كرسي السلطنة. هذا على مستوى دولة المماليك البحرية. وإذا أجرينا إحصاءات مماثلة على مستوى دولة الجراكسة فإننا يقيناً سنقع على بيانات تُظهر ازدياد نسبة التصفيات والنكبات في صفوف الحكّام وكبار الموظفين، ذلك أن المصادر التاريخية تُجمع على تراجع أحوال الدولة وفساد الحكم والإدارة واشتداد الصراعات في تلك الحقبة.

ـ انظر تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٩٤، للدكتور علي إبراهيم حسن.

منجد بن أبي نُميّ، وقد ذكرنا بقية نسبه في ترجمة الشريف حسن بن عجلان وغيره، فليُنظر هناك. وكانت وفاته بقلعة الجبل في يوم الأحد ثالث جمادى الآخرة بالطاعون. وكانت لديه فضيلة، ويذاكر بالشعر وغيره.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين بَيْبُغا بن عبد الله المظفَّري، وهو أمير مجلس، في ليلة الأربعاء سادس جمادى الآخرة بالطاعون. وهو أحد أعيان المماليك الظاهرية برقوق وممّن ترقّى في الدولة الناصرية فرج حتى صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، وصار من يوم ذاك ينتقل في الإمرة والحبوس شاماً ومصراً وإسكندريةً، فكان حاله أشبه بقول القائل: [المتقارب]

ويومٍ سمينٍ ويومٍ هزيلٍ ويومٍ أمَرّ من الحَنظَلَه
وليلٍ أبيتُ جليسَ الملوك وليلٍ أبيتُ على مَزْبلَه

إلى أن خَلع عليه الأشرفُ بَرْسْباي باستقراره أتابكَ العساكر بالديار المصرية بعد الأمير طَرَبَاي، فأقام على ذلك نحو ثلاث سنين أو دونها، وقَبض عليه الملكُ الأشرف وحبسه أيضاً بالإسكندرية، وذلك لبادرة كانت فيه، ومخاشنة في كلامه مع الملوك، مع سلامة الباطن، ولذلك كان كثيراً ما يُحبس ثم يُفرج عنه.

وقد تقدّم التعريفُ بحاله عندما أمسكه الملكُ الأشرفُ [في أصل ترجمة الأشرف][1] مستوفاةً، فدام بَيْبُغا المذكور في السجن مدة طويلة، ثم أطلقه السلطانُ [وسيَّره إلى دمياط بطّالاً، ثم نقله إلى القدس فلم تطل مدته، وطلبه السلطان][1] وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، وخلع عليه باستقراره أميرَ مجلس. ولما وَلي إمرةَ مجلس، صار يقعد على ميسرة السلطان فوق أمير سلاح، مراعاةً لما سبق له من الرئاسة من الأتابكية وغيرها، وكون أمير سلاح كان الأمير إينال الجَكَمي ـ أحد السَّيْفِيَّة[2] ـ ينظره في عينه أنه مملوكُ بعضِ خُجْداشِيَّته[3]. وكان بَيْبُغا أميراً جليلاً

(١) الزيادة من طبعة الهيئة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٢) السيفية: هم مماليك الأمراء السابقين من مقدّمي الألوف، وقد نقلوا إلى الديوان السلطاني بسبب وفاة أستاذهم أو نفيه أو قتله.

(٣) الخجداش أو الخشداش: هو الزميل في الخدمة المملوكية عند سيّد واحد. ـ راجع فهرس المصطلحات.

شجاعاً مهاباً مِقداماً، مع كرم وسلامة باطن وفحش في خطابه، من غير سفه على عادة جنس الأتراك. ومع هذا كله كان فيه دعابة حلوة يُحْتَمَل بها فحش خطابه وانحرافه. وهو أعظم مَن رأيناه من الملوك في أبناء جنسه رحمهُ الله.

وتوفي الأمير سيف الدين بردبك السيفي يَشْبك بن أَزْدَمُر المعروف بالأمير آخور، وهو أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في يوم الأحد عاشر جمادى الآخرة بالطاعون، وهو في الكهولية. وكان خدم بعد موت أستاذه يَشْبك بن أَزْدَمُر عند الأمير طَطَر وصار أميرَ آخورِه، فلما تسلطن ولّاه الأميرَ آخوريةَ الثانية بإمرة طبلخانة دفعةً واحدةً، ودام على ذلك سنين إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية؛ فدام على ذلك إلى أن مات. وكان شابّاً أشقرَ مليح الشكل حلو الوجه معتدل القامة عاقلاً حشماً ساكتاً كريماً متواضعاً وقوراً، قلّ أن ترى العيون مثله. وهو والد صاحبنا الزيني فرج بن بُرْدبك أحد الحجّاب بالديار المصرية.

وتوفي المقامُ الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي صاحب الترجمة في يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الأولى بالطاعون وقد ناهز الاحتلام، ودفن بمدرسة والده الأشرفية بخط العَنْبَريين من القاهرة. وأُمه خَوَنْد فاطمة من أولاد تجّار القرم، وكانت قبل الملك الأشرف تحت أستاذه الأمير دُقْماق المحمدي.

وكان المقام الناصري المذكور من أحسن الناس شكلاً، تظهر فيه مخايل النجابة والسكونِ والعقل.

وتوفي المقامُ الناصري محمد ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق ابن الأمير أَنَص الجاركسي بسجن الإسكندرية في يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الآخرة بالطاعون، وله من العمر إحدى وعشرون سنة. وأُمه أُم ولد مولَّدَة تسمى عاقولة. ودفن بالإسكندرية ثم نقل منها إلى تربة جدّه بالصحراء فيما أظن.

وتوفي الشيخُ الإمام العالم العلّامة، فريد عصره ووحيد دهره، نظام الدين يحيىٰ ابن العلّامة سيف الدين يوسف بن محمد بن عيسى السيرامي الحنفي شيخ

الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية، في جمادى الآخرة بالطاعون. وتولى مشيخةَ الظاهرية من بعده ولدُه عضدُ الدين عبد الرحمن، أخذها عن أبيه، وكان أبوه أخذها عن أبيه أيضاً. وكان الشيخ نظامُ الدين إماماً مفنّناً بارعاً في المعقول والمنقول، عارفاً بالمنطوق والمفهوم، مُشاركاً في فنون كثيرة، وأفتى ودرَّس وأشغل سنين عديدة إلى أن مات.

وتوفي السلطانُ الملكُ الصالح محمد ابن السلطان الملك الظاهر طَطَر، والسلطانُ الملك المظفَّر أحمد ابن السلطان الملك المؤيد شيخ، والخليفةُ المستعين بالله العباسي: الثلاثةُ بالطاعون، كلاهما في إسكندرية، والصالح بقلعة الجبل. وقد تقدّم ذكر ذلك في ترجمتهم غير أننا ذكرناهم هنا في جملة مَن مات بالطاعون، ولهذا لم يحرّر يوم وفاتهم لأنه تقدم - انتهى.

وتوفي الأمير الطواشي زين الدين مَرْجان[1] الهندي المسلمي خازندار[2] الملك المؤيد شيخ بالطاعون في سادس جمادى الآخرة. وكان أصله من خدّام التاجر ابن مسلم المصري، ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ أيام إمرته واختصّ به، فلما تسلطن جعله خازنداراً، ثم أمره بالتكلّم في وظيفة نظر الخاص عوضاً عن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله فتكلّم عليها أياماً. ومات المؤيد، وأُعيد ابنُ نصر الله، ثم ولّاه الأمير طَطَر زماماً[3] بعد أن قبض عليه بدمشق، ثم أطلقه، فدام في وظيفة الزمامية إلى أن عزله الملك الأشرف بَرْسْباي ونكبه وصادره فتُخُومل ولزم داره إلى أن مات. وكان من المُهْمَلين أرباب الحظوظ.

وتوفي الأمير زين الدين عبد القادر ابن الأمير فخر الدين عبد الغني ابن الوزير

---

(١) في الأصل: «كافور». والتصحيح عن هامش طبعة كاليفورنيا: ٥١٤/٦.

(٢) الخازندار أو الخزندار: هو المتحدّث في شأن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك. وهو من مقدّمي الألوف، ويتحاسب في هذه الأمور مع ناظر الخاص. (صبح الأعشى: ٢١/٤).

(٣) إذا كان المراد بذلك «الزمام دار» فيكون عمله التحدّث على باب ستارة السلطان أو الأمير ويوكل إليه أمر حفظ الحريم. أما إذا كان المراد بذلك «زمام القصر» فهو الذي يتولى إدارة خدّام القصر والإشراف على أعمالهم. (انظر صبح الأعشى: ٤٨١/٣، ٤٩٥، ٥٠٩، ٥٢١؛ و٤٥٩/٥، ٤٦٠).

تاج الدين عبد الرزّاق بن أبي الفرج، بعدما عزل عن الأستادارية، في يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة بالطاعون، ودفن على أبيه بمدرسته ببين السورين خارج القاهرة. وكان شابّاً جميلاً عاقلاً ساكناً قليل الشرّ بالنسبة إلى آبائه وأقاربه، كثير الشرّ بالنسبة إلى غيرهم. باشر الأستادارية بقلةِ حرمة وعدم التفات أهل الدولة إليه، وقاسى في مباشرته خطوبَ الدهر ألواناً من العجز والقلّ، وبيع موجوده وأملاكه، إلى أن أُعفي، فلم تطل أيامه ومات.

وتوفي السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن علاء الدين علي بن إبراهيم بن عدنان الحسيني الدمشقي، كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، في ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة بالطاعون. ومولده في شوّال سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق وبها نشأ. وتولى عدة وظائف بدمشق مثل كتابة السر وقضاء الشافعية ونظر الجيش، ثم طُلِبَ إلى مصر ووَلِي كتابةَ سرّها فلم تطل أيامه ومات.

وتولى أخوه الشريف عماد الدين أبو بكر كتابةَ السر من بعده، فركب إلى القلعة ثم مرض من يومه قبل أن يلبس خلعة كتابة السر، ومات بالطاعون أيضاً في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رجب ولم يبلغ الأربعين سنة. وكان أحسن سيرةً من أخيه شهاب الدين صاحب الترجمة.

وتوفي السيد الشريف سرداح[1] بن مقبل بن نخبار بن مقبل بن محمد بن راجح بن إدريس بن حسن بن قتادة بن إدريس، ومن هنا يُعرف نسبه من نسب حسن بن عجلان؛ ومات في أواخر جمادى الآخرة بالطاعون.

وتوفي الأمير الطواشي افتخار الدين ياقوت بن عبد الله الأَرْغُوني شاوي الحبشي مقدّم المماليك السلطانية بالطاعون، في يوم الاثنين ثاني شهر رجب ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء. وتولى عِوضَه التقدمةَ نائبُه خُشْقَدَم اليَشْبكي الرومي، وتولى نيابةَ المقدّم الطواشي فيروز الركني الرومي الجمدار. وأصل ياقوت هذا من خدّام الأمير

(١) ويُكتَب بالصاد، وهو الأصحّ. ولكن الأشهر بالسين كما في المتن.

أرْغُون شاه أمير مجلس الظاهر برقوق، تنقل في الخِدم إلى أن صار مقدم المماليك السلطانية. وكان ديِّناً خيِّراً جميل الطريقة محمود السيرة، سافر أميرَ حاجّ المحمل مرتين رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين يَشْبك بن عبد الله[1] أخو الملك الأشرف بَرْسْباي في رابع شهر رجب بالطاعون ودفن بالتربة الأشرفية، بعد أن صار من جملة أمراء الألوف أياماً؛ فإن السلطان كان أنعم عليه في أول قدومه إلى مصر في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة بإمرة طبلخاناة دفعة واحدة، فدام على ذلك إلى أن توفي الأمير بردبك الأمير آخور المقدّم ذكره بالطاعون، فأنعم على يَشْبك هذا بتقدمته، فمات هو أيضاً بعد أيام. وقد تقدّم في أصل ترجمة الملك الأشرف ذكر هذا الطاعون وعِظمه، وأنه كان ينتقل على الإقطاع الواحد الخمسةُ والستةُ من المماليك في مدة يسيرة، والكل يموتون بالطاعون - انتهى.

وأظن يَشْبك أنه كان أسَنَّ من السلطان الأشرف، فإنه لمّا استقدمه من بلاده مع جملة أقاربه قام له واعتنقه، وعرض عليه الإسلام فأسلم وحسن إسلامه. وكان لا بأس به في أمثاله مع قصر مدة إقامته بالديار المصرية.

وتوفي الشيخ نصر الله بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل العجمي الحنفي، في ليلة الجمعة سادس شهر رجب وهو في عشر الثمانين. وكان جميل الهيئة مقرّباً من خواطر الملوك، ورشح لكتابة السرّ. وكان يكتب المنسوب ويتكلّم في علم التصوّف على طريق ابن عربي، ويعرف علم الحَرْف على زعمه، مع مشاركة في فنون. وصحب الوالدَ مدة، وهو الذي نوّه بذكره وأنعم عليه بِرِزْقَةٍ[2] هائلة، وهي التي

(١) لم يعرف اسم والد السلطان برسباي، ولم يشتهر بأنه ابن عبد الله، في حين نرى هنا أن اسم عبد الله أُلحق باسم أخي برسباي هذا. وهناك عدد كبير لا يُحصى من المماليك والأمراء دُعِيَ كلٌّ منهم بابن عبد الله. وهذه التسمية الإسلامية العامّة (عبد الله) غدت في العصر المملوكي مصطلحاً يطلق اسماً على مَن لا يعلم اسمه من آباء المماليك، كما أوضح السخاوي في الضوء اللامع: ٧٤/٣.

(٢) الرِّزقة: هي عبارة عن قطعة أرض يمنحها السلطان لأحد الرعايا مكافأة له على خدمة أدّاها أو لمجرّد الإحسان إليه. وتكون هذه الرزق عادة معفاة من الضرائب وتستثنى من المساحات المقطعة للأمراء =

أوقفها نصرُ الله المذكور على داره التي جعلها بعد موته مدرسةً بالقرب من خان الخليلي بالقاهرة.

وتوفي القاضي فخر الدين ماجد ـ ويدعى أيضاً عبد الله بن السَّديد أبي الفضائل بن سناء الملك ـ المعروف بابن المزوّق، في ليلة الخميس ثاني عشر شهر رجب، بعد أن تولّى نظرَ الجيش، ثم كتابة السرّ بالديار المصرية في دولة الملك الناصر فرج، بسفارة سعد الدين إبراهيم بن غراب، ثم عزل وتولّى نظر الإسطبل السلطاني ثم عزله عنه أيضاً. وانحطّ قدره في الدولة إلى أن نكبه السلطان الملك الأشرف وأمسكه وضربه بالمقارع بسبب الأتابك جانِبك الصوفي، وقاسى بسببه أهوالاً، ثم لزم دارَه على أقبح حالة من الخوف والرجيف إلى أن مات.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم الفقيه زين الدين أبو بكر بن عمر بن عرفات القِمَنيّ[1] الشافعي العالِم المشهور، في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رجب بالطاعون عن ثمانين سنة؛ وكان من أعيان فقهاء الشافعية وفضلائهم، وله سمعة وصيت وترداد للأكابر. وأفتى ودرَّس بعدّة مدارس سنين كثيرة.

وتوفي الأمير سيف الدين هابيل بن عثمان (المدعو قَرَايُلك) بن طُرْعَلي التركماني الأصل بسجنه بقلعة الجبل، في يوم الجمعة ثالث عشر شهر رجب المذكور. وكان قُبض على هابيل هذا وهو نائب لأبيه قَرَايُلك بمدينة الرُّهَا في واقعة

= والأجناد. وقد تنحلّ هذه الرزق عن أصحابها بعد وفاتهم وتعود إلى الدولة. غير أن صاحب الرزقة كان يبادر عادة إلى حبسها (وقفها) على أعمال البرّ، على أن ينتفع بها هو مدة حياته ثم ذريّته من بعده جيلاً بعد جيل، ثم تؤول إلى أعمال الخير بعد فناء الذريّة، وكانت تعرف في هذه الحال باسم «الرزق الأحباسية». وبهذه الطريق كان صاحب الرزقة يضعها في مأمن من الاغتصاب. ولعلّ هذه الطريقة كانت أساساً هامّاً ورئيسياً في تكوّن الملكية الفردية للأراضي بمصر. غير أن ذلك لم يمنع السلطات الحاكمة في عصر المماليك من حلّ هذه الرزق ـ الموقوف منها وغير الموقوف ـ أكثر من مرّة. ووقعت محاولات لحلّها في العصر العثماني، غير أن بعض الوثائق تشير إلى أن بعضَ أصحاب الرزق الموقوفة استطاعوا استردادها عن طريق المحاكم الشرعية. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٦؛ والأرض والفلاح في مصر على مرّ العصور: ٢٣٣ ـ ٢٣٦).

(١) نسبة إلى قرية قمن بصعيد مصر. (معجم البلدان).

بين العساكر المصرية وبينه، حسبما تقدّم ذكره كله في أصل هذه الترجمة. ولما قُبض عليه حُمل إلى القاهرة فحبسه الملك الأشرف بالبرج بقلعة الجبل، إلى أن مات بالطاعون بعد أن سأل أبوه السلطانَ في إطلاقه غيرَ مرة.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم العلاّمة صدر الدين أحمد ابن القاضي جمال الدين محمود بن محمد بن عبد الله القَيْصَرِي الحنفي المعروف بابن العجمي، شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون، في يوم السبت رابع عشر شهر رجب بالطاعون، بعد أن وَلي نظرَ جيش دمشق وحِسبةَ القاهرة غيرَ مرة، وعدّة وظائف دينية، ودرَّس بعدّة مدارس آخرها استقراره في مشيخة الشيخونية وتدريسها. وكان إماماً بارعاً فاضلاً فقيهاً نحوياً مفنّناً في علوم كثيرة، معدوداً من علماء الحنفية، مع الذكاء وحُسْن التصوّر وجودة الفهم، رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي جلالُ الدين محمد ابن القاضي بدر الدين محمد بن مُزْهِر في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب ولم يبلغ العشرين سنة من العمر. وكان وَلي كتابةَ السرّ بالديار المصرية بعد وفاة أبيه أشهراً صورةً، والقاضي شرفُ الدين أبو بكر بن العجمي نائب كاتب السر هو المتكفل بمهمات ديوان الإنشاء، إلى أن عزله السلطان وخلع عليه بعد مدة بتوقيع المقام الناصري محمد ابن السلطان، فماتا جميعاً في هذا الطاعون. وكان جلال الدين المذكور من أحسن الشباب شكلاً.

وتوفي القاضي زين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميري المالكي في يوم الأربعاء ثالث شعبان، بعدما وَلي حسبةَ القاهرة ونظر البيمارستان المنصوري؛ وكان معدوداً من الرؤساء.

وتوفي شمسُ الدين محمد بن المعلمة السكندري المالكي في سابع شعبان. وكان يشارك في العربية وغيرها. ووليَ حسبةَ القاهرة في وقت. وكان مسرفاً على نفسه.

وتوفي الأميرُ مُدْلِج بن عليّ بن نُعَيْر بن حَيّار بن مُهَنّا أمير آل فضل مقتولاً في ثاني شوّال بظاهر حلب.

وتوفيت خَوَنْد هَاجر - زوجة الملك الظاهر برقوق وبنت الأتابك مَنْكَلي بَغَا الشَّمْسي - في رابع شهر رجب، وكانت تُعرف بخَوَنْد الكعكيين، لسكنها بخُط الكَعْكِيين بالقاهرة. وأُمها خَوَنْد فاطمة بنت الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون. وماتت وهي أعظم نساء عصرها رئاسةً وعراقةً.

وتوفي القاضي تقي الدين يحيىٰ ابن العلّامة شمس الدين محمد الكِرْماني الشافعي في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الآخرة، وكان بارعاً في عدّة فنون. وقَدِمَ من بغداد قبيل سنة ثمانمائة ومعه شرح أبيه على صحيح البخاري، ثم صحب الملك المؤيد شيخ أيام تلك الفتن، وسافر معه إلى طرابلس وغيرها، وتقلب معه في سائر تقلباته، ثم قدم معه القاهرة؛ فلما تسلطن أقرّه في نظر البيمارستان المنصوري، وكان ثقيل السمع، ثم عزل ولزم داره حتى مات.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً ونصف ذراع.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسباي على مصر

وهي سنة أربع وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير شهاب الدين أحمد الدوادار نائب الإسكندرية المعروف بابن الأَقْطع، بعد أن قَدِمَ القاهرةَ مريضاً في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة. وكان أبوه أُوجَاقِيّاً(١) في الإسطبل السلطاني، وقيل بل كان أُقطعَ يتكسّب بالتَّكَدِّي(٢)، وهو الأقرب. ونشأ ابنُه أحمد هذا تبعاً عند بعض الأجناد، ثم ترقّى حتى خدم جندياً عند جماعة من الأمراء، إلى أن صار دواداراً ثانياً عند الأمير علي باي المؤيدي.

---

(١) الأوجاقي والأوشاقي: هو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة.

(٢) التكدّي هو التسوّل.

ثم اتصل بخدمة الملك الأشرف وصار عنده دواداراً، فلما تسلطن جعله من جملة الدوادارية الصغار. واختصّ بالسلطان ونالته السعادة، ثم أمّره عشرةً وجعله زَرَدْكاشاً(١) كبيراً، ثم نقله إلى نيابة الإسكندرية بعد عزل آقْبَغا التِّمْرازي، فلم تطل مدته ومات بعد مرض طويل.

ولم أدرِ لأيّ معنى كانت خصوصية أحمد هذا وعليّ بن فحيمة السُّلاَخُوري(٢) بالسلطان، مع ما اشتملا عليه من الجهل المفرِط وقبح الشكالة ودناوة الأصل. وكان علي السُّلاَخُوري يبدل القاف بالهمزة كما هي عادة أوباش الناس من العامّة، وكان أحمد إذا تكلم أيضاً يتلغَّط بألفاظ العامّة السّوقة. وقد جالستُه بالخدمة السلطانية كثيراً فلم أجد له معرفة بفنٍّ من الفنون ولا علمٍ من العلوم. وكان إذا أخذ يتلاطف ويتذاوق يصحِّف ويقول: بتسردشيّ؟ فأعرِّفه - فيما بيني وبينه - بأنه يقول: تسرّت، وأوضّح له أنها تصحيفة «تشرب»، فيفهمها بعد جهد كبير. ثم إذا طال الأمر ينساها ويقولها أيضاً بالدال، وأظنه دام على ذلك إلى أن مات.

ومع هذا كان في نفسه أمور، وله دعاوى بالعرفان والتَّمَعْقُل، لا سيما إذا تمثّل بأمثال العامّة السافلة، فيتعجّب من ذلك الأتراك، ويُثْنى على ذوقه ومعرفته وغزير علمه وحُسْن تأدّيه في الخطاب، وأولهم السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي فإنه كان كثيراً ما يقتدي برأيه ويفاتحه في الكلام، فيكلّم أحمدَ في أمور المملكة بكلام لا يعرف هو معناه، ويسكت مَن عداه من أرباب الدولة والمعرفة، فأذكر أنا عند ذلك قول أبي العلاء المعرّي حيث قال: [الطويل]

فوا عجباً كم يَدَّعي الفضلَ ناقصٌ ... ووا أسفاً كم يَدَّعي النَّقْصَ فاضِلُ(٣)

وتوفي الشيخ الإمام العالم المفنّن مجد الدين إسماعيل بن أبي الحسن علي بن

---

(١) الزردكاش: هو صانع الزرد (السلاح عامّة) وعمله في الزردخاناه أو السلاح خاناه، وهي بيت السلاح.

(٢) السلاخور والسراخور: هو كبير المشرفين على دوابّ السلطان. - راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٣) في الأصل: «ناقصاً... فاضلاً» وهو خطأ.

عبد الله البرماوي الشافعي، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الآخر، عن أربع وثمانين سنة. وكان إماماً في الفقه والعربية والأصول وعدة فنون، وتصدّى للإقراء والتدريس عدة سنين.

وتوفي الصاحبُ الوزيرُ تاجُ الدين عبد الرزاق بن إبراهيم بن الهَيْصَم، في يوم الخميس العشرين من ذي الحجة، بعدما وَلِيَ الوزارة والأستادارية ونظر ديوان المُفْرد مراراً عديدة. وهو من بيت كبير في الكَتَبة قيل إنهم من ذريّة المقوقس صاحب مصر قبل الإسلام، والله أعلم.

وتوفي الشيخُ سراجُ الدين عمر بن منصور البَهَادُري الفقيه الطبيب الحنفي في يوم السبت ثاني عشر شوّال، بعدما برع في الفقه والنحو وانتهت إليه الرئاسة في الطب، وناب في الحكم عن القضاة الحنفية بالقاهرة. ومات ولم يخلف بعده مثله في التقدّم في علم الطب ومتونه.

وتوفي القاضي برهانُ الدين إبراهيم بن عليّ بن إسماعيل ـ المعروف بابن الظريف ـ أمين الحكم بالقاهرة، في يوم السبت خامس شوّال عن نحو ستّين سنة؛ وكان معدوداً من بياض الناس(١).

---

(١) بياض الناس هم الأثرياء الميسورون، وخاصة من التجّار. وتعبير «الناس» في العصر المملوكي كان يعني العامّة، وهي الفئة الثالثة في المجتمع بعد الطبقة الحاكمة وطبقة المماليك. على أن هذه الفئة الواسعة نفسها كانت تشتمل على درجات متفاوتة؛ فإذا قيل «بياض الناس» فالمراد بذلك الأثرياء والأعيان وكبار القضاة ورجال الدين. وإذا قيل «سواد الناس» فيعنون بذلك عامّة الناس من عمّال وحِرَفيين وكادحين ودافِعِي ضرائب بوجه عامّ. وسواد الناس يشتمل أيضاً على أكثر من فئة، فمنهم «أراذل الناس» ويقال لهم أيضاً الدهماء والغوغاء والرعاع، وأحياناً العوام ـ ويشتملون على أصحاب المِهَن المحقّرة مثل الزبّالين وعمّال المآتم والمُصارعين والمهرّجين والممثلين والمغنيات من النساء وما شابه ذلك. ومنهم جماعة اللصوص والمجرمين وكان يقال لهم الشطّار والعيّارون والزعر، ويسمّون أيضاً «أوباش الناس». وفي أدنى الدرجات الاجتماعية يأتي المُقامرون وتجّار البغاء والمشاعلية والمتسوّلون أو الحرافيش. وهؤلاء جميعاً يشكّلون «سواد الناس». وإذا أريد إضفاء مسحة من الاحترام على بعض سواد الناس كان يقال: عامّة الناس. ـ (انظر: مدن إسلامية في عهد المماليك: ١٣٧ ـ ١٤٦).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وثلاثة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً. وكان الوفاء ثامن عشرين أبيب مِسرَى بيومين، وهذا من خرق العادة؛ فسبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسْباي على مصر

وهي سنة خمس وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي القاضي شرفُ الدين عيسى بن محمد بن عيسى الأَقْفَهْسي[١] الشافعي، أحد عظماء نوّاب الحُكم بالديار المصرية، في ليلة الجمعة سادس عشرين جمادى الآخرة. ومولده في سنة خمسين وسبعمائة؛ وكان إماماً فقيهاً بارعاً في الفقه وفروعه مُشارِكاً في عدّة فنون. وتولى الحكم عن قاضي القضاة عماد الدين الكَرَكي في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة؛ وشُكرت سيرته وحُمدت طريقته لتحرّيه في الأحكام، ولعفّته عمّا يُرمى به قضاة السوء. ولقد شاهدت منه من التثبّت في أحكامه ما لم أُشاهده من قضاة زماننا، رحمه الله تعالى.

وتوفي السلطان حسين بن علاء الدولة ابن السلطان أحمد بن أُوَيْس، قتيلاً بيد الكافر أَصْبَهَان بن قَرَا يوسف التركماني في ثالث صفر، بعد أن حصره سبعة أشهر، حتى أخذه وقتله. وانقرضت بقتله دولة بني أُوَيْس الأتراك من العراق، وصار عراقا العرب والعجم[٢] بيد إسكندر بن قرا يوسف وإخوته، وهم كانوا سبباً لخراب تلك

---

(١) نسبة إلى أقفهس أو أقفهص بصعيد مصر. وينطقها العامّة: أقفاص، وينسبون إليها بالأقفاصي. (معجم البلدان ـ ومراصد الاطّلاع).

(٢) عراق العرب هو بغداد وبلادها وما يليها من ديار بكر وربيعة ومضر. أما عراق العجم فهي تسمية العامّة لبلاد الجبال، ويحدّها من الغرب أذربيجان، ومن الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن الشمال بلاد الديلم وقزوين والريّ. وقاعدة عراق العجم مدينة أصبهان. (صبح الأعشى: ٣٦٦/٤، ٤١٩، ط. دار الكتب العلمية).

الممالك التي كانت كرسي الإسلام ومنبع العلوم، أعني بني قرا يوسف.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد ابن القاضي صلاح الدين صالح بن أحمد بن عمر المعروف بابن السَّفّاح الحلبي الشافعي، كاتب سرّ حلب ثم كاتب سرّ مصر، وبها مات، في ليلة الأربعاء رابع عشر شهر رمضان عن ثلاث وستّين سنة، بعد أن باشر فيها كتابة سر حلب سنين عديدة بعد أخيه وأبيه. وصار لشهاب الدين هذا رئاسة بحلب وتمكُّن، فلما وَلِي كتاب سر مصر ابتلعه المنصب ولم يظهر لمباشرته نتيجة، وانحطّ قدره في الدولة بحيث إن المصريين صاروا يسخرون منه، لأنه كان يكلّم نفسه في حال ركوبه بين الناس في الشوارع وفي جلوسه أيضاً بين الملأ بكلام كثير، ويغضب بعضَ الأحيان من نفسه ويشير بالضرب بيده وبلسانه من غير أن يفهم أحد كلامه، وكان يقع ذلك منه حتى في الصلاة. ومع هذا كان فيه بُعَيْض حدّة ونزاقة، [مع دين وعفّة وصيانة](١)، مع أنه كانت بضاعتهُ من العلوم مُزْجاةً، وخطّه في غاية القبح، ويظهر من كلامه عدم ممارسته للعلوم.

ووقع بينه وبين قاضي القضاة عزّ الدين عبد العزيز بن العزّ البغدادي الحنبلي مفاوضة في بعض مجالس السلطان لمعنًى من المعاني، فكان من جملة كلام ابن السَّفّاح هذا، أن قال: «ريِّع الوقف» ـ وشدّد الياء ـ فقال عزّ الدين المذكور: «اسكت يا مرماد»، فضحك السلطان ومَن حضر، وانتصف عليه الحنبلي. فلما نزلا من القلعة، سألت مِن عزّ الدين عن قوله «مرماد»، فقال: «الأتراك كثيراً ما يلعبون الشطرنج، وقد صار بينهم أن الذي لا يعرف شيء يسمى مرماد، فقصدت الكلام بما اعتادوه وعرَّفتهم أنه لا يعرف شيئاً، وأنه جاهل بما يقول، وتمّ لي ما قصدته».

ولما مات ابن السَّفّاح تولى كتابةَ السرّ من بعده الصاحبُ كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ. ومع عدم أهلية الصاحب كريم الدين لهذه الوظيفة نتج فيها أمرُه وهابته الناس، ونفَّذ الأمورَ أحسنَ من ابن السَّفّاح.

---

(١) زيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

وتوفي قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التَّفَهْني(١) الحنفي، وهو غير قاض، في ليلة الأحد ثامن شوّال بعد مرض. ومولده في سنة أربع وستين [وسبعمائة]، ونشأ فقيراً مملّقاً، واشتغل حتى برع في الفقه والأصول والعربية وشارك في فنون، وأفتى ودرّس وناب في الحكم سنين كثيرة، ثم استقلّ بوظيفة القضاء. ولم تُشكر سيرته في ولايته لحدّة كانت فيه وسوء خلقه، مع القيام في حَظّ نفسه، وقصته مشهورة مع الميموني لما كفّره التَّفَهْني هذا وحكم بإراقة دمه في الملأ بالمدرسة الصالحية. ولما حكم بإراقة دم الميموني المذكور أراد [من] ابن حجر [أن] ينفّذ حكمه، فقال ابن حجر: «قاضي القضاة منغاظ، حتى يسكن خلقه». وانفضّ المجلس وتلاشى حكم التَّفَهْني. وعاش الميموني بعد ذلك دهراً، بعد أن أوسعه الميموني إساءةً في المجلس، وهو يقول له: «اتّقِ الله يا عبد الرحمن، أو نسيت قبقابَك الزحّاف وعمامتك القطن؟» والتَّفَهْني يُصفّر ويكرّر حكمه بإراقة دمه.

وكان سبب إبقاء الميموني في هذه القضية أنه شهّد بعض الحكماء أنه يعتريه شيء في عقله في الأوقات، فأُبقي لذلك؛ وكان أيضاً للناس فيه اعتقاد، فإنه يكثر التلاوة، ولقراءته موقع في النفوس، وعلى شيبته نور ووقار؛ وأنا ممّن كان يعتقده - انتهى.

وتوفي جينوس بن جاك بن بيدو بن أنطون بن جينوس متملّك قبرس وصاحب الواقعة مع المسلمين؛ وقد تقدّم ذكر غزوه والظفر به وقدومه إلى مصر في أوائل هذا الجزء مفصّلاً، ثم ذكر عوده إلى بلاده وملكه، وتولى ابنه قبرس من بعده.

وتوفي الصاحب علم الدين يحيىٰ - المعروف بأبي كَمّ القبطي - في ليلة الخميس ثاني عشرين شهر رمضان وقد أناف على السبعين سنة، بعد أن ولِيَ الوزارة في دولة الملك الناصر فرج.

وكان قد حَسُنَ إسلامه وترك معاشرة النصارى وحجّ وجاور بمكة، وصار يكثر

---

(١) نسبة إلى تَفَهْنا، بليدة بمصر من ناحية جزيرة قويسنا. (معجم البلدان).

من زيارة الصالحين الأحياء والأموات، وانسلخ من أبناء جنسه انسلاخاً كليّاً، بحيث إنه كان لا يجتمع بنصراني إلّا عن ضرورة عظيمة وكان دأبه الأفعال الجميلة، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: .

الماء القديم لم يظهر، فإنها حُوِّلت[1] هذه السنة إلى سنة ستّ وثلاثين وثمانمائة.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة [الملك] الأشرف بَرْسْباي على مصر

وهي سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

فيها كانت سفرة السلطان الملك الأشرف هذا إلى آمد، وعاد في أوائل سنة سبع وثلاثين، وقد تقدّم ذكر ذلك كله.

وفيها توفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الأموي المالكي بدمشق، في يوم الثلاثاء حادي عشر صفر؛ وكان وَلِيَ في دولة الملك المؤيد شيخ قضاء المالكية بالديار المصرية، وكان قليل العلم.

وتوفي التاجر نور الدين علي بن جلال الدين محمد الطُّنْبَذي[2]، في ليلة الجمعة رابع عشر صفر، عن سبعين سنة، وترك مالاً كبيراً لم يبارك الله فيه لذريّته من بعده. ولم يُشْهر نور الدين هذا بكرم ولا دين ولا علم.

وتوفي الأمير علاء الدين مَنْكَلي بَغَا الصلاحي الظاهري المعروف بالعجمي، أحد الحجاب بالديار المصرية، في ليلة الخميس حادي عشر شهر ربيع الأول،

---

(١) تحويل السنين هو إجراء خراجي يتمّ كل ٣٣ سنة، فينقل خراج السنة الثالثة والثلاثين إلى السنة الخامسة والثلاثين ويلغى خراج السنة الرابعة والثلاثين، وذلك للتوفيق بين السنة الخراجية (الهلالية) والسنة الشمسية. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: تحويل السنين.

(٢) نسبة إلى طَنْبَذة، من أعمال البهنسا بصعيد مصر (معجم البلدان).

بعد مرض طال به سنين؛ وكان أحد الدوادارية الصغار في أيام أستاذه الملك الظاهر برقوق، وتوجّه رسولاً إلى تيمورلنك في دولة الملك الناصر فرج، ثم وَلِيَ حسبة القاهرة في دولة الملك المؤيد شيخ، ثم صار من جملة الحجاب إلى أن مات. وكان فقيهاً صاحب محاضرة حلوة ومجالسة حسنة، ويُذاكر بالشعر باللغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية، ويكتب الخط المنسوب، ويحضر مجالس الفقراء، ويرقص في السَّماع، ويميل إلى التصوّف. [جالسته كثيراً وأُسعدت من محاسنه رحمه الله](١).

وتوفي الأمير تَغْرِي بَرْدِي بن عبد الله المحمودي الناصري، رأس نوبة النوب أولاً، ثم أتابك دمشق آخراً، من جرح أصابه في رجله بسهم من مدينة آمد، مات منه بعد أيام قليلة بآمد. مات في شوّال ودفن بآمد، ثم نقل منها في سِحْلِيَّة عند رحيل العسكر، وساروا به إلى الرّها، فدفن بها لمشقّة نالت العساكر من ظهور رائحته.

وكان أصله من مماليك الملك الناصر فرج، وممّن تأمّر في دولة أستاذه فيما أظن. ثم انتمى للأمير نوروز الحافظي بعد موت أستاذه، إلى أن أمسكه الملك المؤيّد شيخ، وحبسه بعد قتل نوروز، فدام في السجن سنين إلى أن أخرجه المؤيد في أواخر دولته. فلما آل الأمر إلى الأمير طَطَر أنعم عليه بإمرة طبلخاناة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بعد موت طَطَر. ثم صار رأس نوبة النوب بعد الأمير أُزْبَك المحمدي بحكم انتقال أُزْبَك إلى الدوادارية الكبرى، بعد ولاية سودون من عبد الرحمن لنيابة دمشق، عندما خرج تَنِبَك البَجَاسي عن الطاعة. كل ذلك في سنة ستّ وعشرين وثمانمائة. ودام المحمودي على ذلك سنين، سافر فيها أميرَ حاج المحمل، وقَدِمَ بالشريف حسن بن عجلان، ثم توجّه إلى غزوة قبرس وقَدِمَ بملكها أسيراً. وقد تقدّم ذكر ذلك كله في أول هذا الجزء. ثم بعد عوده من قبرس بمدة يسيرة أمسكه السلطان وحبسه بسجن الإسكندرية، ثم نقله إلى ثغر دمياط

(١) الزيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

بطالاً، ثم أنعم عليه بأتابكية دمشق عوضاً عن قاني باي الحمزاوي، بحكم انتقال الحمزاوي إلى تقدمة ألف بمصر. ثم سافر المحمودي صحبة السلطان إلى آمد، فأُصيب بسهم فمات منه حسبما ذَكرناه. وكان أميراً جليلاً شجاعاً مِقداماً طوالاً رشيقاً مليح الشكل، كثير التجمّل في ملبسه ومركبه ومماليكه، وهو أول مَن لبس التخافيف الكبار العالية من الأمراء، وتداول الناس ذلك من بعده حتى خرجوا عن الحدّ، وصارت التخفيفة الآن تلف شبه الكَلْفَتاه حتى تصير كالطبق الهائل؛ وعندي أنها غير لائقة، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهري، المعروف بسُودون ميق، أحد أُمراء الألوف بالديار المصرية، من جرح أصابه بآمد، من سهم من مدينتها، لزم منه الفراش أياماً، ومات أيضاً في أواخر شوّال.

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق الصغار، وصار خاصكياً، ومن جملة الدوادارية في دولة الملك المؤيّد شيخ، ثم ترقّى إلى أن صار من جملة أمراء الطبلخانات ورأس نوبة، ثم نقل إلى الأمير آخورية الثانية، كل ذلك في دولة الملك الأشرف بَرْسْباي، فدام على ذلك سنين، إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، فاستمر على ذلك إلى أن مات. وكان متوسط السيرة في غالب خصاله، لا بأس به، رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين جانِبك بن عبد الله الحمزاوي، بعد أن وَلِيَ نيابة غزة، فمات قبل أن يصلها في عوده من آمد، في ذي الحجة. وكان أصله من مماليك الأمير سُودون الحمزاوي الدوادار الكبير في الدولة الناصرية، ثم تنقّل في الخدم من بعد أُستاذه، إلى أن وَلِيَ نيابة بعض القلاع بالبلاد الشامية؛ ولما خرج قاني باي نائب الشام وانضمّ معه غالب نوّاب البلاد الشامية، كان جانِبك هذا ممّن انضمّ عليه وهرب بعد مسك قاني باي مع مَن هرب من الأمراء إلى قرا يوسف، ثم قَدِمَ أيضاً معهم على الأمير طَطَر بدمشق فأنعم عليه طَطَر بإمرة بدمشق، ثم صار حاجب حجاب طرابلس مدة سنين، ثم نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وسافر صحبة السلطان إلى آمد، وبعد عوده خلع السلطان عليه بحلب

بنيابة غزة عوضاً عن الأمير إينال العلائي الناصري المنتقل إلى نيابة الرُّها، لكونها كانت خراباً ليس بها ما يقوم بكلفته، وقد حكينا ذلك فيما سبق. وكان جانِبك هذا ممّن اتُّهِم بأنه يريد الوثوب على السلطان، فلما وصل السلطان إلى حلب أقرّه في نيابة غزة على كره منه، فهزّ رأسه وأمسك لحيته بعد لبسه الخلعة؛ وبلغ الأشرف ذلك على ما قيل، فقال: «حتى يصل إلى غزة»، فمات حول بعلبك.

وكان شيخاً طوالاً مشهوراً بالشجاعة؛ غير أني لم أعرف منه إلّا الإسراف على نفسه والانهماك في السُّكر. وأما لفظه وعبارته ففي الغاية من الجهل والإهمال. ومن ركوبه على الفرس كنت أعرف أنه لم يمارس أنواع الفروسية كالرمح والبرجاس وغيره. وبالجملة فإنه كان من المهملين، وقد خفّف الله بموته، عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين تَنِبَك بن عبد الله، من سيِّدي بك الناصري، أحدُ أمراء العشرات ورأس نوبة، المعروف بالبَهْلوان(١)، من جرح أصابه بآمد في شوّال أيضاً بها. وكان عارفاً بفنّ الصراع من الأقوياء في ذلك، مع تكبّر وشَمَم وادّعاء زائد. وقد حكى لي عنه بعض أصحابه أنه كان إماماً في فنّ الصراع، ويُجيد لعب الرمح لا غير، وليس عنده من الشجاعة والإقدام بمقدار القيراط من صناعته، وأظنه صادقاً في نقله لأن سحنته كانت تدلّ على ذلك.

وتوفي الملك الأشرف شهاب الدين أحمد ابن الملك العادل سليمان ابن الملك المجاهد غازي ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الأوحد عبد الله ابن الملك المعظّم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ابن السلطان الملك الكامل محمد صاحب مصر، ابن السلطان الملك العادل أبي بكر صاحب مصر، ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الأيوبي صاحب حصن كَيْفا، قتيلاً بيد أعوان قرايلك، بين آمد والحصن، وقد سار من بلده حصن كَيْفا، يريد القدوم على السلطان الملك

---

(١) كان يطلق لقب البهلوان عادة على مَن يجيد فن الصراع من المماليك. (الضوء اللّامع: ٣/٧٦).

الأشرف برسباي على آمد، فقتل في طريقه غدراً؛ فإنه كان خرج من الحصن بغير استعداد لقتال، وإنما تهيأ للسلام على الملك الأشرف، وبينما هو في طريقه أدركته بعض الصلوات، فنزل وتوضأ وقام في صلاته، وإذا بالقرايلكية طرقوه هو وعساكره بغتة، وقبل أن يركب أصابه سهم قتل منه. وَوَجدَ السلطان الملك الأشرف عليه كثيراً وتأسف لموته. وكان ابتداء ملكه بحصن كَيْفا، بعد موت أبيه العادل في سنة سبع وعشرين وثمانمائة. وكان فاضلاً أديباً بارعاً، وله ديوان شعر، ووقفت على كثير من شعره، وكتبت منه نبذة كبيرة في ترجمته في المنهل الصافي.

وتولى بعده سلطنةَ الحصن ابنُه الملك الكامل صلاح الدين خليل.

وتوفي القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن أفتكين الدمشقي، كاتب سرّ دمشق بها، في ذي القعدة. وتولى كتابة السر من بعده القاضي نجم الدين يحيىٰ ابن المدني ناظر جيش حلب. قلت: لا أعرف من أحوال تاج الدين هذا شيئاً، غير أنني علمت بولايته ثم بوفاته.

وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن غلام الله بن أحمد بن محمد الكوم ريشي[1]، في سادس عشرين شهر صفر، وقد أناف على خمسين سنة. وكان أستاذاً في علم الميقات، ويحلّ التقويم من الزيج، ويشارك في أحكام النجوم؛ ومات ولم يخلف بعده مثله في فنونه، رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وثلاثة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وخمسة أصابع.

* * *

(١) نسبة إلى كوم الريش من ضواحي القاهرة. كانت من متنزهات القاهرة، ومكانها اليوم الزاوية الحمراء بضواحي القاهرة. (خطط المقريزي: ١/١٣٠؛ والقاموس الجغرافي: ١/٣٩٣).

السنة الثالثة عشرة من سلطنة [الملك] الأشرف برسْباي على مصر

وهي سنة سبع وثلاثين وثمانمائة.

وفيها توفي الأمير سيف الدين مُقبل بن عبد الله الحُسامي الدوادار، نائب صفد بها، في يوم الجمعة تاسع عشرين شهر ربيع الأول. وأصله من مماليك شخص يسمى حسام الدين لاجين، من أمراء دمشق والبلاد الشامية، ثم خدم عند الملك المؤيد شيخ أيام إمرته، فاختصّ به لغزير محاسنه؛ ولما تسلطن المؤيد، جعله خاصكيًّا رأسَ نوبة الجَمَدَارِيّة[1]، وحجّ على تلك الوظيفة. ثم بعد قدومه، أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم جعله أميرَ طبلخاناه ودواداراً ثانياً بعد جقمق الأرْغُون شَاوي، بحكم انتقال جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد انتقال آقباي المؤيدي إلى نيابة حلب بعد عصيان إينال الصصلاني. ثم بعد سنين نقَله إلى الدوادارية الكبرى بعد جقمق أيضاً بحكم انتقاله إلى نيابة الشام بعد عزل الأمير تَنبَك مِيق وقدومه إلى القاهرة أميرَ مائة ومقدَم ألف، فدام مُقبل على ذلك إلى أن مات الملك المؤيد، وآل الأمر إلى الأمير طَطَر، وأمسك قُجْقَار القَرْدَمي، ففرّ مُقبل المذكور من القاهرة، ومعه السيفي يَلَخُجَا من مامش الساقي الناصري ومماليكه إلى جهة البلاد الشامية، فعاقهم العُربان أرباب الأدراك[2] عن التوصّل إلى قَطْيا، وقاتلوهم بعد أن تكاثروا عليهم.

وكان مُقبل من الشجعان، فثبت لهم، ولا زال يقاتلهم وهو منهزم منهم إلى الطِّينَة، فوجدوا بها مركباً فركبوا فيه، وتركوا ما معهم من الخيول والأثقال أخذوها

---

(١) الجمدارية: جمع جمدار، وهو الموظف الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. ولفظ «نوبة» له معانٍ اصطلاحية كثيرة، أحدها الفرقة من الجند (وهو المراد هنا). والنوبة عند المغنّين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معاً، وربما أُطلقت على المغنّين إذا اجتمعوا، ويسمّيهم الأتراك النوبتجية. ويقال: ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر. والنوبة أيضاً الوقعة الحربية. (محيط المحيط ـ ومعجم دوزي: Suppl.Dict.Ar. ـ وصبح الأعشى: ٥/٤٥٩).

(٢) أرباب الأدراك: هم الذين يقومون بالحراسة. والمراد بهم هنا عربان الطاعة الذين كانت تستخدمهم السلطات المملوكية في حماية الثغور ومساعدتها في التصدّي لحركات العصيان.

العرب، وساروا في البحر إلى الشام. واجتمع مقبل مع الأمير جقمق وصار مع حزبه، ووقع له أمور ذكرناها في ترجمة الملك المظفر أحمد، إلى أن آل أمرُه أنه أمسك وحُبس، ثم أُطلق، وولي حجوبية دمشق.

ثم نقله الملك الأشرف إلى نيابة صفد، بعد عصيان نائبها الأمير إينال الظاهري طَطَر، فاستمر في نيابة صفد إلى أن مات. وكان رومي الجنس شجاعاً مقداماً رأساً في رمي النشاب، يُضرب برميه المثل. وكان أستاذه الملك المؤيد يُعجب به، وناهيك بمَن كان يُعجب الملك المؤيد به من المماليك.

وتوفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمود بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن أبي العزّ الدمشقي الحنفي، المعروف بابن كِشْك، بدمشق، في ليلة الخميس سابع شهر ربيع الأول، بعد أن ولي قضاء الحنفية بدمشق سنين كثيرة، وجمع بينها وبين نظر الجيش بدمشق في بعض الأحيان، وطُلب لكتابة سر مصر فأبى وامتنع واستعفى من ذلك حتى أُعفي.

وكان من أعيان أهل دمشق في زمانه، ولم يكن في الشاميين مَن يدانيه في العراقة والرئاسة. وقد رشّح بعض أجداده من بني العزّ لخطابة جامع تَنْكِز[1] عندما عمّره تَنْكِز؛ وهُم بيت علم وفضل ورئاسة، ليس بالبلاد الشامية مَن هو أعرق منهم غير بني العديم الحلبيين، ثم بعد بني العزّ هؤلاء بنو البارِزي الحمويون ـ انتهى.

وتوفي قاضي القضاة جمال الدين محمد بن علي بن أبي بكر الشَّيْبي الشافعي المكّي قاضي قضاة مكة وشيخ الحَجَبة بباب الكعبة، بها، في ليلة الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الأول، عن نحو سبعين سنة، وهو قاضٍ. وكان خيِّراً ديِّناً مشكور السِّيرة سمحاً متواضعاً بارعاً في الأدب، وله مشاركة جيدة في التاريخ وغيره، لما رآه؛ فإنه كان رحل إلى اليمن وغيره وجالَ في البلاد، رحمه الله.

---

(١) جامع تنكز: أنشأه أمير الأمراء نائب الشام سيف الدين تنكز سنة ٧١٧ هـ. وموقعه ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق على نهر بانياس بدمشق. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢/٣٢٧).

وتوفي الأمير سيف الدين آقبَغَا بن عبد الله الجمالي الأستادّار، وهو يلي كشف البحيرة، قتيلاً بيد العرب في واقعة كانت بينه وبينهم، في حادي عشرين شهر ربيع الآخر. وكان أصله من مماليك الأمير كَمَشْبَغَا الجمالي أحد أمراء الطبلخانات المقدّم ذكره في سنة ثلاث وثلاثين، وكان يسافر إلى إقطاعه. ثم تعانَى البَلْص(١)، ولا زال يترقّى إلى أو وَلِيَ الكشف بعدّة أقاليم. ثم وَلِيَ الأستادّارية مرتين حسبما تقدّم ذكره. كل ذلك في حياة أستاذه كَمَشْبَغَا الجمالي. ونُكب في ولايته الثانية وامتُحن وضرب وصودر. ثم سافر مع الملك الأشرف إلى آمِد فظهر منه هناك شجاعة وإقدام في قتال القَرَايُلُكية؛ فأنعم عليه السلطان بإقطاع تَنِبَك البهلوان بعد موته، ثم ولّاه بعد قدومه إلى مصر كشف الوجه القبلي، ثم نقله إلى كشف الوجه البحري فقُتل هناك.

وكان وضيعاً من الأوباش، لا يشبه فعلهُ أفعالُ المماليك في حركاته وسكونه ولا في قتاله. على أنه كان مشهوراً بالشجاعة، وشجاعته كانت مشتركة بجنون وسرعة حركة. وكان أهوجَ قليل الحشمة، ليس عليه رونق ولا أُبَّهة؛ وكان إذا تكلم يكرر في كلامه اسم «دا» غير مرة، بحيث إنه كان يتكلم الكلمة الواحدة ثم يقول اسم «دا». وفي الجملة أنه كان من الأوغاد، ولولا أنه ولي الأستادارية ما ذكرته في هذا الكتاب ولا غيره.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جَارْقُطْلُو بن عبد الله الظاهري أتابك العساكر بالديار المصرية، ثم كافل المملكة الشامية بها، في ليلة الاثنين تاسع عشر شهر

---

(١) البلْص: هو أخذ إتاوات أو رشاوى خلسة وبغير وجه حق، وذلك لصالح الشخص أو الموظف الذي يتولى أمراً من أمور الناس يتصل بمصالحهم ومعايشهم. وقد انتشرت هذه الآفة في العصر المملوكي حتى وصلت إلى الأوقاف والحِسبة والقضاء. وقد بلغ من شدّة انتشارها وقوة تحكّمها أن صار بعض وُلاة المصالح يعيّنون شخصاً يقوم بجمع الإتاوات لصالحهم يسمى البلّاصي - والجمع بلاصيّة. وكان البلاصيّ موظفاً محلياً أو جندياً تابعاً للكاشف الذي يكون عادة أمير طبلخاناه. ويتولّى الكاشف الإشراف على أحوال الأراضي والجسور والترع في ناحية من النواحي، ولذلك كان يسمى كاشف التراب. والمؤلّف يستعمل أيضاً لفظ «البلاصيّ» بالمعنى العام للكلمة الذي يفيد أخذ الرشوة من الناس.

رجب، وهو في عشر السبعين. وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، ومن إنْيات(١) سُودون المارَداني. وتأمَّر في الدولة الناصرية، ثم ولي في الدولة المؤيدية نيابة حماه، ثم نيابة صفد. ثم أعاده الأمير طَطَر إلى نيابة حماه ثانياً بعد إنْيِهِ تَنِبَك البَجَاسي لما نقل إلى نيابة طرابلس، فدام بحماه إلى أن نقله الملك الأشرف إلى نيابة حلب بعد إنْيِهِ تَنِبَك البجاسي أيضاً، لما نقل تَنِبَك إلى نيابة الشام، بعد موت تَنِبَك مِيق، فدام جَارْقُطْلُو في نيابة حلب إلى أن عزله الملك الأشرف، واستقدمه إلى القاهرة أميرَ مائة ومقدمَ ألف، ثم خلع عليه باستقراره أميرَ مجلس. ثم نقله إلى الأتابكية بالديار المصرية بعد موت الأمير يَشْبك الساقي الأعرج، فدام على ذلك سنين إلى أن ولّاه الملك الأشرف نيابة دمشق بعد عزل سُودون من عبد الرحمن عنها، واستقر سُودون من عبد الرحمن أتابكاً عوضه، فاستمر على نيابة دمشق إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان أميراً جليلاً مهاباً شهماً متجمّلاً في جميع أحواله. وكان قصيراً بطيناً أبيض الرأس واللحية، وفيه دعابة وهزل مع إسراف على نفسه. وسيرته مشكورة في ولايته. قلت: كان ظلمه على نفسه لا على غيره، والله تعالى يسامحه بمنّه وكرمه.

وكان له خصوصية زائدة عند الملك الأشرف بَرْسْباي، بحيث إني سمعته مراراً يبالغ في شيء لا يفعله بقوله: «لو سألني جارْقُطْلُو في هذا ما فعلته». وكان إذا جلس قاضي القضاة بدر الدين العيني عند السلطان في ليالي الخِدَم(٢)، وأخذ في قراءة شيء من التواريخ، يشير إليه السلطان بحيث لا يعلم جارْقُطْلُو، فينتقل بما هو فيه إلى شيء من الوعظيات، ويأخذ في التشديد على شَرَبة الخمر وما أشبه

---

(١) الإنْيات: جمع إنّي، وهو المملوك الصغير في الخدمة يكون برعاية مملوك كبير، فيكون الصغير إنّياً للكبير، أي رفيقاً صغيراً (خشداشاً) له. أما العلاقة بين مملوكين كبيرين فهي الخشداشية أو الزمالة. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) ليالي الخدم: هي ليالٍ محدّدة يعيّنها السلطان في الأسبوع حيث يمدّ الخِوان (السماط) في القصر ويحضره الأمراء والأعيان وكبار العلماء. وبعد رفع السماط يتذاكر الحاضرون بين يدي السلطان في موضوعات السياسة والدين والتاريخ وما شابه ذلك.

ذلك، ويبالغ في حقهم، والأشرف أيضاً يهوِّل الأمر ويستغفر؛ فإذا زاد عن الحدّ يقول جَارْقُطْلُو: «يا قاضي، ما تذكر إلّا شَرَبة الخمر وتبالغ في حقهم بأنواع العذاب؟ ليش ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام؟». . . يقول ذلك بحدّة وانحراف حلو. فلما يسمع الملك الأشرف كلامه يضحك وينبسط هو وجميع أمرائه وكان يقع له أشياء كثيرة من ذلك ـ انتهى.

[وتوفي السيد الشريف رميثة بن محمد بن عجلان مقتولاً خارج مكة في خامس رجب بعد أن وَلِيَ إمرة مكة في بعض الأحيان، فلم تحمد سيرته وعزل[(1)]].

وتوفي الشيخ الإمام الأديب الشاعر المفنّن تقي الدين أبو بكر بن علي بن حجّة ـ بكسر الحاء المهملة ـ الحموي الحنفي الشاعر المشهور، صاحب القصيدة البديعية[(2)] وشرحها وغيرها من المصنفات. مات بحماه، في خامس عشرين شعبان، ومولده سنة سبع وسبعين وسبعمائة. وكان أحد ندماء الملك المؤيد وشعرائه وأخصائه، وولي إمامة عدة وظائف دينية، وعظم في الدولة، ثم خرج من مصر بعد موت الملك المؤيد إلى مدينة حماه واستوطنها، إلى أن مات بها. وكان بارعاً في الأدب ونظم القريض وغيره من ضروب الشعر، مفنّناً لا يجحد فضله إلّا حسود؛ ومن شعره مُضَمّناً مع حُسْن التورية: [الرجز]

سِرنا وليلُ شَعْرِهِ مُنْسَدِلُ　　　وقد غدا بِنَوْمِنا مُضَفَّرًا
فقال صبحُ ثَغْرِهِ مُبتَسِما　　　عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى

---

(١) هذا الخبر الموجود بين حاصرتين ساقط في طبعة كاليفورنيا. وقد أضفناه من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٢) هي قصيدة بديعية في مدح الرسول الكريم، عدّ فيها ابن حجة من أنواع البديع ١٤٢ نوعاً، واستهلّها بقوله:

لي في ابتدا مدحكم يا عُربَ ذي سلم　　　براعة تستهلّ الدمع في العلم

أما شرح البديعية فقد جاء مطوّلاً أشبه بالموسوعات الأدبية، وسمّاه «خزانة الأدب وغاية الأرب».

[وله عفا الله عنه][1]: [الخفيف]

في سـويـداء مُقْلةِ الحبِّ نَـادى   جَفْنُـهُ وهـو يَقْنُصُ الأُسْـدَ صَيْـدَا
لا تقـولـوا مـا في السُّـوَيْـدا رِجَـالٌ   فـأنـا اليـوْمَ من رجـالِ سُـوَيْـدَا

قلت: وهذا بعكس ما قاله ابن نباتة والصلاح الصفدي؛ فقول ابن نباتة: [السريع]

مَن قـال بـالمُـرْدِ فـإنّـي امـرؤٌ   إلى النســا ميـلي ذواتِ الجمــالْ
مـا فـي سـويـدائي إلّا الـنسـا   ما حيلتي؟ ما في السُّـويدا رجـالْ!

[وقول الصفدي:

الـمقـلةُ الـكـحـلاءُ أجـفـانُـهـا   تَـرْشُـقُ فـي وَسْط فـؤادي نـبـالْ
وتـقـطـع الـطُّـرْقَ عـلى سـلوتـي   حتى حسبنا في السُّـويـدا رجالْ][2]

ومن نظم الشيخ تقي الدين [أيضاً]، قوله: [المنسرح]

أرشَـفـنــي ريـقَــه وعــانـقـنـي   وخَـصْـرُه يـلتـوي مـن الـرِّقَـه
فـصـرتُ من خَـصْـرِه وريـقَـتِـه   أهـيـمُ بـيـن الـفـراتِ والـرَّقَّـه

ومما كتب إليه قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي، مُضَمِّناً لشعر آمرىء القيس: [الطويل]

أَحِنُّ إلى تلك السجـايـا وإنْ نَـأَتْ   حَنينَ أخي ذكـرى حبيب ومنـزلِ
وأذكـرُ ليـلاتٍ بِكُمْ قـد تَصَرَّمَتْ   بـدارِ حبيـبٍ لا بِـدَارةِ جُلْجُـلِ
شكوتُ إلى الصَّبْرِ اشتياقي فقال لي: تَـرفَّقْ ولا تهْـلِك أسًى وتَـجمَّـلِ
فقلتُ لـه: إنـي عليـكَ مُـعَـوِّلٌ   وهـل عِند رَبْـعٍ دارسٍ من مُعوَّلِ؟

---

(١) زيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٢) شعر صلاح الدين الصفدي ساقط في طبعة كاليفورنيا. والإضافة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا والمنهل الصافي. وقد أورد أبو المحاسن هذا الشعر في الجزء الحادي عشر في ترجمة الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ.

فأجابه الشيخ تقي الدين بن حِجَّة المذكور بقوله:

سَـرَتْ نَسْمَـةٌ منكمْ إليَّ كـأنَّهـا بـريح الصَّبـا جاءَتْ بِـرَيَّا القـرنْفُلِ
فقلتُ لليلي مُذْ بدا صُبْحُ طُرْسِهـا: ألا أيُّهـا الليلُ الـطويـلُ ألا آنجـلِ
ورَقَّتْ فأشعارُ آمرىء القيسِ عِندها كجُلمود صَخْرٍ حَطَّه السيلُ من عَلِ
فقلت: قِفـا نضحـكْ لـرقَّتهـا على «قِفا نبكِ من ذكـرى حبيب ومنزلِ»

وتوفي ملك الغرب وسلطانها، أبو فارس عبد العزيز [المتوكل][1] ابن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيىٰ بن إبراهيم بن يحيىٰ بن عبد الواحد بن عمر الهِنْتَاتي الحَفْصي، في رابع عشر ذي الحجة، عن ستٍّ وسبعين سنة، بعد أن خُطب له بفابس وتلمسان وما والاهما من المدن والقرى، إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وأياماً.

وكان خير ملوك زمانه شجاعةً ومهابةً وكرماً وجوداً وعدلاً وحزماً وعزماً وديناً، وقام من بعده في الملك حَفيده المنتصر أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي فارس المذكور.

وتوفي سلطان بَنْجالَة[2] من بلاد الهند، جلال الدين أبو المظفر محمد بن فَنْدو؛ وكان فَنْدو يُعرَف بكاس[3]. كان أبوه فَنْدو المذكور كافراً، فأسلم جلال الدين هذا، وحسُن إسلامه، وبنى الجوامع والمساجد وعمَّر أيضاً ما خرب في أيام أبيه من المدن، وأقام شعائر الإسلام، وأرسل بمال إلى مكة، وبهدية إلى مصر، وطلب من

---

(١) زيادة للتوضيح عن معجم زامباور.

(٢) بنجالة أو بنغالة أو بنغالا ـ والأصحّ بنكالا ـ منطقة تضمّ الجزأين الجنوبي والشرقي من البنغال أكبر ولايات الهند. وبنجالة اليوم هي في الباكستان الشرقية. وكان حكام بنغالة أولاً وُلاة من قبل سلاطين دهلي وذلك ما بين ٦٠٢ و٧٣٠ هـ. ثم استقلّت بنغالة منذ سنة ٧٣٠ هـ وصار حكّامها يعرفون بالسلاطين. وصاحب الترجمة هو السلطان الثالث من سلاطين بنغالة من أُسرة راجَه كانس التي حكمت ما بين ٨١٢ و٨٤٦ هـ، وعدد سلاطينها أربعة. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٨/١٨٢ ـ ١٩٢؛ ومعجم زامباور: ٤٢٦ ـ ٤٢٨).

(٣) ورد جلال الدين المذكور في معجم زامباور باسم «جلال الدين محمد شاه بن راجَه كَانس».

الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داؤد تقليداً بسلطنة الهند، فبعث إليه الخليفة الخلعة والتشريف مع بعض الأشراف، فوصلت الخلعة إليه ولبسها، ودام بعدها إلى أن مات؛ وأُقيم بعده ولدُهُ المظفَّر أحمد شاه، وعمره أربع عشرة سنة.

وتوفي صاحب بغداد شاه محمد بن قرا يوسف بن قرا محمد، في ذي الحجة مقتولاً على حصن من بلاد القان شاه رُخْ بن تيمورلَنْك، يقال له شنكان، وأُقيم بعده على مُلك بغداد أميرزه عليّ ابن أخي قرا يوسف. وكان شاه محمد المذكور رديء العقيدة يميل إلى دين النصرانية - قبَّحه الله ولعنه - وأبطل شعائِر الإسلام من دار السلام وغيرها بممالكه، وقتل العلماء وقرَّب النصارى، ثم أبعدهم، ومال إلى دين المجوس وأخرب البلاد وأباد العباد، أسكنه الله سَقَر ومَن يلوذ به من إخوته وأقاربه ممّن هو على اعتقاده ودينه.

وتوفي الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن حسين بن عروة بن زكنون الحنبلي الزاهد الورع في ثاني جمادى الآخرة خارج دمشق، وقد أناف على الستّين سنة. وكان فقيهاً عالماً، شرح مسند الإمام أحمد، وكان غاية في الزهد والعبادة والورع والصلاح، رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وثلاثة أصابع. مبلغ الزيادة. سبعة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسْباي على مصر

وهي سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي سلطان كَرْبُرْجه[1] من بلاد الهند شهاب الدين أبو المغازي أحمد

(١) الصواب: «كلبركة» كما في معجم زامباور وإنباء الغمر. وقد أوردها المؤلّف في ص ٣٠٤ من هذا الجزء باسم «كربركا». راجع أيضاً الحاشية (١) من الصفحة المذكورة.

شاه بن أحمد بن حسن شاه بن بَهْمَن في شهر رجب بعد ما أقام في مُلك كربرجه أربع عشرة سنة. وتسلطن من بعده ابنُه ظفر شاه، واسمه أيضاً أحمد؛ وكان السلطان شهاب الدين هذا من خير ملوك زمانه، وله مآثر بمكة معروفة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين طَرَبَاي بن عبد الله الظاهري جَقْمَق نائب طَرَابُلُس، في بكرة نهار السبت رابع شهر رجب، من غير مرض، فجأة، بعد صلاة الصبح وهو جالس بمصلّاه؛ وقد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الصالح محمد بن طَطَر، بما وقع له من جانِبك الصوفي، ثم امع الملك الأشرف، حتى قبض عليه وحبسه بالإسكندرية مدة طويلة، ثم أخرجه إلى القدس، ثم ولّاه نيابة طرابلس، فدام به إلى أن مات.

وكان أميراً ضخماً جميلاً شهماً مِقداماً ديِّناً خيِّراً معظَّماً في الدول، لم يُشهر عنه تعاطي شيء من القاذورات، غير أنه كان يقتحم الرئاسة، وفي أمله أمور، فمات قبلها. وهو أحد أعيان المماليك الظاهرية برقوق ورؤوس الفتن في تلك الأيام، وكان أكبر منزلة من الملك الأشرف بَرْسباي قديماً وحديثاً، وكان بينهما صحبة أكيدة عرفها له الأشرف، وأخرجه من السجن وولّاه طرابلس، ولو كان غيره ما فعل معه ذلك، لما سبق بينهما من التشاحن على الملك ـ انتهى.

وتوفي السلطان أميرزه إبراهيم بن القان معين الدين شاه رخ ابن الطاغية تَيْمُور لَنْك كُورْكان، صاحب شيراز، في شهر رمضان. وكان من أجلّ ملوك جَغْتاي وأعظمهم؛ كان يكتب الخطّ المنسوب إلى الغاية في الحُسْن، يقارب فيه ياقوتاً المستعصمي(١)، ووجد عليه أبوه شاه رخ كثيراً، وكذلك أهل شيراز.

[ثم في السنة أيضاً]، توفي [أخوه] باي سُنْقُر بن شاه رُخ بن تيمور صاحب مملكة كرمان، في العشر الأول من ذي الحجة. وكان باي سُنْقُر وليَّ عهد أبيه شاه رخ في الملك، وهو أشجع أولاد شاه رخ وأعظمهم إقداماً وجبروتاً، وهو والد مَن

(١) في الأصل: «المعتصمي» وهو خطأ. وهو ياقوت بن عبد الله المستعصمي، نسبة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله. اشتهر بحُسْن الخط، وتوفي سنة ٦٨٩ هـ. (الأعلام؛ ٨/١٣١).

بقي الآن من ملوك جَغْتاي بممالك العجم، وهم: بابور وعلاء الدولة ومحمد، والجميع أولاد باي سُنْقُر هذا، تولى تربيتهم جدَّتُهم كهرشاه خاتون لمحبتها لأبيهم باي سنقر دون جميع أولادها، ولهذا المعنى كان قدَّمه شاه رُخ على ولده أُلوغ بك صاحب سَمَرْقَنْد، كل ذلك لميل زوجته كهرشاه إليه، على أن أُلوغ بك أيضاً ولدُها بكريُّها، غير أنها ما كانت تُقدِّم على باي سُنْقُر أحداً من أولادها ـ انتهى.

وتوفي الشريف زُهير بن سليمان بن ريان بن منصور بن جمَّاز بن شيحة الحسيني، في محاربة كانت بينه وبين أمير المدينة النبوية مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جمَّاز بن شيحة، في شهر رجب، وقتل معه عدّة من بني حسين. وكان زهير المذكور من أقبح الأشراف سيرة؛ كان خارجاً عن الطاعة، ويخيف السبيل، ويقطع الطريق ببلاد نجد والعراق وأرض الحجاز في جمع كبير، فيه نحو الثلاثمائة فارس وعدّة رُماة بالسِّهام، وأعيا الناسَ أمرُه، إلى أن أخذه الله وأراح الناس منه.

وتوفي الحَطِّيُّ[1] ملك الحبشة الكافر صاحب أُمْحَرَة من بلاد الحبشة، وممالكه متّسعة جداً بعد أن وقع له مع السلطان سعد الدين صاحب جَبَرْت حروب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع واثنان وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة [الملك] الأشرف بَرْسْباي على مصر

وهي سنة تسع وثلاثين وثمانمائة.

وفيها توفي ملك تونس من بلاد إفريقية بالمغرب، السلطانُ المنتصر بالله أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي فارس عبد العزيز،

---

(١) الحطّي: لقب لملوك الحبشة.

المقدّم ذكره، ابن أحمد الهِنْتاتي الحَفْصي، في يوم الخميس حادي عشرين صفر بتونس. وكان مَلَكَ بعد جدّه أبي فارس، فلم يَتَهَنَّ بالمُلْك لطول مرضه، وكثرت الفتن في أيامه وعظم سفك الدماء، إلى أن مات. وأُقيم في مملكة تونس من بعده أخوه شقيقه عثمان، فقَتل عدة من أقاربه وغيرهم.

وكان من خبر المنتصر أنه ثَقُل في مرضه حتى أُقعد، وصار إذا سار إلى مكان يركب في عمّاريّة[1] على بغلٍ، وتردّد كثيراً في أيام مرضه إلى قصره خارج تونس للنزهة به، إلى أن خرج يوماً ومعه أخوه أبو عمرو عثمان المقدّم ذكره، وهو يوم ذاك صاحب قسطنطينة[2]، وقد قدم عليه الخبر وولّاه الحكم بين الناس، ومعه أيضاً القائدُ محمد الهلالي، فصار لهما مرجعُ أمور الدولة بأسرها، وحجبا المنتصرَ هذا عن كل أحد. فلما صارا معه في هذه المرة إلى القصر المذكور، تركاه به، وقد أغلقا عليه، يوهمان أنه نائم، ودخلا المدينة. واستولى أبو عَمرو عثمان المقدّم ذكره على تخت الملك، ودعا الناس إلى طاعته ومبايعته، والهلاليُّ قائم بين يديه. فلما ثبّت دولتَه، قبض أيضاً على الهلاليِّ وسجنه وغيَّبه عن كل أحد. ثم التفت إلى أقاربه، فقَتل عمَّ أبيه وجماعةً كبيرةً من أقاربه، فنفرت عنه قلوب الناس. وخرج عليه الأميرُ أبو الحسن ابن السلطان أبي فارس عبد العزيز متولّي بِجَايَة وحاربه، ووقع له معه أمور يطول شرحها، إلى أن مات أبو عمرو المذكور حسبما يأتي ذكره في محله؛ وأما المنتصرُ فإنه قُتل بعد خلعه بمدة، وقيل مات من شدّة القهر.

وفيها توفي قاضي القضاة الشريفُ ركن الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الحنفي الدمشقي، المعروف بدُخان، قاضي قضاة دمشق بها، في ليلة الأحد سابع المحرّم، وقد أناف على ستّين سنة. وكان فقيهاً حنيفاً ماهراً بارعاً في معرفة فروع مذهبه، وله مشاركة في عدة فنون. ونشأ بدمشق، وبها تفقّه وناب في الحكم، ثم استقلّ بالقضاء [بعد موت ابن الكِشْك][3]، وحُمدت سيرته. وهو ممّن وَلِيَ القضاءَ

(١) العمارية: هودج يحمل على الدابّة.

(٢) هي قسنطينة.

(٣) زيادة عن شذرات الذهب.

بغير سعي ولا بذل، ولو لم يكن من محاسنه إلّا ذاك لكفاه فخراً، مع عريض جاهه بالشرف.

وتوفي التاجُ بن سَيْفا الشُّوبَكي الدمشقي القازاني[١] الأصل، والي القاهرة في ليلة الجمعة حادي عشرين[٢] شهر ربيع الأول بالقاهرة، وقد أناف على ثمانين سنة، وهو مُصِرّ على المعاصي والإسراف على نفسه وظُلم غيره، والتكلّم بالكفريات. وكان من قبائح الدهر، ومن سيئات الملك المؤيَّد شيخ[٣] المحمودي، لما اشتمل عليه من المساوىء؛ وقد ذكر المقريزي عنه أموراً شنعة، واستوعبنا نحن أيضاً أحواله في ترجمته من تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي». وكان من جملة ما قاله الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله في حقه: «وكان وجودُه عاراً على بني آدم قاطبة». قلتُ: وهو من قبيل مَن قيل في حقه: [الكامل]

قومٌ إذا صَفَع النعالُ قَفَاهُمُ قال النعالُ: بأيِّ ذنب نُصْفَعُ؟

وتوفي الأمير سيفُ الدين قَصْروه بن عبد الله مِن تِمْراز الظاهري، نائب دمشق، في ليلة الأربعاء ثالثِ شهر ربيع الآخر. وكان أصلُه من مماليك الملك الظاهر برقوق من إنْيات جَرِبَاش الشيخي من طبقة الرَّفْرَف[٤]. وترقّى بعد موت أُستاذه الظاهر، إلى أن صار من جملة أمراء العشرات. ثم أمسكه الملك المؤيد وحبسه مدة، ثم أطلقه في أواخر دولته. ولما آل التحدّث في المملكة للأمير طَطَر، أنعم على قَصْرُوه المذكور بإمرة مائة وتقدمة ألف، ثم صار رأسَ نوب النُّوَب، ثم أميرَ آخورٍ كبيراً في أواخر دولة الملك الصالح محمد بن طَطَر، ودام على ذلك سنين، إلى أن نقله

(١) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي الضوء اللامع: «الفارابي».

(٢) في الأصل: «حادي عشر». والتصحيح عن نزهة النفوس والأبدان: ٣٥٧/٣، وحاشية (٢) في نفس الصفحة.

(٣) المراد أنه كان من صنائع المؤيد شيخ المحمودي. قال الخطيب الجوهري: «وخدم الأمير شيخ وهو في نيابة دمشق، ودخل فيه (داخله) فصار عشيره وسميره على ما هو مشهور به من الأفعال المحرّمات من الشرب وغيره، وولّاه الأمير شيخ وزارة حلب لمّا وَلِيَ النيابة بها». (نزهة النفوس: ٣٥٧/٣).

(٤) طبقة الرفرف بالقلعة كانت مركزاً لتعليم وتربية المماليك السلطانية. ـ راجع فهرس الأماكن (الرفرف) وفهرس المصطلحات (الطباق ـ الطبقة).

السلطانُ الملك الأشرف [بَرْسْبـاي] إلى نيابة طَرَابُلُس بعـد عزل إينـال النَّـوْرُوزي وقدومه القاهرة على إقطاع قَصْرُوه المذكور، واستقر في الأمير آخـورية بعـده الأمير جَقْمَق العلائي. فدام قَصْرُوه على نيابة طَرَابُلُس سنين، ثم نُقل بعد سنين إلى نيابة دمشق، بعد موت الأتابك جـارْقُطْلُو أيضـاً، فدام في نيـابة دمشق إلى أن مـات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان أميراً عاقلاً مدبّراً سَيُـوساً معـظَّماً في الـدول. وهو أحـد مَن أدركناه من عظماء الملوك ورؤسائهم. وهو أحدُ مَن كان سبباً لسلطنة الملك الأشرف بَرْسبـاي، وأعـظمُ مَن قـام معـه حتى وثب على المُلك. وهـو أيضــاً أُستـاذُ كـل مَن يُـدْعى بالقَصْرَوِي، لأننا لا نعلم أحداً سُمّي بهذا الاسم ونالته السعادةُ غيـرَه. وتولى بعـده نيابةَ دمشق الأميرُ إينال الجَكَمي.

وتوفي الأُميرُ فخر الدين عثمان المدعو قَرَايُلُك(١) ابن الحاج قُطْلُبك، ويقال: قطبك ابن طرعلي التركي الأصل التركماني صاحب ماردِين وآمِد وأرْزَنْ وغيرها من ديار بكر، في خامس صفر، بعد أن انهزم من إسكندر بن قرا يـوسف، وقصد قلعـة أرْزَن فحِيلَ بينه وبينها، فرمى بنفسه في خندق المدينة لينجو بمهجته فوقع على حجر فشـجّ دماغـه، ثم حُمل إلى أرْزَن فمـات بها بعـد أيام، وقيـل بل غـرق في خندق المدينة. ومات وقد ناهز المائة سنة من العمر، فدفن خارج مدينة أرْزَن الروم، فنبش إسكندر عليه وقطع رأسه وبعث بها إلى الملك الأشرف، فطِيفَ بها، ثم عُلّقت أياماً.

وكان أصل أبيه من أمراء الدولة الأُرْتُقِيَّة(٢) الأتراك، ونشأ ابنُه عثمان هذا بتلك البلاد، ووقع له مع ملوك الشرق وقائع. ثم اتصل بخدمة تيمورلَنْك، وكان جالِيشَه(٣) لمّا قَدِمَ إلى البلاد الشامية في سنة ثلاث وثمانمائة. وطال عمره ولقي منه أهلُ ديار بكر وملوكُها شدائد، لا سيما ملوك حصن كيفا الأيوبية، فإنهم كانوا معه في ضنك وبلاء.

---

(١) سبق لنا ضبط هذا الاسم ونسبه. راجع فهرس الأعلام (قرايلوك).

(٢) سبق التعريف بهذه الأسرة. راجع فهرس الجماعات (بنو أرتق).

(٣) الجاليش: طليعة الجيش. وهنا بمعنى المقدّم على طليعة الجيش.

وتداول حروبه وشروره مع الملوك سنين طويلة، وكان صبَّاراً على القتال، طويل الروح على محاصرة القلاع والمدن، يباشر الحروب بنفسه. ومع هذا كله لم يُشهر بشجاعة، وكان في الغالب ينهزم ممَّن يقاتله، ثم يعود إليه غير مرة حتى يأخذه إما بالمصابرة أو بالغدر والحيلة. وكذا وقع له مع القاضي برهان الدين أحمد صاحب سِيواس[1]، ومع بير عمر[2] حتى قتلهما. وفي الجملة، فإنه كان من أشرّ الملوك، غير أنه خير من بني قَرا يوسف، لتمسُّكه بدين الإسلام، واعتقاده في الفقراء والعلماء. ولمَّا مات خلَّف عدة أولاد وأولاد الأولاد، وهم إلى الآن ملوك ديار بكر، وبينهم قتْل وحروب تدوم بينهم إلى أن يفنوا جميعاً إن شاء الله تعالى.

وتوفي الشريفُ مانع بن عطية بن منصور بن جَمَّاز بن شِيحة الحسيني أميرُ المدينة النبوية، وقد خرج للصيد خارجَ المدينة في عاشر جمادى الآخرة. وثب عليه الشريف حيدر بن دوغان بن جعفر بن هبة الله بن جماز بن منصور بن شيحة وقتله بدم أخيه خَشْرَمْ بن دوغان أمير المدينة. وكان الشريف مشكور السيرة، غير أنه كان على مذهب القوم.

وتوفي الشيخ المُسَلِّك زين الدين أبو بكر بن محمد بن عليّ الخافي الهَرَوي العجمي، في يوم الخميس ثالث شهر رمضان بمدينة هَرَاة، في الوباء، وكان أحد أفراد زمانه. و«خاف»: قريةٌ من قرى خُراسان بالقرب من مدينة هَرَاة؛ قلت: وفي الشيخ زين الدين نادرة: وهي أنه عجمي واسمه أبو بكر، وهذا من الغرائب، ومَن لم يستغرب ذلك يأتِ بعجمي يكون اسمه أبا بكر أو عمر، سُنِّيّاً كان أو شيعيّاً.

وتوفي القاضي بدرُ الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز، أحد أعيان الفقهاء الشافعية ونوّاب الحكم، المعروف بابن الأَمانة، في ليلة الثلاثاء ثالث عشر شعبان.

---

(١) القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس. وقد ورد اسمه في معجم زامباور على النحو التالي: سلطان أحمد قاضي برهان الدين غازي بن شمس الدين محمد. كان وزيراً للأمير علاء الدين محمد بن أرتنا صاحب سيواس وغيرها في آسيا الصغرى، وبعد موت هذا الأمير سنة ٧٨٢ هـ بويع برهان الدين أميراً واتخذ لقب سلطان. قتل في مواجهة حربية أمام قرايولوك أواخر عام ٨٠٠ هـ. (معجم زامباور: ٢٣٣).

(٢) بير عمر بن بير محمد بن عمر شيخ بن تيمورلنك. قتل عام ٨١٢ هـ. (معجم زامباور: ٤٠٢).

ومولده في سنة اثنتين وستّين وسبعمائة تخميناً. وكان فقيهاً بارعاً في الفقه والأصول والعربية، كثيرَ الاستحضار لفروع مذهبه، وأفتى ودرّس سنين، وناب في الحكم مدة طويلة، وشُكرت سيرته، وكان في لسانه مَسكَةٌ تمنعه عن سرعة الكلام، رحمه الله.

وتوفيت خَوَنْد جُلبان بنت يَشْبك طَطَر الجارْكَسية زوجة السلطان الملك الأشرف بَرْسباي، وأمُّ ولده الملك العزيز يوسف، في يوم الجمعة ثاني شوّال، بعد مرض طويل، ودفنت بتربة السلطان الملك الأشرف بالصحراء خارج الباب المحروق[1]. كان الملك الأشرف اشتراها في أوائل سلطنته واستولدها ابنَه الملك عبد العزيز يوسف، فلما ماتت خَوَنْد الكبرى أمُّ ولده محمد المقدّم ذكرها تزوجها السلطان وأسكنها قاعة العواميد، فصارت خَوَنْد الكبرى ونالتها السعادة. وكانت جميلة عاقلة حسنة التدبير، ولو عاشت إلى أن مَلَك ابنُها لقامت بتدبير دولته أحسن قيام.

وتوفي أحمدُ جُوكي ابن القان معين الدين شاه رُخ [بن تيمورلَنْك، في شعبان، بعد مرض تمادى به عدة أيام، فعظم مصابه على أبيه شاه رُخ][2] ووالدته كهرشاه خاتون، فإنهما فقدا ثلاثةَ أولادٍ ملوكٍ في أقل من سنة، وهم: السلطان إبراهيم صاحب شِيراز، وباي سُنْقُر صاحب كرمان المقدّم ذكرهما في السنة الخالية، وأحمد جُوكي هذا في هذه السنة.

وتوفي السلطانُ ملكُ بِنْجالة من بلاد الهند، الملكُ المظفّر شهاب[3] الدين أحمد شاه ابن السلطان جلال الدين محمد شاه بن فندوكاس، في شهر ربيع الآخر. وثب عليه مملوك أبيه كالو، الملقب مصباح خان ثم وزير خان، وقتله واستولى على بِنْجالة؛ وقد تقدّم وفاةُ أبيه في سنة سبع وثلاثين وثمانمائة من هذا الكتاب.

---

(١) الباب المحروق: من أبواب سور القاهرة. كان يعرف أولاً باسم باب القراطين. وسمّي بالمحروق لأن الأمراء الذين فرّوا من مصر، بعد مقتل زعيمهم الفارس أقطاي سنة ٦٥٢ هـ على يد السلطان أيبك، أحرقوه. (خطط المقريزي: ٣٨٣/١).

(٢) زيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٣) في معجم زامباور: «شمس الدين».

أمرُ النيل في هذه السنة:

الماء القديم أحد عشر ذراعاً وعشرةُ أصابع. مبلغُ الزيادة. عشرون ذراعاً ونصف ذراع.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الأشرف برسْباي على مصر

وهي سنة أربعين وثمانمائة.

فيها كانت الواقعة بين الأمير خُجَا سُودون أحد أمراء السلطان، وبين الأتابك جانِبك الصُّوفي، وانكسر جانِبك، وأُمسك قُرْمُش الأعور الظاهري وكَمَشْبَغَا أميرُ عشرة، وقُتلا حسبما تقدّم ذكرهما في ترجمة الملك الأشرف.

وكان قُرْمُش المذكور من أعيان المماليك الظاهرية برقوق، وترقّى حتى صار أميرَ مائةٍ ومقدمَ ألف بالديار المصرية. وانضمّ على جانِبك الصوفي أولاً وآخراً. وقَبض عليه الملكُ الأشرف وحبسه بالإسكندرية، ثم أطلقه وأرسله إلى الشام أميرَ مائةٍ ومقدمَ ألفٍ بها. فلما عصى البَجَاسي صار من حزبه. ثم اختفى بعد كَسرة البَجَاسي إلى أن ظهر، لما سمع بظهور جانِبك الصُّوفي وانضمّ عليه وصار من حزبه، إلى أن واقع خُجَا سُودون وانكسر وقُبض عليه.

وأما كَمَشْبَغَا أميرُ عشرة فإنه كان أيضاً من المماليك الظاهرية برقوق ومن جملة أمراء حلب. فلما بلغه خروج جانِبك الصُّوفي سار إليه وقام بنصرته. وقد تقدّم ذكره ذلك كله، غير أننا نذكره هنا ثانياً لكون هذا محلّ الكشف عنه والإخبار بأحواله.

وتوفي الشيخُ الأديب زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن سليمان بن عبد الله المِرْوَزِيّ الأصل الحموي، المعروف بابن الخرّاط، أحد موقِّعي الدَّسْت بالقاهرة وأعيان الشعراء، في ليلة الاثنين أول المحرّم بالقاهرة، عن نحو ستّين سنة، ودفن من الغد. وكان صاحبَنا، وأنشدنا كثيراً من شعره. ومن شعره في مليح على شفته أثر بياض: [البسيط]

لا والـذي صاغَ فـوق الثَّغر خـاتَمـه ... مـا ذاك صدغٌ بياضٍ في عَقَـائِقِـه
وإنـمـا البَـرْقُ لـلتَّـوْديـع قَبَّـلَهُ ... أبقى بـه لُمْعةً من نُـورِ بـارِقِـه

وتـوفي قاضي القضـاة شمسُ الدين محمـد ابن قاضي القضـاة شهـاب الـدين أحمد بن محمود الدمشقي الحنفي، المعروف بابن الكِشْك، قاضي قضاة دمشق، في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأول بدمشق؛ وقد تقدّم ذكر وفاة أبيه في سنة تسع وثلاثين وثمانمائة من هذا الجزء.

وتـوفي قـاضي القضـاة شهـابُ الـدين أحمـد بن محمـد بن صـلاح الشـافعي المصـري، المعروف بـابن المُحَمَّرة، بـالقدس، على مشيخـة الصلاحيـة، في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر. ومولـده في صفر سنـة تسع وستّين وسبعمـائة بالمُقَيَّر خارج القاهرة، [وتكسَّب بالجلوس في حانوت الشهود سنين][1]. وكان فقيهاً بارعاً مفَنّناً كثير الاستحضار لفروع مذهبه، وأفتى ودرَّس سنين، ونـاب في الحكم، وتـولى مشيخةَ خـانقـاه سعيـد السعـداء، ثم قضـاءَ دمشق، ثم مشيخـةَ الصـلاحيـة بالقدس، إلى أن مات.

وتوفي الأميرُ سيف الدين أرْغُون شـاه بن عبد الله النَّـوْرُوزي الأعور، أستـادَّارُ السلطانِ بدمشق بها، في حادي عشرين شهر رجب، وقد جاوز الستّين سنة تخميناً، بعدما وَلِيَ الوزارةَ بالديار المصرية، والأستادّارية غيرَ مرة. وكان من الظَّلَمة الفَسَقة. كان شيخاً طوالاً أعورَ فصيحاً باللغة العربية، عارفاً بفنون المباشرة وتنويع المظالم.

وتوفي الأميرُ حمـزة بك بن علي بـك بن دُلْغَادِر مقتـولاً بقلعة الجبـل في ليلة الخميس سابع عشر جمادى الأولى.

وتوفي الأميرُ سيف الدين برد بك بن عبد الله الإسماعيلي الظاهري برقوق وهو يـومَ ذاك أحدُ أمـراء العشرات، في جمـادى الأولى بالقـاهـرة. وكـان جَعَله الملكُ الأشرفُ أميرَ طبلخاناة وحاجباً ثانياً، ثم نفاه مدة، ثم أعاده إلى القاهـرة وأنعم عليه

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

بإمرة عشرة. وكان لا للسيف ولا للضيف، يأكل ما كان ويُضيق المكان.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن يوسف بن صلاح الدمشقي المعروف بالحلاوِيّ، وكيل بيت المال، في ليلة الخميس سادس شوّال. ومولده في سنة خمس وستّين وسبعمائة بدمشق. وقَدِمَ القاهرة، واتصل بسعد الدين بن غراب، ورشّحه سعدُ الدين لكتابة السر. ثم تردّد لجماعة من الأكابر بعد سعد الدين وأخيه فخر الدين ابني غراب، مثل بدر الدين الطوخي الوزير وغيره. وكان حلو المحاضرة حسن المذاكرة، مع قِصر الباع في العلوم. وكان كبير اللحية جداً، يُضرب بطول لحيته المثل. ولما مات سعدُ الدين بن غراب وأخوه فخر الدين، ثم توفي الوزير بدر الدين الطوخي أيضاً، قال فيه بعض شعراء العصر: [البسيط]

إن الحلاويَّ لم يَصْحَبْ أخَا ثِقَةٍ ... إلّا محا شُؤْمُه مِنْهُم مَحَاسِنَهُم
السَّعْدُ والفَخْرُ والطُّوخِيُّ لازَمَهُم ... فأصبحوا لا تَرَى إلّا مساكِنَهم

فزاد الحافظُ شهاب الدين أحمد بن حجر بأن قال:

وابنُ الكُوَيْزِ وعن قُربٍ أخُوه ثَوَى ... والبدرُ، والنجمُ رَبِّ اجْعَلْه ثامِنَهُم

قلت: يعني بابن الكُوَيْز صلاحَ الدين بن الكويز، وبأخيه علمَ الدين، وبالبدر بدرَ الدين بنَ محبّ الدين المشير، وبالنجم القاضي نجمَ الدين عمر بن حجّيّ.

وفي طول لحيته يقول صاحبُنا الشيخُ شمس الدين الدِّجْوِيّ، من أبيات كثيرة، أنشدني غالبَها، أضربتُ عن ذكرها لفحش ألفاظها، غير أنني أعجبني منها براعتها: [البسيط]

ظن الحلاويُّ جَهْلاً أن لِحْيَتَه ... تُغْنِيه في مجلس الإفتاء والنَّظَرِ
وأشْعَرِيَّتُها طولاً قد اعْتَزَلَتْ ... بالعَرْض باحثةً في مَذْهب القَدَرِ

وتوفي الأميرُ قَرْقَماس بن عذرا بن نُعَيْر بن حيّار بن مُهنّا في هذه السنة.

وتوفي الشيخُ شهاب الدين أحمد ابن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن

عثمان بن عمر الأبوصيري الشافعي، أحد مشايخ الحديث، في ليلة الأحد ثامن عشرين المحرّم.

وتوفي صاحبُ صَنعاء اليمن الإمامُ المنصور نجاح الدين أبو الحسن عليّ ابن الإمام صلاح الدين محمد بن علي بن محمد بن علي بن منصور بن حجّاج بن يوسف الحسيني العلوي الشريف في سابع صفر، بعد ما أقام في الإمامة بعد أبيه ستّاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأضاف إلى صنعاء وصَعْدة عدة من حصون الإسماعيلية، أخذها منهم بعد حروب وحصار. ولما مات قام من بعده ابنُه الإمامُ الناصر صلاح الدين محمد بعهده إليه فمات بعد ثمانية وعشرين يوماً، فأجمع الزيدية بعده على رجل منهم يقال له صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم وبايعوه ولقبوه بالمهدي، وهو من بني عمرو عمّ الإمام المنصور. قلت: والجميع زيدية بمعزل عن أهل السُّنّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وثمانية عشر أصبعاً. مبلغ الزيادة. تسعة عشر ذراعاً وستّة أصابع.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الأشرف بَرْسْباي على مصر

وهي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة.

فيها كانت وفاة الأشرف المذكور في ذي الحجة حسبما تقدّم ذكره.

وفيها كان الطاعونُ بالديار المصرية.

وكان مبدؤه من شهر رمضان، وارتفع في ذي القعدة في آخره. ومات فيه خلائق من الأعيان والرؤساء وغيرهم، لكنه في الجملة كان أضعف من طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة][١].

(١) ما بين حاصرتين ساقط في طبعة كاليفورنيا. وهو مثبت في طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

وفيها توفي القاضي سعدُ الدين إبراهيم ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة، ناظر الخاص الشريف وابنُ ناظر الخاصّ المعروف بابن كاتب جَكَم، في يوم الخميس سابع عشر شهر ربيع الأول، بعد مرض طويل، وسنّه دون الثلاثين سنة؛ وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة [المؤمني] من تحت القلعة، ودُفن عند أبيه بالقرافة.

وكان شابّاً عاقلاً سيُوساً كريماً مدبّراً. وَلِيَ الخاص صغيراً بعد وفاة أبيه، فباشر بحرمة ونفذ الأمور وساس الناس وقام بالكلف السلطانية أتمّ قيام، لا سيما لمّا سافر الملك الأشرف إلى آمِد فإنه تكفّل عن السلطان بأمور كثيرة تكلّف فيها كلفة كبيرة. كل ذلك وسيرته مشكورة، إلاّ أنه كان منهمكاً في اللذّات التي تهواها النفوس، مع ستر وتجمّل؛ سامحه الله تعالى.

وتولى نظرَ الخاص من بعده أخوه الصاحبُ جمال الدين يوسف ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم، وهو مستمر على وظيفته مضافةً لنظر الجيش وتدبير الممالك[1] إلى يومنا هذا، إلى أن مات حسبما يأتي ذكره في مواطن كثيرة من هذا الكتاب وغيره إن شاء الله تعالى.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جانِبك بن عبد الله الصوفي الظاهري، صاحب الوقائع والأهوال والحروب، في يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بديار بكر، وقُطعت رأسه وحُملت إلى مصر، وطيف بها على رمح ثم ألقيت في قناة سراب. وقد تقدّم ذكر ذلك كله مفصّلاً في مواضع كثيرة وما وقع للناس بسببه بالديار المصرية والبلاد الشرقية، غير أننا نذكر هنا أصله ومنشأه إلى أن مات، على طريق الإيجاز:

كان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق الصِّغار، وترقّى في الدولة الناصرية فرج إلى أن صار أميرَ مائة ومقدمَ ألف، ثم ولّاه الملكُ المؤيد رأسَ نوبة النُّوَب، ثم

(١) مدبّر المملكة، أو مدبّر الممالك: من ألقاب ناظر الجيش والوزير وأتابك العساكر. ويطلق أحياناً على كبار كتّاب السر.

نقله بعد مدة إلى إمرة سلاح، ثم أمسكه وحبسه إلى أن أطلقه الأمير طَطَر بعد موت المؤيد، وأنعم عليه بإمرة وتقدمة ألف ثم خلع عليه باستقراره [أميرَ سلاح بعد مسك قُجْقار القُرْدَمي، ثم خلع عليه بعد سلطنته باستقراره](١) أتابكَ العساكر بالديار المصرية، ثم أوصاه الملك الظاهر طَطَر عند موته بتدبير مُلك ولده الملك الصالح محمد.

ومات الملكُ الظاهر طَطَر، فصار جانِبك المذكور «نظامَ المُلك»(٢) و«مدبرَ الممالك»، فلم يحسن التدبير ولا استمال أحداً من أعيان خُجْداشِيَّتِه من الأمراء، فنفروا عنه الجميع ومالوا إلى الأمير طَرَبَاي وبَرْسْباي حسبما ذكرنا ذلك كله مفصّلاً؛ ولا زالوا في التدبير عليه حتى خذلوه في يوم عيد النحر، بعدما لبس آلة الحرب هو والأمير يَشْبك الجَكَمي الأمير آخور، وأنزلوه من باب السلسلة بإرادته راكباً وعليه آلةُ الحرب إلى بيت الأمير بَيْبَغَا المظفَّري؛ فحال دخوله إلى البيت قُبض عليه وقُيِّد وحُمِلَ إلى القلعة، ثم إلى ثغر الإسكندرية، بعد أن كان مُلك مصر في قبضته، وأُمسك معه يَشْبك الجَكَمي أيضاً وحُبس بثغر الإسكندرية، كل ذلك في أواخر ذي الحجة من سنة أربع وعشرين.

ودام جانِبك في سجن الإسكندرية مكرماً مبجّلاً، إلى أن حسَّن له شيطانُه الفرارَ منه، فأوسع الحيلة في ذلك، حتى فرّ من سجنه في سنة سبع وعشرين وثمانمائة. فعند ذلك حلَّ به وبالناس بلاءُ الله المنزل المتداول سنين عديدة، ذهب فيها أرزاق جماعة، وحبس فيها جماعة كثيرة من أعيان الملوك وضُرب فيها جماعة من أعيان الناس وأماثلهم بالمقارع، وجماعة كثيرة من الخاصكية أيضاً ضُربوا بالمقارع والكسّارات. وأما ما قاساه الناس من كبس البيوت ونهب أقمشتهم وما دخل عليهم من الخوف والرجيف فكثير إلى الغاية، ودام ذلك نحو العشر سنين؛ فهذا ما حلّ بالناس لأجل هرويه.

---

(١) الزيادة من طبعة المؤسسة المصرية عن مخطوط أيا صوفيا.

(٢) هذه التسمية تطلق على مَن يكون وصياً على السلطان الصغير.

وأما ما وقع له فأضعاف ذلك؛ فإنه صار ينتقل من بيت إلى بيت، والفحص مستمر عليه في كل يوم وساعة، حتى ضاقت عليه الدنيا بأسرها، وأراد أن يسلّم نفسه غير مرة، وقاسى أهوالاً كثيرة إلى أن خرج من مصر إلى البلاد الشامية وتوصل إلى بلاد الروم حسبما حكيناه. وانضم عليه جماعة من التركمان الأمراء وغيرهم، وقاموا بأمره أحسن قيام حتى استفحل أمره، فغلب خمولُه وقلةُ سعادته تدبيرَهم واجتهادَهم، إلى أن مات.

وكان شجاعاً فارساً مفنّناً مليح الشكل رشيق القدّ كريماً رئيساً، إلاّ أنه كان قليل السعد مخمول الحركات مخذولاً في حروبه. حُبس غير مرة، ونفد عمره على أقبح وجه، ما بين حبْس وخوْف وذلّ وشَتات وغربة، إلى أن مات بعد أن تعب وأتعب وأراح [بموته] واستراح.

وتوفي الأميرُ سيف الدين تِمْراز المؤيدي نائب صَفَد ثم نائب غزة مخنوقاً بسجن الإسكندرية، في ثالث عشرين جمادى الآخرة. وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وخاصكِيَّته، وكان مقرّباً عنده، ثم تغيّر عليه لأمر اقتضى ذلك، وضربه أخرجه إلى الشام على إقطاع هيّن بطَرَابُلُس. ثم نُقل بعد موت الملك المؤيد إلى إمرة بدمشق. فلما كانت وقعة تَنِبَك البَجَاسي وافقه على العصيان؛ فلما ظفر الملك الأشرف بالبَجَاسي فر تِمْراز هذا واختفى مدة، ثم ظفر به وسُجن بقلعة دمشق، ثم أطلق وأنعم عليه بإقطاع بها، ثم نقله الأشرف إلى إمرةِ مائة وتقدمةِ ألف بدمشق، ثم أقرّه في نيابة صَفَد فلم تُشكر سيرتُه ورُمي بعظائم، فعزله السلطان وولاّه نيابةَ غزة عِوضاً عن يونس الرُّكْني، وانتقل يونس إلى نيابة صَفَد. فلما وَلِيَ غزة أساء السيرة أيضاً، وظلم وعسف وأفحش في القتل وغيره، فطلبه السلطان إلى الديار المصرية وأمسكه وحبسه بالإسكندرية ثم قتله خنقاً؛ ولا أعرف من أحوال تِمْراز غير ما ذكرته أنه مذموم السيرة كثير الظلم.

وتوفي الأمير جانِبك بن عبد الله السيفي يَلْبُغَا الناصري المعروف بالثور، أحد أمراء الطبلخاناه والحاجب الثاني، وهو يلي شَدَّ[1] بندر جُدَّة بمكة، في حادي عشر

---

(١) وظيفة الشدّ هي التفتيش والمراقبة، وصاحبها يسمى الشادّ. وبندر جُدّة هو ميناء جدّة.

شعبان. وكان أميراً ضخماً متجمّلاً في مركبه وملبسه ومماليكه، وهو الذي أخرب المسطبة التي كانت ببندر جُدَّة التي كان مَن طلع عليها واستجار بها لم يؤخَذ منها، ولو كان ذنبه ما عسى أن يكون، حتى ولو قتل نفساً وطلع فوقها لا يؤخذ منها.

وكانت هذه العادة قديمة بجُدَّة، فأخرب جانِبك المذكور المِسطبةَ المذكورة، ووقع بينه وبين عرب تلك البلاد وقعة عظيمة قتل فيها جماعة. وانتصر جانِبك المذكور ومشى له ما قصده من هدم المسطبة المذكورة ومُحي أثرُها إلى يومنا هذا. يرحمه الله تعالى على هذه الفعلة، فإنها من أجلّ الأفعال وأحسنها دنيا وأخرى؛ ولم ينتبه لذلك مَن جاء قبله من الأمراء حتى وفّقه الله تعالى لمحو هذه السنّة القبيحة التي كانت ثَلمة في الإسلام وأهله. قلت: كم ترك الأولُ للآخر.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن خضر بن داؤد بن يعقوب الشهير بالمصري، الحلبي الأصل الشافعي، أحد موقّعي الدَّسْت بالقدس الشريف، في يوم الأحد النصف من شهر رجب؛ وكان ديِّناً خيِّراً وله رواية عالية بسُنن ابن ماجة وحدّث وأسمع سنين.

وتوفي شيخ الإسلام علامةُ الوجود علاءُ الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد البخاري العجمي الحنفي، الإمام العالِم الزاهد المشهور، في خامس شهر رمضان بدمشق. [وسمّاه بعضُهم عَلِيّاً وهو غلط](١). ومولده في سنة تسع وسبعين وسبعمائة ببلاد العجم، ونشأ بمدينة بخارى، وتفقّه بأبيه وعمّه علاءِ الدين عبد الرحمن، وأخذ الأدبيات والعقليات عن العلّامة سعد الدين التفتازاني وغيره. ورحل في شبيبته في طلب العلم إلى الأقطار، واشتغل على علماء عصره إلى أن برع في المعقول والمنقول والمفهوم والمنظوم واللغة العربية، [وترقّى في التصوّف والتسليك](١) وصار إمامَ عصره، وتوجّه إلى الهند واستوطنه مدة، وعظم أمره عند ملوك الهند إلى الغاية، لما شاهدوه من غزير علمه وعظيم زهده وورعه.

ثم قدم إلى مكة المشرّفة وأقرأ بها مدة، ثم قدم إلى الديار المصرية واستوطنها

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

سنين كثيرة وتصدَّى للإقراء والتدريس. وقرأ عليه غالبُ علماء عصرنا من كل مذهب، وانتفع الجميعُ بعلمه وجاهه وماِله. وعَظم أمرُه بالديار المصرية بحيث إنه منذ قدم القاهرة إلى أن خرج منها لم يتردّد إلى واحد من أعيان الدولة حتى ولا السلطان، وتردّد إليه جميع أعيان أهل مصر من السلطان إلى مَن دونه؛ كلّ ذلك وهو مُكِبٌّ على الأشغال، مع ضعف كان يعتريه ويلازمه في كثير من الأوقات، وهو لا يبرح عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام في ذات الله بكل ما تصل قدرته إليه.

ثم بدا له التوجّهُ إلى دمشق فسار إليها، بعد أن سأله السلطانُ في الإقامة بمصرَ غير مرة فلم يقبل؛ وتوجّه إلى دمشق وسكنها إلى أن مات بها. ولم يخلف بعده مثله، لأنه كان جمع بين العلم والعمل، مع الورع الزائد والزهد والعبادة والتحرّي في مأكله ومشربه من الشُّبهة وغيرها، وعدم قبوله العطاء من السلطان وغيره، وقوة قيامه في إزالة البِدَع. ومخاشنته لعظماء الدولة في الكلام، وعدم اكتراثه بالملوك واستجلاب خواطرهم؛ وهو مع ذلك لا يزداد إلّا مهابة وعظمة في نفوسهم، بحيث إن السلطان كان إذا دخل عليه لزيارته يصير في مجلسه كآحاد الأمراء، من حين يجلس عنده إلى أن يقوم عنه، والشيخُ علاءُ الدين يكلّمه في مصالح المسلمين ويعظه بكلام غير مُنَمَّق، خارج عن الحدّ في الكثرة، والسلطانُ سامع له مطيع. وكذلك لمّا سافر السلطان إلى آمِد، أولَ ما دخل إلى دمشق ركب إليه وزاره وسلّم عليه، فهذا شيء لم نره وقع لعالم من علماء عصرنا جملة كافية. وهو أحد مَن أدركْناه من العلماء الزهّاد والعبّاد، رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه وبركته.

وتوفي الشيخُ الإمام [العالم][1] العلّامة علاء الدين علي بن موسى بن إبراهيم الرومي الحنفي في قَدْمته الثانية إلى مصر، في يوم الأحد العشرين من شهر رمضان بالقاهرة. وكان وَلِيَ مشيخةَ المدرسة الأشرفية المستجدّة بخط العَنْبَرِيِّين بالقاهرة، ثم تركها وسافر إلى الروم، ثم قَدِمَ بعد سنين إلى مصر ثانياً وأقام بها إلى أن مات.

(١) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.

وكان بارعاً في علوم كثيرة محقّقاً بحاثاً إماماً في المعقول والمنقول. تخرَّج بالشيخين: الشريف الجُرْجَاني والسعد التفتازاني، إلى أن برع وتصدّى للإقراء والتدريس مدة طويلة. ووقع له أمور طويلة مع فقهاء الديار المصرية، وتعصّبوا عليه، وهو ينتصف عليهم وأبادهم، لأنه كان عارفاً بعلم الجدل: كان يُلزم أخصامه بأجوبة مُسكتة، ولهذا حطّ عليه بعض علماء عصرنا بأن قال: «كان يُفحش في اللفظ»، ولم ينسبه إلى جهل بل ذكر عنه العلم الوافر، والفضلُ ما شهدت به الأعداء؛ ولا أعلم فيه ما يُنقصه غير أنه كان مستخفّاً بعلماء مصر، لا ينظر أحداً منهم في درجة الكمال.

وكان مما يقطع به أخصامه في المباحث أنه كان حضر عدّة مباحث بين الجُرْجاني والتفتازاني وغيرهما من العلماء، وحفظ ما وقع بينهم من الأجوبة والأسئلة، وصار يسأل الناس بتلك الأسئلة والقومُ ليس فيهم مَن هو في تلك الطبقة، فكلٌّ مَن سأله سؤالاً من ذلك وقف وعجز عن الجواب المرضي وقصر، فيتقدّم عند ذلك الشيخُ علاءُ الدين ويذكر الجواب فيعجب كل أحد. وبالجملة فإنه كان عالماً مفنّناً، رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي ناصرُ الدين محمد بن بدر الدين حسن الفاقوسي الشافعي، أحد أعيان موقِّعي الدَّسْت بالديار المصرية، في ليلة الاثنين تاسع شوّال بالطاعون، عن بضع وسبعين سنة؛ وكان حشماً وقوراً، وله فضل وأفضال، وحدّث سنين، وسمع منه خلائق، وكان معدوداً من الرؤساء بالديار المصرية. وكان مولده بالقاهرة في ليلة الجمعة خامس عشرين صفر سنة ثلاث وستّين وسبعمائة. والفاقوسي نسبة إلى قرية بالشرقية من أعمال مصر تسمى منية الفاقوس.

وتوفي الأميرُ سيف الدين آقْبَرْدي بن عبد الله القَجْمَاسي نائب غزة بها. وكان أصلُه من مماليك الأمير قَجْمَاس والدِ إينال باي، ترقّى بعدَه إلى أن صار أميرَ عشرةٍ بمصر ودام على ذلك سنين كثيرة، إلى أن وَلِيَ نيابةَ غزة بالبذل بعد أن قُبض تِمْراز المؤيدي، فلم تطل مدّته ومات. وكان تركي الجنس غير مشكور السِّيرة.

وتوفي دُولات خُجَا الظاهري، والي القاهرة ثم محتسبها، بالطاعون في يوم السبت أول ذي القعدة. وكان أصلُه تركي الجنس من أوباش مماليك الظاهر برقوق،

أعرفه قبل أن يلي الوظـائف وهو من جملة حـرافيش المماليـك السلطانية. ثم ولّاه الملكُ الأشرف الكشفَ ببعض الأقاليم فأباد المفسدين وقويت حـرمتُه، فمن يـومئذ صار ينقله من وظيفة إلى أخرى، حتى وَلِيَ القاهرة مرتين وعدّة أقاليم، ثم ولّاه حِسبةَ القاهرة.

وقد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الأشرف. وفي الجملة أنه كان ظالماً فاجراً فاسقاً غشوماً شيخاً جاهلاً ظالماً خبيثاً، عليه من الله ما يستحقّـه. ولولا أنه شاع ذكرُه لكثرة ولاياته وأرّخـه جماعـة من أعيان المؤرّخين، مـا ذكرتُـه في هذا الكتاب ونزّهته عن ذكر مثله(١).

وتوفي الأميرُ ـ ثم القاضي ـ صلاحُ الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين حسن ابن نصـر الله الفُوِّيُّ الأصـل المصري، كـاتبُ السرّ الشـريف بالـديـار المصـريـة، بالطاعون في ليلة الأربعاء خامس ذي القعدة. ومولده في شهـر رمضان سنـة تسعين وسبعمائة، ونشأ بالقاهرة تحت كنَف والده الصاحب بدر الدين، وتزيّا بـزيّ الجند، ووَلي الحجوبية في دولة الملك الناصر فرج، ثم وَلِيَ الأستادّارية في الدولة المظفّرية ثم عُزل، ثم أُعيد إليها بعد سنين، ثم عُزل بأبيه، وصُودِرَ ولزم داره سنين طويلة هو ووالده، إلى أن ولّاه الملكُ الأشرف بعد سنة خمس وثلاثين حِسبَة القاهرة.

وأخذ صلاحُ الدين بعد ذلك يتقرّب بالتحف والهدايا للسلطان ولخواصّه، إلى أن اختصّ به ونادمه، وصار يبيت عنده في ليالي البطالة بالقلعة. وحجّ أميرَ الرّكْب الأول، وعـاد فولّاه كتـابةَ السـر على حين غفلة، بعـد عـزل القـاضي محبّ الـدين محمد بن الأشقر، من غيـر سعي، في يوم الخميس ثـاني عشرين ذي الحجـة سنة أربعين وثمانمائة. وتركَ زيَّ الجند ولبس زيَّ الفقهاء، وصـار يُدعى بـالقاضي بعـدَ الأمير، فباشر كتابةَ السر بحُرمة وافرة وعَظُم في الدولة، فلم تطل أيامه ومات في حياة والده، واستقرّ والدُه عوضَه في كتابة السر.

وكان صلاحُ الدين حشماً متواضعاً كريماً، يكتب المنسـوب، إلّا أنه كـان من

(١) راجع ص ٢٧٥ من هذا الجزء، والحاشية (٢) من نفس الصفحة.

الكَذَبة الذين يُضرب بكذبهم المثل. يحكى عنه من ذلك أشياء كثيرة، ورأيتُ أنا منه نوعاً، غير أن الذي حُكِيَ لي عنه أغرب. وقد جرّبتُ أنا كذِبَه بأنه لا يضرّ ولا ينفع، وهو أن غالبَ كذبهِ كان على نفسه، فيما وقع له قديماً وحديثاً، فهذا شيء لا يضر أحداً، ولعلّ الله أن يسامحه في ذلك.

وتوفي الشهابي أحمد بن [علي][1] ابن الأمير سيف الدين قَرَطاي بن عبد الله سِبْط بَكْتَمُر الساقي، بالطاعون في ليلة الاثنين عاشر ذي القعدة. ومولده في يوم الأحد ثالث عشرين شعبان سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة. ومات ولم يخلف بعده مثله في أبناء جنسه، لفضائل جُمعت فيه، من حُسْن كتابة ونظم القريض، وحلو محاضرة وجودة مذاكرة؛ وكان سميناً جدّاً لا يحمله إلّا الجياد من الخيل، رحمه الله [تعالى]. ومن شعره: [المجتث]

جِـبِّـي الـمُـعَـذِّرُ وَافَـى ... مـن بـعـد هَـجْـرٍ بِـوَصْـلِ
وقـال: صِـفْ لـي عِـذَارِي ... فـقـلتُ: يـا حِـبُّ نَـمْـلِي

وله أيضاً في مليح [يسمى خصيب][2]: [الطويل]

رعى اللّهُ أيـامَ الـرَّبيـع ورَوْضها ... بها الوردُ يزهو مثل خَدِّ حبيبي
وإنِّـي وحقِّ الـحُبِّ ليس تَـرَحُّلي ... سـوى لمكـانٍ ممـرعٍ وخَصِيبِ

وتوفي الأميرُ إسكندر بن قَرَا يوسف صاحبُ تِبْرِيز مشتتاً عن بلاده بقلعة أَلِنْجا[3]؛ ذَبحه ابنُه شاه قوماط في ذي القعدة خوفاً من شرّه؛ وملَك بعدَه البلادَ أخوه جهان شاه بن قَرَا يوسف. وكان شجاعاً [مقداماً][2] قوياً في الحروب، أباد قرايُلك في مدة عمره، وتقاتل مع شاه رُخ بن تيمورلَنْك غيرَ مرة، وهو ينهزم على أقبح وجه. وكان إسكندر أيضاً على قاعدة أولاد قرا يوسف: لا يتديّن، إلّا أنه كان أحسنَ حالاً من أخويه شاه محمد وأصبهان؛ وقد مرّ من ذكر إسكندر هذا وإخوته جملة كبيرة تعرف منها أحوالهم.

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.
(٢) زيادة عن مخطوط أيا صوفيا.
(٣) ألنجا: من أعمال تبريز.

وتوفي نورُ الدين علي بن مُفلح وكيلُ[1] بيت المال، وناظر[2] البيمارستان المنصوري في يوم الجمعة ثاني عشرين ذي القعدة، بالطاعون. وكان معدوداً من بياض الناس[3]، وله ترداد إلى الرؤساء، غير أنه كان عارياً من العلوم.

وتوفي الأميرُ الكبير سُودون بن عبد الرحمن، نائبُ الشام ثم أتابك العساكر بالديار المصرية، بطّالاً، بثغر دمياط، في يوم السبت العشرين من ذي الحجّة. لم يخلّف بعده مثله حشمةً ورئاسةً وعقلاً وتدبيراً وشكالة. وقد مرَّ من ذكره في واقعة الأمير قاني باي نائب الشام في الدولة المؤيَّدية أنه كان نائبَ طرابلس، ووافق قاني باي المذكور، وانهزم بعد قتل قاني باي إلى قرا يوسف بالشرق، وأنه كان وَلِيَ نيابة غزّة في الدولة الناصرية فرج، وتقدمةَ ألف بالقاهرة، وأنه قَدِمَ على الأمير طَطَر بعد موت المؤيَّد. واستقرَّ بعد سلطنة الملك الأشرف دواداراً كبيراً عوضاً عن الأشرف المذكور. ثم نُقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تَنِبَك البَجَاسي فدام مدّة يسيرة. ثم نُقل إلى أتابكيّة العساكر بالديار المصرية عوضاً عن جَارْقُطْلُو بحكم انتقال جَارْقُطْلُو إلى نيابة دمشق عِوضَه. ثم مرضَ وطال مرضُه إلى أن أخرج عنه السلطانُ إقطاعَه وعزله عن الأتابكيّة. ثم سيَّره بعد مدة أشهر إلى ثغر دمياط بطّالاً، فدام به إلى أن مات. وكان أجلَّ المماليك الظاهرية برقوق، وهو أحدُ مَنْ أدركناه من ضخماء الملوك وعظمائهم، مع حُسْن الشكالة والزيّ البهيج، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وخمسة عشر إصبعاً.

انتهى الجزء الرابع عشر

من النجوم الزاهرة

---

(١) وكيل بيت المال: راجع ص ٣٢١ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) نظر البيمارستان المنصوري: كان يتولى هذه الوظيفة عادة كبار الأمراء بالديار المصرية. والبيمارستان المنصوري أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين، وكان قبل ذلك دار ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي فغيّر معالمه وزاد عليه. (صبح الأعشى: ٣٨/٤).

(٣) راجع ص ٣٣٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

المصادر والمراجع
الجـــزء الرابـع عشـر

- أبو المحاسن، مؤرّخ مصر في العصر المملوكي، تأليف محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.
- الأرض والفلاح في مصر على مرّ العصور، جماعة من الباحثين، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٤.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.
- أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت ١٩٨٦.
- الألقاب الإسلامية، لحسن الباشا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.
- إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.
- البحرية في مصر الإسلامية، سعاد ماهر، القاهرة.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس، كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠.
- بلدان الخلافة الشرقية، تأليف لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بغداد ١٩٥٤.
- البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي، مكتبة صادر، بيروت ١٩٥٠.
- تاريخ جبل عامل، تأليف محمد جابر آل صفا، دار النهار، بيروت ١٩٨١.
- تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، تأليف أحمد السعيد سليمان، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.
- التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، تأليف محمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٨٤.
- تقويم البلدان، لأبي الفداء، باريس ١٨٤٠.
- حكايات الشطّار والعيّارين في التراث العربي، محمد رجب النجّار، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٥، الكويت ١٩٨١.
- الخطط التوفيقية الجديدة، علي باشامبارك، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٦.
- خطط جبل عامل، للسيد محسن الأمين العاملي، الدار العالمية، بيروت ١٩٨٣.

- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار)، للمقريزي، دار صادر، بيروت.
- دار الضرب المصرية (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية)، تأليف منصور بن بعرة الذهبي، تحقيق عبد الرحمن فهمي محمد، القاهرة.
- الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)، إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
- الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.
- الدولة المملوكية، تأليف أنطوان ضومط، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.
- زبدة كشف الممالك، لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩٤.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، (جـ ١ - ٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨؛ (جـ ٣ - ٤)، تحقيق سعيد عبد الفتّاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢.
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، طبعة المؤسسة العامّة، القاهرة ١٩٦٣؛ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ليحيىٰ بن الحسين، تحقيق محمد سعيد عاشور، القاهرة.
- فتوح مصر، لابن عبد الحكم، طبعة ليدن ١٩٢٠.
- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، تأليف محمد رمزي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٤.
- قوانين الدواوين، لابن مماتي، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، تأليف سعيد عبد الفتّاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢.
- محيط المحيط، لبطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧.
- مدن إسلامية في عهد المماليك، تأليف إيرا لابدوس، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧.
- مراصد الاطّلاع، للبغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.
- مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، تأليف إبراهيم علي الطرخان، القاهرة.
- معالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيث القرشي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تأليف المستشرق زامباور، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
- معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
- المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٩.
- الملابس المملوكية، تأليف ل.أ.ماير، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة.
- مملكة صفد في عهد المماليك، تأليف طه ثلجي الطراونة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٢.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة.
- الموسوعة العربية الميسّرة، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٥.
- النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، طبعة كاليفورنيا، للمستشرق وليم بوبر، وطبعة دار الكتب المصرية.
- نزهة النفوس والأبدان، للخطيب الجوهري، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠.
- نهاية الأرب، للنويري، دار الكتب المصرية ١٩٥٥.
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤.
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيزري، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩.
- نهر النيل في المكتبة العربية، تأليف محمد حمدي المنّاوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.
- Nouveau dictionnaire encyclopédique - Lausanne, Suisse, 1988.
- Dozy: Supplement aux Dictionnaires arabes. 2 vols. Leyden 1881.

فهرس الموضوعات
الجـــزء الـرابع عشـر

الموضوع	الصفحة
سلطنة المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	٣
سلطنة الظاهر ططر (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)...............	٣٥
سلطنة الصالح محمد بن ططر (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)......	٤٩
أخبار سنة ٨٢٤ هـ (حكم فيها أربعة سلاطين)	٧١
سلطنة الأشرف برسباي (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)............	٧٨
السنة الأولى من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٢٥ هـ...............	٢٩٠
السنة الثانية من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٢٦ هـ...............	٢٩٣
السنة الثالثة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٢٧ هـ...............	٢٩٦
السنة الرابعة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٢٨ هـ...............	٣٠٠
السنة الخامسة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٢٩ هـ...............	٣٠٥
السنة السادسة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٠ هـ...............	٣٠٩
السنة السابعة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣١ هـ...............	٣١٥
السنة الثامنة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٢ هـ...............	٣٢٠
السنة التاسعة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٣ هـ...............	٣٢٣
السنة العاشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٤ هـ...............	٣٣٤
السنة الحادية عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٥ هـ..........	٣٣٧
السنة الثانية عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٦ هـ..........	٣٤٠
السنة الثالثة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٧ هـ..........	٣٤٥
السنة الرابعة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٨ هـ..........	٣٥٢
السنة الخامسة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٣٩ هـ..........	٣٥٤
السنة السادسة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٤٠ هـ..........	٣٦٠
السنة السابعة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ٨٤١ هـ..........	٣٦٣